ويلبر سميث

RIVER GOD

من الكتب الأكثر مبيعًا في
قائمة **نيويورك تايمز**

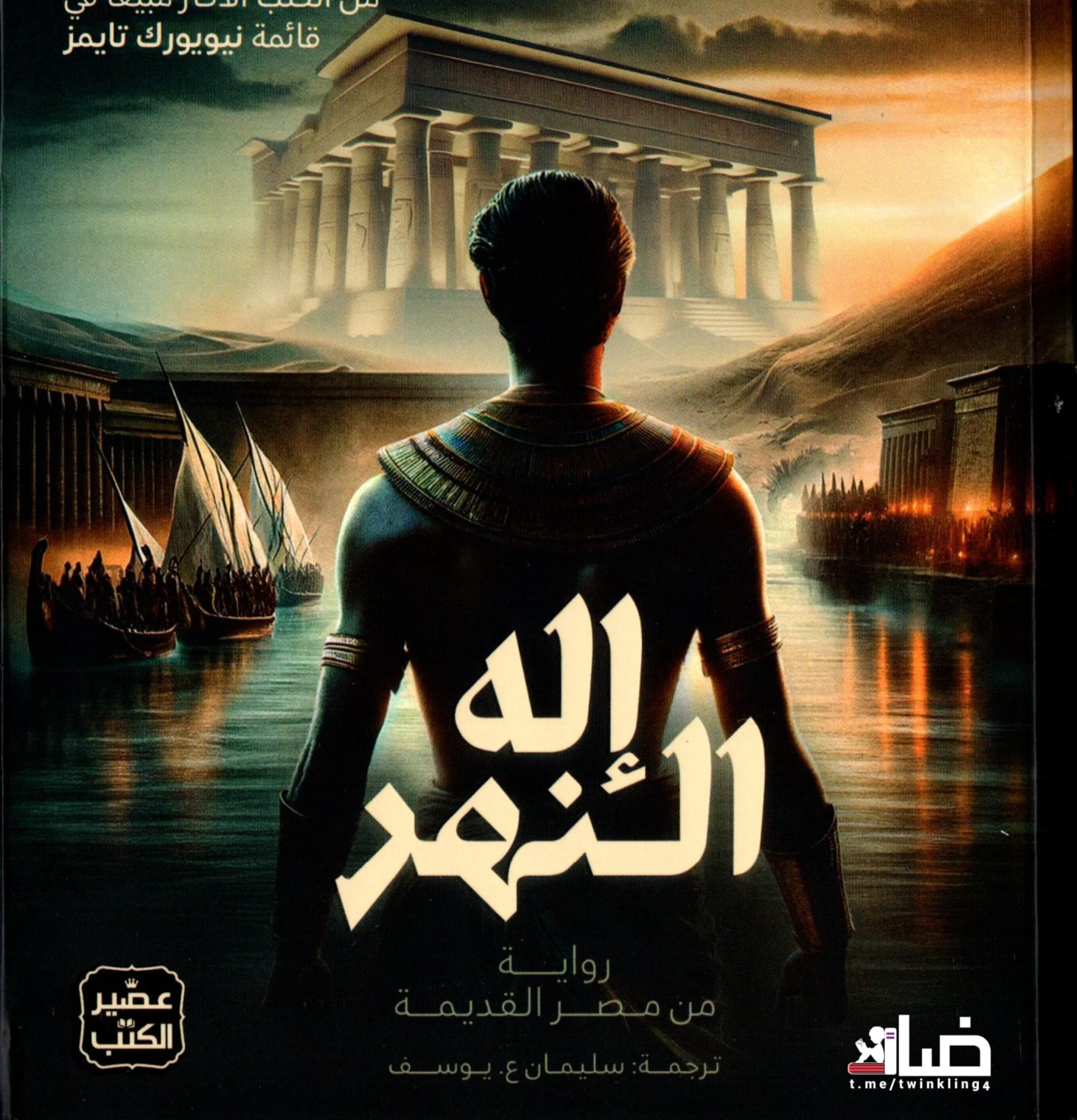

إله النهر

رواية
من مصر القديمة

عصير الكتب

ترجمة: سليمان ع. يوسف

ضياء
t.me/twinkling4

إله النهر

«وحشيـة الحيـاة فـي العصـور القديمة جليَّة في جميع جوانب حكاية تايتا، التي تـضم مكيـدة قاتلـة فـي كل ركـن مـن أركانها. مـن الواضـح أن سميث عليمٌ بمـوضـوع روايتــه، فتصـويـره الحيَّ للشهـوة وإراقـة الدمـاء والسياسة، وفـي حالـة تايتـا، الشرف، قائم على تفاصيـل متقنـة تبعث الحياة في تلك الفترة».

- Booklist

«عودة آسرة غنيَّة إلى زمـان امتزج فيه التاريخ بالأسطورة».

- San Francisco post

«هائلة وشجاعـة وناجحة نجاحًا باهرًا... وصـفٌ مفـصَّل ذكـيٌّ للحياة على نهر النيل».

- Mail on sunday

«ملحمـة... انضـم سميث إلى صفـوف أسـاتذة الـرواية العظـماء في القرن العشرين».

- تولسا وورلد

«حيَّة وساحرة... زاخـرة بالشغف والحرب والـخديـعة والانتقــام... تـفاصـيلها حميميـة وملهمة يحملك الكاتب على رؤيتها، وسماعها، وحتى شمِّها».

- Orlando Sentinel

«ملحمة أصيلة».

- The Times

إله الأنهر

II

عصير الكتب

إدارة التوزيع
00201150636428

لمراسلة الدار:
email:P.bookjuice@yahoo.com
Web-site: www.aseeralkotb.com

● الكتاب الثاني ●

● العنوان الأصلي: River God
● العنوان العربي: إله النهر
● طُبع بواسطة: Macmillan
● حُقوق النشر:
Copyright © Orion Mintaka (UK) Ltd
1993, 2018
Author image © Hendre Louw
● حقوق الترجمة: محفوظة لدار عصير الكتب

● ترجمة: سليمان ع. يوسف
● تدقيق لغوي: شيماء شحاتة
● تنسيق داخلي: معتز حسنين علي
● الطبعة الأولى: يناير / 2024م
● رقم الإيداع: 2023/26677م
● الترقيم الدولي: 978-977-992-348-2

الآراء الواردة في هذا الكتاب تُعبر عن وجهة نظر الكاتب
ولا تُعبر بالضرورة عن وجهة نظر الدار

جميع حقوق الطبع والنشر محفوظة © لدار «عصير الكتب»
يحظر طبع أو نشر أو تصوير أو تخزين أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة إلكترونية
أو ميكانيكية أو بالتصوير أو خلاف ذلك إلا بإذن كتابي من الناشر فقط.

ويلبر سميث

RIVER GOD

من الكتب الأكثر مبيعًا في
قائمة نيويورك تايمز

إله النهر

رواية
من مصر القديمة

ترجمة: سليمان ع. يوسف

عصير الكتب

هذا الكتاب إهداءٌ إلى زوجتي،

«موخينيسو»،

أجمل ما حدث لي على الإطلاق.

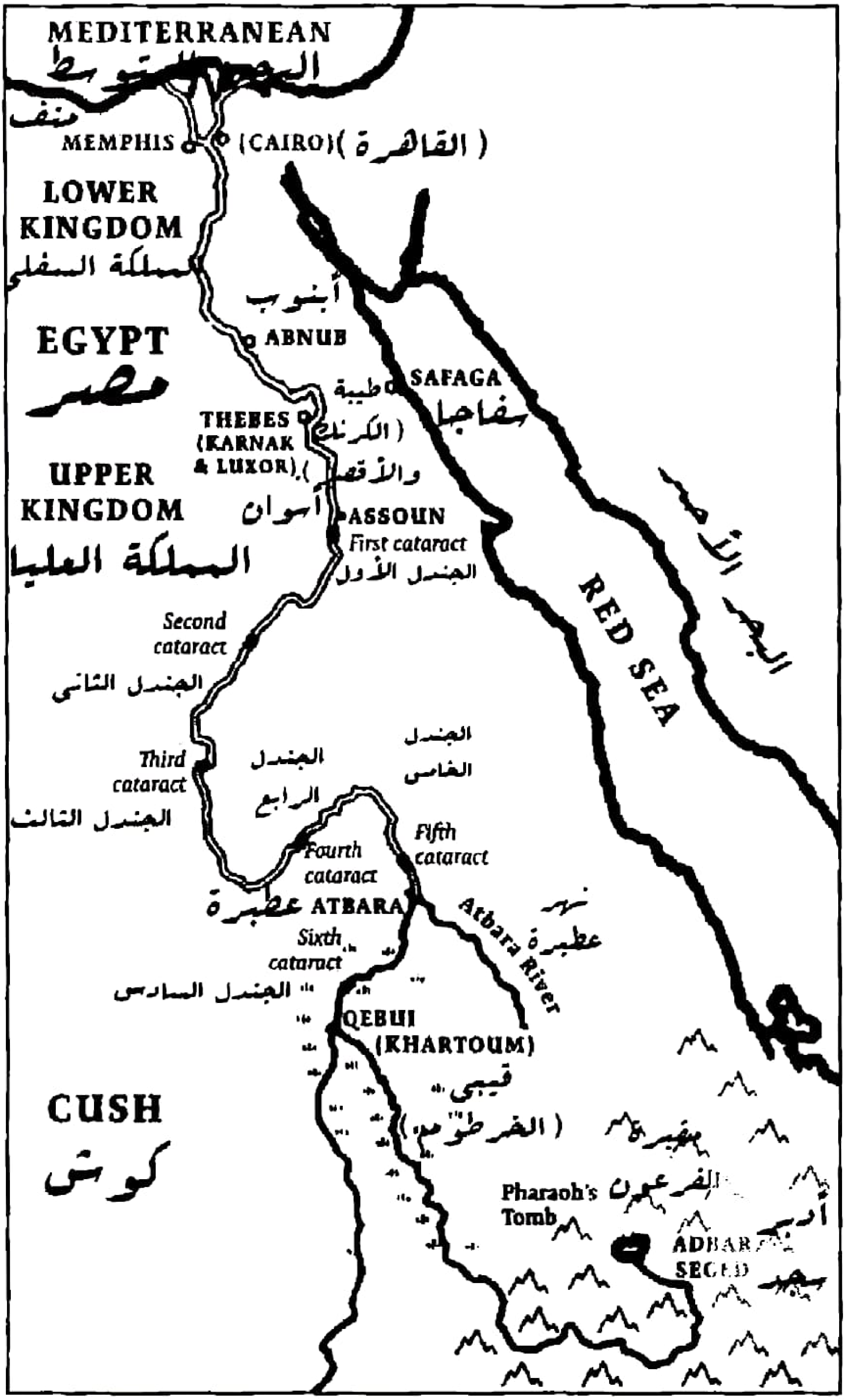
MEDITERRANEAN
البحر المتوسط
منف
MEMPHIS
(CAIRO) (القاهرة)
LOWER KINGDOM
المملكة السفلى
EGYPT
مصر
UPPER KINGDOM
المملكة العليا
أبنوب
ABNUB
طيبة
SAFAGA
سفاجا
THEBES (KARNAK & LUXOR)
(الكرنك والأقصر)
أسوان
ASSOUN
First cataract
الجندل الأول
Second cataract
الجندل الثاني
Third cataract
الجندل الثالث
الجندل الرابع
الجندل الخامس
Fourth cataract
Fifth cataract
عطبرة
ATBARA
Atbara River
نهر عطبرة
Sixth cataract
الجندل السادس
QEBUI (KHARTOUM)
قيبي (الخرطوم)
RED SEA
البحر الأحمر
CUSH
كوش
Pharaoh's Tomb

طيبة الحبيبة، **طيبة** الجميلة ذات البوابات المئة، كم اغتبطنا برؤيتها تلوح أمامنا، مُزيَّنةً على امتداد ضفة النهر الواسع بمعابدها وأسوارها البرَّاقة.

زاحت مولاتي تغني بحماسة كلما كشف مَعْلمٌ مألوف نفسه لنا، ثم عندما ولج الصندل الأميري الرصيف أسفل قصر الوزير الأعظم، غادرتْ كلينا سعادةُ العودة إلى الديار، وحل علينا الصمت. ثم بحثت السيدة **لوستريس** عن يدي كبنت صغيرة مذعورة من قصص العفاريت عندما رأينا أباها.

وقف السيد **إنتف** وابناه، **مينسيت وسوبيك**، ذينك البطلين معدومي الأباهيم، في مقدمة حشد النبلاء وآباء مدينة **طيبة** الغفير المنتظر على الرصيف لاستقبال الملك. كان وسيمًا وأنيقًا بقدر ما تخيلتُه في كوابيسي، وشعرتُ بمعنوياتي تخونني.

همست لي السيدة **لوستريس**: «عليك أن تظل متيقظًا الآن. سيحاولون إبعادك عن طريقهم. تذكر الصلّ».

وقف **راسفر** وراء الوزير الأعظم بمسافة غير بعيدة، وبدا واضحًا أنه تلقى في غيابنا ترقية رفيعة، فقد بات يرتدي غطاء رأس **قائد عشرة آلاف** ويحمل سوط الرتبة الذهبي. لكن لا تحسُّن في عضلاته الوجهية، إذ ظل أحد جانبي وجهه متدليًا بقباحة واللعاب يقطر من طرف فمه. تعرَّفني في تلك اللحظة، وابتسم لي بنصف وجهه عبر شريط الماء الرقيق، ثم رفع سوطه الذهبي في تحية ساخرة.

غمغمتُ: «أعدك يا سيدتي أن تظل يدي على خنجري، وألا آكل شيئًا سوى الفاكهة التي أقشرها بيديَّ ما دمتُ أنا **وراسفر** في **طيبة** معًا»، وابتسمتُ له رادًّا تحيته بتلويحة مرحة.

أصرَّتْ مولاتي: «لن تقبل أي هدايا غريبة، وستنام أسفل سريري، حيث يمكنني حمايتك في الليل. وفي النهار ستظل بجواري، ولن تتجول بمفردك».

فطمأنتُها: «لن يكون ذلك مضجرًا لي»، وبَرَرتُ بوعدي في الأيام التالية فظللت تحت حمايتها المباشرة، ذلك أنني كنت واثقًا بأن السيد **إنتف** لن يجازف بخسارة ارتباطه بالعرش من خلال تعريض ابنته للخطر.

بطبيعة الحال، كنا في معظم الوقت بصحبة الوزير الأعظم، فمن واجباته مرافقة الملك عبر جميع مراسم المهرجان، وفي خلال هذا الوقت، أدى السيد **إنتف** دور الأب المحبِّ والمتفهِّم للسيدة **لوستريس**، فعاملها بكل التوقير والاعتبار اللذين تستحقهما زوجة ملكيَّة، وأرسل إليها في كل صباح هدايا من الذهب والجواهر ومنحوتات صغيرة نادرة للجعران الفرعوني والآلهة المصغرة من العاج والأخشاب الثمينة. وعلى الرغم من أوامر مولاتي، لم أُرجع تلك الهدايا، ذلك أنني لم أُرِد تنبيه العدو، وأيضًا، كانت هدايا قيِّمَة، فبعتها سرًّا واستثمرت عائداتها في مخازن الذرة المحفوظة لأجلنا في صوامع التجار الموثوقين في المدينة، وكانوا أصدقائي.

بالنظر إلى الحصاد المتوقع، كان سعر الذرة في أدنى حد له منذ عشر سنوات، وليس أمامه إلا اتجاه واحد يسلكه هو الارتفاع، وإن كنا قد ننتظر فترة لنحصد أرباحنا. أعطاني التجار إيصالات باسم مولاتي أودعتها في سجلات دور القضاء. لم أحتفظ إلا بخُمسٍ لنفسي، ورأيتها عمولةً معتدلة جدًّا.

كنت أشعر ببعض المتعة الدفينة كلما قبضتُ على السيد **إنتف** يراقبني بعينيه النمريَّتين الشاحبتين. قطعت تلك النظرة شكي بأن مشاعره تجاهي لم تخفَّ، وتذكرتُ صبره ومثابرته عندما يتعامل مع عدو. بينما يراقبني كان ينتظر في مركز شبكته كعنكبوت جميل تتلألأ عيناه. تذكرتُ إبريق الحليب المسموم والصل، وخفتُ على الرغم من جميع احتياطاتي.

في هذه الأثناء، بدأ المهرجان بكل مراسمه وتقاليده، كما جرى الأمر طيلة قرون ماضية. لكن في هذا الموسم، لم يصِد زُرق **تانوس** أبقار النهر في بحيرة **حابي**، بل سرب آخر، بينما مثلت مجموعة أخرى من الممثلين الآلام في معبد **أوزيريس**. ولأن مرسوم الفرعون اعتُمد وكانت نسخة المسرحية نسختي، ظلت الكلمات قوية ومؤثرة بالقدر نفسه، إلا أن **إيزيس** الجديدة هذه لم تكن بالحُسن الذي صوَّرته مولاتي، ولا كان **حورس** نبيلًا وفاتنًا كالسيد **تانوس**. وفي الناحية الأخرى، كان **سِت** جذابًا ومحبوبًا مقارنة بالطريقة التي أدى **راسفر** فيها دوره.

في اليوم التالي للآلام، عبر الفرعون النهر ليتفحص معبده. وفي هذه المناسبة، أبقاني في متناول يده طيلة النهار. استشارني علنًا في مناسبات كثيرة في جوانب الأعمال الجارية، وبالطبع، كنت أرتدي سلسلتي الذهبية متى ما شعرتُ أن ارتداءها ملائم. لم يغِب شيء من هذا عن انتباه السيد **إنتف**، ورأيته يتفكّر في الحظوة التي منحني إياها الملك، وأملتُ أن يؤدي ذلك دورًا إضافيًا في حمايتي من انتقام الوزير الأعظم.

منذ غادرت **طيبة**، عُين مهندس معماري آخر مسؤولًا عن مشروع المعبد، وربما كان من غير المنصف أن يتوقع الفرعون من هذا التعِس أن يسير على المعايير الرفيعة التي وضعتُها، أو أن يُسيِّر الأعمال بالوتيرة نفسها.

غمغم الفرعون: «بحق أم **حورس** المباركة، أتمنى لو أنك ما زلت المسؤول هنا يا **تايتا**. لو تقبل مولاتك بمفارقتك، لاشتريتك منها وأبقيتك هنا في مدينة الموتى بصورة دائمة لتشرف على العمل. يبدو أن التكاليف تضاعفت منذ تسلَّم هذا الأحمق العمل منك».

وافقتُه قائلًا: «إنه شاب ساذج. سيسرق البناؤون والمقاولون خصيتيه ولن يلاحظ اختفاءهما».

فعبس الملك: «بل إنهم يسرقون خصيتي. أريدك أن تراجع فاتورة الكميات معه وتريه أين يسرقوننا».

شعرتُ بالإطراء بالطبع إزاء تقديره، ولم يكن ثمة أي ضغينة في إشارتي إلى زلّات الذوق التي اقترفها هذا المعماري الجديد عندما أعاد تصميم قوصرة واجهة معبدي، أو الحرفية الرديئة التي تمكن أولئك الأوغاد في نقابة البنائين من إغفاله عنها. تخلل القوصرة الأسلوب السوري البالي الذي كان آخر الصيحات في المملكة السفلى، حيث تخرِّب الأذواق السوقية للمدَّعي الأحمر وضيع النسب التقاليد الكلاسيكية للفن المصري.

أما عن إجادة العمل، فقد أريتُ الملك كيف بالإمكان تمرير جذاذة برديٍّ بين مفاصل الكتل الحجرية التي بُني منها الجدار الجانبي للمعبد الدفنيّ، فأمر بهدم كل من القوصرة وجدار المعبد، وغرَّم نقابة البنائين بخمسمئة دبن ذهبي تُدفع للخزائن الملكية.

قضى الفرعون بقية ذلك اليوم واليوم التالي كله في تفقُّد كنوز خزائن المعبد الجنائزي، فعلى الأقل، لا يوجد فيها الكثير مما يمكنه التذمُّر بشأنه. لم

تُجمع، في تاريخ العالم، ثروة كهذه في مكان وزمان واحد، وحتى أنا، مُحب الأشياء الراقية، سُرعان ما أُتْخِمت من كثرته، وآلمتني عيناي من بريق الذهب.

أصر الملك أن تظل السيدة **لوستريس** بجواره طيلة الوقت. أظن أن افتتانه بها كان يستحيل حبًا حقيقيًا ببطء، أو صورة مطابقة له بقدر إمكانه، ومن عاقبة تعلقه بها أن مولاتي، عندما رجعنا عبر النهر إلى **طيبة**، كانت منهكة، وخشيت على الطفل الذي تحمله. كان الوقت مبكرًا على شرح حالها للملك واقتراح أن يراعيها أكثر، إذ لم يمر إلا أقل من أسبوع على عودتها إلى سريره، وقد يثير تشخيص الحمل في هذا الوقت الشبهات حتى لو كان عن طريقي. في نظره، لا تزال شابة صحيحة ونشيطة، وعاملها على هذا الأساس.

انتهى المهرجان، مثلما انتهى في قرون مضت، باجتماع الناس في معبد **أوزيريس** ليسمعوا بيان العرش.

كان الفرعون جالسًا في عرشه الطويل على المنبر الحجري المرفوع أمام مقدس **أوزيريس** حتى يراه الحشد كله بوضوح، معتمرًا التاج المزدوج وحاملًا عصا الراعي والمذبة.

أُجري هذه المرة تعديل على المُخطط المعتاد للمعبد، ذلك أنني قدمتُ للملك اقتراحًا، وكان مِفضالًا بالحد الكافي ليعتمده، فأمر بنصب سقالة خشبية أمام كل من الجدران الثلاثة للمعبد الداخلي، وارتفعت هذه السقالة في طبقات حتى منتصف الجدران الحجرية الهائلة، فقدمت مجالس للآلاف من أعيان طيبة حظوا منها برؤية ممتازة وغير منقطعة للإجراءات. اقترحت أن تُزين هذه المنصّات برايات ملونة وسعف نخيل لستر قُبحها، إذ كانت أول مرة يُشيَّد فيها هذا الصنف من البُنى في بلادنا، لكنها بعد ذلك صارت أمرًا شائعًا، وصارت تُبنى في أكثر الوظائف عمومية، على امتداد طرقات الطوابير الملكية وحول ميادين الألعاب الرياضية. ما زالت تُعرَف حتى هذا اليوم باسم منصّات **تايتا**.

قام تنافس شديد للحصول على مقاعد فوق هذه المنصات، لكن بوصفي مصممها، تمكنتُ من الحصول على أفضلها لي ولمولاتي، فجلسنا قبالة العرش مباشرة وأعلى من رأس الملك بقليل، لذا تمتعنا برؤية ممتاز للفناء الداخلي بكامله. وكنتُ قد جئت بوسادة جلدية محشوة بصوف الحمل لمولاتي **لوستريس**، وسلة من الفاكهة والكعك رفقة أباريق من الشراب والجعة نقتات بها في أثناء الحفل مفرط الطول.

اجتمع من حولنا أنبل نبلاء البلاد، سادة وسيدات باهرجون بآخر صيحات الموضة، وجنرالات وأميرالات يحملون سياطهم الذهبية ويتباهون مفتخرين بتشريفات أفواجهم وألويتها، ورؤساء النقابات والتجار الأثرياء، والكهنة وسفراء الدول التابعة للإمبراطورية، كلهم كانوا هنا.

أمام الملك، امتدت ساحات المعبد تنفتح إحداها على الأخرى كصناديق في لعبة أطفال، لكنَّ تصميم الجدران الحجرية الضخمة جعل البوابات متراصفةً تراصفًا ممتازًا، فكان بوسع المتعبِّد الواقف في طريق **الكباش** أمام أعمدة البوابة الرئيسة أن ينظر عبر البوابات الداخلية ويرى الملك بوضوح على عرشه العالي البعيد نحو أربعمئة خطوة.

كانت جميع ساحات المعبد **تعج** بجموع عوام الناس، وفاضت الزيادة إلى الطريق المقدس والحدائق وراء جدرانه. ورغم أنني عشتُ طيلة حياتي تقريبًا في **طيبة**، لم أرَ تجمعًا كهذا قط. لم يكُن إحصاء عددهم ممكنًا، لكنني قدَّرته بمئتي ألف، وذاعت منهم جلبة أشعرتني أنني مجرد نحلة في خلية طنانة فسيحة.

اجتمعت حول العرش مجموعة صغيرة من علية القوم، رؤوسهم على مستوى أقدام الفرعون، وبالطبع، كان كاهن **أوزيريس** الأعلى بينهم. في خلال العام الماضي، غادر رئيس المعبد القديم عالمنا الفاني هذا وانطلق في رحلته عبر العالم السفلي إلى الحقول الغربية للفردوس الأبديِّ، وهذا الرئيس الجديد رجل أصغر وأصلب. عرفتُ أن التلاعب به لن يكون سهلًا على السيد **إنتف**، وفي الواقع، بينما أشرف على نصب منصات **تايتا** تعاون معي في بعض الترتيبات غير العادية لاحتفال اليوم التي أعددتها.

لكن كان الوزير الأعظم أكثر الشخصيات إثارة للإعجاب في المجموعة، منافسًا الفرعون نفسه، فقد شدَّ السيد **إنتف** جميع الأعين، إذ كان طويلًا مهيب المشية، ووسيمًا وسامة خرافية، وبدا بسلاسل **ذهب الثناء** الثقيلة المستلقية على صدره وكتفيه كشخصية من أسطورة مُجمَّع الآلهة. وعلى مسافة قريبة خلفه، لاح شكل **راسفر** الشنيع.

افتتح السيد **إنتف** الحفل بالطريقة التقليدية، فخطا إلى الفسحة أمام العرش وبدأ خطاب الترحيب بالملك إلى مدينتي **طيبة** التوءمتين. وبينما يتكلم، رحتُ أنظر جانبيًا إلى مولاتي، ورغم أنني أشاركها تقززها، صدمني تعبير الغضب والكراهية الذي لم تحاول إخفاءه، والذي وجَّهته مباشرة إلى

أبيها. أردتُ تنبيهها أن تجعله أقل وضوحًا للمحيطين بها، لكنني عرفت أنني بفعلي ذلك، قد لا أفعل شيئًا إلا جذب المزيد من الانتباه لضغينتها المتأججة.

تكلم الوزير الأعظم باستفاضة، وراح يحصي الخدمات الملكية التي أسداها للفرعون في السنة الماضية، فأخذ الحشد يغمغم ويهسهس سأمًا وانزعاجًا، إذ كانت الحرارة ترتفع من أجساد كثيرة جدًّا، وانحصرت أشعة الشمس الساقطة على الساحات المكتظة بين جدران المعبد، ورأيت أكثر من امرأة يُغمى عليها وتنهار في الاحتشاد.

عندما أنهى السيد **إنتف** كلامه أخيرًا، أخذ الكاهن الأعلى مكانه، وبينما أبلغ الملك كانت تسير الشمس إلى الظهيرة من فوق رؤوسنا بالشؤون الإكليركية **لطيبة**. ازدادت الحرارة والنتانة في أثناء كلامه، إذ لم يعد بمقدور العطور والزيوت العطرية ستر روائح الأجساد الحرَّانة الوسخة والعرق المنصبّ، ولا يمكن التسلل من الحشد للاعتناء بالوظائف الجسدية المستعجلة، فراح الرجال والنساء يقرفصون حيث يقفون وحسب. بدأت تفوح من المعبد رائحة زريبة خنازير أو مرحاض عمومي، وناولتُ مولاتي منديلًا حريريًّا منقوعًا بالعطر أخذت تربِّت أنفها به.

سُمِعَتْ تنهيدة ارتياح عندما أنهى الكاهن الأعلى خطابه أخيرًا بمباركة الملك باسم الإله **أوزيريس**، وتراجع إلى مكانه وراء الوزير الأعظم منحنيًا انحناءة شديدة. ولأول مرة منذ بدأ الناس يحتشدون من قبل فجر ذلك الصباح، حل سكون تام عليهم. نسوا الملل والانزعاج، ومطوا أعناقهم بتشوُّق منتظرين سماع الفرعون.

نهض الملك واقفًا، وعجبتُ من قدرة تحمل هذا العجوز، فقد جلس طيلة هذا الوقت جامدًا كتمثال. ثم بسط يديه مانحًا البركة، وفي تلك اللحظة، تحطَّمت الكأس المقدسة للعادات والتقاليد على يد حدث نشر الذعر على الحشد كله، كهنة ونبلاء وعوامًا. وكنتُ واحدًا من قلة في الحشد لم يفاجئها ما حدث تاليًا، ذلك أنني أديتُ أكثر من دوري في ترتيبه.

تأرجحت أبواب المقدس النحاسية البرَّاقة العظيمة منفتحة، وبدا أن الحركة لم تدفعها قوة بشرية، بل كأنما انفتحت بمشيئتها الخاصة.

عَلت شهقة بعد ذلك، تلتها زفرة مرَّت كالريحِ في أرجاء ساحات المعبد، وهسهست الصفوف المتراصَّة كأنها أوراق شجرة تمر هندي. ثم صرخت امرأة فجأة، وهزَّتهم جميعًا على الفور أنَّه رعبٍ خرافي، فسقط بعضهم على

ركبتيه، وبعضهم رفع يديه من فوق رأسه ذعرًا، وغيرهم غطى وجهه بشاله حتى لا يعمي بصره النظر إلى مناظر ليست مخصصة للأعين الفانية.

فقد خرج إلهٌ موسعًا خطاه من أبواب المقدس، إله طويل مروِّع بعباءة تلتفُّ حوله على حين يتحرك. كانت خوذته متوَّجة بريشة ابن ماء، وملامحه متنافرة ومعدنيَّة، نصف عُقاب ونصف رجل، وله أنف معقوف وشقان داكنان مكان العينين.

صرخت امرأة: «آخ- حورس!»، وانهارت مغمى عليها فوق البلاطات الحجرية.

ثم ذاعت الصيحة: «آخ- حورس! إنه الإله!»، وأخذوا، صفًّا وراء صف، يركعون على ركبهم في وضعية التبجيل. ركع الجالسون على الطبقات العليا من المنصات، ورسم العديد منهم إشارة درء البلاء، وحتى مجموعة النبلاء المحيطة بالعرش ركعت. لم يبق واقفًا في كل المعبد إلا شخصان: الفرعون متخذًا وقفته على درجات عرشه كتمثال مطليٍّ، ووزير طيبة الأعظم منتصبًا شامخًا ومتغطرسًا.

توقف آخ- حورس أمام الملك، ونظر إليه من خلال شقي العينين في القناع البرونزي، وحتى آنذاك لم يرمش الفرعون. كان خداه مطليين بالأبيض، لذا لم أعرف أكان وجهه قد شحب أم لا، لكنني رأيتُ التماعةً في عينيه يُمكن أن تكون إما دينية وإما التماعة نشوة أو ذعر.

تصدى له الفرعون: «من أنت؟ شبحٌ أم رجل؟ ولِمَ تعكِّر أعمالنا الجليلة؟». كان صوته قويًّا ونقيًّا، ولم أرصد أي ارتعاش فيه، وازداد إعجابي به. لعله ضعيف وسانج وسائر في الشيخوخة، لكنه رغم ذلك على قدر كبير من الشجاعة، ويمكنه مجابهة أي بشري أو إله والثبات في موقفه كالمحاربين.

أجابه آخ- حورس بصوت قاد أفواجًا في وغى المعارك المستميتة، صوت تردد صداه بين الأعمدة الحجرية: «أيها الفرعون العظيم، إنني رجلٌ لا شبحًا، وإنني رجلُك، أقف بين يديك استجابةً لأمرك. أقف بين يديك لأبلغك بتقرير المهمة التي أوكلتني بها في هذا المكان في عيد أوزيريس قبل عامين».

ثم رفع الخوذة عن رأسه، وسقطت الضفائر الناريَّة منها، فتعرفه الحشد من فوره، وتصاعدت صيحة هزَّت أساسات المعبد.

- السيد تانوس! تانوس! تانوس!

بدا لي أن صراخ سيدتي كان الأعلى بينهم كلهم، وأصمَّني تمامًا، أنا الجالس قريبًا جدًّا من خلفها.

«**تانوس**! **آخ- حورس**! **آخ- حورس**!» اختلط الاسمان وتحطما على جدران المعبد كموجة رمتها العاصفة.

- لقد قام من قبره! لقد صار إلهًا بيننا.

لم يهدؤوا حتى استلَّ **تانوس** سيفه من غمده فجأة، ورفعه عاليًا معطيًا أمرًا واضحًا بالسكوت. فأطاعوه، وفي الصمت نطق من جديد.

- يا عظيم مصر، أتأذن لي في الكلام؟

أظن أن الملك بحلول هذا الوقت لم يعُد قادرًا على الاعتماد على قدراته الخطابية، ذلك أنه أشار بعصى الراعي والمذبة، ثم بدا أن ساقيه انهارتا من تحته وتراجع إلى عرشه.

خاطبه **تانوس** بنغمات رنانة سُمعت في الساحة الخارجية قائلًا: «قبل سنتين، كلفتني بالقضاء على أوكار القتلة واللصوص الخبيثة التي كانت تهدد حياة الدولة، وعهدت إليَّ بختم الباز الملكي».

وأخرج من تحت عباءته التميثيل الأزرق فوضعه على درجات العرش، ثم تراجع وتكلم من جديد.

- ولأنفذ أوامر الملك تنفيذًا أفضل، زيفتُ موتي وأغلقتُ قبري على مومياء شخص غريب.

صرخ صوت واحد: «*باك- هير*!». وتلقفوا الصيحة حتى أمر **تانوس** بالصمت من جديد.

- قدتُ ألف شجاع من الزرق إلى الصحاري والبراري، وطاردتُ الصردان في معاقلهم السرية، وهناك ذبحنا مئاتهم وكوَّمنا رؤوسهم المقطوعة على جوانب الطريق.

صرخوا: «*باك- هير*! هذا صحيح. لقد فعل **آخ- حورس** كل هذي الأمور»، وأسكَتَهم **تانوس** مرة أخرى.

- كسرت شوكة رؤسائهم، وذبحتُ أتباعهم من دون رحمة. وفي مصرنا هذه كلها، لم يبقَ إلا شخص واحد يمكنه أن يسمي نفسه صُرَدًا.

حل الصمتُ عليهم أخيرًا، وصاروا يبتلعون كل كلمة يقولها مأخوذين ومُركِّزين، وحتى الفرعون لم يستطعْ لجم نفاد صبره: «تكلم أيها السيد **تانوس**، يا من بات الناس يعرفونه باسم **آخ- حورس**. سمِّ هذا الرجل. أعطني اسمه حتى يعرف غضبة الفرعون».

قال **تانوس** هادرًا: «إنه يختبئ خلف اسم **آخ- سِت**، وأعماله الشائنة من رتبة أعمال أخيه، الإله الأسود».

أمره الفرعون بعد أن وقف من جديد في هياجه: «أعطني اسمه الحقيقي. سمِّ آخر الصردان!».

أطال **تانوس** اللحظة، ونقَّل نظره في المعبد ببطء وترَوٍّ، ولما التقت أعيننا، أومأتُ إيماءة خفيفة لم يرها سواه، لكنَّ نظرته عبرتني من دون أي توقفٍ واتجهتْ إلى أبواب المقدس المفتوحة.

كان انتباه الحشد متركزًا على **تانوس** إلى درجة أنهم لم يروا في البداية صف الرجال المسلحين الذين خرجوا بسلاسة وصمت من المقدس. ورغم أنهم يرتدون الدروع الكاملة ويحملون تروسهم الحربية، تعرفتُ معظمهم من تحت خوذهم. كانوا **رِمرِم وأستيس** وخمسين محاربًا آخر من الزرق. وبسرعة، تشكلوا من حول العرش كالحرس الشخصي الملكي، ومن دون أن يجعلا ما يفعلانه جليًّا، تحرك **رِمرِم وأستيس** إلى وراء السيد **إنتف**. وحالما صاروا في أماكنهم، تكلم **تانوس** ثانيةً: «سأسمِّي لك **آخ- سِت** هذا أيها الفرعون الإلهي. إنه يقف بلا حياء في ظل عرشك (وأشار **تانوس** بسيفه)، ها هو ذا، يرتدي **ذهب الثناء** حول حلقه الخائن. ها هو يقف هناك، رفيق الفرعون الوحيد الذي حوّل مملكتك إلى ملعب للقتلة وقطاع الطرق. ها هو **آخ- سِت**، حاكم كورة **طيبة**، الوزير الأعظم للملكة العليا».

ساد صمتٌ مُريع في المعبد. لا بدَّ أن في الحشد عشرة آلاف أو أكثر ممن عانوا معاناةً فادحةً على يدي السيد **إنتف**، ولديهم ما يكفي من الأسباب ليكرهوه، لكن لم ينطق صوتٌ بابتهاج أو نصر ضده، فالجميع يعرف هول نقمته، وموثوقية سمعته. كان بمقدوري شمُّ زَخَمة خوفهم في الجو، كثيفة كثافة دخان البخور، إذ إن جميعهم يعي أن حتى سمعة **تانوس** وفعاله الجبارة ليست كافية لينتصر هذا الاتهام غير المثبت أمام شخص كالسيد **إنتف**، وأن إظهار الغبطة أو الموافقة العلنية في هذه المرحلة حماقة قاتلة.

وفي ذلك الصمت، ضحك السيد **إنتف** ضحكة ازدراء تامٍ، ثم أدار ظهره **لتانوس** باستخفاف وخاطب الملك مباشرة: «لقد أحرقت شمس الصحراء دماغه، وجُنّ الفتى البائس. لم يحمل هَذيُه كلمةَ حقيقةٍ واحدةٍ. يجدر بي الغضب، لكنني بدلًا من ذلك حزين على انحدار محارب ذائع الصيت إلى هذا الدنوّ (ومدَّ كلتا يديه إلى الفرعون، في إشارة تعظيم وإخلاص)، لقد خدمتُ الفرعون وشعبي طيلة حياتي، وشرفي منيع حتى إنني لا أرى داعيًا للدفاع عن نفسي أمام هذا التشدُّق الجنوني. من دون خوف، أضع ثقتي في حكمة وعدالة الملك الإلهي، وأترك أفعالي وحبي للفرعون يتكلمان بدلًا من لساني».

رأيتُ الحيرة والارتباك على وجه الفرعون المطليّ، ثم ارتعشت شفتاه وتغضَّنت جبهته، ذلك أنه لم يتمتع بنعمة البديهة السريعة والبصيرة الثاقبة. وبعد لحظة، فتح فمه ليتكلم، لكن قبل أن يتمكن من التلفظ بأي حكم حاسمٍ لا يمكن الرجعة عنه، رفع **تانوس** سيفه ثانية وأشار إلى أبواب المقدس المفتوحة وراء العرش.

خرج من الأبواب طابور آخر من رجال غريبين إلى درجة أن الفرعون حدَّق إليهم وفمه لا يزال مفتوحًا. قادهم **كراتاس**، رافعًا قناع وجهه وسيفه بيمينه، أما هم فكانوا لا يلبسون إلا وزراتهم، ورؤوسهم حاسرة وأقدامهم حافية وأذرعهم موثَّقة وراء ظهورهم، ومشوا يجرجرون أقدامهم كعبيد في طريقهم إلى المزاد العلني.

كنتُ أراقب السيد **إنتف**، ورأيتُ الصدمة تنقض عليه وتجبره على الإجفال، كأنه تلقى لطمة على وجهه، فقد تعرَّف الأسرى، لكن بدا واضحًا أنه حسبهم موتى منذ زمن بعيد وجماجمهم تبتسم على جانب الطريق. ألقى نظرة جانبية إلى باب غرفة المقدسات الصغير في الجدار المخفي تقريبًا برايات الكتان المعلَّقة، مهربه الوحيد من الساحة الداخلية المكتظة، لكن **رِمرِم** تحرك خطوة واحدة إلى يمينه وقطع طريقه إلى المدخل، فعاد بنظره إلى العرش ورفع ذقنه في إشارة ثقةٍ وتحدٍّ.

اصطف الأسرى الموثَّقون الستة أمام العرش، ثم سقطوا على ركبهم بأمر صامتٍ من **كراتاس** وأحنوا رؤوسهم.

سأله الفرعون: «من هذه المخلوقات؟»، فوقف **تانوس** من فوق أوَّلهم، وقبض على معصميه الموثقين منهضًا إياه. كان جلد الأسير مرصَّعًا بالندوب

القديمة المندملة التي خلّفها الجدري، وعينه العمياء تعكس الضوء كعملة فضية.

قال **تانوس** بهدوء: «الفرعون الإلهي يسألك عن هويتك، فأجب سؤاله».

فقال: «أنا **شوفتي** يا عظيم مصر، كنتُ أحد زعماء الصردان قبل أن يبدِّد **آخ- حورس** قبيلتي ويذبحها في مدينة **جلالة**».

قال **تانوس** بإلحاح: «أخبر الملك بهوية سيدك الأعلى».

أجاب شوفتي: «كان **آخ- سِت** سيدي الأعلى. بايعتُ **آخ- سِت** بالدم، ودفعتُ له أجرًا قيمته الربع من غنائمي كلها. وبالمقابل، منحني الحصانة من قوى القانون، وزوّدني بالمعلومات عن ضحاياي المطلوبين».

أمره **تانوس**: «دلَّ الملك على الرجل الذي تعرفه باسم **آخ- سِت**».

فجرجر **شوفتي** قدميه قدُمًا حتى واجه السيد **إنتف**، ثم ملأ فمه بالبصاق وبصقه على زي الوزير الأعظم البديع وصاح: «هذا هو **آخ- سِت**، وعسى أن يأكل الدود أحشاءه!».

جرّ **كراتاس شوفتي** جانبًا، ورفع **تانوس** الأسير التالي فأمره: «أخبر الملك بهويتك».

- أنا **أخيكو**، كنتُ أحد زعماء الصردان، لكن جميع رجالي قُتلوا.
- من كان سيدك الأعلى؟ لمن كنت تدفع الأجر؟
- كان السيد **إنتف** سيدي الأعلى، وكنتُ أدفع الأجر لخزائن الوزير الأعظم.

وقف السيد **إنتف** أشمَّ بلا مبالاة، من دون أن يظهر أي شعور إزاء قذفه بهذه الاتهامات، وبينما لم يقدم أي دفاع جُرَّ الزعماء واحدًا واحدًا أمامه ويصرحون التصريح نفسه.

- كان السيد **إنتف** سيدي الأعلى. السيد **إنتف** هو **آخ- ست**.

صار صمت الجموع في المعبد ثقيلًا ثقل الحرارة. وقفوا يراقبون في ذعر، أو في كراهية صامتة، أو في حيرة وعدم تصديق، ومع ذلك، لم يجرؤ واحد منهم على الطعن بالسيد **إنتف**، أو إظهار عاطفة حتى تكلم الفرعون أولًا.

جُلب الزعيم الأخير قُدمًا حتى صار قبالة الوزير الأعظم. كان رجلًا طويلًا نحيلًا مشدود العضلات أذبلت الشمس جلده، وفي عروقه تجري دماء بدوية،

ذلك أن عينيه سوداوين وأنفه معقوف، أما لحيته فكثيفة ومجعدة، وتعابيره متعجرفة.

تكلَّم بصوت أوضح من الآخرين كلهم: «اسمي **باستي**. يدعوني الرجال **باستي** المتوحش، وإن كنتُ لا أعرف سبب ذلك (وابتسم بظرافة جلَّاد سافل)، كنتُ أحد زعماء الصردان حتى أفنى **آخ- حورس قبيلتي**، وكان السيد **إنتف** سيدي الأعلى».

وهذه المرة، لم يُجَرَّ بعيدًا كالبقية، بل تكلم **تانوس** ثانية: «أخبر الملك، أكنت تعرف **بيانكي**، سيد **حاراب**، الذي كان فيما مضى نبيلًا من نبلاء **طيبة**؟».

- عرفته حق المعرفة. وكانت لي أعمال معه.

سأله **تانوس**، والموت في صوته: «ما كانت هذه الأعمال؟».

- نهبت قوافله، وأحرقت المحاصيل في حقوله، وغزوت مناجمه في **سيسترا** فتسلَّيت بذبح عمالها تسليًا لم يأت بعده أحد ليعمل في النحاس هناك. أحرقتُ فيلاته، وأرسلتُ رجالي إلى المدينة ليطعنوا بسمعته حتى تلوَّث شرفه وإخلاصه للدولة، وساعدت آخرين على تدميره إلى أن شرب في آخر الأمر الداتورة السامة من كأسه الخاصة.

بينما ينصت رأيتُ يد الفرعون حاملة المذبة الملكية ترتجف، وارتعش أحد جفنيه ارتعاشة كنت قد لاحظتها قبلًا عندما يمضُّه الغمُّ.

- من أمر بهذه الأعمال؟

- السيد **إنتف** أمرني بها، وكافأني **بتاخٍ** من الذهب الصافي.

- ما كان السيد **إنتف** يتأمل كسبه من اضطهاده هذا لسيد **حاراب**؟

ابتسم **باستي** وهز كتفيه: «السيد **إنتف** هو الوزير الأعظم الآن، بينما **بيانكي** سيد **حاراب** ميت. يبدو لي أن السيد **إنتف** قد حقق غايته».

- أتُقرُّ بأنني لم أقدم لك أي تسامح مقابل هذا الاعتراف؟ أتعي أن الموت ينتظرك؟.

ضحك **باستي**: «الموت؟ لم أخف منه قطُّ. إنه طحين الرغيف الذي أخبزه، وقد أطعمته لعدد لا يُحصى من الآخرين، فلمَ أخاف تناوله بنفسي؟».

بينما أنصت إلى تبجُحه عجبتُ أكان أحمقَ أم شجاعًا، على أي حال، لم يحمل قلبي إشفاقًا عليه ولا إعجابًا به. تذكرتُ أن **بيانكي** سيد **حاراب** كان رجلًا كابنه، وأن إشفاقي وإعجابي يكمنان هناك.

رأيتُ النظرة الوحشية في عيني **تانوس**. عرفت أنه يشاركني مشاعري، واشتدَّت قبضته على نصاب سيفه حتى ابيضَّت أصابعه كما تبيضُ أصابع الغريق.

وقال بصوت حاد: «خذه! دعه ينتظر مشيئة الملك». رأيته يضبط نفسه بمشقة، ثم استدار عائدًا إلى الملك، وهبط على ركبة واحدة أمامه.

- لقد فعلتُ ما طلبته مني يا **ماموس** الإلهي، ربَّ **كيميت** وحاكمها. وأنتظر أوامرك التالية.

سدَّت هيبته وبهاؤه حلقي فلم يعد بإمكاني البلع، وضبطتُ نفسي بمشقة.

استمرَّ الصمت في المعبد، وسمعتُ تنفُّس مولاتي المُجْهَد بجواري، ثم شعرتُ بيدها تتلقف يدي وتعتصرها بقوة تكاد تكسِّر عظام أصابعي.

وأخيرًا تكلم الفرعون، لكن أفزعني أنني سمعتُ الشك في صوته، وحدستُ أنه لا يرغب بأن يكون شيء من ذلك حقيقة، فقد وثق بالسيد **إنتف** ثقة عميقة لوقت طويل حتى إن الأمر هزَّ أساسات إيمانه.

- أيها السيد **إنتف**، لقد سمعتَ ما اتُهمتَ به، فما ردُّك؟

- أيها الفرعون الإلهي، أهذه اتهاماتٌ حقًا؟ لقد حسبتُها محض تخيلاتٍ لشاب جنَّنه الحسد والغيرة. إن السيد **تانوس** ابن مُجرمٍ وخائن مُدان، ودوافعه واضحة للعيان. لقد أقنع نفسه بأن الخائنَ **بيانكي** كان ليصير وزيرًا أعظم بدلًا مني، وبطريقة فاسدة ما يحمِّلني مسؤولية انهيار أبيه.

نبذ **تانوس** بتلويحة من يده، وكانت ماهرة حتى إنني رأيت الملك يهتز. كانت شكوكه تزداد قوة، فقد وثق بالسيد **إنتف** ثقة عمياء طيلة حياته، وشقَّ عليه تغيير رأيه. أراد تصديق براءته.

سأله الفرعون أخيرًا: «ماذا عن اتهامات الزعماء؟ ما ردك عليها؟».

فسأله السيد **إنتف**: «زعماء؟ أعلينا إطراؤهم بمنحهم لقبًا كهذا؟ إنهم، وبموجب شهادتهم، مجرمون من أرذل صنف، قتلة ولصوص ومعتدون على النساء والأطفال، ولا يمكن أن نتوقع الحقيقة منهم إلا بقدر ما نتوقع الشرف

والضمير من الوحوش (ثم أشار إليهم، وكانوا بالفعل نصف عراة ومقيدين كالحيوانات)، فلنتفرَّس فيهم يا صاحب الجلالة المقدسة، أليسوا من صنف الرجال الذي يمكن رشوته أو إجباره بالضرب على قول أي شيء ليهرب بجلده؟ أستصدق كلام هؤلاء قبالة رجل خدمك بإخلاص طيلة حياته؟».

رأيتُ الإيماءة الطفيفة التلقائية لرأس الملك إذ قَبِل حجة الرجل الذي كان يراه صديقًا، الرجل الذي أغدق عليه الثقة والجوائز.

تذبذب الملك: «كل ما تقوله صحيح. لطالما خدمتني من دون شائبة. هؤلاء الأنذال غرباء عن الحقيقة والشرف، ومن الممكن أنهم قد أُكرهوا». عندها شعر السيد **إنتف** بتفوّقه.

- لم أرَ حتى الآن إلا كلماتٍ أُقذف بها. لا بدَّ أن ثمة دليلًا آخر ما يدعم هذه التهم القاتلة، أليس كذلك؟ هل من شخص واحد في مصر هذه يمكنه مواجهتي بدليل ضدي، دليل حقيقي لا مجرد كلمات؟ فليتقدم إن كان موجودًا لأرد عليه. وإن لم يملك أحد هذا الدليل، إذن فليس عندي ما أردُّ عليه.

كدَّر كلامه الفرعون بشدة، ورأيتُ ذلك، إذ راح يحدِّق إلى القاعة كأنه يبحث عن الدليل الذي طلبه السيد **إنتف**، ثم بدا واضحًا أنه توصل إلى قرار.

- ما دليلك على هذي الأمور أيها السيد **تانوس**، بمعزل عن كلام القتلة والمجرمين؟

فاعترف **تانوس**: «لقد أحسن الوحش إخفاء آثاره، واختبأ في أكثف الأدغال حتى يصعب الانقضاض عليه. ليس عندي دليل إضافي ضد السيد **إنتف**، لكن ربما يوجد آخرون لديهم، شخص ما ألهمه ما سمعه اليوم. أرجوك يا ملك مصر، اسأل شعبك عما إن كان فيهم من يمكنه تقديم أي شيء يساعدنا».

صاح السيد **إنتف** في احتجاج حادٍّ: «هذا تحريض أيها الفرعون، من شأنه أن يشجع أعدائي على الخروج من الظلال حيث يكمنون ليهاجموني».

لكن الفرعون أسكته بإشارة فظة وتوعَّد قائلًا: «من يشهد شهادة زورٍ ضدك ستكون على مسؤوليته الخاصة»، ثم خاطب الحشد.

- يا شعبي! يا مواطني **طيبة**! لقد سمعتم الاتهامات الموجهة ضد وزيري الأعظم الموثوق والمحبوب. أبينكم من بمقدوره تقديم الدليل

الذي يعوزه السيد **تانوس**؟ أيمكن لأيّكم تقديم دليل ضد السيد **إنتف**؟ إن كان فيكم هذا الشخص، فآمره بالكلام.

وقفتُ قبل أن أدرك ما أفعله، وخرج صوتي مجلجلًا حتى إنه أجفلني شخصيًّا.

صرخت: «أنا **تايتا**، الذي كان فيما مضى عبد السيد **إنتف** (فنظر إليَّ الفرعون وعبس)، لديَّ شيء أرغب بإطلاعكم عليه يا صاحب الجلالة».

- إننا نعرفك أيها الطبيب **تايتا**. يمكنك أن تتقدم.

عندما غادرت مجلسي على المنصة ونزلتُ لأقف بين يدي الملك، نظرتُ إلى السيد **إنتف** وتعثرتُ في خطوي. شعرتُ أنني اصطدمتُ بجدار حجري؛ إلى هذا الحد كانت كراهيته محسوسة.

قال السيد **إنتف** بصوت بارد وعميق: «إن هذا الشيء عبدٌ يا إلهيْ مصر. كلام عبد مقابل سيد من الدائرة **الطيبيَّة**، وأحد كبار مسؤولي الدولة، أي مهزلة هذه؟».

كنتُ لا أزال متكيِّفًا للاستجابة إلى صوته والإذعان لكلامه حتى إن عزيمتي ارتعشت، ثم شعرتُ بيد **تانوس** على ذراعي. كانت لمسة وجيزة وحسب، لكنها قوَّتني وثبتتني، غير أن السيد **إنتف** لاحظ الحركة وجذب انتباه الملك إليها: «أترى كيف أن هذا العبد في خدمة مُتَّهمي؟ هاك قردًا آخر من قردة السيد **تانوس** المدرَّبة (عاد صوت السيد **إنتف** سلسًا ودافئًا كالعسل)، إن صفاقته لا حدود لها. ثمة عقوبات منصوص عليها في تشريعات القانون...».

أسكته الفرعون بإشارة من مذبَّته: «إنك تستغل حسن ظننا فيك أيها السيد **إنتف**. إن تشريعات القانون تخصُّني، أفسِّرها أو أعدِّلها كما أشاء، وفيها عقوبات لرفيعي النسب كما للعوام. يستحسن بك أن تتذكر ذلك».

انحنى السيد **إنتف** إذعانًا وظل صامتًا، لكن هُزِل وجهه وتغضن فجأة عندما أدرك ورطته.

ثم نظر إليَّ الملك: «إن هذه لظروف استثنائية، وتُجيز حلًّا مُبتكرًا. لكنني أحذرك أيها العبد **تايتا**، إن ثبت أن كلامك تافه، أو أنه يفتقر إلى الدليل أو الفائدة، فسيكون حبل المشنقة في انتظارك».

جعلني ذلك التهديد وتحديقة السيد **إنتف** المسمومة أتلعثم: «عندما كنتُ عبد الوزير الأعظم، كنت رسوله ومبعوثه إلى الزعماء، وعرفتُ أولئك الرجال

جميعهم (وأشرتُ إلى الأسرى الذين يبقيهم **كراتاس** بجوار العرش)، أنا من حمل أوامر السيد **إنتف** لهم».

هتف السيد **إنتف**: «كذبات! المزيد من الكلام من دون دليل (لكن اليأس بدأ يظهر في صوته)، أين الدليل؟».

هدر الملك بعنف مباغت: «صمتًا! سوف نستمع إلى شهادة العبد **تايتا**»، وكان ينظر إليّ مباشرة، فالتقطتُ أنفاسي لأستمر.

- أنا من حمل أوامر السيد **إنتف** إلى **باستي** المتوحش. كان الأمر أن يدمِّر أملاك **بيانكي** سيد **حاراب** وثروته. آنذاك، كنتُ أمين سر **إنتف**، وعرفتُ أنه يصبو إلى منصب الوزير الأعظم. أنجز **باستي** كل ما أمر به السيد **إنتف**، فهلك سيد **حاراب**، وحُرم من حظوة الفرعون وحبه، لذا شرب كأس الداتورة. أنا، **تايتا**، أشهد على ذلك كله.

رفع **باستي** المتوحش ذراعيه المربوطتين ناحية العرش وقال: «هذا صحيح. كل ما قاله **تايتا** صحيح».

صاح الزعماء: «*باك*- هير! إنها الحقيقة. **تايتا** ينطق حقًّا».

قال الفرعون متفكرًا: «لا يزال هذا مجرد كلام. إن السيد **إنتف** يطلب دليلًا. أنا، فرعونكم، أطلب دليلًا».

- لنصف حياتي، كنت نسَّاخ الوزير الأعظم وأمين خزانته، وكنتُ القيِّم على سجل ثروته. سجلت أرباحه ونفقاته على لفائفي، وجمعتُ الأجور التي دفعها زعماء الصردان له، وصرَّفتُ ثروته كلها.

أشرق وجه الفرعون كالبدر التمام عند ذكر الكنز وقال: «أيمكنك أن تريني هذه اللفائف يا **تايتا**؟» لقد حزتُ أشدَّ انتباهه.

- لا يا صاحب الجلالة، لا يمكنني. لطالما ظلت اللفائف بحوزة السيد **إنتف**.

لم يبذل الفرعون أي جهد لإخفاء ضيقه، وتصلَّب وجهه ناحيتي، لكنني أكملتُ بإصرار: «لا يمكنني أن أريك اللفائف، لكن ربما يمكنني أن أقودك إلى الكنز الذي سرقه الوزير الأعظم منك، ومن شعب مملكتك. أنا من بنيتُ خزائنه السرية، وأخفيت فيها الأجور التي جمعتُها من الزعماء. في تلك المخازن وضعتُ الثروة التي لم يرها جباة ضرائب الفرعون قطُّ».

اشتعلت حماسة الملك من جديد بحماوة تضاهي مصهر النحَّاس، وانحنى قُدمًا باهتمام شديد. ورغم أن كل عين في المعبد كانت معلَّقة بي، وأن النبلاء

بدؤوا يحتشدون في الأمام ليسمعوا كل كلمة أقولها، كنتُ أراقب السيد **إنتف** من دون أن يظهر عليَّ النظر في اتجاهه، إذ كانت أبواب المقدس النحاسية المصقولة مرايا طويلة كبَّرت انعكاسه، وبدا أي فارق دقيق في تعابيره وأي حركة يجريها مهما كانت طفيفة واضحة لي.

جازفتُ مجازفة وخيمة في افتراضي أن كنزه لا يزال في الأماكن السرية حيث خزَّنتُه، فربما نقله في أي وقت من السنتين الماضيتين، لكن نقل هذه الكميات من الكنوز عمل عظيم، والمخاطرة فيه تضاهي مخاطرة تركه يرقد في مكانه. كان ليضطر إلى وضع ثقته بآخرين، وهذا أمر يشق على السيد **إنتف**، فهو رجل شكَّاك في طبيعته. ويضاف إلى ذلك حقيقة أنه، حتى الآونة الأخيرة، كان يحسبني ميتًا وسري ميت معي.

حسبتُ أن فرصي متوازنة، وجازفتُ بحياتي على ذلك. ثم حبستُ أنفاسي وأنا أراقب انعكاس السيد **إنتف** في الأبواب النحاسية، وتسارع خفق قلبي وحلَّقت روحي من فوق أجنحة العقبان. رأيتُ من وجهه المتألم المذعور أن السهم الذي أطلقته أصاب هدفه. لقد ربحت. لا يزال الكنز حيث تركتُه. وعرفتُ أن بمقدوري أن أدل الفرعون إلى الغنائم والأسلاب التي جمعها السيد **إنتف** في خلال حياته.

لكنه لم يُهزم بعد. تعجلتُ في اعتقادي أن الأمر سيُنجز بهذه السهولة، إذ رأيته يُشير بيده اليمنى إشارة أربكتني، وبينما أفكر، كان الأوان قد فات تقريبًا.

نسيتُ في لجة انتصاري **راسفر**. كانت الإشارة التي أشارها السيد **إنتف** نقرةً بيده اليمنى، لكن **راسفر** استجاب ككلب صيد خنازير مدرَّب أمره الصياد بالهجوم، فانطلق ناحيتي بشراسة مفاجئة أخذتنا جميعًا على حين غرة. لم يكن بينه وبيني إلا عشر خطوات، وبينما يتقدم سحج سيفه الغمد.

كان اثنان من رجال **كراتاس** يقفان بيننا، لكن ظهريهما إليه، ودفعهما **راسفر** مسقطًا إياهما أرضًا، فتمدد أحدهما على البلاطات الحجرية أمام **تانوس** قاطعًا عليه الطريق عندما هبَّ لعوني. بقيتُ وحيدًا وأعزل، **وراسفر** مندفع بسيفه بكلتا يديه مستهدفًا شقَّ رأسي حتى عظم صدري. رفعتُ يدي لأصد الضربة، لكنَّ ساقيَّ تجمدتا صدمة وذعرًا، وعجزتُ عن التحرك أو تفادي الضربة المهسهسة.

لم أرَ **تانوس** يقذف سيفه البتة، إذ إن عينيَّ لم تريا إلا وجه **راسفر**، لكن السيف صار في الجو فجأة، وعزَّز الرعب حواسي حتى شعرتُ بالوقت يمرُّ بطيئًا كزيت مهروق يقطر من برطمان. راقبتُ سيف **تانوس** يدور رأسًا ثم عقبًا، ويلفُّ على مهل حول محوره، ملتمعًا في كل دورة كبرق صيفي، لكنه عندما أصاب، لم يكُن قد أكمل دورة كاملة، وصدم النصاب رأس **راسفر** لا السنَّ. لم يقتله، لكنه كسر رأسه، وضرب عنقه كغصن صفصاف في الريح، فانقلبت عيناه عمياوين في محجريهما.

لم يتمَّ **راسفر** الضربة التي وجهها إليَّ، بل انهارت ساقاه تحته وسقط متكوِّمًا على نفسه عند قدميَّ بعد أن طار سيفه من أصابعه الخائرة، وبرم عاليًا في الجو، ثم سقط فحطَّ كوتدٍ في جانب عرش الفرعون وأخذ يهتزُّ. حدق الفرعون مصدومًا وغير مصدق، فقد لمست حافة النصل ذراعه وشقَّت جلده، وبينما نراقب جميعًا، نزَّ صف من قطيرات ياقوتيَّة من الجرح السطحي، وقطرت على تنورة الفرعون الكتانية البيضاء كالسحاب.

كسر **تانوس** الصمت المذعور: «يا عظيم مصر، لقد رأيتَ من أعطى الوحش إشارة الهجوم، وتعرف على من يقع اللوم في تعريض شخصك الملكي للخطر»، ثم وثب من فوق رجلي الحرس الساقطين وقبض على ذراع السيد **إنتف**، بارمًا إياها حتى سقط على ركبتيه وصرخ ألمًا.

نطق الفرعون: «لم أرِدْ تصديق هذا عنك (كان وجه الفرعون محزونًا وهو ينظر إلى وزيره الأعظم)، لقد وثقتُ بك طيلة حياتي، وبصقتَ عليَّ».

توسَّل إليه السيد **إنتف**: «يا عظيم مصر، اسمعني!»، لكن الفرعون أشاح بوجهه عنه.

قال الفرعون: «لقد استمعتُ إليك وقتًا كافيًا (ثم أومأ **لتانوس**)، مُرْ رجالك بحراسته جيدًا، لكن تلطَّف به، فذنبه لم يثبت تمامًا بعد».

وأخيرًا، خاطب الفرعون الجمع: «إن هذه لأحداث غريبة لم يسبق لها مثيل، وإنني أُرجئ الإجراءات لأفكِّر مليًّا بالدليل الذي سيقدمه لي العبد **تايتا**. سيجتمع سكان **طيبة** مرة ثانية ليستمعوا إلى حكمي في المكان نفسه ظهر الغد. وهذا قراري».

***

دخلنا من المدخل الرئيس لقاعة الاجتماع في قصر الوزير الأعظم، وتوقف الفرعون قليلًا عند العتبة. ورغم أن جرح سيف **راسفر** كان طفيفًا، ضمَّدتُه بالكتان وعلَّقت ذراعه بمعلاق.

تفحَّص الفرعون القاعة على مهل. انتصب في الركن القصي للغرفة الطويلة عرش الوزير الأعظم، وكان منحوتًا من قطعة مرمر صمَّاء، وبالكاد يقل فخامة عن عرش الفرعون في **إلفنتين**، وكانت الجدران الشاهقة مكسوة قصارة[1] ملساء شكَّلت خلفية رُسم عليها بعض من أبدع الرسوم الجدارية التي صممتُها على الإطلاق، فحوَّلت هذه الرسوم الغرفة الفسيحة إلى حديقة مباهج متوهِّجة. كنت قد رسمتها عندما كنت عبد السيد **إنتف**، ورغم أنها من إبداعي، منحتني رعشة سرور عميق عندما نظرت إليها.

لا شك عندي في أن هذه الأعمال وحدها، من دون أخذ أي من إنجازاتي الأخرى في الحسبان، تدعم مطالبتي بلقب أهم فنَّان في تاريخ بلادنا. أحزنني أنني سأهدمها وأنا مُبتكرها، وانتقص ذلك من انتصار هذا اليوم الهائج.

قدتُ الفرعون عبر القاعة، ولمرَّة واحدة، استغنينا عن جميع الأعراف، وكان الفرعون متشوقًا كطفل، فتبعني من كثب حتى كاد يدوس كعبيَّ، واصطفَّت الحاشية الملكية بالحماسة نفسها من خلفه.

قدتهم إلى حائط العرش وتوقفنا تحت جدارية عملاقة تصوِّر إله الشمس، **آمون رع**، في رحلته اليومية عبر السموات. وحتى في خضمِّ حماسته، رأيتُ النظرة المُبجِّلة في عيني الملك عندما رفع نظره إلى اللوحة.

من خلفنا، كانت القاعة الكبيرة نصف ملأى بحاشية الملك، أهل البلاط والمحاربون والأسياد النبلاء، ناهيك بالزوجات الملكيات والمحظيات اللاتي كن ليفضِّلن التخلي عن أحمر شفاههن وصناديق مستحضرات تجميلهن الملونة على تفويت لحظة مثيرة كهذه التي وعدتهن بها. وبطبيعة الحال، كانت مولاتي في المقدمة، **وتانوس** يمشي وراء الملك بخطوة فقط، وقد تولَّى ورجال الزرق مهام الحرس الملكي.

استدار الملك إلى **تانوس**: «مُرْ رجالك بجلب السيد **إنتف**!».

---

(1) القصارة: مادة بناء تستخدم في الطلاء الواقي أو الزخرفي للجدران والسقف ولقولبة وصب العناصر الخلفية. (المترجم).

أحضر **كراتاس إنتف**، معاملًا إياه بتلطُّف مدروس وبارد، وأوقفه أمام الجدار، لكنه أدخل نفسه بين السجين والملك ووقف متأهبًا بنصل مُجرَّد.

قال لي الملك: «يمكنك المتابعة يا **تايتا**»، فقستُ الجدار، ماشيًا ثلاثين خطوة بالضبط من أبعد الأركان، وعلَّمت المسافة بقطعة حوَّار جلبتها معي لهذا الغرض.

فسَّرتُ للملك: «تقبع وراء هذا الجدار حجرات الوزير الأعظم الخاصة. أُجريت تعديلات مُحددة عندما جُدد القصر آخر مرة، فالسيد **إنتف** يحب أن تكون ثروته بمتناول يده».

قال الفرعون: «أحيانًا تكون ثرثارًا يا **تايتا** (لم يؤخذ الفرعون كثيرًا بمحاضرتي حول عمارة القصر)، تابع عملك يا رفيق، إن النيران تأكلني لأرى ما يختبئ هنا».

ناديتُ: «فليقترب البناؤون!». فعبرت عصبة صغيرة من أولئك المحتالين الأقوياء في مآزرهم الجلدية الممر وألقوا حقائب معداتهم الجلدية أسفل حائط العرش. كنتُ قد استدعيتهم ليقطعوا النهر من عملهم في قبر الفرعون، وقد منحهم غبار الحجار الأبيض في شعورهم منظرًا مسنًّا وحكيمًا لا يستحقه إلا قلة منهم.

استعرتُ كوسًا خشبيًّا من رئيسهم، وعلَّمت به شكلًا مستطيلًا على الجدار المكسو بالقصارة، ثم تراجعت وخاطبت كبير البنائين: «والآن هداديكم! لا تتلفوا إلا أقل قدر ممكن من الرسوم. إنها أعمال فنية عظيمة».

انقضَّوا على الجدار بمطارقهم الخشبية وأزاميلهم الصوَّانية غير مكترثين بتوجيهاتي، فتطايرت سحب من الطلاء والقصارة مع تقشُّر ألواح من الجدار الخارجي وارتطامها بالأرض الرخامية، وضايق الغبار السيدات فغطين أفواههن وأنوفهن بشيلانهن.

تدريجيًّا، بدأت حدود الكتلة الحجرية في الظهور من تحت طبقة القصارة، فهتف الفرعون بصوتٍ عالٍ واقترب متجاهلًا الغبار المتطاير ليدقق في التصميم الذي ظهر من تحت القشرة، وكانت الخطوط الطبيعية للكتلة الحجرية مشوبة بمستطيل من حجر مغاير اللون يتبع بالضبط تقريبًا الخط الذي رسمتُه بالطبشور على الطبقة الخارجية.

ثم صاح: «ثمة باب مخفي هنا! افتحوه فورًا!».

وتحت إلحاح الملك، هجم البناؤون بعزيمة على الباب المسدود، وحالما أزالوا حجر الأساس، خرجت بقية الأحجار بسهولة وانكشفت كوة مظلمة، فنادى الفرعون، الذي بات يقود زمام العمل، بانفعال أن تشعل المشاعل.

قلت له: «إن المساحة خلف هذا الجدار بكاملها حجرة سرية (بينما ننتظر أن تُجلب المشاعل)، وقد بنيتها بأمر السيد **إنتف**».

عندما جُلبت المشاعل، أخذ **تانوس** أحدها وأضاء طريق الملك إلى الباب السري الفاغر، ثم دخله الملك، وكنت التالي بعده **وتانوس**.

مضى وقت طويل منذ دخلت هذا المكان إلى درجة أنني نظرتُ من حولي باهتمام يضاهي اهتمام الآخرين. لم يتغير شيء طيلة هذا الوقت، فصناديق وبراميل الأرز والسنط مكدسة كما تركتُها تمامًا. دللتُ الملك على العلب التي ينبغي له إيلاءها انتباهه أولًا، فأعطى أوامره: «احملوها إلى قاعة الاجتماع».

وعقَّبتُ مازحًا: «ستحتاج إلى رجال أقوياء، إنها ثقيلة بعض الشيء».

تطلَّب حمل كل منها ثلاثة من أضخم رجال الزرق، وخرجوا يترنحون بها من كوة الجدار المُثلَّمة.

احتج السيد **إنتف** عندما حُملت أولاها إلى الخارج ووُضعت على سُدَّة عرش الوزير الأعظم: «لم أرَ هذه العلب من قبل، ولم أعرف بوجود حجرة سرية وراء الجدار. لا بدَّ أن سَلَفي بناها، وأن هذه العلب وضعت فيها بأمره».

فنبهت الملك: «انتبه إلى الختم على الغطاء يا صاحب الجلالة»، ونظر إلى اللوح الفخاري.

ثم سأل بإلحاح: «ختم من هذا؟».

غمغمتُ: «انظر إلى الخاتم في سبابة الوزير الأعظم اليسرى يا صاحب الجلالة. هل لي أن اقترح بخالص الاحترام أن يقارنه الفرعون بالختم على هذا الصندوق؟».

فطلب منه الملك بكياسة مفرطة: «أعطني خاتمك لو سمحت يا سيد **إنتف**»، وأخفى الوزير الأعظم يسراه وراء ظهره.

- يا عظيم مصر، إن الخاتم في إصبعي منذ عشرين سنة، وقد نما لحمي حوله فلم يُعد بالإمكان نزعه.

استدار الملك إلى **تانوس**: «سيد **تانوس**، خذ سيفك وانزع إصبع السيد **إنتف** واجلبها لي مع الخاتم الذي يحمله»، فبينما يتقدم لينفذ الأمر ابتسم **تانوس** بوحشية، وسيفه نصف مسلول.

اعترف السيد **إنتف** بخفَّة: «لعلي مخطئ. دعني أرى أكان بمقدوري تحريره»، فانسلَّ الخاتم بسهولة كافية من إصبعه، وركع **تانوس** على ركبته ليسلمه للملك.

ثم انحنى الفرعون فتفحَّص الصندوق وقارن بين الختمين، وعندما استقام كان الغضب قد أظلم وجهه.

«إنهما متطابقان تمامًا. لقد سُكَّ الختم من خاتمك أيها السيد **إنتف**»، لكنَّ الوزير الأعظم لم يرد على التهمة، بل وقف بذراعين معقودتين ووجه متحجر.

ثم أمر الفرعون: «اكسر الختم. افتح الصندوق!»، ففتح **تانوس** اللوح الفخاري ورفع الغطاء بسيفه.

هتف الملك لا إراديًا عندما انفتح الغطاء وظهرت المكنونات: «بحق جميع الآلهة!» وتزاحمت بطانته من دون تكليف لينظروا في الصندوق، وأخذوا يتعجبون ويتدافعون ليحصلوا على رؤية أفضل.

«ذهب!».

غرف الملك بكلتا يديه خواتم صفراء لمَّاعة، ثم تركها تتشلشل عائدةً من بين أصابعه، لكنه أبقى واحدًا في يده فقرّبه من وجهه ليتفحص علامات السكّ عليه، وقال: «دبنين من الذهب الصافي. كم يضم هذا الصندوق، وكم صندوقًا غيره في ذلك المخزن السري؟»، كان سؤاله بلاغيًا، ولم ينتظر إجابة، لكنني أجبته رغم ذلك.

قرأتُ البيان الذي نقشتُه على الغطاء قبل سنوات عديدة: «يضم هذا الصندوق تاخًا وثلاثمئة دبنًا من الذهب الصافي. أما بخصوص عدد الصناديق، وإن لم تخنِّي ذاكرتي، فثمة ثلاثة وخمسون صندوقًا من الذهب، وثلاثة وعشرون من الفضة في هذا المخزن. غير أنني نسيتُ العدد الدقيق لصناديق الجواهر التي خبأناها هنا».

- ألا يوجد من يمكنني الثقة به؟ لقد عاملتك يا سيد **إنتف** كأنك أخي، لم أبخل عليك بمعروف قطُّ، وهكذا تردُّ الجميل.

***

عند منتصف الليل، جاء مستشار مصلحة الضرائب الملكية وكبير مفتشيها إلى مخدع الملك حيث كنت أبدل ضماد ذراعه المجروحة وقدما سجلهما الأخير لمقدار الكنز. قرأه الفرعون برهبة، ومرة ثانية، أخذت مشاعره تتحارب فيما بينها: حنق يبارز النشوة إزاء هذا المكسب الفجائي المذهل.

- كان الوغد أثرى من ملكه. لا توجد عقوبة بالقسوة الكافية لشر كهذا. لقد غشّني أنا وجباة ضرائبي وسرقنا.

فذكرتُه بعد أن أحكمتُ الضماد على ذراعه: «بالإضافة إلى قتل ونهب سيد **حاراب** وعشرات الآلاف من رعاياك»، وربما كان ذلك تطاولًا مني، غير أنه قد بات مدينًا لي إلى حد يسمح لي بالمجازفة.

وافقني حالًا، وضاعت سخريتي هباءً عنده: «وذلك أيضًا. إن إثمه عميق عمق البحر ومرتفع ارتفاع السماء. عليَّ ابتكار عقاب ملائم، فحبل المشنقة لطف مبالغ فيه للسيد **إنتف**».

- يا صاحب الجلالة، بصفتي طبيبك، لا بدَّ لي من الإصرار على أن ترتاح الآن، فقد كان يومًا ثقيلًا حتى على قوتك وجَلَدك العظيمين.

- أين **إنتف**؟ لا يمكنني أن أرتاح حتى أطمئن أنه في أيدٍ أمينة.

قلت: «إنه تحت الحراسة في مسكنه الخاص يا صاحب الجلالة. ثمة نقيب وسريَّة من الزرق على رأس المهمة (ثم ترددتُ ترددًا حساسًا)، **وراسفر** تحت الحراسة أيضًا».

- **راسفر**؟ حيوانه المريِّل البشع ذاك؟ الذي حاول قتلك في معبد **أوزيريس**؟ هل نجا من الكسر الذي سببه السيد **تانوس** له؟

فطمأنتُه: «إنه بخير إن لم يكن سعيدًا أيها الفرعون. أتعلم جلالتكم أن **راسفر** هو الذي، قبل زمن بعيد، أعمل سكّين الخصي بي؟» ورأيتُ بارقة تعاطف في عين الفرعون عندما قلت ذلك دون تفكير.

ثم وعدني: «سينال ما يناله سيده. سيعاني العقوبة نفسها التي سيعانيها السيد **إنتف**. أيرضيك هذا يا **تايتا**؟».

قلت: «إنك عادل عليم يا صاحب الجلالة»، وتراجعتُ من حضرته ثم مضيتُ أبحث عن مولاتي.

كانت تنتظرني، ولم تسمح لي بالنوم رغم أن الوقت قد جاوز منتصف الليل وأني مُنهك، إذ كان الانفعال مستبدًا بها أكثر مما يجب، وأصرَّتْ أن

أجلس بقية الليل أسفل سريرها وأستمع إلى هذرها عن **تانوس** وموضوعات أخرى أقل أهمية.

***

على الرغم من قلة النوم، كنتُ مُشرقًا وصافي الذهن عندما أخذت مكاني بمعبد أوزيريس في الصباح التالي.

لا بدَّ أن الجمع كان أغفر من اليوم السابق، إذ لم يبقَ إنسيٌّ في **طيبة** لم يسمع بسقوط الوزير الأعظم، وجاء الجميع متشوقًا لشهود إذلاله النهائي. حتى مرؤوسوه الذين ازدهرت أحوالهم أحسن ازدهارها تحت إدارته الفاسدة انقلبوا عليه، كمجموعة ضباع تلتهم قائدها عندما تصيبه الأمراض والجروح.

سيق زعماء الصردان إلى العرش بخرقهم وقيودهم، لكن عندما دخل السيد **إنتف** المعبد، كان مرتديًا كتانًا فاخرًا وصندلًا فضيًا، وكان شعره قد جُعِّد للتو، ووجهه مُمكيج، وسلاسل **ذهب الثناء** تتدلى من حول عنقه.

ركع الزعماء أمام الملك، لكن السيد **إنتف** رفض الركوع، حتى بعد أن وكزه أحد الحراس بسيفه، فأشار الملك للحارس أن يكفَّ.

وأمره: «دعه يقف. سيرقد في قبره ما فيه الكفاية»، ثم نهض الفرعون ووقف أمامنا بكل جلاله وغيظه. بدا في هذه المرة الوحيدة ملكًا حقيقيًا، مثلما كان مؤسس سلالته، رجلًا ذا جبروت وبطش، ووجدتُ نفسي، وأنا الذي بات يعرفه ويعرف نقاط ضعفه، مغمورًا بشعور المهابة.

- أيها السيد **إنتف**، إنك متهمٌ بالخيانة والقتل، وقطع الطرق والسطو، ومئة جريمة أخرى لا تقل عنها في استحقاق العقاب. وقد استمعتُ إلى خمسين شهادة مسنودة لرعاياي من جميع مآكل الحياة ومشاربها، من أسياد وأحرار وعبيد، ورأيت مكنونات خزانتك السرية حيث أخفيت ثروتك المسروقة من جباة الضرائب الملكيين، ورأيتُ ختمك الشخصي على صناديق الكنز، ومن خلال هذه الأمور كلها، ثبُت ذنبك ألف مرة. أنا، **ماموس** الثامن، فرعون مصر وحاكمها، أراك بموجب ذلك مذنبًا بكل الجرائم التي اتُّهمت بها، ولا تستحق تلطُّفنا ولا رحمتنا.

صراخ **تانوس**: «يعيش الفرعون! (والتقط شعب **طيبة** التحية فرددها عشر مرات)، عسى أن يعيش أبدًا!».

عندما حل الصمت، تكلم الفرعون ثانية: «أراك ترتدي **ذهب الثناء** أيها السيد **إنتف**، وإن منظر هذا النيشان على صدر خائن يضايقني (ثم نظر إلى **تانوس**)، انزع الذهب عن السجين يا **قائد المئة**».

رفع تانوس السلاسل عن عنق السيد **إنتف** وحملها إلى الملك، فأخذ الفرعون الذهب بكلتا يديه، لكنْ عندما بدأ **تانوس** بالانسحاب، أمره أن يبقى.

- لقد لُطِّخ اسم سيد **حاراب** بلطخة الخيانة، وطورد أبوك حتى مات ميتة خائن. وقد أثبتتَ أنه بريء، لذا أُلغي جميع الأحكام الصادرة بحق **بيانكي** سيد **حاراب**، وأردُّ له بعد موته جميع ألقابه وتشريفاته التي جُرِّدَ منها. وتؤول هذه الألقاب والتشريفات إليك.

صاح الجمع: «*باك- هير*! يعيش الفرعون أبدًا! حيوا **تانوس** سيد **حاراب**!».

- وإضافة إلى الألقاب التي ورثتَها، أُسبِغ عليك وسامًا جديدًا، فقد نفذت ما أوكلتُك به، أفنيت الصردان وسلمت رئيسهم ليد العدالة، واعترافًا بخدمتك هذه للتاج، أمنحك **ذهب البسالة**. اركَع يا سيد **حاراب**، وتلق منَّة الملك.

هتفوا: «*باك- هير!*»، عندما وضع الفرعون سلاسل الذهب المصلصلة، التي كانت حتى وقت قريب جدًّا ملك السيد **إنتف**، من حول عنق **تانوس** بعد أن أضاف إليها القلادة النجمية من نيشان المحارب.

«حيوا سيد **حاراب**!».

وقتما تراجع **تانوس**، عاد الفرعون بانتباهه إلى السجين: «أجرِّدك أيها السيد **إنتف** من لقبك بصفتك سيدًا من أسياد الدائرة **الطيبيَّة**. سيُمحى اسمك ورتبتك من الصروح العامة، ومن قبرك الذي أعددتَه في وادي النبلاء. عقاراتك وجميع ممتلكاتك، بما في ذلك كنزك المحرّم، مصادرة لمصلحة العرش، إلا العقارات التي كانت ذات يوم ملكًا **لبيانكي** سيد **حاراب** وحالت إليك بطرائق خبيثة، فترجع بكليتها إلى وريثه، إلى **تانوس** الوسيم سيد **حاراب**».

هلل الشعب تهليلًا جامحًا: «*باك- هير*! إن الفرعون لحكيم! يعيش الفرعون أبدًا!». وبجواري، وقفت مولاتي تنتحب بلا استحياء، لكن كذا فعلت نصف السيدات الملكيات أيضًا، إذ لم تتمكن إلا قلة قليلة منهن من مقاومة

ذلك الجسم البطوليّ الذي بدت السلاسل الذهبية على صدره باهتة بالمقارنة مع شعره.

ثم باغتني الملك، إذ نظر مباشرة إليّ حيث أجلس بجوار مولاتي: «ثمة شخص آخر أسدى التاج خدمة مخلصة، وهو الشخص الذي كشف مكان الكنز المسروق. فليتقدم العبد **تايتا**».

نزلتُ فوقفت أمام العرش، وتكلم الملك بصوت رقيق: «لقد عانيتَ أذًى لا يوصف على أيدي الخائن **إنتف** وتابعه الأمين **راسفر**. أجبراك على ارتكاب فعال شائنة وجرائم قصوى بحق الدولة من خلال التآمر مع قطاع الطرق واللصوص وإخفاء كنز سيدك عن جباة الضرائب الملكيين، لكنها لم تكن جرائم من وحي إرادتك، فبصفتك عبدًا، كنت مجبرًا على تنفيذ مشيئة سيدك. ومن ثَمَّ، أبرئك من كل الذنب والمسؤولية. أراك بريئًا من أي جريمة، وأكافئك على خدمتك بجائزة قدرها تاخان من الذهب تُدفع لك من الكنز الذي صادرناه من الخائن **إنتف**».

قوبل هذا البيان بغمغمة دهشة، وشهقتُ شهقة مسموعة. كانت لحظة صاعقة. ثروة تضاهي ثروة أثرى أسياد البلاد، تكفيني لأشتري قطعًا رائعة من أخصب الأراضي على شاطئ النهر، وأؤثث فيلات فاخرة عليها، وأشتري ثلاثمئة عبد قوي يعملون فيها، وتكفيني لأعدَّ أسطولًا من المراكب التجارية وأرسلها إلى أقاصي الأرض لترجع حاملة المزيد من الكنوز. كان مبلغًا كافيًا لإرباك مُخيِّلتي حتى، لكن الملك لم يُنه كلامه بعد، فقال: «وبوصفك عبدًا، لن تُدفع الجائزة لك، بل لمولاتك السيدة **لوستريس**، وهي زوجة صغيرة من زوجات الفرعون». كان يجدر بي تخمين أن الملك سيبقيها ضمن العائلة.

انحنيتُ، أنا الذي كنتُ للحظة خاطفة أحد أثرى الرجال في مصر، للملك وعدتُ إلى مكاني بجوار مولاتي. اعتصرت يدي لتواسيني، لكنني في الحقيقة لم أكُن حزينًا، فقدرانا متشابكان تشابكًا يجعلني جزءًا منها، وعرفت أننا لن نرغب بأي شيء مادي ثانية، حتى إنني بدأت أخطط بالفعل لاستثمار الثروة من أجلها.

وأخيرًا، بات الملك مستعدًّا لإصدار الحكم على صف السجناء، رغم أنه لم ينظر إلا إلى **إنتف** وهو يتكلم.

– إن جرائمكم منقطعة النظير، ولم يُحكم من قبل بعقاب قاس بما يكفي ليلائمها. لذا هاكم الحكم الذي أطلقه عليكم: في فجر اليوم التالي

لنهاية مهرجان **أوزيريس**، سيُسار بكم في شوارع **طيبة** مُقيدين وعُراة، وبينما لا تزالون أحياءً، ستُعلَّقون من أقدامكم بمسامير على بوابة المدينة الرئيسة، ورؤوسكم تتدلى إلى الأسفل، وتظلون هناك حتى تنظِّف الغربان عظامكم من لحمكم، ثم تُنزل العظام فتُطحن وتذرى على أمنا النيل.

حتى **إنتف** شحب لونه وترنَّح وهو ينصت للحكم. فبتبديد أجسادهم الدنيويَّة حتى يستحيل تحنيطها والحفاظ عليها، حكم الفرعون على السجناء بالضياع في طي النسيان، وفي نظر المصري، لا يمكن أن توجد عقوبة أقسى. لقد حُرموا حقول الفردوس أبد الآبدين.

***

عندما أعربت مولاتي عن إصرارها على حضور تنفيذ الحكم ومشاهدة أبيها يُسمَّر على البوابة الرئيسة، لا أحسبُ أنها كانت مدركة الرعب الذي ستشهده، وأصررتُ بالقدر نفسه على أن لا تراه، ذلك أنها لم تحمل شيئًا من الساديَّة داخلها قطُّ، وأظن أن قرارها كان بإلهام من حقيقة أن معظم النساء الملكيات سيذهبن للتمتع بالمشهد المسلي، وأن **تانوس** سيكون المسؤول عن التنفيذ، وما كانت لتفوِّت فرصة تسمح لها بالإمعان فيه، وإن كان من بعيد.

في آخر الأمر، لم أقنعها حتى استخدمتُ أكثر الحجج عاطفيةً في ترسانتي: «يا مولاتي، إن مشاهد وحشية كهذه ستؤثر بلا شك في جنينك، وأنا متأكد من أنك لا ترغبين بإفساد عقله الصغير غير المكتمل».

قالت: «هذا غير ممكن (ترددتْ لأول مرة في جدالنا)، لا يمكن أن يعرف ابني بذلك».

قلت: «سيرى بعينيك، وستنفذ صرخات جده المحتضر من جدران بطنك وتدخل أذنيه». كان اختيارًا معبرًا للكلمات، وحملت التأثير الذي ناضلتُ في سبيله.

فكّرتْ في ذلك مليًّا، ثم تنهّدتْ: «حسنٌ إذن، لكنني أنتظر أن تعود إليَّ بوصف دقيق لكل شيء، من دون أن تنقص تفصيلًا واحدًا، وخاصةً ما كانت السيدات الملكيات يرتدينه (ثم ابتسمت لي ابتسامة شريرة لتثبت أن حججي لم تخدعها تمامًا)، يمكنك أن تخبرني بذلك همسًا، حتى لا يسمعنا الجنين النائم في بطني».

كان الظلام لا يزال مكتنفًا حدائق القصر وقتما غادرتُ الحريم في فجر يوم الإعدام. عجلتُ عبر الحدائق المائية التي عكست سطوح بركها المعتمة النجوم، وعندما اقتربتُ من جناح القصر حيث يُحتجز السيد **إنتف** في مسكنه الخاص، رأيتُ النوافذ مضاءة بلهيب المشاعل والسرج، وسمعت صياح الأوامر والشتائم المحموم من الداخل.

عرفتُ من فوري أن ثمة خطبًا ما، وانطلقتُ أعدو. كاد يستقبلني حارس باب مسكن السيد **إنتف** بالرمح، لكنه تعرفني في اللحظة الأخيرة قبل أن يسفِّدني، ورفع سلاحه سامحًا لي بالمرور.

وجدتُ **تانوس** في حجرة الانتظار، يجأر كأسدٍ أسوَد اللبدة وقع في فخ، ويرسل لكماته إلى أي شخص تطاله. وعلى الرغم من أنه لطالما كان عاصف المزاج، لم أرَ الغضب يفقده الأهلية هكذا قط، إذ بدا أنه قد فقد قوة المنطق والخطاب الواضح تمامًا، وانكمش رجاله، أبطال الزرق الجبابرة، مبتعدين عنه، ودبّ الهياج في بقية جناح القصر.

مضيت إليه مباشرة، وتفاديتُ لكمة جامحة أخرى ثم صرختُ في وجهه: «**تانوس**! هذا أنا! ألجِم نفسك! بحق جميع الآلهة! هل جُننت؟».

كاد يضربني، ورأيتُه يصارع مشاعره حتى لجمها في آخر الأمر.

ثم أشار إلى الأجساد المبعثرة حول غرفة الاستراحة كأن معركة قامت فيها: «انظر كيف يمكنك مساعدتهم».

سرى بي الرعب عندما تعرفتُ **خِتخِت** بينهم، وهو نقيب قديم في الفوج ورجل أحترمه. كان منطويًا على نفسه في الركن بيدين قابضتين على بطنه، وعلى ملامحه الشديدة حُفِرَتْ مضاضة أملتُ أن لا أراها ثانية. لمستُ خده فوجدتُ جلده باردًا وميتًا.

هززتُ رأسي: «لقد جاوز أي مساعدة على يدي»، ورفعتُ جفنه بإبهامي فحدقت إلى عينه الميتة، ثم انحنيت وشممتُ فمه، وكانت رائحة الفطر الواهية النتنة مألوفة ألفة مخيفة.

وقفتُ قائلًا: «سُم. والبقية مثله». كانوا خمسة منكمشين على البلاط.

سألت **تانوس** بنبرة هادئة مُجبرة: «كيف؟»، ثم التقطتُ إحدى الزبادي المكوَّمة على الطاولة المنخفضة التي من الواضح أنهم تناولوا عشاءهم عنها، وشممتها، فوجدتُ رائحة الفطر أقوى.

اقترحتُ: «سل الطباخين»، ثم وفي فورة غضب مفاجئة، قذفتُ الزبدية إلى الجدار، فقد ذكرتني الأجساد المتكوِّمة بحيواناتي الأليفة التي ماتت الميتة نفسها، وكان **خِتخِت** صديقي.

أخذتُ نفسًا عميقًا لأهدئ نفسي قبل أن أسأل: «لقد فرَّ سجينك من دون شك، صحيح؟» ولم يجبني، بل قادني إلى مخدع الوزير الأعظم، ورأيتُ من فوري اللوح المطلي الذي نُزِعَ من الجدار البعيد للغرفة الفارغة، والفتحة المخبأة وراءه.

سألني **تانوس** ببرود: «أكنتَ تعلم بوجود ممر سري؟»، فهززتُ رأسي.

خرج صوتي مستسلمًا: «ظننتُ أنني أعرف كل أسراره، لكنني كنتُ مخطئًا». أحسبُ أنني عرفتُ في صميمي منذ البداية أننا لن نتمكن من وضع **إنتف** بين يدي العدالة، فهو في حظوة الآلهة المظلمة ويتمتع بحمايتها.

قال **تانوس**: «لقد حبستُه في المستودع مع الزعماء، لكن ابني **إنتف**، **مينسيت** و**سوبيك**، اختفيا. أكاد أجزم أنهما من رتب مقتل رجالي وفرار أبيهما (كان **تانوس** قد استعاد السيطرة تمامًا على مزاجه الجامح، لكن غضبه لا يزال تحته)، أنت تعرف **إنتف** حق المعرفة يا **تايتا**. ماذا سيفعل؟ أين سيذهب؟ كيف أمسك به؟».

- ثمة شيء واحد متأكد منه، وهو أنه خطَّط سلفًا ليوم كهذا. أعرف أن له كنز مخزَّن في المملكة السفلى، وتجار ومحامون هناك. حتى إنه أقام تجارة مع الفرعون الزائف، وأحسب أنه باعه وجنرالاته معلومات عسكرية، لذا سيتلقى ترحيبًا ودودًا في الشمال.
- لقد أرسلتُ بالفعل خمسة قوادس إلى الشمال، وأمرت رجالي بتفتيش جميع المراكب التي يعبرونها.
- له أصدقاء في الجانب الآخر من البحر الأحمر، وقد أرسل كنزًا إلى التجار في **غزة** على سواحل البحر الشمالي ليحفظوه له. كان له تعاملات مع البدو، والكثير منهم يتلقون رواتب منه. سيساعدونه على عبور الصحراء.
- بحق **حورس**! إنه كجرذ أمام جحره دزينة طرق للهرب. كيف لي أن أغطيها كلها؟

- لا يمكنك. والفرعون الآن ينتظر شهود الإعدامات. عليك أن تبلغه بما جرى.

- سيغضب الملك، وله كل الحق في ذلك، فقد فشلتُ في واجبي بسماحي لإنتف بالهرب.

لكن **تانوس** كان مخطئًا، فقد تلقى الملك أنباء فرار **إنتف** برباطة جأش استثنائية، ولا يمكنني اكتناه سبب ذلك، إلا أن الكنز الهائل الذي حصل عليه فجأةً ربما ليَّنه، ولعله في قرارته، لا يزال يكن بعض العاطفة الخفيَّة لوزيره الأعظم. ومن ناحية أخرى، فقد كان الفرعون رجلًا عطوفًا، وربما لم يتلذذ حقًّا بفكرة مشاهدة السيد **إنتف** يُسمَّر على بوابات المدينة.

صحيح أنه أظهر بعض الانزعاج العابر، وتكلم عن خداع العدالة، لكنه ظل طيلة الوقت الذي قضيناه في حضرته يتفحص خلسة بيان الكنز، وحتى عندما اعترف **تانوس** بمسؤوليته عن فرار السجين، لم يقم وزنًا لاعترافه.

- الخطأ خطأ قائد الحرس، وقد نال عقابًا كافيًا بزبدية السم التي قدمها **إنتف** له. أرسلتَ قوادس وجنودًا بحثًا عن الفار، وفعلتَ كل ما يُنتظر منك فعله يا سيد **حاراب**. لم يبقَ إلا أن تنفذ حكمي على بقية المجرمين.

سأله **تانوس**: «هل الفرعون مستعد لشهود الإعدام؟»، وراح الفرعون يبحث حوله عن عذر ليبقى مع بياناته وتقارير جباة ضرائبه.

- عندي أعمال كثيرة هنا يا سيد **تانوس**. أكمل من دوني، وأبلغني بعد أن تُنفذ الأحكام.

***

كان الاهتمام العام بالإعدامات عظيمًا حتى إن أعيان المدينة نضبوا منصب **تايتا** أمام البوابة الرئيسة وتقاضوا خاتمًا فضيًا أجرة المقعد عليه. ولم يكن الزبائن قلائل، فقد امتلأ المنصب بالكامل، وفاضت الحشود التي لم تتمكن من تحصيل مجلس عليه إلى الحقول وراء الأسوار. جلب العديد منهم جعة ونبيذًا ليجعلوا الأمر احتفالًا، وليشربوا نخب الزعماء بينما يمرون، فالذين لم يعانوا بطش الصردان قلة، والذين خسروا أزواجهم أو إخوتهم أو أبناءهم كثر.

قِيد المدانون، عُراة ومقيدين كما أمر الفرعون، في شوارع **الكرنك**، فسطَّر الحشد طريقهم، وراحوا يقذفونهم بالروث والقذارة في أثناء مرورهم

ويصرخون بالشتائم ويهزون قبضاتهم، بينما يرقص الأطفال أمام الطابور ويغنون مقاطع من أهزوجة ركيكة ارتجلوها من وحي اللحظة:

في قدميَّ مسامير ومؤخرتي المكشوفة نحو السماء،
أنا زعيمٌ وهكذا أفارق الحياة.

نزولًا عند رغبات مولاتي، اتخذتُ مجلسًا على المنصب لأراقب تنفيذ الحكم، وفي الحقيقة، لم تنتبه عيناي لجواهر نساء الموضة وملابسهن من حولي عندما اقتِيد السجناء أخيرًا عبر البوابة المفتوحة، بل نظرتُ إلى راسفر بدلًا من ذلك وحاولت إحياء كرهي له وتضخيمه. أجبرتُ نفسي على تذكر كل فعل وحشيٍّ وأثيم ارتكبه بحقي، على استحضار مضاضة السوط والسكين اللذين أعملهما بي، لكنه وقف هناك بكرشٍ يكاد يتدلى حتى ركبتيه، في شعره غائط والقذارة تخطط وجهه وتتزلق على جسده البشع، وشقَّ عليَّ كرهه بالقدر الذي يستحق.

رآني على المنصب وابتسم لي، فجعلها شلل عضلات أحد جانبي وجهه نصف ابتسامة فقط، كشرة هازئة، وصاح: «شكرًا لمجيئك حتى تتمنى لي رحلة موفقة أيها الخصي. ربما نلتقي ثانية في حقول الفردوس، حيث آمل أن أتمتع بقطع خصيتيك ثانية».

كان ينبغي لذلك الاستهزاء أن يسهِّل عليَّ كرهه، لكنه فشل بطريقة ما، رغم أنني رددتُ عليه: «لستَ بذاهب إلى أبعد من قاع النهر يا صديقي القديم. سأسمي سمكة السلُّور التي سأشويها بالسيخ تاليًا راسفر».

وكان أول السجناء الذين رُفعوا على البوابة الخشبية. بينما تطلب الأمر ثلاثة رجال على متراس الباب يشدون الحبل، دفعه أربعة آخرين من الأسفل، وثبتوه هناك ريثما تسلق أحد صناع الأسلحة في الفوج السلم بجواره وفي يده مطرقة حجرية الرأس.

توقف فم راسفر عن نطق الدعابات عندما اخترق أول مسمار نحاسي ثخين لحم قدمه الضخمة المتقرِّنة وعظمها، بل أخذ يجأر ويشتم ويبرم في قبضات الرجال الممسكين به، وهلَّل الحشد وضحكوا وشجعوا صانع السلاح المتعرِّق.

ولم تظهر عيوب هذه العقوبة الجديدة جليةً حتى وصلت المسامير إلى مستقرها ونزل الطرَّاق ليستبدع عمله، إذ بينما جأر **راسفر** وعوى تأرجح رأسًا على عقب، وراحت الدماء تقطر ببطء على ساقيه وقد انعكس تدلِّي كرشه المتهدِّل وأخذ عنقود أعضائه الضخم المُشعر يخبط بسُرَّته. وبينما يتلوَّى ويقاوم، شقَّت المسامير ببطء نسيج اللحم بين أصابع قدميه حتى تمزَّق بالكامل، وسقط على الأرض يتخبَّط كسمكة قُذفت إلى الشاطئ، فأحب المتفرجون العرض، وأخذوا يوعوعون بهجة لغرابته.

بتشجيع من المتفرجين، رفعه الجلادون مرة ثانية إلى البوابة، وعاد صانع الأسلحة بمطرقته إلى السلم ليدقَّ المزيد من المسامير، ومن أجل إحكام تثبيت **راسفر** ومنعه من المقاومة، أمر **تانوس** بمسمرة يديه إلى البوابة أيضًا.

وكانت هذه المرة أنجع، إذ تدلى **راسفر** رأسًا على عقب بأطراف منشورة كنجم بحر بالغ البشاعة، وكف عن الخوار، فكتلة الأمعاء في بطنه مرتخية تضغط على رئتيه، ما جعله يكافح من أجل كل نفس يأخذه، لذا لم يبق عنده ما يكفي للصراخ.

ثم بينما يسخر الحشد ويصفق رُفع المدانون واحدًا واحدًا إلى البوابة ومُسمروا عليها، وكان **باستي** المتوحش الوحيد الذي لم يُصدر أي صوتٍ وضنَّ عليهم بالتسلية.

أخذت الشمس تضرب الضحايا المصلوبين بسياطها مع مرور الوقت الثقيل، واشتدَّت الحـ ارة بثبات، وبحلول الظهيرة، كان الألم والعطش وفقدان الدماء قد أضعف السجناء حتى تدلوا بصمت كالذبائح على خطافات الجزار، فبدأ اهتمام المتفرجين يفتر ورحلوا شيئًا فشيئًا. صمد بعض الزعماء أكثر من بعض، وظل **باستي** يتنفس طيلة ذلك اليوم، وعند غروب الشمس، أخذ نفسًا عميقًا مرتجفًا وتدلى جامدًا أخيرًا.

كان **راسفر** أصلب الجميع، وظل متشبثًا بالحياة وقتًا طويلًا بعد رحيل **باستي**. امتلأ وجهه دمًا قاتمًا فتورَّم وبلغ ضعف حجمه الطبيعي، ونتأ لسانه من بين شفتيه، سميكًا كشريحة من كبدٍ أرجواني. وبين الحين والآخر، كان يلفظ أنةً عميقة وترفرف عيناه منفتحتين، وكلما حدث ذلك، كنت أشاركه عذابه، فقد ذوَت آخر أغصان كرهي له وماتت قبل وقت طويل، وأضنتني الشفقة، كما كنتُ لأشعر إزاء أي حيوان مُعذَّب.

كان الجمع قد تفرَّق منذ زمن بعيد، وجلستُ وحيدًا على المنصة الخالية. التزم **تانوس** بوظيفته حتى الغروب من دون أي محاولة لإخفاء اشمئزازه من هذه المهمة الوحشية التي حمَّله إياها الملك، ثم في آخر المطاف، سلَّم نوبة الموت لأحد نقبائه، ووسَّع خطاه متجهًا إلى المدينة تاركًا إيانا في نوبة حراستنا.

لم يبق إلا الحراس العشرة أسفل البوابة، وأنا على المنصة، وبضعة متسولين متمددين كالسجاد المحزوم تحت السور، ثم ذَوَت المشاعل على جانبي البوابة وارتجفت في نسيم الليل القادم من النهر، فألقت ضوءًا مخيفًا على مشهد الموت.

أنَّ **راسفر** ثانية، ولم يعُد بمقدوري احتمال ذلك، فأخذتُ إبريق جعة من سلتي ونزلتُ لأكلم النقيب. كنا قد تعارفنا في الصحراء، وضحك وهزَّ رأسه ردًّا على طلبي: «إنك أحمق ليِّن القلب يا **تايتا**. لقد أوشك هذا النغل أن ينقضي، ولا يستحق القلق حياله، لكنني سأنظر إلى الاتجاه الآخر قليلًا، استعجل».

مضيتُ إلى البوابة، وكان رأس **راسفر** على مستوى رأسي، فناديتُ اسمه بلين، وانفتح جفناه مرتجفين. لا يمكنني معرفة مقدار ما فهمه، لكنني همستُ له: «معي بعض الجعة تبلُّ لسانك بها».

بينما تحدق عيناه إليَّ أصدر حلقه صوت بلع ضعيف. كنت أعرف أن ظمأه -إن كان لا يزال يشعر- عذاب من عذابات الجحيم، فقطرتُ بضع قطرات من الإبريق على لسانه، محترزًا أن لا يسيل شيء منها إلى أنفه، وبذل جهدًا واهيًا وعقيمًا ليبلع، لكن ذلك مستحيل حتى لو كان أقوى، فخرج السائل من ركني فمه وسال على خديه ثم إلى شعره الذي صار قرصًا من الروث.

أغمض عينيه بعد ذلك، وكانت تلك اللحظة التي أنتظرها، فاستللتُ خنجري من طيات شالي، ووضعتُ سنَّه بحذرٍ وراء أذنه، ثم أولجته بحركة رشيقة حتى مقبضه. تقوَّس ظهره بفعل التشنج الأخير، ثم ارتخى ميتًا، فأخرجتُ النصل، ولم يسِل إلا قدر قليل جدًّا من الدم، ثم أخفيته في شالي واستدرتُ مبتعدًا.

نادى نقيب الحرس من ورائي: «عسى أن تخفف عنك أحلام الفردوس ثقل الليل يا **تايتا**»، لكنني كنتُ قد ضيعتُ صوتي ولم أستطع الرد. لم يمرَّ ببالي أنني سأبكي على **راسفر** قطُّ، ولعلي لم أفعل، بل ربما بكيت على نفسي.

***

أُرجِئَتْ عودة الحاشية إلى **الفنتين** شهرًا مبدئيًا بأمر من الفرعون، فعلى الملك التصرف بكنزه الجديد، وجعله ذلك في مزاج مبتهج. لم أره طوال معرفتي به على هذا القدر من السعادة والرضى، وسُررت له، فبحلول هذا الوقت، صرتُ أكنُّ للعجوز عاطفة حقيقية ودافئة، وكنتُ أسهر معه ونسَّاخيه في بعض الليلات نراجع حسابات الخزانة الملكية التي باتت ترسل وهجًا باعثًا على التفاؤل بلا ريب.

في أوقات أخرى، كان الفرعون يستدعيني لاستشارتي بخصوص تعديلات معبد المدفن والمقبرة الملكية التي ازدادت قدرته على احتمال تكاليفها، وبناء على حساباتي، سيذهب نصف الكنز المكتشف حديثًا مع الفرعون إلى القبر، فقد اختار أفخر الجواهر من مخزون **إنتف**، وأرسل نحو خمسة عشر تاخًا من السبائك لصائغي الذهب في معبده ليحولوها إلى أغراض جنائزية.

وعلى الرغم من ذلك، وجد في وقته فسحة أرسل فيها بطلب **تانوس** ليمدَّه بالمشورة في القضايا العسكرية، فقد بات معترفًا **بتانوس** على أنه أحد أبرز قادة جيشه.

وحضرتُ بعض هذه الاجتماعات. كان تهديد الفرعون الزائف في المملكة السفلى حاضرًا دائمًا وشاغلًا فكرنا جميعًا، وقد بلغت حظوة **تانوس** لدى الفرعون أن تمكن من إيضاح معظم هذه المخاوف وإقناعه بتحويل جزء صغير من كنز **إنتف** لبناء خمسة أسراب جديدة من القوادس، وإعادة تزويد جميع أفواج الحرس بأسلحة وصنادل جديدة، على أنه عجز عن إقناعه بتعويض المتراكم من رواتب الجيش، فالعديد من الفيالق لم يتلقَّ أجرًا طيلة نصف السنة الماضية. ارتفعتْ معنويات الجيش أيَّما ارتفاع إثر هذه الإمدادات، وعرف كل جندي لمن يرجع الفضل في ذلك، فزأروا كالأسود رافعين قبضاتهم اليمنى تحية عندما تفحص **تانوس** تشكيلاتهم المتجمِّعة.

في معظم المرات التي استُدعي فيها **تانوس** إلى الحضرة الملكية، وجدتْ مولاتي عذرًا لتحضر، ورغم أنها تحلَّت بحسن الإدراك وظلت متوارية عن الانتباه في هذه المناسبات، كانت هي **وتانوس** يلقي أحدهما إلى رفيقه نظرات خفتُ أن تحرق لحية الفرعون الزائفة. لكن من حسن حظنا أن أحدًا غيري لم ينتبهْ لرسائل الشغف البارقة هذه.

وكلما عرفت مولاتي أنني سألتقي **بتانوس** على انفراد، حمَّلتني رسائل طويلة لاعجة له، فأحمل في طريق عودتي ردوده التي تضاهيها طولًا واتقادًا.

ومن حسن حظي أن هذه السيول الجياشة كانت متكررة إلى حد كبير، فلم يشقّ عليَّ حفظها.

لم تسأم مولاتي قطُّ من حثي على إيجاد حيلة ما تمكنها و**تانوس** من الانفراد مرة أخرى، وأعترف أنني خفتُ على نفسي وعلى سلامة مولاتي وجنيننا خوفًا منعني من تكريس طاقتي وعبقريتي كلها لتلبية طلبها هذا. مرة واحدة فاتحتُ **تانوس** بدعوة مولاتي إياه إلى لقاء، فتنهد ورفض رفضًا رافقه الكثير من توكيد حبه لها.

- لقد كان ذاك الفصل في مقبرة **تراس** جنونًا محضًا يا **تايتا**. لم أنوِ هتك شرف السيدة **لوستريس** قط، ولولا *الخماسين* لما حدث ذلك أبدًا. لا يمكننا المجازفة ثانية. أخبرها أنني أحبها أكثر من الحياة نفسها، وأن وقتنا سيحين، فقد وعدتنا متاهات **آمون رع** بذلك. أخبرها أنني سأنتظرها طيلة أيام حياتي.

عندما تلقَّت مولاتي رسالة الحب هذه، خبطت الأرض بقدمها، ودعَت حبها الحقيقي بالأحمق العنيد الذي لا يهتم لأمرها البتة، ثم كسرَت كأسًا وزبديتين من الزجاج الملون، وألقَت مرآة مُرصَّعة بالجواهر كانت هدية من الملك إلى النهر، وأخيرًا رمَت نفسها في السرير حيث ظلت تبكي حتى العشاء.

***

إلى جانب واجباته العسكرية، من بينها الإشراف على بناء أسطول القوادس الجديد، انشغل **تانوس** في تلك الأيام شديد الانشغال بتنظيم أملاك أبيه التي ورثها أخيرًا.

كان يشاورني في هذه المسائل يوميًا تقريبًا، ولا مفاجأة في أن الصردان لم ينهبوا هذه الأملاك عندما كانت ملكًا للسيد **إنتف** البتة، لذا تسلَّمها مزدهرة ولا تحتاج إلى صيانة، فصار **تانوس** بين عشية وضحاها أحد أثرى الرجال في المملكة العليا. ورغم محاولتي إقناعه بالعدول عن ذلك، أنفق الكثير من ثروته الخاصة في سداد رواتب رجاله المتأخرة وإعادة تجهيز زُرقه الأحباء. وبالطبع، أحبه رجاله أكثر لسخائه.

وعندما لم تُرضِه هذه النفقات المسرفة، أرسل نقباءه **كراتاس** و**رمرِم** و**أستيس** ليجمعوا المحاربين الذين أعمتهم معارك النهر وأقعدتهم، والذين باتوا يعيشون بالتسوُّل في شوارع **طيبة**، فعيَّن هذه الحثالة في إحدى فيلاته

الريفية الكبيرة التي شكلت جزءًا من ميراثه، وعلى الرغم من أن فضلات الطعام وقمامة المطبخ كثيرة عليهم، فقد أطعمهم اللحم وكعك الذرة والجعة. وصار عامة الجند يهللون **لتانوس** في الشوارع ويشربون نخبه في الحانات.

عندما أبلغتُ مولاتي بتبذير **تانوس** المخبول، تحمَّسَت إلى درجة أنها أنفقت من فورها مئات الدبنات من الذهب الذي كسبتُه لها في شراء وتجهيز دزينة من المباني التي حولتها إلى مستشفيات وأنزال لفقراء **طيبة**. كنتُ قد رصدتُ هذا الذهب للاستثمار في سوق الذرة، ولم تتحرك مشاعرها رغم أنني شبكتُ يدي وتوسَّلت إليها.

ولا حاجة إلى القول إن العبد **تايتا** طويل البال كان المسؤول عن الإدارة اليومية لحماقة مولاته الأخيرة هذه، رغم أنها كانت تزور منازلها الخيرية كل يوم. وهكذا، صار بإمكان أي متسكِّع وسكِّير في المدينتين التوءمتين اختلاس وجبة مجانية وسرير مريح منا. وإن لم يكن ذلك كافيًا، فيمكنه أن يحصل على زبدية حساء من يد مولاتي شخصيًّا، وعلاج لقروحه السيَّالة وأحشائه المسهَّلة على يد أحد أبرز أطباء مصر.

تمكنتُ من إيجاد بعض النساخين الشبان العاطلين عن العمل والكهنة المستائين الذين يحبون الناس أكثر من الآلهة والمال، فوظفتهم مولاتي، وقدتُ هذه العصبة الصغيرة في رحلات صيد ليلية إلى أزقة المدينة الخلفية وأحيائها الفقيرة. جمعنا في الليل يتامى المدينة. كانوا ثُلة قذرة من الهمج الصغار المدوِّدين، وقلة قليلة منهم رافقتنا عن طيب خاطر، فاضطُررنا إلى مطاردتهم وإمساكهم كالقطط البرية، ونلتُ الكثير من العضات والخموش البالغة في عملية تحميم أجسادهم الضئيلة المغطاة بالقذارة وحلق شعورهم التي ملأها القمل والصئبان حتى صار مرور المشط فيها محالًا.

أسكنَّاهم في أحد أنزال مولاتي الجديدة حيث شرع الكهنة في عملية ترويضهم الشاقة، وبدأ النساخون درب تعليمهم الطويل. فرَّ معظم أسرانا في الأيام القليلة الأولى وعادوا إلى البالوعات التي ينتمون إليها، لكن ظل بعضهم في النزل، وأبهج تحولهم البطيء من حيوانات إلى بشر مولاتي ومنحني حُبورًا أكثر مما توقعتُ نيله من مصدر بعيد الاحتمال كهذا أبدًا.

ضاعت سُدى جميع احتجاجاتي على طريقة تبديد مولاتي لثروتنا، وأقسمتُ إنني إن حُنطتُ وسجيتُ في قبري قبل أواني، فكامل اللوم في ذلك

على هذين المغفلين الصغيرين الذين أخذتهما تحت جناحي، والذين كافآني بالتجاهل المستمر لخير نصائحي.

ومن الغني عن البيان أن مولاتي، لا أنا، كانت من تلقى بركة الأرامل والمقعدين وهداياهم الصغيرة البائسة من زهور برية ذابلة ومسابح رخيصة وجذاذات برديٍّ متهرئة تحوي نصوصًا مكتوبة بطريقة سيئة من كتاب الموتى. صارت عندما تمشي في الخارج، يرفع العامة أطفالهم ليتلقوا بركتها ويحاولون لمس حاشية تنورتها كأنها تميمة دينية ما، فقبّلت أطفالهم القذرين، الأمر الذي حذرتها أنه سيعرض صحتها للخطر، وفرّقت القطع النحاسية على المتسكّعين بعناية شجرة تلقي أوراقها الخريفية.

قالت لي: «هذه مدينتي يا **تايتا**. أحبها وأحب كل امرئ فيها. أوه يا **تايتا** كم أخشى العودة إلى **إلفنتين**، وأكره ترك **طِيبتي** الجميلة».

سألتها: «أهي المدينة ما تكرهين تركه؟ أم إنه جندي فظ مُعيَّن؟» فلطمتني، لكنْ لطمةً خفيفةً.

- ألا يوجد ما تقدسُه؟ ولا حتى الحب الصافي الحقيقي؟ إنك بربريٌّ في صميمك رغم جميع لفائفك ولغتك الرفيعة.

***

وهكذا راحت الأيام تمرُّ سريعًا على جميعنا، حتى شاورت تقويمي ذات صباح واكتشفتُ أن شهرين قد مرَّا منذ استأنفت مولاتي واجباتها الزوجية في سرير الفرعون. ورغم أنها ما زالت لم تظهر أي دليل على حالها، فقد آن أوان إعلام الملك بعظمة حسن حظه، وأبوَّته الوشيكة.

عندما أخبرتُ مولاتي بما أنوي، استحوذت على تفكيرها مسألة واحدة فقط، فأرغمتني على وعدها بإعلام **تانوس** أنه الأب الحقيقي لجنينها قبل أن أناقش الأمر مع الملك، وانطلقتُ لأفي بوعدي في تلك الظهيرة نفسها. وجدتُ **تانوس** في حوض السفن على الضفة الغربية للنهر، يشتم نجاري السفن ويهدد بإلقائهم في النهر طعامًا للتماسيح، فنسي غضبه عندما رآني، ودعاني إلى متن القادس الذي أطلقوه في ذلك الصباح. أراني، بفخر، المضخة الجديدة المخصصة لتفريغ الماء من بطن السفينة إذا ما تعرضت السفينة لضرر ما في المعركة، وبدا أنه نسي أنني من صمم له المعدات، فاضطُرِرت إلى تذكيره بلباقة.

صفعني على ظهري قائلًا: «قريبًا ستطلب مني ثمن أفكارك أيها النذل العجوز، أقسم إن بُخلك يضاهي بُخل التجار السوريين»، وقادني إلى الطرف القصيّ من سطح السفينة حيث لا يمكن للبحارة سماعنا، ثم أخفض صوته، وقال: «كيف حال مولاتك؟ حلمتُ بها ثانية ليلة البارحة. أخبرني، أهي بخير؟ وكيف حال أيتامها الصغار؟ أي قلب مُحبٍّ تمتلك! وأي جمال! إن **طيبة** كلها تعشقها. حيثما ذهبتُ أسمع اسمها، وتخترق موسيقاه صدري اختراق الرمح».

قلت له: «قريبًا سيكون عندك اثنان منها تحبهما (وحدق إليَّ فاغرًا فمه كرجل حُرم حواسه فجأة)، لم تكن *الخماسين* الحادث الوحيد في تلك الليلة بمقبرة **تراس**، بل جرى ما هو أكثر بكثير».

فأخذني في عناق قويٍّ قطع أنفاسي: «ما هذه الأحجية؟ تكلم بوضوح وإلا ألقيتك في النهر. ما الذي تقوله أيها العجوز الشقي؟ لا تتلاعب بالكلام معي!».

قلت: «إن السيدة **لوستريس** حُبلى بطفلك، وقد أرسلتني لأخبرك بذلك كي تكون أول العارفين، قبل الملك حتى (وشهقتُ)، والآن أطلقني قبل أن أُصاب بعاهة دائمة»، فتركني فجأة حتى كدتُ أقع عن السفينة.

صاح: «طفلي! ابني! (وكان من المذهل أن كليهما افترض هذا الافتراض المباشر بخصوص جنس المسكين الصغير)، إنها معجزة. هدية من **حورس** نفسه»، ورأى **تانوس** بوضوح في تلك اللحظة أنه لا رجل سواه في تاريخ العالم قد أنجب طفلًا من قبل.

هزَّ رأسه في دهشة: «ابني! (وكان يبتسم كالمغفلين)، امرأتي وابني! يجب أن أذهب إليهما في هذه اللحظة»، وشرع يهبط عن السفينة، فاضطررتُ إلى الركض حتى أمسك به، واستعنتُ بكامل قدرتي على الإقناع لأمنعه من اقتحام القصر والاندفاع إلى الحريم الملكي، وفي النهاية، أخذته إلى أقرب حانة على جانب النهر لنشرب احتفالًا بالطفل. وجدنا، من حسن الحظ، مجموعة من الزرق يشربون هناك في خارج ساعات دوامهم، فطلبتُ برميلًا من أفخر نبيذ في الحانة ودفعت ثمنه وتركتهم عليه. كان في الحانة بعض الرجال من فوج آخر، لذا من المرجح أن يشتعل الشغب لاحقًا، ذلك أن **تانوس** في مزاج صاخب ولم يسبق أن احتاج الزرق إلى تشجيع على القتال قطُّ.

ذهبتُ من الحانة إلى القصر مباشرة، واغتبط الفرعون لمرآي: «كنتُ موشكًا أن أرسل في طلبك يا **تايتا**. لقد رأيتُ أننا بخلنا أكثر من اللازم على بوابة مدخل معبدي. أريدُ شيئًا أفخم...».

صحتُ: «أيها الفرعون! يا عظيم مصر ومقدسها! في جعبتي أنباء مذهلة! لقد برَّت الإلهة **إيزيس** بوعدها لك، وستبلغ سلالتك الخلود. ستتحقق نبوءة متاهات **آمون رع**. لقد داست حوافر ثور مصر القدير قمر مولاتي! إن السيدة **لوستريس** حُبلى بابنك!».

للمرة الأولى، غابت جميع أفكار الجنائز وبناء المعبد عن خلد الفرعون، ومثل **تانوس**، أملَت عليه غريزته الأولى الذهاب إليها، فهُرعنا بقيادة الملك في جدولٍ من النبلاء وأهل البلاط مضطربٍ كالنيل في فيضانه عبر أروقة القصر، وكانت مولاتي تنتظرنا في حديقة الحريم. وبالدهاء الأنثوي الفطري، رتّبت الجوّ ترتيبًا مثاليًّا ليظهر بهاؤها بوجهه الأكمل، فجلست على مقعد خفيض تحيط بها أحواض الزهور، والنهر الواسع من ورائها. ظننتُ للحظة أن الملك قد يركع على ركبتيه أمامها، لكن حتى احتمال الخلود ما كان لينسيه وقاره إلى هذا الحد.

بدلًا من ذلك، أغرقها بالتهانئ والإطراءات والتساؤلات المتشوقة عن صحتها، ونظرته الذاهلة مثبتة طيلة الوقت على بطنها الذي ستظهر منه المعجزة بعد انقضاء الوقت الكافي. سألها أخيرًا: «يا طفلتي العزيزة، أثمة ما يحول دون سعادتك؟ أثمة شيء ما يمكنني فعله لترتاحي أكثر في خلال هذه الفترة المرهقة من حياتك؟».

ومرة جديدة، ملأني الإعجاب بمولاتي. كانت لتنجح بصفة جنرال أو تاجر ذرة، ذلك أن حسَّ التوقيت عندها لا يشوبه عيب، إذ قالت: «يا صاحب الجلالة، إن **طيبة** مسقط رأسي، ولا يمكنني أن أسعد حق السعادة في أي مكان آخر بمصر. أتوسَّل إليك بسخائك وتفهُّمك أن تسمح بولادة ابنك في **طيبة**. أرجوك لا تُرجعني إلى **إلفنتين**».

حبستُ أنفاسي، فموقع البلاط شأن من شؤون الدولة، ونقله من مدينة إلى أخرى قرار يؤثر في حيوات آلاف المواطنين، لا قرار يُتخذ بناء على نزوة طفلة لم تبلغ السادسة عشرة بعد.

بدا الفرعون ذاهلًا إزاء الطلب، وهرش لحيته الزائفة: «تريدين العيش في **طيبة**؟ حسن جدًّا، إذن سننتقل البلاط إلى **طيبة**! (والتفت إليَّ)، صمِّم لي

قصرًا جديدًا يا **تايتا**، (ثم عاد بنظره إلى مولاتي)، ما رأيك أن نبنيه هناك على الضفة الغربية يا عزيزتي؟»، وأشار إلى الطرف الآخر من النهر.

فوافقته مولاتي: «إن المكان منعش وجميل على الضفة الغربية. سأسعد جدًا هناك».

- على الضفة الغربية يا **تايتا**، ولا تبخل بالتصميم. يجب أن يكون منزلًا مناسبًا لابن الفرعون. سيحمل اسم **مِمنون**، حاكم الفجر، وسنسميه قصر **مِمنون**.

وبهذه السهولة والبساطة، حمّلت مولاتي سَرجي جبلًا من العمل، وأعدّت الملك لسلسلة من المطالب باسم الطفل في رحمها. من تلك اللحظة وصاعدًا، لم يخالج الفرعون ميلٌ إلى منعها عن أي شيء تطلبه، سواء أكان ألقابًا فخرية للذين تحبهم أو يعجبونها، أم صدقات للذين أخذتهم تحت جناح حمايتها، أم أطباقًا نادرة وغريبة جُلبت لها من أقاصي الإمبراطورية. وأظن أنها، مثل طفل شقيٍّ، استمتعت باختبار حدود هذه القدرة الجديدة التي سيطرت بها على الملك.

لم تكُن مولاتي قد رأت الثلج قطُّ، لكنها سمعتني أتكلم عنه من شظايا ذكريات طفولتي عن البلاد الجبلية التي وُلدتُ فيها، فطلبت أن يُجلب لها منه ما يبرِّد جبهتها في حرِّ وادي النيل، وأمر الفرعون من فوره بإقامة ألعاب رياضية خاصة اختير فيها أسرع مئة عدَّاء في المملكة العليا، وأُرسلوا إلى سوريا ليجلبوا الثلج في صناديق خاصة من تصميمي غايتها منعه من الذوبان. أظن أن هذه الرغبة كانت الوحيدة التي لم تُشبَع، فكل ما وصلنا من تلك القمم الجبلية القصيَّة كان رقعة مبللة في قعر كل صندوق.

أما بقية رغباتها فلُبيت جميعها. في إحدى المرات، كانت حاضرة عندما قدم **تانوس** تقريرًا للملك عن نظام المعركة الخاص بالأسطول المصري. ظلت جالسة بصمت في الخلفية حتى أنهى **تانوس** تقريره وغادر، ثم عقّبت بهدوء: «سمعتُ أن السيد **تانوس** أفضل جنرالاتنا. ألا ترى يا زوجي الإلهي أن من الحكمة ترقيته إلى رتبة **أسد مصر العظيم** وتعيينه قائدًا على الفيلق الشمالي؟» وشهقتُ مرة ثانية أمام جسارتها، لكن الفرعون أومأ بتفكُّر.

- مرّت الفكرة نفسها ببالي يا عزيزتي، رغم أنه لا يزال صغيرًا جدًا على رتبة عليا كهذه.

وفي اليوم التالي، استُدعي **تانوس** إلى اجتماع ملكيٍّ خرج منه **أسد مصر العظيم** وقائد الجناح الشمالي من الجيش. احتيل على الجنرال العتيق الذي سبقه براتب تقاعدي ضخم وأُبعد إلى وظيفة شاغرة بين أهل بيت الملك، فصار **تانوس** قائدًا على ثلاثمئة قادس وما يقارب ثلاثين ألف رجل، ووضعته الترقية في المرتبة الرابعة بقوائم الجيش، لا يتقدمه إلا **نِمبِت** وزوج من العجائز المرتعشين.

أبلغتني السيدة **لوستريس**، كما لو أنني جاهل تمامًا لهذه الحقيقة: «إن السيد **تانوس** رجل أشمُّ (وهددتني وتوعَّدتني) وإن قلتَ له أبدًا إن لي يدًا في هذه الترقية، فسأبيعك لأول تاجر سوري أصادفه».

في هذا الوقت، كان بطنها، المستوي الرشيق فيما مضى، ينتفخ تدريجيًّا، وفوق جميع أشغالي الأخرى، أُلزمت بنقل نشرات يومية عن هذا التطوُّر، وليس إلى القصر فحسب، بل إلى المقر العام للجيش - القيادة الشمالية كذلك.

***

بدأتُ العمل على بناء قصر **مِمنون** بعد أن أعطاني الفرعون التوجيهات الأصلية بخمسة أسابيع، فقد استغرقني رسم المخطط النهائي تلك المدة، واتفقتْ مولاتي والملك على أن تصاميمي فاقت توقعاتهما، وأنه سيكون أجمل بناء في البلاد حتى الآن.

في اليوم نفسه الذي بدأ فيه العمل، رست في **طيبة** سفينة محملة بخشب الأرز قادمة من جبيل نجحت باختراق الحصار وعبور أساطيل المدَّعي الأحمر في الشمال عن طريق الرشوة، وكان قبطانها صديقًا قديمًا لي ويحمل أخبارًا شائقة.

أخبرني أولًا أن السيد **إنتف** قد شوهد في مدينة غزة، وقيل إنه يسافر في البلاد رفقة حرس شخصي غفير باتجاه الشرق، إذن لا بدَّ أنه نجح في عبور صحراء **سيناء**، أو وجد سفينة تحمله من خلال فم النيل ومن هناك إلى الشرق على امتداد ساحل البحر الكبير.

حمل القبطان أنباء أخرى بدت آنذاك غير مهمة، لكنها غيرت لاحقًا مصير مصرنا هذه وجميع القاطنين على امتداد النهر، إذ ظهر أن قبيلة جديدة محاربة لا شيء يقف في طريقها قد خرجت من بلاد مجهولة في شرق سوريا. لم يعرف أحد الكثير عن هؤلاء القوم المحاربين، إلا أنهم طوروا

شكلًا من أشكال الحرب لم يُرَ قبلًا، فكانوا قادرين على عبور مسافات شاسعة بسرعة شديدة، ولم يتمكن جيش من التصدي لهم.

لطالما شاعت شائعات منفعلة عن أعداء جدد موشكين أن يهاجموا مصرنا. سمعت خمسين واحدة من قبل، وقللتُ من شأن هذه كما قللت من شأن البقية، إلا أن القبطان كان مصدرًا موثوقًا في العادة، لذا ذكرتُ قصته أمام **تانوس** عندما التقينا.

فابتسم قائلًا: «لا أحد قادر على التصدي لهذا الخصم الغامض؟ أتمنى أن أراهم يواجهون فتياني، حينها سأعلمهم المعنى الحقيقي لكلمة «لا يُقهر». ما قُلتَ اسمهم؟ أولئك المحاربين الجبابرة الذين ينقضون انقضاض الريح؟».

أجبته: «يبدو أنهم يُسمون أنفسهم بالملوك الرعاة. **الهكسوس**»، وما كان الاسم لينزلق عن لساني بهذه السلاسة لو أني فهمتُ آنذاك ما سيعنيه لعالمنا.

قال: «الرعاة، ها؟ حسن، لن يجدوا زعراني قطيعًا تسهُل قيادته. (تجاهلهم باستخفاف، وكان مهتمًا أكثر بكثير بأخباري عن السيد **إنتف**)، لو أننا نعرف مكانه على وجه اليقين، لأرسلتُ سَريَّة من الرجال تعتقله وتُعيده ليواجه العدالة. حيثما مشيتُ في الأملاك التي كانت ذات مرة لعائلتي، أشعرُ بروح أبي بجواري، وأعرف أنه لن يرتاح أبدًا حتى أنتقم له».

هززتُ رأسي: «لكن ذلك ليس بالغ السهولة. إن **إنتف** ماكر كثعلب صحراوي، ولا أخالُ أننا سنراه في مصر ثانية»، قُلتُ ذلك، ولا بدَّ أن الآلهة المظلمة قهقهت فيما بينها.

***

مع تقدم حمل مولاتي، ألححتُ عليها حتى نجحتُ في حملها على حدِّ نشاطاتها، فمنعتُها من زيارة المستشفيات أو الميتم، خشية أن تصيب نفسها وجنينها بآفات الفقراء وأمراضهم، وفي حر النهار، جعلتُها ترتاح تحت الظُّلة التي بنيتها للوزير الأعظم في الحديقة المائية. وعندما احتجَّت على الملل الذي ينزله بها هذا الخمول الإكراهي، أرسل الفرعون موسيقييه إلى الحديقة لتسليتها، وأُقنعتُ بترك عملي في قصر **مِمنون** لأظل برفقتها، فأحكي لها قصصًا وأناقش آخر مناقب **تانوس** معها.

كنتُ صارمًا جدًا في أمر حميتها، فلم أسمح لها بأي نبيذ أو جعة، وأمرتُ بستانيي القصر بتوفير الفاكهة والخضار الطازجة يوميًّا، ونزعتُ كل الدهون

عن لحومها، لمعرفتي أنها ستجعل الطفل في بطنها كسلانًا. حضرتُ جميع وجباتها بنفسي، وفي كل ليلة عندما أقودها إلى مخدعها، كنت أمزج جرعة خاصة من الأعشاب والعصائر من شأنها تقوية جنينها.

وبالطبع، كلما أعلنتْ فجأة أنها تشتهي حساء أكباد الغزلان وكُلاها، أو سلطة ألسنة القُبَّرات، أو صدور الحباري المشوية، أرسل الملك من فوره مئة صياد إلى الصحراء يأتونها بهذه الأطايب. امتنعتُ عن إخبار السيد **تانوس** بهذا الوحام الغريب لمولاتي، ذلك أنني خشيتُ أن يُرسل الجيش الشمالي إلى الصحراء لصيد الغزلان أو القبرات أو الحباري بدلًا من شن الحرب على الفرعون الزائف.

ومع اقتراب يوم ولادتها، صرتُ أقضي الليل ساهدًا أرَقًا، فقد وعدتُ الملك بأمير، لكنه لم يتوقع أن يصل وريثه بهذه العجالة. حتى الإله بمقدوره حساب الأيام من اليوم الأول لمهرجان **أوزيريس**. ولا شيء يمكنني فعله إذا تبين أن الطفل أميرة، لكن على الأقل يمكنني تهيئة الملك لوصولها المبكر.

كان الفرعون قد نمَّى اهتمامًا بموضوع الحمل والولادة نافس هوسه بالمعابد والمقابر مؤقتًا، وكان عليَّ طمأنته يوميًا أن وركي السيدة **لوستريس** الضيقتين إلى حد ما ليسا عائقًا أمام الولادة الطبيعية، وأن سنها الحساسة، بعيدًا عن كونه مزعجًا، مفضل جدًا ليُختتم مشروعنا اختتامًا ناجحًا.

انتهزتُ الفرصة لأبلغه بالحقيقة المثيرة رغم قلة انتشارها والتي تقول إن الكثير من الرياضيين والمحاربين وحكماء التاريخ العظماء قد رأوا ضوء الشمس قبل أوانهم.

«أظن يا صاحب الجلالة أن ذلك يشبه إلى حد كبير حال الكسلان الذي يُطيل الاستلقاء في سريره، ويهدر طاقته في ذلك، بينما يستيقظ العظماء مبكرًا باستمرار. لاحظتُ أنك دائمًا ما تنهض قبل شروق الشمس أيها الفرعون الإلهي، ولن يفاجئني أن تكون مولودًا قبل أوانك أيضًا (وكنتُ أعرف أنه ليس كذلك، لكن بطبيعة الحال، لم يعُد بوسعه تكذيبي الآن)، سيكون من المبشِّر بكثير الخير أن يُحاكي أميرك أباه، ويندفع مبكرًا من رحم أمه». أملتُ أنني لم أستفض أكثر من اللازم في مقصد كلامي، لكن الملك بدا مقتنعًا بخطابتي.

في آخر الأمر، تعاون الطفل معنا تعاونًا رائعًا من خلال تجاوز ميعاده المحدد بأسبوعين تقريبًا، ولم أفعل شيئًا لأستعجله. فقد كان النطاق الزمني

قريبًا إلى الطبيعي قُربًا منع القيل والقال، لكن أُنعِم على الفرعون بولادة مبكرة بات يعتقد أنها مستحبَّة جدًّا.

لم يفاجئني أن بدأت مولاتي مخاضها في ساعة غير مؤاتية البتة، فقد نزل ماء رحمها في الهزيع الثالث من الليل، ولم يكن من عادتها تسهيل الأمور عليَّ، لكن منحني ذلك عذرًا على الأقل للتخلص من خدمات القابلة، إذ إنني لا أثق بأولاتك العجائز الشمطاوات ذوات الدماء السوداء اليابسة تحت أظفارهن الطويلة المسننة.

عندما بدأت مولاتي، أظهرت كفاءتها ورباطة جأشها المعهودتين، وبالكاد تسنى لي أن أنفض غبار النوم عني وأدعك يديَّ بنبيذ ساخن وأبارك أدواتي بلهيب السراج قبل أن تئنَّ وتقول بمرَح: «يستحسن أن تلقي نظرة أخرى يا تايتا، أظنُ أن شيئًا ما يحدث». فسايرتها رغم معرفتي أن الوقت لا يزال مبكرًا جدًّا، وكانت نظرة واحدة كافية، فصحتُ لإمائها.

- أسرعن أيتها العاهرات الكسالى! اجلبن الزوجات الملكيات!

ترنّحت أولى مجيبات النداء إلى الغرفة نصف عارية ونصف نائمة: «أيّهن؟».

قلت: «كلهن، أيٌّ منهن». لا يمكن أن يرث أميرٌ التاج المزدوج إلا إن حضر ولادته شهود ووُثِّقَ رسميًا أنه لم يُبدَّل.

بينما بدأت النساء الملكيات بالوصول كشف الطفل عن نفسه لأول مرة. كانت مولاتي تحت سطوة تشنج قاهر، ثم ظهرت قمة الرأس، وكنت خائفًا أن تتوّجها كومة من اللفائف الذهبية الحمراء، لكن ما رأيته كان فروةً كثيفةً داكنةً كفروة ثعلب الماء. مرّ وقت طويل حتى تبدل اللون وبدأ الأحمر بالتلألؤ في الخصلات السوداء كنقط من العقيق المصقول، وحتى آنذاك، لم يظهر إلا تحت شعاع الشمس.

صرختُ لمولاتي: «ادفعي! ادفعي بشدة!» واستجابت لي بهمَّة فاتَّسعت عظام حوضها الشابة التي لم تقسُها السنون بعد فاتحة للجنين ممرًّا مناسبًا. كان الممر مُزلقًا كما يجب، فأخذني الطفل على حين غرة إذ خرج كما تخرج الحجرة من المقلاع، وكاد الجسد الضئيل الزلق يفلت من يديَّ.

وقبل أن أحكم إمساكه، جاهدت مولاتي رافعة نفسها على مرفقيها وقد ألصق العرق شعرها بفروة رأسها وبدا شديد القلق على وجهها: «أهو صبي؟ أخبرني! أخبرني!».

كانت السيدات الملكيات اللاتي ملأن الغرفة واحتشدن حول السرير شاهدات على أول فعل فعله الطفل بعد أن دخل عالمنا، فقد أرسل الأمير، **ممنون** الأول، من قضيب بطول خنصري، نافورة كادت تبلغ السقف، وكنتُ في طريق هذا الجدول الدافئ فنقعني ثيابًا وجلدًا.

صرخت مولاتي ثانية: «أهو صبي؟»، وأجابتها دزينة من الأصوات معًا.

- إنه صبي! حيوا **مِمنون**، الأمير الملكي لمصر!

لم أكن قادرًا على الكلام بعد، إذ لم يكنِ البول الملكي وحده ما يحرق عينيّ، بل دموع الفرح والراحة عندما دوَت صرخة ولادته غاضبة ومنفعلة أيضًا.

لوَّح بذراعيه أمامي، وركل بقوة كادت تسقطه من يدي ثانية، وعندما اتضحت رؤيتي، تبينتُ الجسد القوي النحيل والرأس الصغير الشامخ ذا الشعر الداكن الكثيف.

***

نسيتُ منذ زمن بعيد عدد الأطفال الذين ولَّدتهم، لكن خبرتي كلها لم تحوِ شيئًا يجهزني لهذا. شعرتُ بكل الحب والإخلاص اللذين تمكنتُ من بلورتهما في تلك اللحظة، وعرفتُ أن شيئًا سيدوم طيلة حياتي، شيئًا سيزداد قوة مع كل يوم ينقضي، قد بدأ. عرفتُ أن حياتي قد اتخذت منعطفًا عشوائيًا آخر، وأن كل شيء قد تغير إلى الأبد.

بينما أقص الحبل السرّي وأحمِّم الطفل، غمرني شعور رهبة دينية لم ينتَبني مثله في مقدس أيٍّ من آلهة مصر العديدة، وأشبعتُ عيني وروحي من ذلك الجسد الضئيل المثالي وذلك الوجه الأحمر المغضَّن الذي طُبعت عليه علائم القوة والشجاعة العنيدة بوضوح كما طُبعت على ملامح أبيه الحقيقي.

ثم مددتُه بين ذراعي أمه، وعندما وجد حلمتها المنتفخة وتشبث بها كنمر يحكم فكه على عنق غزال، رفعتْ مولاتي نظرها إليَّ، وعجزتُ عن النطق، لكن

في تلك اللحظة لم تكُن الكلمات قادرة على صياغة ما تبادلناه بصمت. عرف كلانا أنه قد بدأ؛ شيء رائع إلى درجة أن أحدًا منا لم يستوعبه بالكامل بعد.

تركتُها تعيش فرحة ابنها وذهبتُ لأبلغ الملك، ولم أستعجل، إذ كُنت أعرف أن الأنباء بلغته منذ وقت بعيد، فالسيدات الملكيات لا يشتهرن بتكتُّمهن، وعلى الأرجح أنه في طريقه إلى الحريم في هذه اللحظة.

تلكأتُ في الحديقة المائية، يتملَّكني شعور حالمٌ باللاواقعية. كان الفجرُ ينبلج، وإله الشمس **آمون رع** قد أظهر رأس قرصه الملتهب من فوق التلال الشرقية، فصليتُ همسًا صلاة شكر له، ثم نهضت رافعًا بصري ورأيت سربًا من حمام القصر يحوِّم فوق الحديقة، وعندما التفَّت، قبضت أشعة الشمس على أجنحتها فالتمعتْ كجواهر براقة في السماء.

رأيتُ بعدئذ نقطة داكنة عاليًا فوق السرب المحوِّم، وعرفت من فوري رغم بُعد المسافة أنه صقر بري قادم من الصحراء. طوى جناحيه الجارحين وشرع بانقضاضه مستهدفًا قائد السرب، فكانت هجمته دقيقة ومُعاندة، وأصاب الحمامة مفجرًا ريشها كسحابة دخان باهت وقتلها في الجو. ومن عادة الصقر أن يحكم مخالبه على فريسته ويهبط بها إلى الأرض.

لكن ذلك لم يحدث هذه المرة، فقد قتل الصقر الحمامة ثم فتح مخالبه وترك جثتها المهشمة تسقط سقوطًا حرًّا، وراح بعد ذلك يحوِّم فوق رأسي مُطلقًا صراخًا مُزعجًا. حوَّم ثلاث مرات، وثلاث مرَّات أطلق تلك الصيحة الحربيَّة الأخَّاذة، والرقم ثلاثة أحد أقوى الأرقام السحرية. أدركت من كل ذلك أن ما جرى لم يكن حدثًا طبيعيًا، بل كان الصقر رسولًا، أو ربما الإله **حورس** نفسه بهيئته الأخرى.

سقطت جثة الحمامة عند قدميَّ، ولطخت قطرات من دمائها الدافئة صندلي. عرفتُ أنها إشارة من الإله، دليل حمايته ورعايته للأمير الرضيع، وفهمتُ أيضًا أنها مهمَّة لي. كان الإله يستودعني إياه.

حملتُ الحمامة النافقة بيدي، ورفعتها إلى السماء: «إنني أقبل بفرحٍ هذه الثقة التي وضعتها بي يا **حورس**، وسأخلص لها طيلة حياتي».

صاح الصقر ثانية، صيحة حادة جامحة أخيرة، ثم مالَ وحلَّق على خفقٍ سريعٍ وحادٌ قاطعًا مياه النيل الفسيحة واختفى في البرية، عائدًا ناحية حقول الفردوس الغربية حيث يعيش الآلهة.

نزعتُ ريشة واحدة من جناح الحمامة، ووضعتها لاحقًا تحت فراش مهد الأمير، تميمةً لحسن الحظ.

***

كانت فرحة الفرعون وفخره بوريثه لا حدود لهما، فأعلن عن إقامة وليمة ميلاد على شرفه، ولليلة كاملة، غنى مواطنو مصر العليا ورقصوا في الشوارع، وأُتخموا من اللحم والنبيذ الذي قدمه الفرعون، فمنحوا الأمير مِمنون بركاتهم مع كل صحنٍ ازدردوه، وزادت حقيقة أنه ابن مولاتي **لوستريس** التي يحبونها احتفال ميلاده بهجةً على بهجة.

كانت مولاتي شابة وسريعة التعافي حتى إنها، وفي غضون أيام، استردَّت صحتها بما يكفي لتحضر أمام أهل بلاط مصر كلهم حاملة رضيعها إلى صدرها، ورسمت بجلوسها على العرش الأصغر أسفل عرش الملك صورة للأمومة الشابة الجميلة. وعندما حلَّت ثوبها ووضعت أحد ثدييها المنتفخين حليبًا أمام الحاشية المجتمعة كلها في فم الطفل يرضعه، هللوا لها تهليلًا صاخبًا أفزعه، فلفظ الحلمة وزمجر فيهم بغضبٍ حمَّر وجهه وأدخله قلوب القوم كلهم.

قالوا: «إنه أسد، وقلبه يضخ دماء الملوك والمحاربين».

وعندما أُرجع الأمير إلى صمته وسدَّت الحلمة فمه، نهض الفرعون ليخاطبنا نحن رعاياه.

- أقرُّ بأن هذا الطفل ذُريَّتي ونسلي وخليفتي المباشر. إنه ابني البكر، وسيصير الفرعون من بعدي. أعهد إليكم أيها السادة والسيدات النبلاء، وجميع رعاياي، بالأمير **مِمنون**.

فطال التصفيق واستطال، ذلك أن لا أحد بينهم يود أن يكون أول الصامتين فيعرِّض ولاءه للمساءلة.

في خلال كل هذا، وقفتُ مع بقية خدم أهل البيت الملكي وعبيدهم في إحدى الشرفات المطلة على القاعة. وتمكنتُ، بعد أن مددتُ رأسي، من تمييز قوام السيد **تانوس** الطويل. كان واقفًا في الصف الثالث تحت العرش رفقة **نِمبِت** وبقية قادة الجيش، ورغم أنه صفق مع البقية، قرأت التعبير البادي على وجهه العريض الطَّلق والذي جاهد لإخفائه. ثمة شخص آخر يدَّعي أبوة

ابنه وليس في قدرته ما يفعله لمنع ذلك، وحتى أنا، الذي يعرفه ويفهمه أحسن المعرفة والفهم، لم يسعني إلا تخمين مضاضة الألم الذي يعانيه.

عندما أمر الملك بالصمت أخيرًا وعاد انتباههم إليه، أردف: «أعهد إليكم أيضًا بأم الأمير، السيدة **لوستريس**. فليعلم الناس كلهم أنها في أقرب مجلس إلى عرشي، ومن هذا اليوم فصاعدًا، تُرقى إلى رتبة الزوجة الأولى وكبيرة زوجات الفرعون. منذ اليوم، ستصير بالاسم الملكة **لوستريس**، بينما تأتي في الأولوية بعد الملك وأميره وحدهما. إضافة إلى ذلك، ستشغل الملكة **لوستريس** دور وصيِّي حتى يبلغ الأمير سن الرشد، وحينما أعجزُ عن الوقوف على رأس الأمة، تقف هي مكاني».

لا أظن أن ثمة نفسًا في المملكة العليا كلها لا تحب مولاتي، ربما باستثناء بعض النساء الملكيات اللاتي عجزن عن منح الملك وريثًا ذكرًا، واللاتي تجاوزت رتبهن وسبقتهن في ترتيب الأولوية، أما البقية فأظهروا جميعهم حبهم بالهتاف الذي استقبلوا به القرار.

غادرت العائلة الملكية القاعة إنهاءً لمراسم تسمية وريث الفرعون، وفي الفناء الرئيس للقصر، ركب الفرعون العربة الزلاجة الرسميَّة، وجلست الملكة **لوستريس** بجواره حاملة الأمير بين ذراعيها، ثمَّ جرهما زوج الثيران البيضاء عبر طريق **الكباش** إلى معبد **أوزيريس** لتقديم الأضحية للإله، وكان كلا جانبي الطريق المقدس مُسطرًا بمواطني **طيبة** الذين أظهروا بأصوات هائلة إخلاصهم للملك وحبهم للملكة وأميرها الرضيع.

في تلك الليلة، وبينما أخدمها والطفل، همست لي: «واه يا **تايتا**، أرأيتَ **تانوس** في الحشد؟ يا له من يوم امتزج فيه الفرح والأسى. كدتُ أبكي على حبيبي. كان طويلًا وشجاعًا، وبينما يؤخذ ابنه منه اضطر إلى المشاهدة والاستماع. وددتُ أن أثبَ واقفةً أمام الجمع كلهم وأصرخ: هذا ابن **تانوس** سيد **حاراب**، وأنا أحب كليهما».

- يسرّني يا صاحبة الجلالة، من أجلنا كلنا، أنك تمكنتِ ولو لمرةٍ من لجمِ لسانك المنفلت.

قهقهتْ وقالت: «ما أغرب أن تناديني بهذا اللقب، صاحبة الجلالة، إنه يشعرني بأنني محتالة»، ثم نقلت الأمير من ثدي إلى آخر، وأطلق في انتقاله نفخة هواء مزدوجة من كلا طرفي جسده الضئيل كانت في حجمها ورنّتها إمبراطورية بحق.

عقّبتُ بجفاف: «يظهر جليًّا أنه سكَن رحمكِ في عاصفة»، فقهقهتْ ثانية ثم تنهّدت بكآبة بعد ذلك مباشرة.

- لن يشاركنا عزيزي **تانوس** هذه اللحظات الحميمية أبدًا. أتعي أنه لم يحمل **مِمنون** بين ذراعيه بعد، ومن الممكن أنه لن يحمله أبدًا؟ أظن أنني موشكة أن أبكي ثانية.

قلت: «تمالكي نفسك يا مولاتي، فقد يفسد حليبك إذا بكيت». ولم يكن تحذيرًا صحيحًا، لكنه فعال في إخضاعها لرغبتي، فتنشّقتْ دموعها.

- ألا توجد طريقة تمكن **تانوس** من التنعُّم بطفلنا مثلنا؟

فكرتُ بالأمر برهة ثم اقترحتُ اقتراحًا جعلها تهتف ابتهاجًا، وكما لو أنه يؤيِدُ ما قلتُه، أطلق الأمير ريحًا رنانةً ثانية.

عندما جاء الفرعون لزيارة ابنه في اليوم التالي تمامًا، وضعت الملكة اقتراحي موضع التنفيذ: «يا زوجي العزيز والإلهي، أفكرت في اختيار معلّمين رسميين للأمير **مِمنون**؟».

ضحك الفرعون برحابة صدر: «لا يزال رضيعًا. ألا يجب أن يتعلم المشي والكلام قبل أن يُدرِّس المهارات الأخرى؟».

- أظن أنه يجب تعيين معلميه الآن، حتى يعرفونه من صغره ويشبَّ على معرفتهم.

قال الملك: «حسنٌ جدًّا (وابتسم وأجلس الطفل على ركبته)، من تقترحين؟».

- من أجل تدريسه، نحتاج إلى أحد أعظم علمائنا. شخص يفهم جميع العلوم والأسرار.

تلألأت عينا الملك: «لم يخطر ببالي شخص تنطبق عليه هذه الأوصاف»، وابتسم لي. لقد غيَّر الطفل نفسيَّة الفرعون، فمنذ ولادته، صار مَرِحًا تقريبًا، وللحظة توقعتُ أن يغمزني، لكن موقفه الجديد الودود من الحياة لم يبلغ هذا المبلغ.

تابعت الملكة كلامها، وقد هدَّأ هذا الحوار أعصابها: «ثم نحتاج إلى جندي متمرِّس بفنون الحرب والسلاح ليدرّبه حتى يصير محاربًا. أرى أنه يجب أن يكون شابًّا وذا حسبٍ ونسب، وموثوقًا، وبالطبع مخلصًا للتاج».

قال الملك: «من تقترحين لهذا المنصب يا عزيزتي؟ قلة قليلة من جنودي تتمتع بهذه الفضائل». لا أظن أن سؤال الفرعون كان يحمل أي خبث أو مكر، لكن مولاتي ليست حمقاء رغم ذلك، فأمالت رأسها بخفّة وقالت: «إن الملك حكيم، ويعرف أيٌّ من جنرالاته الأنسب لهذه الوظيفة».

أعلن الملك عن المعلمين في المجلس التالي مباشرةً، فكان العبد والطبيب **تايتا** مسؤولًا عن تدريس **مِمنون** وتهذيبه، ولم يفاجئ ذلك إلا القليل، لكن ثارت غمغمة تعليقات عندما تابع الملك قائلًا: «أما عن تدريبه على السلاح والتكتيكات والاستراتيجيات العسكرية، فمسؤولية ذلك من اليوم وصاعدًا على عاتق **أسد مصر العظيم**، سيد **حاراب**»، وبمقتضى ذلك، صار واجب سيد **حاراب**، عندما لا يكون في حملة، أن يلازم الأمير في مطلع كل أسبوع.

وبينما تنتظر مولاتي إتمام بناء مسكنها في القصر الجديد الذي أصممه على الجانب الآخر من النهر، انتقلت من الحريم إلى جناح من قصر الوزير الأعظم يطل على الحديقة المائية التي بنيتُها لأبيها، وذلك تماشيًا مع منزلتها الجديدة بصفتها العقيلة والزوجة الأولى. كان الاجتماع الأسبوعي الذي يقيمه الأمير **مِمنون** لمعلميه الرسميين يُعقد تحت الظُّلة بحضور الملكة **لوستريس**، وفي معظم الأحيان، كان يحضر عدد كبير من المسؤولين وأهل البلاط الآخرين، وأحيانًا يحضر الفرعون نفسه مع كل حاشيته، لذا كنا تحت قيود شديدة.

لكن بين الحين والحين، كنا نحضر نحن الأربعة فقط، وفي أول مرة تمتعنا بهذه الخصوصية، وضعت الملكة **لوستريس** الأمير بين ذراعي أبيه للمرة الأولى، وشهدتُ الفرحة المرتبكة في نظرة **تانوس** إلى وجه ابنه. ارتقى **مِمنون** إلى مستوى المناسبة فتقيأ على مقدمة زي أبيه الرسمي، لكن **تانوس** لم يتركه رغم ذلك.

مذ ذاك الحين وصاعدًا، صرنا نؤجل أي حدث خاص في حياة الطفل للوقت الذي يكون **تانوس** معنا فيه. أطعمه **تانوس** أول ملعقة من العصيدة، وأفزع هذا الطعام الغريبُ الأميرَ حتى لوى وجهه وبصق الخبيصة المُزعجة على ذقنه، ثم انفجر باكيًا طالبًا حليب أمه ليغسل الطعم من فمه، فبينما أخذته الملكة **لوستريس** إلى حجرها يُراقب **تانوس** مسحورًا، وألقمته ثديها، وفجأة، مد **تانوس** يده وانتزع الحلمة من الفم الصغير. سلّى ذلك الجميع إلا الأمير وأنا، إذ ثارت ثائرة **مِمنون** إزاء هذه المعاملة المتعجرفة، وأظهر غضبه

واضحًا، بينما أخذتني الصدمة. تخيلتُ أن يصل الملك فجأة ويجد في يد **أسد مصر العظيم** اليمنى حفنة ملكية لا يبدو عليه أنه مستعجل ليتركها.

وعندما احتججتُ احتجاجًا محقًّا تمامًا، قالت لي مولاتي: «لا تكُن عجوزًا متزمِّتًا يا **تايتا**. إننا نحظى ببعض المرح البريء وحسب».

غمغمتُ: «مرحٌ، أجل، لكن ثمة بعض الشك في براءته»، ذلك أنني رأيتُ إشراقة وجه كليهما إثر اللمسة الحميمية، وشعرتُ بشغفهما المشترك كرعدٍ في السماء. عرفتُ أنهما لن يتمكنا من تمالك نفسيهما لوقت طويل، وأنه حتى حِسُّ **تانوس** بالواجب والشرف لا بدَّ أن يُذعن في آخر الأمر لحب عظيم كحبهما.

في تلك العشية، زُرت معبد **حورس** وقدمت أضحية سخية، ثم صليتُ وطلبتُ من الرب: «عسى أن لا تتأخر نبوءة المتاهات كثيرًا، فهما عاجزان عن منع نفسيهما، وهذا سيجلب الموت والعار علينا جميعًا».

في بعض الأحيان، من الأفضل للبشر أن لا يحاولوا التدخُّل بالقدر، فقد تُستجاب صلواتنا بطرق لا نتوقعها ولا نحبذها.

***

كنتُ طبيب الأمير، لكنه لم يحتج في الحقيقة إلى مهاراتي الطبية، إذ كان مُباركًا بصحة أبيه المتينة العامرة وبقوَّته مبكرة النشوء. كانت شهيته وهضمه مثاليين، وأي شيء يوضع في فمه يُلتهم بشراهة أسديَّة، ويعود إلى الظهور من فوره من طرفه السفلي بالهيئة والقوام المستحبين.

كان ينام بلا انقطاع ويفيق باكيًا طالبًا الطعام، وإذا ما وضعتُ أمامه إصبعًا، يراقب حركته من جانب إلى آخر بعينيه الكبيرتين الداكنتين، وحالما يصير بمتناول يده، يقبض عليه محاولًا رفع نفسه لوضعية الجلوس. نجح بذلك قبل أي طفل رعيتُه، فرفع نفسه وحبا في سن بالكاد يبدأ غيره بالجلوس فيه، وخطا خطوته المترنحة الأولى في وقت بدء الآخرين بالحَبْو.

كان **تانوس** حاضرًا في ذلك اليوم الاستثنائي، وكان قد أمضى الشهرين السابقين في حملة، إذ احتلت قوات الغاصب الأحمر **أسيوط**، وهي محور ارتكاز قواتنا الشمالية، فأمر الفرعون **تانوس** بهبوط النهر رفقة أسطوله كله لاستعادتها.

عرفتُ من **كراتاس** بعد وقت طويل أن القتال كان بالغ الفظاعة، لكنَّ **تانوس** اخترق الأسوار في النهاية وكان على رأس أحبائه الزرق عندما اقتحموها، فطردوا المدَّعي من المدينة وأعادوه إلى خلف حدوده بخسائر فادحة.

ثم أبحر **تانوس** عائدًا إلى **طيبة** وامتنان المملكة، فحمَّل الفرعون كتفيه سلسلة أخرى من **ذهب البسالة**، وسدد الرواتب المتأخرة لجميع الجنود الذين ساعدوا على تحقيق هذا النصر.

اتجه **تانوس** مباشرة تقريبًا من حضرة الملك إلى الظُّلة في الحديقة المائية حيث كنا في انتظاره، وبينما وقفتُ حارسًا على البوابة، تعانق **تانوس** ومولاتي بكل النار التي اضطرمت وتأججت في فراقهما، واضطررتُ في النهاية إلى تفريقهما، فهذا العناق لا يمكن أن يؤدي إلا إلى نتيجة واحدة.

صحتُ بحدة: «سيد **تانوس**، إن صبر الأمير **مِمنون** ينفد»، فتفارقا على مضض، وذهب **تانوس** إلى حيث تمدد الرضيع عاريًا على ثوب من جلود ابن آوى فرشتُه له في الظل، وركع على ركبة واحدة أمامه.

عابثه **تانوس** بحُبٍّ قائلًا: «تحياتي يا صاحب السموِّ الملكي، لقد جئتك ببشائر سارة تخص انتصار قواتنا المسلحة...»، وصاح **مِمنون** صيحة سعيدة عندما تعرف أباه، ثم جذبت السلسلة اللماعة نظره، فلهث لهثة هائلة أنهض على إثرها نفسه، وخطا أربع خطوات مترنحة، وقبض على السلسة وتشبث بها بكلتا يديه.

صفقنا كلنا لهذا الإنجاز، فبينما ابتسم **مِمنون** دعم وقوفه بالسلسلة، متقبلًا هذا الثناء الذي يستحقه.

وضحك **تانوس**: «بحق أجنحة **حورس**، إن عينه تحب المعدن الأصفر كعينك يا **تايتا**».

فأوضحت مولاتي: «ليس الذهب ما يجذبه، بل الفوز به. سيحمل يومًا ما **ذهب البسالة** على صدره».

- لا أشك بذلك!

قالها **تانوس** وأرجح الصبي عاليًا، وزعق **مِمنون** متعةً وركل برجليه ليحث **تانوس** على المزيد من اللعب الخشن.

وهكذا، في عيني وعين **تانوس**، بدا أن نموَّ الصبي يشير إلى تبدُّل الفصول بدقة ارتفاع النهر وانخفاضه، ودارت حياة مولاتي حول هذه الساعات التي تقضيها مع الطفل والرجل. ثم بدأت تشعر أن الفترات الفاصلة بين زيارات **تانوس** أطول من أن تطيقها، وأن الزيارات أقصر من أن تقوّيها.

***

كان الطوفان في ذلك الصيف منًّانًا بقدر أي طوفان تنبأنا به في مراسم المياه **بإلفنتين**، وعندما انحسر، تألقت الحقول تحت معطفها الطيني الأسود الجديد، وما لبثت أن طمستها غيضات الذرة والفاكهة الكثيفة. بحلول الوقت الذي خطا فيه الأمير خطوته المستقيمة الأولى، كانت صوامع مصر طافحة، وحجرات المؤن ممتلئة حتى لدى أفقر الرعايا. وعلى الضفة الغربية، أخذت ملامح قصر **مِمنون** تتضح، والحرب في الشمال تسير في مصلحتنا. لقد ابتسمت الآلهة للفرعون وكل مملكته.

وكان الاستياء الوحيد في كل ذلك هو استياء العاشقين، فرغم أنهما متقاربان بما يكفي ليتلامسا، كانت تفصل بينهما هوة أوسع من الوادي الذي نعيش فيه. حمَّلني كل منهما في مناسبات منفصلة كثيرة عبء متاهات **آمون رع**، كأنني المسؤول عن تحقيق رؤى الأحلام، وسُدى احتججتُ أنني مجرد المرآة التي انعكس فيها المستقبل، لا الشخص الذي حرك الأحجار على لوح **باو** القدر.

انقضى العام، وبدأ النهر ارتفاعه من جديد متمًّا الدورة الأبدية. كان هذا رابع فيضان تنبأت به المتاهات، وقد توقعتُ، بقدر ما توقع أيّهم، أن تتحقق رؤيا المتاهات قبل نهاية الموسم. وعندما لم يحدث ذلك، أرهقتني مولاتي **وتانوس** إرهاقًا شديدًا.

تنهَّدت الملكة: «متى سأتمكن من الذهاب إلى **تانوس** بحرية؟ عليك فعل شيء ما يا **تايتا**؟».

- لستُ أنا من عليك سؤاله، بل الآلهة. يمكنني أن أصلي لهم، لكن هذا جُل ما باستطاعتي.

مر عام آخر من دون أن يتغير شيء في ظروفنا، وحتى مزاج **تانوس** صار لاذعًا: «لقد وضعتُ إيماني بك حتى إنني بنيتُ سعادتي المستقبلية على كلامك. أقسم لك يا **تايتا**، إن لم تفعل شيئًا ما قريبًا...»، ثم صمت وحدق إليَّ، وكان التهديد أعنف لأنه لم يُنطَق.

ثم عبَرَنا عامٌ آخر، وحتى أنا بدأتُ أفقدُ الإيمان بنبوءتي. صرتُ أظن أن الآلهة قد غيرت رأيها، أو أن ما رأيته كان رغبة خيالي.

وفي آخر المطاف، كان الأمير **مِمنون** في الخامسة تقريبًا وأمه في الحادية والعشرين وقتما جاء رسول فاغر العينين على جناح السرعة من الشمال على متن أحد قوادسنا الاستطلاعية.

صرخ مُبلغًا الملك: «لقد سقطت **الدلتا**، ومات المدَّعي الأحمر. النيران تلتهم المملكة السفلى. دُمرت مدينتا **مِنف وأواريس**، وحُرقت المعابد عن بكرة أبيها وأُنزلت صور الآلهة».

فأجابه الفرعون: «هذا مستحيل. إنني أتوق إلى تصديق هذه الرسالة، لكن لا يمكنني ذلك. كيف يمكن أن يحدث هذا من دون معرفتنا؟ كان الغاصب صاحب قوة عظيمة، وقد عجزنا طوال خمس عشرة سنة عن الإطاحة به. كيف تحقق ذلك في يوم؟ وعلى يد من؟».

كان الرسول يرتعش خوفًا وإعياءً، فقد خاض رحلة مضنية، ويعرف كيف يُعامَل حملة الأنباء الكارثية في **طيبة**.

- لقد دُمر المدَّعي الأحمر وسيفه لا يزال في غمده، وتبعثرت قواته قبل أن تتمكن أبواق الحرب من إطلاق الإنذار.

- كيف أُنجِز ذلك؟

- لا أعرف يا إلهيْ مصر. يقولون إن عدوًّا جديدًا وفظيعًا قد جاء من الشرق، عدو سريع كالريح، ولا أمة قادرة على الصمود في وجه غَضْبتْه. لقد تراجعت قواتنا من الحدود الشمالية بالكامل رغم أنها لم ترَه قطُّ، فحتى أشجع الرجال لا يمكنهم مواجهته.

سأل الفرعون بإصرار: «من هذا العدو؟» وسمعنا الخوف في صوته للمرة الأولى.

- يدعونه بالملك الراعي. **الهكسوس**.

لقد سخرت **وتانوس** من ذلك الاسم، ولن نفعل ذلك ثانية أبدًا.

***

دعا الفرعون مجلسه الحربي إلى اجتماع سري مغلق، ولم أعرف من **كراتاس** ما جرى في تلك المداولات إلا بعد وقت طويل، **فتانوس** بالطبع

ما كان ليحنث بقسم السرية أبدًا، ولا حتى لي أو لمولاتي، لكنني تمكنتُ من استخراجه بالحيلة من **كراتاس**، إذ إن هذا الأخرق المحبوب محب الشجار ضعيف أمام حيَلي.

كان **تانوس** قد رقى **كراتاس** إلى رتبة **الأفضل في عشرة آلاف**، وسلمه قيادة حرس **التمساح الأزرق**، ذلك أن علاقتهما لا تزال متينة متانة عمود الجرانيت. وهكذا، صار يحق **لكراتاس** الجلوس في المجلس الحربي بوصفه قائد فوج، ورغم أنه لم يُطلب منه الكلام في رتبته المتدنية هذه، فقد نقل ما قيل بكل أمانة لي ولمولاتي.

انقسم المجلس بين القدماء، وعلى رأسهم **نِمبِت**، والدماء الجديدة التي يقودها **تانوس**، ويا للأسف، تكمن السلطة النهائية في أيدي العجائز، وفرضوا آراءهم العتيقة على الآخرين.

أراد **تانوس** سحب قواتنا الرئيسة من الحدود ونصب سلسلة من الدفاعات العميقة على امتداد النهر، وفي الوقت نفسه، نوى إرسال مجموعات استطلاع واستكشاف لتقييم طبيعة العدو الغامض ودراستها. كان لنا جواسيس في جميع المدن الشمالية، لكن لسبب مجهول ما، لم تصل منهم أي تقارير بعد. وأراد **تانوس** جمع هذه المعلومات ودراستها قبل أن ينشر قوته الرئيسة إلى المعركة.

قال للمجلس: «إذا لم نعرف ما نواجه، فلن نتمكن من إعداد الاستراتيجية الصحيحة للقائه».

عارض **نِمبِت** وفصيله جميع اقتراحات **تانوس**، إذ لم يسامح الأميرال العجوز **تانوس** قطُّ على إذلاله يوم أنقذ الصندل الملكي من الدمار، فكانت معارضته **تانوس** مبنية على المبدأ لا على العقل أو المنطق.

- لن نتنازل عن ذراع من ترابنا المقدس، واقتراح ذلك دليل جُبن. سنقابل العدو ونبيده أينما وجدناه. لن نراقصه ونغازله كعذراوات قرويات ثرثارات.

زأر **تانوس**، وقد أغضبه اقتراح الجُبن: «يا سيدي! لا يتخذ القرارات قبل معرفة الحقائق إلا أحمق، وأحمق طويل الباع في الحمق. لا نملك أي قصاصة استخبارات نتصرف بناء عليها...».

عبثًا كان كلامه، وانتصرت في آخر الأمر أقدمية الجنرالات الثلاثة الذين يتقدمون **تانوس** في قوائم الجيش.

أمر **تانوس** بالذهاب إلى الشمال من فوره لتثبيت الجيش المنسحب وحشده. طُلب منه حماية الحدود، واتخاذ موقف عند حجارتها، ونُهِيَ عن إجراء انسحاب استراتيجي إلى خط التلال قبل **أسيوط**، الذي كان خط الدفاع الطبيعي، والذي تقدم أسوار المدينة بعده خط دفاع ثان. سيكون الأسطول وقوات الجيش الشمالي تحت قيادته مباشرة، وثلاثمئة سفينة حربية للنقل والسيطرة على النهر.

في الوقت نفسه، يجلب **نِمبِت** بقية الجيش، حتى الأفواج المتمركزة على الحدود الجنوبية مع **كوش**، إذ يجب تجاهل التهديد الأسود من الداخل الإفريقي حاليًا في مواجهة هذا الخطر الأشد إلحاحًا. وحالما يجمع **نِمبِت** هذه التعزيزات، يسرع بها شمالًا للانضمام إلى **تانوس**، فيصير لدينا في غضون شهر جيش لا يقهر، قوامه ستون ألف رجل وأربعمئة قادس أمام **أسيوط**، وفي هذه الأثناء، ينبغي **لتانوس** حماية الحدود بأي ثمن.

اختتم **نِمبِت** كلامه بإيعاز صارم: «يؤمر سيد **حاراب** أيضًا بإبقاء جميع قواته عند الحدود. لا يجب أن يتمادى بإرسال غارات أو فرق استطلاعية إلى الشمال».

احتج **تانوس** سُدى: «يا سيدي **نِمبِت**، إن هذه الأوامر تُعمي عينيَّ، وتوثق يد سلاحي. أنت تمنعني عن الوسائل التي تمكنني من قيادة هذه الحملة بطريقة متزنة وفعالة»، ونخَر **نِمبِت** هازئًا وراضيًا بعد أن فرض سلطته على منافسه الشاب واكتسب مقدارًا من السمعة. على مشاعر بشرية تافهة مثل هذه تتمحور مصائر الأمم.

أعلن الفرعون بنفسه عن نيته اتخاذ مكانه المشروع على رأس الجيش، فلألف عام مضت، كان الفرعون حاضرًا في الساحة متى ما حوربت معركة تاريخية حاسمة. ورغم أني اضطررتُ إلى استبداع شجاعة الملك، تمنيتُ لو أنه لم يختر هذه اللحظة لإظهارها، فالفرعون **ماموس** ليس محاربًا، ولن يزيد حضوره من فرصنا بالنصر. ربما تتعزز معنويات الجند عندما يرونه في طليعة الجيش، لكن إجمالًا، سيكون وحاشيته عقبة أكثر من كونهم عونًا للسيد **تانوس**.

فلن يسافر الملك شمالًا إلى جبهة المعركة وحده، بل سيرافقه أهل بلاطه كلهم، بما في ذلك زوجته الأولى وابنه. ويجب أن ترافق الملكة حاشيتُها، والأمير **مِمنون** ومعلموه، وهكذا سأذهب شمالًا إلى **أسيوط** وجبهة المعركة.

لم يعرف أحد هذا العدو أو يفهمه، وشعرتُ أن مولاتي والأمير يُعرضان لخطر نحن في غنى عنه. ومن ناحية أخرى، فإن أمان العبد لا يُؤخذ في الحسبان، إلا في نظر العبد نفسه. لم أنم إلا قليلًا في الليلة السابقة لسفرنا شمالًا على فيضان النهر إلى **أسيوط** وجبهة المعركة.

***

كلما توغلنا أكثر في إبحارنا شمالًا، زاد عدد وثقل الشائعات والتقارير القادمة من الجبهة لتلتهم ارتياحنا وثقتنا كما يلتهم الجراد المحاصيل الوافرة. كثيرًا ما صعد **تانوس** متن مركبتنا في أثناء الرحلة، وظاهر غايته أن يناقشني في ذلك، لكنه قضى في كل زيارة بعض الوقت مع الأمير وأمه.

لم أتفق قط مع التقليد القاضي بأن تلحق النساء الجيش إلى المعركة، فهن في أوقات السلم والحرب إلهاء مدهش، وحتى محارب بوزن **تانوس** قد ينحرف عن هدفه الأساسي. يجب أن يكون تركيزه منصبًا بكامله على المهمة التي هو بصددها، لكن عندما قلت له ذلك، ضحك وربَّت كتفي: «لقد أعطوني سببًا لأقاتل. لا تقلق يا صديقي القديم، سأكون أسدًا يحمي شبله».

قابلنا عاجلًا العناصر الأولى من الجيش المنسحب، مجموعات متسكعة من الهاربين كانت تنهب القرى على حين تفر جنوبًا على امتداد ضفتي النهر. قطع **تانوس** رؤوس بضع مئات منهم بالحد الأدنى من المراسم وبلا تردد البتة، وعلقها على رماح زرعها على طول الضفة عبرة وتحذيرًا، ثم جمع البقية وأعاد تنظيمهم تحت إمرة ضباط موثوقين، فلم يهرب أحد بعد ذلك، وثبت الجند في الميدان بمعنويات جديدة.

وصل أُسيطيلنا إلى مدينة **أسيوط** المسورة المطلة على النهر، وترك **تانوس**، مستخفًا بأوامر **نِمبِت**، قوة احتياطية استراتيجية صغيرة قوامها خمسة آلاف رجل فيها تحت إمرة **رِمرِم**. ثم أبحرنا شمالًا لنتخذ موقعنا عند الحدود، حيث ننتظر اقتراب الملك الراعي الغامض.

ألقى الأسطول المراسي في عرض النهر متخذًا تشكيلات المعركة، لكن تُركت المراكب بقيادة الحد الأدنى المطلوب من الطواقم، إذ نزل الرجال المقاتلون مع بقية جماعة المشاة وانتشروا على الضفة الشرقية للنهر.

أقنعتُ الفرعون بالسماح لمولاتي والأمير بالبقاء على متن الصندل الضخم المريح الذي جلبهم إلى هنا، فالجو فوق الماء أبرد وأصحُّ، والهروب من هناك أسهل إذا ما واجه جيشنا أي هزيمة.

نزل الملك إلى البر مع الجيش، ونصب معسكره على أعلى أرضٍ فوق الحقول الغارقة. كان في الجوار قرية مهجورة، فقد فر الفلاحون منذ سنوات من هذه الحدود المتنازع عليها مع الفرعون الزائف، ودائمًا ما كان المكان مرتعًا للقوات الأجنبية والمناوشات الدامية، لذا أقلع المزارعون عن أي محاولة للعمل في هذه الحقول الخصبة الخطيرة. وكان اسم هذه القرية المنسيَّة **أبنوب**.

كان فيضان النيل قد بدأ بالانحسار قبل بضعة أسابيع من وصولنا إلى **أبنوب**، ورغم أن قنوات الري لا تزال جارية بقوة، والحقول مستنقعات من الطين الأسود، عادت المياه الرئيسة إلى بين ضفتي النيل الدائمتين.

شرع **تانوس** بالتجهُّز لمواجهة التهديد ضمن القيود التي فرضها عليه **نِمبِت**، فعسكرت الأفواج وفق ترتيب المعركة الخاص بها: قاد **أستيس** الأسطول في النهر، وتولى **تانوس** بنفسه القلب والميسرة الراسية في النيل، في حين تولى **كراتاس** الجناح الأيمن.

وفي الأفق الشرقي، امتدت الصحراء قاتمة ومنيعة. لا جيش قادر على النجاة في ذلك اليباب اللافح الجاف، فجعلناه ميمنتنا، الآمنة والحصينة.

جل ما كنا نعرفه عن **الهكسوس** هو أنه جاء برًا، وأنه لا يملك أسطولًا خاصًا به، فتوقع **تانوس** أن يلاقيه برًا، وأن يخوض معركة مشاة. كان **تانوس** يعرف أنه قادر على منع **الهكسوس** من عبور النهر، وبناء على ذلك، سيتمكن من جره إلى المعركة في ميدان من اختياره. وفي الحالة المثالية، ما كان ليختار **أبنوب**، لكن **نِمبِت** اتخذ القرار بالنيابة عنه.

تربعت قرية **أبنوب** على حافة خفيضة تحيط بها حقول مفتوحة مهملة، فتمتعت على الأقل بإطلالة جيدة تضع العدو تحت أنظارنا قبل وقت طويل من أن يتمكن من اختراق خفرنا والاشتباك معهم.

كان **تانوس** قائدًا على ثلاثين ألفًا من خيرة جنود مصر. لم أرَ في حياتي قوة بهذه الضخامة، وفي الحقيقة، أشكُّ أن جيشًا بهذا الحجم قد حُشد من قبل في وادي النيل. وقريبًا يصل **نِمبِت** رفقة ثلاثين ألفًا آخرين، فيصير أعظم جيش في التاريخ.

ذهبتُ مع **تانوس** لتفقُّدهم، وحلَّقت معنويات الجند منذ رأوه متوليًّا القيادة شخصيًّا، وربما ساعد وجود الفرعون في المخيم على تثبيت قلوبهم أيضًا. هللوا **لتانوس** عندما مرَّ بين صفوفهم المتراصة، وشعرتُ بالكثير من التشجُّع والراحة إزاء جحافلهم ومعنوياتهم.

لم يكُن بمقدوري تصور عدوٍ على قدر كافٍ من القوة ليغلبنا، فلدينا اثنا عشر ألف رامٍ يعتمر خوذة جلدية مصقولة ويرتدي صدارة جلدية مُبطَّنة من شأنها إيقاف السهام، إلا إن أُطلقت من مسافة قريبة جدًّا، ولدينا ثمانية آلاف من حملة الرماح الثقيلة معهم تروس طويلة من جلود أفراس النهر القاسية كالبرونز، ثم عشرة آلاف سياف في قلانس من جلد النمر، ومسلحين بمقاليع أيضًا، وحجارة إذا قُذِفَتْ منها يمكنها شق جمجمة على بعد خمسين خطوة.

أخذت ثقتي تزداد مع كل يوم ينقضي وأنا أراقب **تانوس** يدرِّب هذه الحشود الهائلة من الرجال المسلحين. ومع ذلك، أقلقني أننا ما زلنا لا نعرف إلا القليل عن **الهكسوس** وقواتهم، فأشرتُ **لتانوس** إلى أن المجلس الحربي قد منعه من إرسال قوات برية للاستكشاف، لكنه لم يقل شيئًا عن استخدام المراكب لهذا الغرض.

فضحك قائلًا: «كان يجدر بك أن تصير كاتب عدل، يمكنك أن تُرقِّص الكلمات على أي لحنٍ تعزفه»، لكنه أمر **هُوي** بأخذ سرب واحد من القوادس السريعة والاتجاه شمالًا حتى يصل **المنيا** أو يقابل العدو. وكان هذا **هُوي** نفسه الذي أُسِر في **جلالة**، والذي كان أحد صردان **باستي**، فقد تقدم ذلك المحتال الشاب في حظوة **تانوس** حتى صار قائدًا لسرب من القوادس.

حمل **هُوي** أوامر صارمة بتفادي المعركة والعودة بالتقرير في غضون أربعة أيام، ورجع بكل طاعة في اليوم الرابع، إذ وصل إلى **المنيا** من دون أن يرى سفينة أخرى أو يلقى أي مقاومة، وكانت جميع القرى على طول النهر مهجورة، وبلدة **المنيا** نفسها منهوبة تتآكلها ألسنة اللهب.

إلا أنه أسر حفنة من الجند الفارين من جيش الفرعون الزائف المُبعثر، وكانوا أول من حققنا معهم من شهود العيان الفعليين على غزو **الهكسوس**.

لكن أحدًا منهم لم يصمد ويقاتل الملك الراعي، بل هربوا في بداية اقترابه، فكانت تقاريرهم على ذلك مبالغ فيها وناقصة إلى حد يجعلها لا تصدق البتة.

كيف يمكننا أن نصدق بوجود جيش أبحر عبر الصحراء المفتوحة على متن سفن سريعة كالريح؟ فوفقًا لمخبرينا، كانت سحب الغبار التي تدلَّت فوق هذا الأسطول الغريب مرتفعة ارتفاعًا يحجب أعداده ويجعل الرعب يدب في قلب أي جيش يراقب تقدمه.

قال السجناء: «ليسوا بشرًا، بل هم عفاريت من العالم السفلي، يخرجون من الصحراء راكبين رياح الشيطان».

وبعد أن حققنا مع السجناء بدقة، ووجدنا أن وضع الجمر الملتهب على رؤوسهم لم يحملهم على تبديل قصصهم، أمر **تانوس** بإعدامهم المعجَّل، إذ لم يُرد أن تذيع هذه الحكايا المسعورة وتنشر الإحباط بين قواتنا التي بالكاد استردت شجاعتها.

***

في اليوم العاشر من الانتظار في **أبنوب**، تلقينا خبرًا مفاده أن **نِمبِت** صار أخيرًا في طريقه رفقة التعزيزات، وأنه يتوقع بلوغ **أسيوط** في خلال الأسبوعين القادمين، وكان الأثر الذي حل على الرجال أعجوبة للناظر، إذ تحولوا ضربةً واحدة من عصافير إلى عقبان، وأخرج **تانوس** حصة إضافية من الجعة واللحم احتفالًا بالأنباء، فصارت نيران الطبخ حقلًا من النجوم فوق السهل المواجه **لأبنوب**. ملأت رائحة دهن الضأن المحترق الشهية الليل، ولم تخبُ أصوات الضحك والغناء حتى الهزيع الأخير منه.

كنتُ قد تركتُ مولاتي على متن الصندل مع ابنها، ونزلتُ إلى البر تلبيةً لنداء **تانوس**، فقد أرادني أن أحضر آخر مجلس حربي مع قادة أفواجه: «إنك بئر لا تنضب من الأفكار والحكمة أيها النذل العجوز، فهل تُراك قادر على إخبارنا بطريقة إغراق أسطول من السفن المبحرة في اليابسة؟».

استمرَّت مداولاتنا إلى ما بعد منتصف الليل، وللمرة الأولى، لم يحمل إسهامي إلا ضئيل القيمة. كان الوقت قد تأخر كثيرًا على العودة إلى السفينة في تلك الليلة، لذا منحني **تانوس** فراشًا من قش في ركن خيمته، واستيقظت قبل الفجر على عادتي، لكن **تانوس** كان خارج سريره، ومن وراء جدار

الخيمة الكتّاني الغليظ، رأيتُ المعسكر مستيقظًا بالفعل، فانبني ضميري على كسلي، وأسرعتُ لأتفرج على انبلاج الفجر فوق الصحراء.

تسلقتُ التلة خلف المعسكر، ونظرتُ من أعلاها ناحية النهر أولًا. كان دخان نيران الطبخ منتشرًا فوق سطح الماء يمتزج بشبُّورة النهر، والسُرج على متن السفن منعكسة على المياه المظلمة، ومنعني الظلام السائد والمسافة البعيدة من تمييز المركب الذي تهجع فيه مولاتي.

فالتفتتُ إلى الشرق ورأيتُ الضوء يسطع فوق الصحراء بوهجٍ كوهج أصداف المحار اللؤلؤي. ثم ازداد الضوء قوة، وصارت الصحراء رقيقة وجميلة، وتظللت الروابي والكثبان بتدرجات الأرجواني. بدا الأفق في هذا الجو الرائق على قُرب كافٍ ليُلمس بيدٍ ممدودة.

ثم رأيتُ الغيمة المعلقة في الأفق تحت بريق السماء الزبرجديِّ الصافي. لم تكُن أكبر من طرف إبهامي، وعبرتها نظرتي ثم ارتدَّت إليها، إذ لم أشعُر في البداية بأي قلق، واضطُرِرت إلى التحديق إليها لبعض الوقت قبل أن أدرك أنها تتحرك.

غمغمتُ جهارًا: «يا للغرابة. لعلها بداية *الخماسين*»، لكننا لسنا في موسمها، ولم يعصف الهواء الذي يرافق تلك القوى الخبيثة التي تُنذر بعواصف الصحراء، بل كان الصباح هادئًا ومعتدلًا.

وبينما أتأمل الأمر، اتسعت الغيمة البعيدة واستطالت، وكانت قاعدتها على الأرض لا معلقة فوقها، لكنها مع ذلك أرشق وأعرض من أن تكون أرضية المنشأ. قد يتحرك سرب من الطيور بهذه السرعة، وقد يرتفع الجراد بهذه الكثافة في السماء، لكن ما أراه ليس أيًا من ذلك.

كانت الغيمة بلون المُغْرة الصفراء، إلا أنني لم أصدق في البداية أنها تراب. كُنت قد شاهدتُ قطعانًا من المها أبو حراب تجري بالمئات عبر الكثبان في هجراتها السنوية، لكنها لم تُثِر قطُّ سحابة تراب كهذه. قلتُ لعلها دخان نار، لكن لا شيء في تلك الصحراء يمكنه أن يحترق، لا يمكن إلا أن تكون ترابًا، ولم أستطع التصديق برغم ذلك. ثم أخذت تكبر بسرعة، وبينما أحدق في دهشة ورهبة تقترب أكثر.

رأيتُ فجأةً ضوءًا منعكسًا يتلألأ أسفل الغيمة السامقة، ونُقلتُ من فوري عودًا إلى رؤيا متاهات **آمون رع**، ذلك أنني أرى المشهد نفسه؛ أول مرة كانت

خيالًا، والآن واقع. عرفتُ أن بوارق الضوء هذه منعكسة عن دروع حربية ونصال برونزية مصقولة، فوثبتُ واقفًا وحيدًا على التلة، أصرخ في الريح تحذيرًا لم يسمعه أحد.

ثم سمعتُ أبواق الحرب في المعسكر تحتي إذ رأى الخفر على المرتفعات سحابة التراب المقتربة أخيرًا وأطلقوا الإنذار. كان صوت الأبواق جزءًا من رؤياي، وصرَّ الإنذار المُلِحُّ في أذنيَّ مهددًا بشق جمجمتي، فرجَّف دمي وأرعش قلبي. كنتُ أعرف من رؤياي أن في هذا اليوم المصيري تسقط سلالة ويلتهم الجراد القادم من الشرق جسم مصرنا هذه، فسرى الخوف والذعر في أوصالي على مولاتي وطفلها اللذين كانا جزءًا من السلالة.

ثم ملأت المعسكر من تحتي ضوضاء الرجال المسرعين إلى السلاح، وومضتْ دروعهم وبرقتْ سنان حرابهم في الجو، فكانوا أشبه بنحلِ خليةٍ انقلبَت في تكتُّلهم وازدحامهم المرتبك، وكادت الأبواق الصاخبة تطغى على صراخ الرقباء وصيحات النقباء إلى الاحتشاد.

رأيتُ الفرعون يُحمل من خيمته في منتصف عقدة من الرجال المسلحين، ثم عجلوا به صعودًا على منحدر التلة حيث نُصب عرشه بين الصخور، مُطلًّا على السهل ونطاق النهر الواسع. حملوه وأجلسوه على العرش ووضعوا عصا الراعي والمذبة في يديه والتاج المزدوج الطويل على رأسه، فجلس كتمثال رخامي بوجه أبيض كالرماد، وأفواجه تتخذ تشكيلاتها الحربية تحته. كان **تانوس** قد درَّبهم ومرَّنهم جيدًا، فانبثق النظام مسرعًا من قلب معمعة الإنذار الأول.

ركضتُ هابطًا التلة لأظل بجوار الملك، وكانت استجابة قوات **تانوس** سريعة حتى إنني ريثما بلغتُ أسفل عرشه، رأيتُ جيشه ممتدًا فوق السهل كثعبان ملتف على نفسه ليواجه وعيد سحابة التراب الجيَّاشة التي اكتسحتنا.

اتخذ **كراتاس** وفرقته الميمنة، وتعرفتُ قامته الفارعة على السفح الأول للتلة، ثم تجمع ضباط فوجه حوله، وأخذت ريشات خوذاتهم تخفق وتتموج في نسيم الصباح الخفيف القادم من النهر. كان **تانوس** وطاقمه تحته مباشرة، على قرب كافٍ مني لأستمع إلى حوارهم، وسمعتُهم ينقاشون تقدم العدو بأصوات أكاديمية هادئة، كأن ما يجري مشكلة صندوق رملٍ في فصل تدريب الضباط.

كان **تانوس** قد نشر قواته بالتشكيلة الكلاسيكية، فشكَّل حملة الرماح الثقيلة الصفوف الأولى بتروس متشابكة ورماح ثُبتت أعقابها بالأرض وتلألأت سنانها البرونزية في ضوء الشمس المبكر، وبدا على الرجال الهدوء والرزانة، وانتظم النبَّالة من خلفهم، بأقواس موتورة ومستعدة، ووراء كل منهم وقف صبي كنانته حاملًا حزم السهام الإضافية، ليجمعوا في خلال المعركة سهام العدو المستهلكة ويعيدوا ملء حزمهم. وظل السيَّافة قوات احتياطية، جند خفيفون وسريعون قادرون على الإسراع في سدِّ أي اختراق أو استغلال أي نقطة ضعف في تشكيلات العدو.

تحركات المعارك أشبه بالتحركات على لوح **الباو**؛ فيها افتتاحات كلاسيكية ودفاعات منصوبة طُورت عبر القرون، وقد درستُها وكتبتُ ثلاثًا من اللفائف الحاسمة عن التكتيكات العسكرية، والتي صارت قراءة إلزامية في تدريب الضباط **بطيبة**.

والآن بعد أن راجعتُ ترتيبات **تانوس**، لم أجد عيبًا فيها، وحلقت معنوياتي عاليًا. أنى لأي عدو الانتصار على هذه الجمهرة الجبارة من المحاربين القدامى المدرَّبين الذين قسَّتهم المعارك، والذين لم يخسروا معركة قطُّ؟!

ثم نظرتُ مرة أخرى وراء صفوفنا إلى تلك السحابة الصفراء المشؤومة المتدحرجة، وارتعشت ثقتي، فما أراه شيء يفوق التقاليد العسكرية، يفوق خبرة أي جنرال في تاريخنا الطويل الفخور كله. أرجال فانون هؤلاء الذين تواجههم؟ أم هم عفاريتٌ كما قالت الشائعات؟

عندما حدقتُ إلى السحب المدوِّمة، كانت قد اقتربت حتى أمكنني تبيُّن الأشكال الظليلة بين حُجُب التراب المظلمة الموحشة، ودبَّ على جلدي ذعرٌ دينيٌّ من نوع ما، وقتما تعرفتُ الأشكال الشبيهة بالسفن التي حذَّرنا منها سجناؤنا، إلا أنها أصغر وأسرع من أي مركبة عامت على وجه الماء على الإطلاق، وأسرع حتى من أي مخلوق سار على سطح الأرض.

كان من الشاق تتبُّع أي من هذه الأشكال بالعين، ذلك أنها أثيرية وسريعة كالعثِّ في ضوء الفانوس، وتدور وتتلوَّى ثم تختفي في السحب المتحركة، فيستحيل عندما تظهر من جديد معرفة أكانت نفسها أم أخرى تشبهها. ولم يكُن إحصاء أعدادها ممكنًا، أو حتى تخمين ما يعقب صفوفها الأولى. ومن خلفها، امتدَّت سحابة التراب واتَّصلت بالأفق الذي جاءت منه.

ورغم أن صفوفنا وقفت بحزم وثبات تحت أشعة الشمس، شعرتُ بالعجب والفزَع الذي استولى عليهم جميعًا، وضاعت الكلمات من حوار ضباط **تانوس**، فوقفوا في رهبة صامتة يراقبون انتشار العدو أمامنا.

ثم انتبهتُ إلى أن سحابة التراب لم تعُد تتقدم ناحيتنا، بل تعلقت في السماء، وبدأت تستقر وتنقشع تدريجيًّا، فصار بمقدوري تبيُن المركبات الثابتة في الطليعة، لكنني صرتُ مرتبكًا وخائفًا حتى إنني عجزتُ عن تحديد ما إن كانت ألفًا أم أكثر.

اكتشفنا لاحقًا أن هذا الفاصل جزء دائم من خطة هجوم الملك الراعي، ولم أعرف آنذاك أنهم في خلال هذه الهدأة ينظمون صفوفهم ويشربون الماء ويحشدون للزحف الأخير.

حلَّ جمود رهيب على صفوفنا، جمود بليغ إلى درجة أن همس النسيم سُمِعَ صاخبًا بين صخور الوديان والتلال التي نقف فوقها، ولم يتحرك شيء إلا ألوية معركتنا الخافقة على رأس كل فرقة. ثم رأيتُ راية **التمساح الأزرق** تتلوَّى في منتصف صفنا، وسكنَت نفسي بها.

انحسرت سحب الغبار ببطء، وتكشَّفت أمامنا مركبات **الهكسوس** صفًّا تلو الصف. كانت لا تزال أبعدَ من تبيُّن التفاصيل، لكنني رأيتُ أن التي في المؤخرة أضخم بكثير من قائدة الجيش، ثم بدا لي أنها مسقوفة بأشرعة من القماش أو الجلد، ورأيت الرجال يُنزلون منها ما بدا أباريق ماء كبيرة يحملونها إلى الأمام. عجبتُ من رجال يستهلكون هذه الكميات الكبيرة من الماء. كل ما فعله هؤلاء الأجانب حيرني ولم أفهمه.

طال الصمت والانتظار حتى صرخ كل عصب وعضلة في جسدي توترًا، ثم عادت الحركة فجأة.

من الصفوف الأمامية لتشكيلات **الهكسوس**، تحركت بعض هذه المركبات الغريبة ناحيتنا، وذاعت غمغمة من صفوفنا عندما رأينا سرعة حركتها، فبعد الاستراحة القصيرة تلك، بدا أن سرعتها قد تضاعفت، ثم اقتربت أكثر وانطلقت صيحة أخرى من لفيفنا وقتما أدركنا أن كلًّا من هذه المركبات يجرها زوج من الوحوش العجيبة.

كانت هذه الوحوش تنتصب فارعةً كالمها البرية، ولها العرْف الفخور المحترم نفسه على امتداد قنازع أعنقاها المقوَّسة، لكنها ليست قرناء كالمها،

بل لرؤوسها خلقة أبهى، وأعين كبيرة ومناخر متوسِّعة، أما أرجلها فطويلة ذات حوافر، وتتنقَّل بأناقة غريبة فتبدو كأنها بالكاد تمسُّ وجه الصحراء.

حتى الآن، بعد كل هذه السنين، يمكنني استرجاع رعشة التحديق إلى حصان للمرة الأولى. بهَتَ في ذهني جمال الفهد الصياد مقارنة بهذه الوحوش البديعة، وفي الوقت نفسه، امتلأ جميعنا خوفًا منها، وسمعتُ بعض الضباط يصيحون: «لا شك أن هذه الوحوش قاتلة، وآكلة للحوم البشر! أي فظاعة هذه التي حلَّت علينا؟».

سرَت قلقلة رُعبٍ بين تشكيلاتنا، إذ توقعنا أن تنقضَّ هذه الوحوش علينا وتلتهمنا كالأسود الضارية، لكن المركبة المتقدمة مالَت وانطلقت موازية لصفنا الأول. كانت تتحرك على أقراص دوارة أخذتُ أحدق إليها ذاهلًا، وللحظات القليلة الأولى، شُدِهْتُ بما أراه إلى درجة أن دماغي رفض استيعابه كله، ولم تقل إثارة رؤيتي الأولى للعربة عن رؤيتي الأحصنة التي تجرها. رأيتُ عمود نير طويل بين الزوجين الراكضين متصل بما عرفتُ لاحقًا أنه يُسمى بالمحور، وكانت الحاجبة المرتفعة مكسوَّة برقاقة ذهبية، والألواح الجانبية منخفضة حتى يتمكن النبَّال من إطلاق سهامه في الاتجاهين.

كل هذا انتبهت إليه في نظرة خاطفة، ثم تركز اهتمامي كله على الأقراص الدوارة التي أبحرت العربة عليها بهذه السلاسة والسرعة فوق الأرض الخشنة. لألف سنة، كنا نحن المصريون أكثر البشر تحضرًا وتثقفًا في الأرض، وفُقنا جميع الأمم الأخرى بأشواط في العلوم والأديان، ومع ذلك، لم يخرج كل علمنا وحكمتنا بشيء كهذا، فزلاجاتنا تسحج الأرض على قدد خشبية تُبدد قوة الثيران التي تجرها، ونسحب الكتل الصخرية الهائلة على محادل خشبية من دون أن نتخذ الخطوة المنطقية التالية.

حدقتُ إلى أول عجلة أراها في حياتي، واقتحمتني بساطتها وجمالها كبرقٍ اشتعل في رأسي. فهمتها من فوري، واحتقرتُ نفسي لأنني لم أكتشفها وحدي. كانت عبقرية من أعلى المراتب، ثم أدركتُ أن هذا الاختراع الرائع موشك على إبادتنا كما محق الغاصب الأحمر في المملكة السفلى.

أسرعت العربة الذهبية عابرةً مقدمتنا، خارج مرمى السهم بقليل، وعندما واجهتنا، سحبتُ نظري بالقوة عن تلك العجلات الدوارة الأعجوبة والوحشين العاتيين المرعبين الذين يجرَّانها، ووجهته إلى الرجُلين في حجرة العربة. كان واضحًا على أحدهما أنه السائق، فقد انحنى من فوق الحاجبة وبدا أنه يتحكم

بالزوجين الراكضين بحبال طويلة مضفورة من الجلد متصلة برأسيهما، أما الرجل الأطول الواقف خلفه فكان ملكًا، ولا تقبل وقفته الإمبراطورية الشك.

رأيتُ من فوري أنه آسيوي له بشرة كهرمانية اللون وأنف عُقابي معقوف. كانت لحيته السوداء الكثّة مشذبة باستقامة فوق صدارته، وملفوفة ومضفورة ضفرًا معقدًا بشرائط ملونة، وكان درع جسده قشرة براقة من حراشف السمك البرونزية، بينما يعتمر تاجًا طويلًا ومُتقنًا نُقشت على ذهبه صور لإله غريب ما ورُصع بالأحجار الثمينة. وعلى اللوح الجانبي لعربته، عُلق سلاحه في متناول يده، وكان لسيفه -عريض النصل في غمده الجلدي والذهبي- نصاب من عاج وفضة. وبجواره، جلست كنانتان جلديتين منتفختين أسهمًا، وكل سهم منها مُريَّش بريشات زاهية. عرفتُ في وقت لاحق كم يحب **الهكسوس** الألوان الباهرجة. كان قوس الملك على حاملته بجواره ذا شكل غريب لم أره من قبل، إذ لم يكُن لقوس **الهكسوس** قوام منحنٍ بسيط مثل الأقواس المصرية، بل يتقوَّس طرفاها العلويُّ والسفليُّ عكسيًا عند قمتيهما.

عندما طارت العربة إلى نهاية صفنا، انحنى الملك منها وغرس في الأرض قناة على رأسها راية قرمزية، فتذمر الرجال من حولي اضطرابًا: «ما الذي يفعله؟ ما الغاية من القناة؟ أهي رمز ديني، أم أنها تحدٍّ؟».

حدقتُ إلى الراية الخفاقة فاغر الفم، لكن بديهتي تبلَّدت إثر كل ما رأيته، ولم تعنِ لي شيئًا، ثم انطلقت العربة، ولا تزال خارج مرمى السهام بقليل، وغرس الآسيوي المتوَّج قناة أخرى وتدحرج عائدًا. كان قد رأى الفرعون على عرشه وتوقف تحته، وكان جسدا الحصانين مكسوين بعرقٍ يزبد ويرغي على أعطافهما كالقماش المخرم، وأعينهما تنقلب بشراسة، ومناخرهما تنفتح حتى تظهر بطانتها المخاطية الوردية، ثم راحا يهزهزان رأسيهما من فوق عنقيهما الطويلين المقوسين، ورفرف عرفاهما كجدائل امرأة جميلة تحت أشعة الشمس.

حيا **الهكسوس** الفرعون **ماموس**، ابن رع، الحاكم الإلهي للمملكتين، فليعش مؤبدًا، بازدراء ملوحًا تلويحةً مقتضبة وساخرة بيده المُدرَّعة وضحك. وكان التحدي واضحًا كما لو أنه نُطق بلغة مصرية مثالية. عامَت ضحكته الساخرة في الجو حتى بلغتنا، وتبرَّمت صفوف جيشنا غضبًا بصوتٍ أشبه برعدٍ بعيد في جو صيفي.

جذبت حركة طفيفة تحتي انتباهي، فخفضتُ نظري في اللحظة التي اتخذ **تانوس** بها خطوة إلى الأمام ورفع القوس العظيمة **لاناتا**، ثم أطلق سهمًا ارتفع في مسار متقوّس عالٍ قبالة السماء الزرقاء الحليبية. كان **الهكسوس** خارج مرمى أي قوس أخرى، إلا **لاناتا**. فبلغ السهم ذروة مساره ثم هبط كصقر منقض إلى منتصف صدر الملك الآسيوي تمامًا، وشهقت الحشود المراقبة أمام مدى الرمية وقوتها ودقتها، فقد حلق السهم ثلاثمئة خطوة، وفي اللحظة الأخيرة تمامًا رفع **الهكسوس** ترسه البرونزي وغرس السهم سنه في منتصف هدفه. نُفذت الرمية بسهولة هازئة تركتنا جميعًا ذاهلين ومرتبكين.

ثم قبض **الهكسوس** على قوسه غريبة الشكل عن حاملته بجواره، وبحركة واحدة، أوترها وشدها وأطلقها، فبلغ السهم من الارتفاع أكثر ما بلغه سهم **تانوس**، وسافر في الجو من فوق رأسه، ثم هبط ناحيتي مزمرًا كجناح إوزة. عجزتُ عن الحركة، وكان ممكنًا أن يصيبني من دون أن أحاوله تفاديه، لكنه تجاوز رأسي بذراع وأصاب قاعدة عرش الفرعون من ورائي، وأخذ يهتزُّ في دعامة خشب الأرز كإهانة، فضحك ملك **الهكسوس** ثانيةً ثم دحرج عربته وأسرع مبتعدًا، عائدًا عبر السهل إلى لفيفه.

عرفتُ آنذاك أننا هالكون، فأنَّى لنا التصدي لهذه العربات السريعة والأقواس المتقوسة عكسيًّا التي تغلبت على أفضل نبَّال في صفوفنا بهذه السهولة؟ ولم أكن وحيدًا في توقعاتي المخيفة، فعندما بدأت أسراب العربات مناوراتها المهلكة الأخيرة على السهل وأسرعت في موجات باتجاهنا، سمعتُ أنَّة يأس تتصاعد من جيش مصر، وفهمتُ آنذاك كيف تفرقت قوات المدَّعي الأحمر من دون مقاومة، وكيف مات الغاصب وسيفه لا يزال في غمده.

عندما انطلقت العربات، امتزجت في طوابير رباعية واتجهت إلينا مباشرة، ولم يصفُ ذهني إلا في تلك اللحظة، فركضتُ هابطًا المنحدر بكامل سرعتي، وعندما وصلتُ لاهثًا إلى جوار **تانوس** صرختُ: «القنا ذات الرايات تحدد نقاط الضعف في صفوفنا! سيكون هجومهم الرئيس من هنا ومن هنا!».

عرف **الهكسوس** بطريقة ما ترتيب معركتنا، وتبيَّنوا الثغرات في تشكيلنا، فقد غرس ملكهم راياته بين فرقنا بالضبط، وحتى آنذاك مرت ببالي فكرة وجود جاسوس أو خائن، لكنني في إلحاح اللحظة نحيتها جانبًا، ونُسيَت آنيًا.

استجاب **تانوس** لتحذيري فورًا، وصرخ آمرًا خفرنا أن يسرعوا قُدمًا ويقبضوا على الرايات. أردتُ منه أن يحركها حتى نستقبل هجمة العدو

على أقوى جبهاتنا، لكن لم يسنح لنا الوقت، فقبل أن يتمكن الخفر من بلوغ العلامات وانتزاعها، انقضَّت عليهم سنان الرماح من العربات الطائرة، وقُتل بعض رجالنا بالسهام المنطلقة من العربات الوثَّابة الميَّالة، إذ كان تصويب ركَّاب عربات العدو باهرًا.

استدار الناجون وأسرعوا عائدين، محاولين استعادة السلامة الوهمية لصفوفنا، لكن العربات أدركتهم من دون جهد. كان السائقون يقودون أزواج الأحصنة الراكضة المندفعة بلمسة عاشق، ولم يدوسوا ضحاياهم مباشرة، بل حادوا عنهم ليعبروهم عن مسافة لا تزيد على ذراع، وفي تلك اللحظة انتبهتُ إلى السكاكين؛ كانت منحنية إلى الخارج من مركز العجلات الدوارة كأنياب تمساح فظيع.

رأيتُ النصول الدوارة تضرب أحد رجالنا مباشرة، وبدا كأنه ذاب في غمامة فاقعة من الدم، إذ طارَت إحدى ذراعيه المقطوعتين عاليًا في الجو، وتهشَّمت قطع جذعه المشوه على الأرض الصخرية مع استمرار العربة بطيرانها من دون أدنى إبطاء. كانت تشكيلة العربات المتكاتفة لا تزال متجهة مباشرة إلى الثغرة في صفنا الأمامي، ورغم أني سمعتُ **كراتاس** يصيح بأوامر تعزيزها، فإن الأوان قد فات.

اصطدم طابور العربات بجدار تروسنا ورماحنا الدفاعي، وعبره ممزقًا إياه كأنه محض شبُّورة نهرية واهية. وفي لحظة واحدة، انشق تشكيلنا، الذي صمد أمام هجوم خيرة المحاربين السوريين والحوريين، وتبعثر.

داست حوافر الأحصنة أقوى رجالنا وأثقلهم، واخترقت سكاكين العجلات الدوارة دروعهم فقطَعت رؤوسهم وأطرافهم كأنهم أغضُّ عساليج الدوالي. ومن العربات العالية، أمطر الجنود صفوفنا المتراصة بالسهام والرماح الخفيفة، ثم شقوا طريقهم من الخرق الذي اقتحموه مارين عبر تشكيلاتنا كلها حتى انتشروا خلفنا وتابعوا بانحناء كامل على امتداد صفوفنا الخلفية، بينما يستمرون بقذف مقاذيفهم إلى مؤخرتنا المكشوفة.

عندما التفّ الجنود لمواجهة هذا الهجوم على مؤخرتهم، انهالت عليهم تشكيلة أخرى من العربات المندفعة من السهل المفتوح، فقسم الهجوم الأول جيشنا إلى قسمين، مفرقًا **تانوس** عن **كراتاس** في الجناح الأيمن، ثم قسم الذي تلاه القسمين إلى مجموعات معزولة أصغر، فلم نعُد كُلًّا متماسكًا، بل

زُمرًا من مئة رجل وخمسين رجلًا يقفون ظهرًا لظهرٍ ويقاتلون بشجاعة المحكوم بالهلاك.

أخذ **الهكسوس** يتدفقون بلا انتهاء عبر السهل تحملهم أجنحة من التراب المدوّم، ومن خلف العربات الخفيفة ثنائية العجلات، جاءت العربات الثقيلة رباعية العجلات التي تحمل كل منها عشرة رجال. كانت جوانب العربات مغطاة بصوف الخراف، فضربت سهامنا بلا جدوى بالصوف الوثير الكثيف، ولم تصل سيوفنا إلى الرجال في بدن العربات العالي. وراحوا يرسلون سنانهم علينا ففرقوا جموع مقاتلينا المرتبكة إلى عقد مبعثرة من ناجين مذعورين. وعندما حشد أحد نقبائنا بضعة رجال لشن هجوم معاكس عليهم، تدحرجت العربات الثقيلة وتوقفت خارج المدى، ثم أوقفوا هجماتنا الشجاعة بأقواسهم الشنيعة المقوسة عكسيًّا، وحالما تذبذبنا عادوا يتدحرجون من فوقنا.

أدركتُ إدراكًا ثقيلًا اللحظة التي كفَّ النزاع فيها عن كونه معركة وصار محض مذبحة. كانت بقايا فرقة **كراتاس** على ميمنتنا قد أطلقت سهامها الأخيرة، وميَّز **الهكسوس** نقباءها من خوذهم المريَّشة وقتلوهم جميعًا تقريبًا، فبات الرجال عزلًا وبلا قيادة، واندحروا ملقين أسلحتهم وفارين ناحية النهر، لكن يستحيل أن يسبق أيهم عربة **هكسوس**.

ركض الجنود المُهانون إلى فرقة **تانوس** أسفل الرابية وتشابكوا بها، فعرقلت جموعهم الهلِعة المُنازعة بقايا المقاومة التي لا يزال **تانوس** قادرًا على تقديمها وخنقتها. كان الرعبُ مُعديًا، وتفرق الجند في مركزِ صفِّنا وحاولوا الهرب، لكنَّ العربات القاتلة طوَّقتهم تطويق الذئاب للقطعان.

في لجة تلك الفوضى، في المذبحة الدموية ومعمعة الهزيمة، كان الزرق الوحيدون الذين صمدوا حول **تانوس** ولواء التمساح، فبدوا كجزيرة صغيرة في سيل الرجال المهزومين، وحتى العربات عجزت عن تفريقهم، ذلك أن **تانوس**، وبغريزة جنرال عظيم، جمعهم وسحبهم إلى رقعة من الصخور والأخاديد حيث لم يتمكن **الهكسوس** من بلوغهم، وشكّلوا جدارًا، متراسًا حول عرش الفرعون.

ولأنني بجوار الملك، كنتُ في وسط حلقة أبطاله، وشقَّ عليَّ البقاء واقفًا، فالرجال يكافحون ويندفعون من كل الجهات حولي، وتجرفهم موجات المعركة جيئة وذهابًا كطحالب متمسكة بصخرة في ذروة المدِّ وتكسر الأمواج.

رأيتُ **كراتاس** يحارب شاقًا طريقه من الميمنة المحطمة لينضم إلينا، وقد جذبت خوذته المريشة سهام **الهكسوس** فتطايرت من حول رأسه بكثافة الجراد، لكنه وصل إلينا سليمًا، وانفتحت حلقتنا لتستقبله. رآني وضحك بشديد الابتهاج: «بحق غائط **سِت** المُبخَّر يا **تايتا**، أليس هذا مُسلِّيًا أكثر من بناء القصور للأمير الصغير؟».

لم يشتهر **كراتاس** بحضور بديهته قطُّ، ومنعني انشغالي بالبقاء واقفًا من تجشم عناء الإجابة.

التقى **تانوسَ** قرب العرش، وابتسم له ابتسامة أبله: «ما كنتُ لأفوِّت هذا لقاء جميع كنوز الفرعون. أريدُ إحدى زلاجات **الهكسوس** هذه لي». لم يكُن **كراتاس** أحد أعظم مهندسي مصر كذلك، فحتى هذه اللحظة، ما زال يظن أن العربات زلاجات من صنف ما. هذا أقصى ما بلغته مخيلته.

نقر **تانوس** جانب خوذته بسطح سيفه تحيةً، وكانت سحنته كالحة رغم إشراق لهجته، فقد كان جنرالًا خسر لتوه معركة وجيشًا وإمبراطورية.

قال **لكراتاس**: «لقد انتهى عملنا هنا اليوم. فلنرَ أكان بمقدور وحوش **الهكسوس** أولاء السباحة مثلما يمكنهم العدو. تراجعوا إلى النهر!»، ثم تراجع كلاهما متكاتفين عبر الصفوف إلى العرش حيث ما زلتُ أقف.

ومن فوق رؤوسهم، وراء حدود حلقتنا الدفاعية الصغيرة، رأيت جيشنا المهيض يتدفق مدفوعًا بأسراب العربات ناحية النهر.

ثم رأيتُ عربة ملك **الهكسوس** الذهبية تتدحرج خارج التشكيلة وتشق طريقها باتجاهنا على حين تدوس رجالنا تحت الحوافر الطائرة وتقطِّعهم بسكاكين العجلات البرَّاقة. أوقف السائق الحصانين بعدئذ فشبًّا وهبطًا قبل أن يصل إلى حدود الصخور التي تحمينا، ثم وقف الملك متوازنًا بسهولة على صفيحة القدم، وأوتر قوسه المعكوس مصوبًا إياه ناحيتي، أو هذا ما بدا عليه الأمر، لكن عندما خفضتُ رأسي، أدركتُ أن السهم لم يكُن لي، ذلك أنه مرَّ زاعقًا من فوقي واستدرتُ لأراقب تحليقه، فرأيته يصيب الفرعون في أعلى صدره، ويغرس نصف طوله في لحمه.

أطلق الفرعون صيحة مبحوحة وترنَّح على عرشه العالي، ولم تسِل دماؤه، فقد سد السهم الجرح، لكن تموجت ريشاته بألوان قرمزية وخضراء جميلة، ثم انزلق الفرعون جانبيًّا وانهار باتجاهي. وعندما فتحتُ ذراعيَّ لأتلقاه،

أنزلني وزنه إلى ركبتيَّ، لذا لم أرَ عربة ملك **الهكسوس** تبتعد، لكنني بينما سمعتُ ضحكته الساخرة تتضاءل انطلق عائدًا عبر السهل ليقود المذبحة.

انحنى **تانوس** من فوقي وأنا محتضن الملك، وسألني بإلحاح: «ما مدى سوء إصابته؟».

صعدت الإجابة إلى شفتي من دون تفكير: «لقد قُتِلَ»، فبالنظر إلى زاوية دخول السهم وعمقه، لم أرَ إلا نتيجة واحدة ممكنة، لكنني ألجمت الكلمات قبل أن أنطقها، إذ عرفتُ أن عزيمة رجالنا ستخور إذا ما قُتِلَ عظيم مصر، فقلتُ بدلًا من ذلك: «إن إصابته بالغة، لكنه قد يشفى إذا ما حملناه إلى متن الصندل الملكي».

زأر **تانوس**: «اجلبوا لي ترسًا!»، وعندما جاءه الترس، حمل الفرعون عليه بلطف. كان الدم لم يسِل بعد، لكنني عرفتُ أن صدره يمتلئ به كجرة النبيذ، فتحسستُ بسرعة مكان رأس السهم ووجدت أنه لم يخرج من ظهره، بل ظل مغروزًا في عمق قفص أضلاعه، لذا كسرتُ ما برز من السهم، وغطَّيته بشاله الكتاني. همس لي حينها: «**تايتا**، هل سأرى ابني ثانية؟».

- أجل يا قدير مصر، أقسم لك على ذلك.
- وستعيش سلالتي؟
- كما تنبأت متاهات **آمون رع**.

جأر **تانوس**: «فليأت عشرة رجال أقوياء إلى هنا!»، فتزاحموا حول الحمَّالة المؤقتة، وحملوا الملك في وسطهم.

- اتخذوا تشكيل السلحفاة! أحكموا الطوق من حولي أيها الزرق!

وشكَّل الزرق بتروسهم المتضافرة جدارًا حول الملك.

أسرع **تانوس** إلى لواء **التمساح الأزرق** الذي لا يزال يرفرف في وسطنا ومزقه عن ساريته، ثم لفه حول خصره وربط طرفيه على بطنه.

وصاح: «إذا أراد **الهكسوس** هذه الخرقة، فعليهم المجيء وأخذها مني»، وهلل رجاله لاستعراض الشجاعة الأحمق هذا.

- الكل معًا الآن! عودوا إلى السفن! بأقصى سرعة!

وحالما غادرنا حِمَى معقلنا الصخري الصغير، هجمت العربات علينا.

فوجد **تانوس** الحل: «اتركوا الرجال! اقتلوا وحوشهم!»، وعندما انقضت أول عربة علينا، أوتر تانوس **لاناتا**، وأوتر نبَّالته أقواسهم معه، وأطلقوا جميعًا على مثاله.

طار نصف سهامنا بعيدًا، فقد كنا نركض فوق أرض وعرة بنبَّالة منقطعي الأنفاس، وأصاب غيرها بدن العربة المتقدمة، فانكسرت أو استقرت في الخشب، وصلصلت البقية مرتدة عن الصفائح البرونزية التي تغطي صدور الأحصنة.

سهمٌ واحدٌ فقط حلَّق بشدة ودقة، سهمٌ أطلقته القوس العظيمة **لاناتا**، فطار تغني الريح في ريشاته ليستقر في جبهة الحصان الأبعد. خرَّ الحصان كانزلاق صخري معرقلًا السير وجارًا شريكه أرضًا في سحابة من التراب والحوافر الراكلة، وقُذف راكبو العربة من الحُجرة عندما تشقلبَت، فأخذت بقية العربات تحيد عنها لتتفادى الحطام، وذاعت من صفوفنا صيحة مبتهجة وارتفع إيقاع سيرنا، فقد كان أول نجاح لنا في ذلك اليوم المخيف، وقد قوَّى عصبة الزرق الصغيرة وشجَّعها.

هدر **تانوس**: «إليَّ أيها الزرق!»، ثم، وفي مشهد لا يُصدق، بدأ بالغناء. وعلى الفور، أخذ الرجال من حولي يصيحون لازمة نشيد معركة الفوج. خرجت أصواتهم متوترة وخشنة بفعل العطش والإرهاق، ولم تحمل إلا القليل من التناغم والجمال، لكنه كان صوتًا يُرجف القلوب ويُسرِّي الدماء، فرفعتُ رأسي وغنيتُ معهم، وعلا صوتي صافيًا وعذبًا.

ضحك لي **تانوس** قائلًا: «باركك **حورس** يا كناريَّ الصغير»، وأسرعنا إلى النهر. طوقتنا العربات وأظهرت الاحتراز في مناوراتها لأول مرة ذلك اليوم، فقد رأت مصير رفيقتها، ثم جنحت ثلاث منها أمام مقدمة سلحفاتنا، وهجمت علينا بتشكيلة رأس السهم المقلوب.

صاح **تانوس**: «صوِّبوا على رؤوس الوحوش!»، وقادهم بسهم دهوَر حصانًا آخر على ركبتيه، فانقلبت العربة وتشظَّت فوق الأرض الصخرية، وحادت بقية العربات في التشكيلة مبتعدة.

عندما عبرت تشكيلتنا العربة المحطمة، ركض بعض رجالنا ليطعنوا الأحصنة الصارخة العالقة في الحطام، وكانوا بالفعل يكرهون هذه الحيوانات ويخافون منها خوفًا يكاد يكون خرافيًّا انعكس في انتقامهم الوحشي. قتلوا الرجال الساقطين كذلك، لكن ليس بالحقد نفسه.

بعد أن دُمِّرَتْ عربتان، بدا **الهكسوس** مترددين في معاودة الهجوم على تشكيلنا الصغير، وكنا نقترب بسرعة من سبخة الحقول الموحلة وقنوات الري المغمورة التي تحدد ضفة النهر. أظن أنني كنتُ الوحيد في تلك المرحلة الذي أدرك أن العدو ذا العجلات عاجز عن اللحاق بنا إلى المستنقع.

ورغم أنني ركضتُ بجوار حمالة الفرعون، رأيتُ عبر الفجوات في صفوفنا انتهاء فصول المعركة التي تُمثَّل من حولنا.

كنا الفصيل الناجي الوحيد الذي لا يزال يظهر تماسكًا، أما بقية الجيش المصري فكانت غوغاء مذعورة معدومة الشكل تتدفق عبر السهل. كان معظمهم قد ألقى سلاحه، وعندما تتجه عربة ناحيتهم، يخرُّون راكعين رافعين أيديهم توسُّلًا، لكن لم يُبدِ **الهكسوس** أي رحمة، ولم يهدروا عليهم سهامًا حتى، بل أخذوا يميلون حتى يقتربون منهم فيمزقونهم بسكاكين العجلات الدوارة، أو ينحنون من الحجرة ويطعنونهم بالقنا، أو يهشمون رؤوسهم بالهراوات حجرية الرؤوس. كانوا يجرون الضحية خلفهم ولا يزال معلقًا بالقناة حتى يتحرر رأسها الشائك من جسده، وآنذاك فقط يتركون الجثة المكومة ترقد في التراب.

لم أرَ في حياتي مجزرة كهذه، ولم أقرأ عن شيء يشبهها في كل حكايات المعارك القديمة. ذبح **الهكسوس** شعبنا بآلافهم وعشرات آلافهم، فصار سهل **أبنوب** كحقل ذرة بيضاء مرَّ به الحصادون بمناجلهم، وتكوَّم قتلانا أكوامًا وصفوفًا.

ظلت جيوشنا ألف سنة لا تقهر، وانتصرت سيوفنا على العالم كله. وهنا، في ميدان **أبنوب**، بلغ عصرٌ نهايته. غنَّى الزرق في خضم هذه المذبحة، وغنيتُ معهم، رغم احتراق عيني بدموع الخزي.

كان أول خندق ري أمامنا مباشرة عندما هجمت تشكيلة أخرى من العربات على جانبنا هجومًا عنيفًا، وانهالت أسهمنا عليها، لكنها تابعت المضيَّ بأحصنة تلهث بشدة من أفواهها الحمراء الفاغرة وسائقين يصرخون لها بعبارات التشجيع. رأيتُ **تانوس** يطلق مرتين، بيد أن سهميه انحرفا أو ضلًا أمام التفافات العربات وقفزاتها العشوائية، وصدمت التشكيلة سلحفاتنا مفرقةً دروعها المتشابكة.

قطَّعت سكاكين العجلات اثنين من حملة الفرعون إلى أشلاء وسقط الملك الجريح إلى الأرض، فهبطتُ على ركبتيَّ بجواره وغطَّيته بجسدي لأحميه

من قنا **الهكسوس**، لكن العربات لم تتلكأ، إذ كان همها الشاغل ألا تُعرقل أو تُحاصر، فأخذت تكرُّ ثم تفر قبل أن يتمكن رجالنا من بلوغها بسيوفهم، وآنذاك تنتظم وتكر ثانية.

مد **تانوس** يده منهضًا إياي ووبخني: «من سيؤلف لنا نشيد الأبطال إذا قُتلتَ؟»، ثم نادى الرجال، فحملوا حمَّالة الملك في ما بينهم وركضوا بها إلى أقرب خندق.

سمعتُ صرير عجلات العربة ينقض علينا، لكنني لم أنظر خلفًا. كنت عدَّاءً شديدًا في الظروف الطبيعية، غير أنني في تلك اللحظة تجاوزت الحمَلَة كما لو أن أقدامهم مقيَّدة بالأرض، وحاولتُ اجتياز الخندق، إلا أنه كان أعرض من أن أعبره بقفزة واحدة، فحططتُ وغاصت ساقي حتى الركبتين في الطين الأسود. اصطدمت العربة التي كانت تتبعني بحافة الخندق وتكسَّرت إحدى عجلاتها، فسقط بدنها في الخندق وكاد يسحقني، لكنني تدبرتُ قذف نفسي جانبًا.

طعن الزرق بعجالة الأحصنة والرجال الممدين عاجزين في الطين وقتلوهم، فاستغللت اللحظة لأخوض عائدًا إلى العربة.

كانت العجلة المرتفعة لا تزال تدور في الجو. بينما أتفحصها وضعتُ يدي عليها، وتركتها تبرم تحت أصابعي. لم أقف هناك إلا بما يكفي لأجرّ ثلاثة أنفاس عميقة، لكن في نهاية ذلك الوقت، كنتُ قد تعلمتُ عن بناء العجلة ما يعلمه أي **هكسوسيٌّ**، وراودتني أول فكرة عما يمكنني تحسينه بها.

صاح بي **كراتاس**: «بحق ضرطات **سِت** المنغَّمة يا **تايتا**، سوف تتسبب بقتلنا جميعنا إذا ما بدأت بأحلام اليقظة الآن!».

هززتُ نفسي وأمسكتُ بإحدى الأقواس المعكوسة عن حاملتها على جانب العربة واستللت سهمًا من الكنانة، إذ أردتُ معاينتها على مهل، ثم خضتُ الخندق عائدًا ولا أزال أحملها بيدي في اللحظة التي هدر فيها سرب العربات عائدًا بموازاة الخندق ممطرًا إيانا بالسهام.

كان الرجال حملة الملك يسبقونني بمئة خطوة، وكنتُ الأخير في مجموعتنا الصغيرة. هدَرَ ركَّاب العربات من خلفي إحباطًا إزاء عجزهم عن اللحاق بنا، وأخذوا يطلقون سهامهم حولي وأنا أركض، فأصابني أحدها في كتفي، لكن

سنُّه فشلت في اختراقي وطاش مبتعدًا، تاركًا على كتفي كدمة لم أكتشفها إلا بعد وقت طويل.

ورغم أنني انطلقت من بعيد خلف الحملة، فقد أدركتهم بوقت بلوغنا الضفة الرئيسة للنيل. كانت ضفة النهر مكتظَّة بالناجين من المعركة، وجميعهم أعزل تقريبًا وقلة قليلة منهم سليمة، وكانت تقودهم كلهم رغبة واحدة هي العودة بأسرع وقت ممكن إلى السفن التي عبرت بنا النهر من **طيبة**.

أفردني **تانوس** وناداني إليه عندما وصل الحَمَلة: «إنني أضع الفرعون بين يديك يا **تايتا**، خذه إلى متن الصندل الملكي وابذل كل جهودك لإنقاذ حياته».

سألته: «متى ستصعد إلى الصندل؟».

قال: «إن واجبي يكمن هنا، مع رجالي. عليَّ إنقاذ كل الذين بمقدوري إنقاذهم، والصعود بهم إلى السفن». ثم بينما ينتقي نقباءه وقادته من حشوده المقهورة ويصرخ بأوامره أعرض عني ووسع خطاه مبتعدًا.

مضيتُ إلى الملك وركعتُ بجواره، وكان لا يزال على قيد الحياة، فعاينتُه معاينة وجيزة ووجدته يتأرجح على حافة الوعي. كان جلده باردًا ونديًّا كجلود الزواحف، وأنفاسه سطحية، ولا توجد إلا قشرة واهية من الدم حول جذع السهم نزَّت من الجرح، لكن عندما وضعت أذني على صدره، سمعتُ الدم يبقبق في رئتيه مع كل نفس يتنفَّسه، وزحفت أفعى حمراء نحيلة من هذه الدماء من فمه إلى ذقنه. عرفتُ أن أيًّا كان ما يمكنني فعله لإنقاذه، فعليَّ فعله بسرعة، وصرختُ طالبًا زورقًا لينقله إلى الصندل.

حمله الحمَلة إلى القارب، وجلستُ بجواره بينما نجدف إلى حيث يرسو الصندل الأميري العظيم في مجرى تيار النهر الرئيس.

***

اجتمعت حاشية الملك على جانب السفينة لتراقب اقترابنا. كانوا جماعة ثرثارة من النساء الملكيات وأهل البلاط والكهنة الذين لم يشاركوا في القتال، وتعرفتُ مولاتي واقفةً بينهم بوجه شاحب شديد القلق ممسكة ابنها الصغير بيدها.

حالما نظر الواقفون على متن الصندل إلى زورقنا ورأوا الملك على حمالته والدم الذي عجزتُ عن مسحه يغطي وجهه، علَت أصواتهم بصيحة هلع وتفجُّع رهيبة، ثم خرَّت النساء راكعات يندُبن، ووَعوَع الرجال يأسًا كالكلاب.

كانت مولاتي أقرب النساء إلى الملك عندما رُفع إلى جانب السفينة ووُضِعت حمالته على متنها، وبوصفها الزوجة الأولى، يقتضي واجبها أن تعتني به أولًا، فأفسح الآخرون لها المجال وانحنت فوقه تمسح الطين والدم عن وجهه المُدنَف. تعرَّفها الملك آنذاك، ذلك أنني سمعتُه يتنفس اسمها ويطلب ابنه، فنادت مولاتي الأمير إليه، وابتسم برفق وحاول رفع يده ليلمس الصبي، لكن طاقته خذلته وسقطت يده عائدة إلى جانبه.

أمرتُ الطاقم بحمل الفرعون إلى حجرته، ثم جاءتني مولاتي مسرعة وسألتني بإلحاح: «ماذا عن **تانوس**؟ أهو بخير؟ واه يا **تايتا**، أرجوك قُل لي إن هذا العدو المهول لم يقتله!».

- إنه بخير. لا شيء قادر على أذيته. لقد أخبرتُك برؤيا المتاهات، وقد تنبأتُ بكل هذا، لكن عليَّ الذهاب إلى الملك الآن، وسأحتاج إلى مساعدتك. اتركي **مِمنون** مع مربياته وتعالي معي.

كنتُ لا أزال مُغطى بقشرة سوداء من طين النهر، وكذا كان الفرعون، فقد سقط في الخندق نفسه الذي سقطتُ فيه. طلبتُ من اثنتين من النساء الملكيات أن يعرِّينه ويحممنه ويسجينه على ملاءات كتانية بيضاء نظيفة، ريثما أعود إلى سطح السفينة لأستحم بدلاء من مياه النهر رفعها البحارة عن الجانب، إذ إنني لا أجري عمليةً في الوساخة أبدًا، فقد وجدتُ بالتجربة أن ذلك يحمل تأثيرًا سلبيًّا على المريض ويسهِّل تراكم الأخلاط المرضية.

وبينما كنت منشغلًا بذلك، أخذت أراقب الضفة الشرقية حيث تجمَّع جيشنا المغلوب في حماية الخندق والمستنقع. كانت هذه الطغمة البائسة ذات يوم قوة شامخة وجبارة، وملأني الخزي والخوف، ثم رأيتُ قوام **تانوس** الفارع يمشي في وسطهم، وحيثما يتحرك، يقف الرجال من الطين وينتظمون في هيئة الانضباط العسكري. حتى إنني التقطتُ مرةً صوت تهليل مُرهق واهٍ على جناح الريح.

إذا ما أرسل العدو مشاته عبر المستنقعات الآن، فستكتمل المذبحة والهزيمة. لن ينجو رجل من جيشنا العظيم كله، وحتى **تانوس** نفسه لن يتمكن من المقاومة إلا قليلًا. غير أنني ورغم تحديقي المُمعِن في الشرق، لم أتبيَّن أي علامة على تروس مشاة متشابكة أو بريق سنان رماح تتقدم على كتف المنحدر.

كانت سحابة الغبار الفظيعة لا تزال عائمة فوق سهل **أبنوب**، وهذا يعني أن العربات تتحرك هناك، لكن حتى من دون أن ينقض عليه مشاة العدو، بالكاد تمكن **تانوس** من استخلاص بعض الراحة من ذلك اليوم الرهيب. كان درسًا وجب عليَّ تذكرُه، وقد أجدانا أيما نفع في السنوات التاليات. قد تنتصر العربات في المعركة، لكن لا يحسمها إلا جنود المشاة.

باتت المعركة على ضفة النهر الآن مسؤولية **تانوس** بالكامل، أما أنا فأمامي معركة أخرى أخوضها مع الموت في مقصورة الصندل الملكي.

***

همست لمولاتي عندما رجعتُ إلى جوار الملك: «لم نفقد الأمل بالكامل بعد. **تانوس** يحشد جنوده، وإن كان ثمة رجل حيٌّ قادر على إنقاذ مصر من **الهكسوس**، فهو **تانوس**»، ثم التفتُ إلى الملك، ونسيتُ آنيًا كل شيء إلا مريضي.

وكما جرت عادتي في معظم الأوقات، بينما أفحص الجرح تمتمتُ بأفكاري جهارًا. مرَّ أقل من ساعة، بحساب ساعةٍ مائية، منذ أصاب السهم الفاجع هدفه، ومع ذلك، كان اللحم حول جذع السهم المقصوم متورمًا ومحمرًّا.

قلت: «يجب أن أخرج السهم. إن تركت شوكته مكانها فسيموت بحلول فجر الغد». كنتُ أظن أن الملك لم يعُد قادرًا على سماعي، لكنه فتح عينيه وأنا أتكلم، ونظر في عينيَّ مباشرة.

ثم سألني: «هل أمامي فرصة للعيش؟».

قلت: «ثمة فرصة دائمًا». سمعتُ السلاطة والنفاق في صوتي، وسمعها الملك أيضًا.

قال: «أشكرك يا **تايتا**. أعرف أنك ستكافح من أجلي، وأعفيك الآن من أي ملامة إذا ما فشلت». كان هذا سخاءً منه، ذلك أن أطباء كثر قبلي نالوا حبل المشنقة عقابًا على تركهم حياة ملكٍ تنسل من بين أصابعهم.

- رأس السهم مستقر عميقًا، وسيسبب قدرًا كبيرًا من الألم، لكنني سأعطيك مسحوق الزهرة المنوِّمة ليسكِّنه.

سألني: «أين زوجتي الأولى، الملكة **لوستريس**؟».

وأجابت مولاتي فورًا: «أنا هنا يا سيدي».

- ثمة شيء أريد قوله. استدعي جميع وزرائي ونسَّاخي، حتى يُشهد بلاغي ويُسجَّل».

فتهافتوا على المقصورة الصغيرة الحارَّة ووقفوا صامتين.

مد الفرعون يده لمولاتي، وأمرها: «خذي يدي، واسمعي كلماتي»، فنزلت إلى جواره وفعلت كما أمرها، بينما تابع الملك كلامه بهمس خافت لاهث.

- إذا مِتُّ، تتولى الملكة **لوستريس** الوصاية على ابني. لقد علمتُ في الوقت الذي عرفتها فيه أنها صاحبة عزم وسداد رأي، ولو لم تكُن كذلك، لما أوكلت هذه المهمة إليها.

غمغمت الملكة **لوستريس** غمغمة خفيضة: «أشكر ثقتك يا عظيم مصر»، ثم كلمها الفرعون مباشرة، رغم أن جميع الحاضرين في المقصورة يسمعونه.

- أحيطي نفسك بالرجال الحكماء والشرفاء، وربِّي ابني على كل الفضائل المَلَكيَّة التي ناقشناها، فأنت تعرفين رأيي بكل هذه المسائل.

- سأفعل يا صاحب الجلالة.

- عندما يبلغ سنًّا يسمح له بحمل عصا الراعي والمذبة، لا تحاولي منعها عنه. إنه سليلي وسلالتي.

- سأفعل طوعًا ما تأمرني به، فهو ليس ابن أبيه وحسب، بل ابني أيضًا.

- عندما تحكمين، احكمي بحكمة واهتمي بشعبي. سيحاول كثيرون انتزاع رموز المُلك من يديك، وليس هذا العدو الجديد المتوحش، **الهكسوس**، وحسب، بل آخرون أقرب منه إلى عرشك. لكن عليك التصدي لهم، والحفاظ على التاج المزدوج سليمًا من أجل ابني.

- سمعًا وطاعة أيها الفرعون الإلهي.

صمت الملك برهة وظننتُ أنه انزلق إلى اللاوعي، لكنه عاد يتلمّس فجأة باحثًا عن يد مولاتي.

- عندي لك مهمة أخيرة: لم يكتمل بناء قبري ومعبدي بعد، وهما الآن عرضة للخطر، مثل مملكتي كلها، إثر هذه الهزيمة الفظيعة التي تكبدناها على يد **الهكسوس**، الذين سيقتحمون **طيبة** إن لم يتمكن جنرالاتي من إيقافهم.

دمدمت مولاتي: «فلنتوسّل إلى الآلهة أن لا يحدث ذلك».

- آمرك ببالغ الصرامة أن تشرفي على تحنيطي ودفني رفقة جميع كنوزي تماشيًا مع أصرم مراسم *سفر الموتى*.

ظلت مولاتي صامتة، وأظن أنها أدركت في تلك اللحظة ثقل المهمة التي وضعها الفرعون على عاتقها.

فاشتدت قبضته على يدها حتى ابيضَّت براجمه، وأجفلَتْ: «أقسمي على ذلك بحياتك وأملك بالخلود. أقسمي عليه أمام وزراء دولتي وحاشيتي الملكية. أقسمي لي باسم **حابي** إلهتك الراعية، والثلاثي المقدس **أوزيريس وإيزيس وحورس**».

نظرت الملكة **لوستريس** إليَّ وفي عينيها مناشدة تثير الشفقة. عرفتُ أنها إذا ما وعدت وعدها، فستبرُّ به مهما كان الثمن، ذلك أنها مثل حبيبها في هذا الأمر، تلتزم **وتانوس** بقانون النخوة نفسه. عرفتُ أيضًا أن على المقربين منها أن يتوقعوا دفع الثمن نفسه، وقد يرجعُ قسمٌ تقسمه للملك الآن ليثقل كواهلنا جميعًا يومًا ما، بما في ذلك الأمير **مِمنون** والعبد **تايتا**. ومع ذلك، بينما يرقد الملك على سرير احتضاره لا توجد طريقة تمكنها من مخالفته، فأومأتُ لها إيماءة لا تكاد تُلاحَظ. درستُ لاحقًا أدق نقاط هذا القسم، ومثل كاتب عدل، قولبته حتى قرَّبته قليلًا إلى التأويل العقلاني.

قالت الملكة **لوستريس** بصوت خفيض لكنه واضح: «أقسم **بحابي**، وبجميع الآلهة»، ومئة مرة في السنوات اللاحقة، تمنيتُ لو أنها لم تفعل.

تنهَّد الملك تنهيدة رضى، وترك يدها تنسلُّ من يده: «الآن صرتُ مستعدًا لك يا تايتا، ولأي مصير قررته الآلهة. اسمح لي فقط أن أقبِّل ابني مرة أخرى».

وبينما يجلبون أميرنا الصغير البديع إليه، أخرجت حشد النبلاء من المقصورة بطريقة تنقصها الكياسة، ثم أعددتُ له جرعة من الزهرة المنومة قوَّيتها بقدر ما أجرؤ، ذلك أنني مدركٌ أن هذا الألم قادر على نقض أفضل جهودي وإهلاك مريضي كما تهلكه زلة من مشرطي.

عندما شربها كلها، انتظرتُ حتى انقبض بؤبؤا عينيه فصارَا كرأسَيْ دبوسين، وارتخى الجفنان فوقهما، ثم أبعدتُ الأمير ومربياته.

***

عندما كنا نهمُّ بمغادرة طيبة، توقعتُ أنني سأطبِّب جراح سهام، لذا جلبتُ معي ملاعقي، وكنتُ قد صممت هذه الأداة بنفسي، رغم ادعاء دجال في غزة

وآخر في **منف** أنها من اختراعهما. باركتُ ملاعقي ومشارطي بلهب السراج، ثم غسلتُ يديَّ بالنبيذ الساخن.

بينما تراقب مولاتي تحضيراتي قالت لي: «لا أظن أن من الحكمة استخدام ملاعقك ورأس السهم بهذا العمق والقرب من القلب». كانت تتكلم أحيانًا كأنها تلميذ تفوق على معلِّمه.

- إذا ما تركتُ السهم، فسيتسبب بالغنغرينا بالتأكيد، ويكون قتلي إياه بذلك مؤكدًا كما لو أنني قطعتُ رأسه عن كتفيه. هذه هي الطريقة الوحيدة التي تمنحني فرصة لإنقاذه.

نظر أحدنا بعيني الآخر للحظة، وتكلمنا من دون كلام. هذه هي رؤيا متاهات **آمون رع**، فهل ترانا نرغب بتجنب العواقب الخيِّرة التي ستعود بها علينا؟

ثم أخذت مولاتي يدي وشدَّدَت على كل كلمة: «إنه زوجي. إنه الفرعون. أنقذه يا **تايتا**. أنقذه إذا كان بمقدورك ذلك».

أجبتها: «تعرفين أنني سأفعل».

قالت: «أتريدني أن أساعدك؟» كانت قد ساعدتني كثيرًا من قبل، فأومأتُ موافقًا، وانحنيتُ فوق الملك.

كنت أمام ثلاث طرق لمحاولة سحب السهم؛ الأولى هي انتزاعه، وقد سمعتُ بجرَّاح في **دمشق** يلوي غصن شجرة ليِّن يربطه بجذع السهم، وعندما يترك الغصن، يُسحب السهم من اللحم الحيِّ بقوة الشجرة. ولم أجرِّب هذا العلاج الوحشي قطُّ، ذلك أنني مقتنع أن قلة قليلة من الرجال ستنجو منه.

الطريقة الثانية هي دفع السهم في العضو أو البدن حتى يبرز رأسه الشائك من الجانب الآخر، ولإجراء هذا، يُمكن أن يُدفع على امتداد مساره الأصلي باستخدام مطرقة، كما يُدفع مسمار في لوح خشبي، ثم تُنشر سنُّه ويُسحب الجذع بحرية، وهذا العلاج وحشيٌّ بقدر الأول تقريبًا.

أما طريقتي فهي ملعقة **تايتا**، وقد سميتها على اسمي بكل تواضع، لأن ادعاءات أولئك الآخرين باطلة، ويجب أن تعرف الأجيال القادمة عبقريتي.

عاينتُ في البداية سهم **الهكسوس** الذي استخلصته مع القوس من العربة المنقلبة، وفاجأني أن سن السهم مصنوعة من الصوان المشغول لا من البرونز. الصوان أرخص بالطبع ويسهل توفير كميات منه، لكنني قلما

عرفتُ جنرالًا يحاول الاقتصاد في طور شروعه باحتلال مملكة. حكى رأس السن هذا بلسان فصيح عن موارد **الهكسوس** المحدودة، واقترح سببًا وراء هجومهم الوحشي على مصرنا، إذ إن الحروب تُخاض لأجل الأرض أو الثروة، وبدا أن **الهكسوس** يفتقرون لهاتين السلعتين.

ما كان أمامي إلا الأمل بأن تكون سن السهم المغروزة في صدر الفرعون لها الشكل والتصميم نفسيهما. ثم طابقتُ زوجًا من ملاعقي مع قطعة الحجر حادة الأطراف، فملاعقي مختلفة الأحجام، واخترت زوجًا يكتنف الرأس بإحكام ويغطي الأشواك الخبيثة بالمعدن المصقول الناعم.

بحلول هذا الوقت، كان العقار قد أدَّى سحره بالكامل، ورقد الفرعون غائبًا عن الوعي على ملاءاته الكتانية البيضاء كالغيوم، والسهم المقصوم يبرز بطول سبابتي من جلده الذي غضنه الكِبَر وكساه لفائف خشنة من شعر الجسد. وضعتُ أذني على صدره مرة أخرى وسمعتُ أنفاسه تزفر وتقرقر في رئتيه، وعندما قنعتُ أنه لا يزال حيًّا، زيَّتت الملعقتين اللتين اخترتهما بدهن الضأن لأزلِّق دخولهما إلى الجرح، ثم وضعتهما بمتناول يدي وتناولت واحدًا من أحدِّ مشارطي.

أومأتُ بعد ذلك للحراس الأربعة الأقوياء الذين اختارتهم لي الملكة **لوستريس** عندما كنتُ منشغلًا بتحضيراتي، فثبتوا الفرعون من معصميه وكاحليه بإحكام، وجلست الملكة عند رأس الملك واضعةً أنبوبًا خشبيًّا من صندوقي الطبي بين شفتيه مقحمة إياه إلى آخر حلقه حتى تبقي قصبته نظيفة ومفتوحة، وتمنعه كذلك من عض لسانه أو ابتلاعه، أو صرِّ أسنانه وتكسيرها عندما يداهمه الألم العنيف.

تمتمتُ لنفسي: «عليَّ أولًا توسيع الجرح حول الجذع لأتمكن من بلوغ سن السهم»، وضغطتُ برأس المشرط على امتداد خط الجذع، فتخشَّب جسد الفرعون بأكمله، لكنَّ الرجال ثبتوه بقسوة.

رحتُ أعمل بعجالة، فقد تعلمتُ أن السرعة عامل حاسم في هذا الصنف من العمليات إذا ما أردنا أن ينجو المريض، وشققتُ شقًّا على جانبي الجذع، إذ إن الجلد البشري قاسٍ ومطَّاطي وسيعوق دخول ملاعقي، لذا عليَّ اختراقه.

تركتُ السكين وتناولتُ زوج المعالق المُزلَّقة، وباستخدام جذع السهم مُرشدًا، أدخلتها تدريجيًّا في الجرح حتى لم يبقَ بارزًا منها إلا مقابضها الطويلة.

كان الفرعون يتمعَّج ويتلوَّى في قبضات مقيديه، والعرق يتصبب من كل مسام جلده ويسيل على جمجمته الحليقة وجذامة شعرها الأشهب الرقيق، ثم دوَّت صرخاته عبر الأنبوب في فمه، ورجَّع جوف الصندل أصداءها.

كنتُ قد علمتُ نفسي تجاهل عذاب مرضاي الأليم، وأقحمت الملعقتين أكثر في فم الجرح المتمدد حتى شعرتُ بهما تلمسان صوَّان رأس السهم، وبهذا بلغتُ الجزء الحسَّاس من العملية. استخدمت المقبضين كأنهما ملقاط فباعدتُ الملعقتين عن بعضهما وأحطتُ بهما رأس السهم، وعندما شعرتُ أنهما تنطبقان من غير إكراه، أمَّلتُ أنني اكتنفت الصوان المثلَّم بالكامل وغطيتُ أشواكه.

ثم قبضتُ قبضة حذرة على مقبضي الملعقتين وعلى جذع السهم القصبيِّ، وجذبتها كلها معًا. لو كانت الأشواك حرة، لمزَّقت من فورها لحم الفرعون وقاومت جذبي، وكدتُ أصيح ارتياحًا عندما شعرتُ أنها بدأت تنقاد، ومع ذلك، كان امتصاص الجلد الرطب اللصيق قويًّا، واضطررتُ إلى شد الجذع بكل قوتي.

كان سماع عذاب الفرعون ورؤيته في أثناء خروج كتلة القصب والحجر والمعدن من صدره أمرًا مُفزعًا، فقد انتهى مفعول الزهرة المنومة منذ وقت طويل، وصار الألم فجًّا ووحشيًّا. عرفتُ أنني أتسبب بضرر مُخيف، وشعرتُ بتمزق الأنسجة والأوتار.

سال عرقي إلى عينيَّ فأحرقهما وكاد يعميني، لكنني لم أتوقف عن الشد حتى تحرر السهم المضرَّج بالدم فجأة بيدي وترنحتُ خلفًا عبر المقصورة مصطدمًا بجدارها. اتكأت عليه لبعض الوقت، وقد أرهقني الجهد، ورحتُ أراقب الدم الداكن نصف المتخثر يقطر وينبجس من الجرح لبرهة طويلة، قبل أن أتمكن من حشد طاقتي والتهادي إليه لأوقفه.

دهنتُ الجرح بالمُرِّ الثمين والعسل المُبلوَر، ثم ربطته بإحكام بضمادات كتانية نظيفة، وبينما أعمل، تلوتُ رُقية تضميد الجروح:

إنني أربطكَ يا مخلوقَ سِت،
وأسدُّ فمك.
انحسر أمامي أيها المدُّ الأحمر.

تراجعي أمامي يا زهرة الموت.

إنني أطردك يا كلب سِت الأحمر.

تم تجهيز هذه الرواية بواسطة: مكتبة ضَـاد الإلكترونية.

وهي رقية الجرح النازف الذي سببه نصل أو سهم، إذ ثمة نصوص مخصصة لكل أنواع الجروح، من الحروق إلى ما تُسببه أنياب أسد أو مخالبه، وتعلُّمها جزء كبير من تدريب الطبيب. لم أتيقَّن قطُّ في رأيي الشخصي من مدى فاعلية هذه الرقى، لكنني أعتقد بأنني أدين لمرضاي بتوظيف أي وسيلة ممكنة بين يديَّ لعلاجهم.

بدا الفرعون أهدأ بكثير بعد تضميده، وصار بإمكاني تركه ينام في عهدة نسائه والعودة إلى السطح. كنتُ محتاجًا إلى هواء النهر العليل لينعشني، فقد استنزفتني العملية تقريبًا بقدر ما استنزفت الفرعون.

كان المساء قد هبط علينا بحلول هذا الوقت، وبدأت الشمس تستقر متعبةً فوق التلال الغربية المقفرة وتلقي وهجها المحمرَّ الأخير فوق ساحة المعركة. لم يهجم مشاة **الهكسوس**، وكان **تانوس** لا يزال يجلب بقايا جيشه المدحور من ضفة النهر إلى القوادس الراسية في التيار.

راقبتُ القوارب المحملة بالرجال الجرحى المنهكين تعبر صندلنا الراسي، وشعرتُ بتعاطف عميق معهم، كما شعرتُ إزاء شعبنا كله. سيظلُّ هذا اليوم إلى الأبد أوخم يوم في تاريخنا. ثم رأيتُ سحابة غبار عربات **الهكسوس** تهم بالحركة جنوبًا ناحية **طيبة**، وقد صبغ غروب الشمس السحب بلون الدم، فكانت تلك إشارة في نظري، واستحال تعاطفي خوفًا.

***

كان الظلام قد حلَّ عندما صعد تانوس متن الصندل الملكي. بدا في أضواء المشاعل كإحدى جثث ساحة المعركة، إذ شحب وجهه بفعل الإعياء والغبار، ويبّس الدم الناشف والطين عباءته، وسطَّرت عينيه ظلالٌ مكدومة. وعندما رآني، كان أول همومه السؤال عن الفرعون.

قلت له: «لقد نزعت السهم، لكنَّ الجرح عميق وقريب من القلب. إنه ضعيف جدًا، غير أنه إذا ما صمد ثلاثة أيام، فسأتمكن من إنقاذه».

سألني: «وماذا عن مولاتك وابنها؟».

لطالما ردَّد على مسامعي هذا السؤال، متى ما التقينا.

- الملكة **لوستريس** متعبة، فقد ساعدتني بالعملية، لكنها مع الملك الآن، أما الأمير فممتلئ صحة كعادته وهو نائم الآن عند مربياته.

رأيتُ **تانوس** يتهادى على قدميه، وعرفتُ أنه مقتربٌ من نهاية طاقته الهائلة، فهممتُ أقول: «يجب أن ترتاح الآن...»، لكنه أبعد يدي.

وأمرني: «اجلب سُرُجًا يا **تايتا**، وأحضر فُرَش الكتابة والدوى واللفائف. يجب أن أرسل تحذيرًا **لنِمبِت** لئلا يذهب برجليه إلى فخ **الهكسوس** مثلما فعلتُ».

فجلستُ أنا **وتانوس** نصف تلك الليلة على سطح السفينة، وكان هذا ما أملاه عليَّ من نص الإرسالية إلى **نمبت**:

*أحيي السيد **نِمبِت، أسد مصر العظيم**، قائد فرقة **رع** من جيش الفرعون. فلتعش مؤبدًا!*

*فلتعلم أننا واجهنا العدو **الهكسوس** فوق سهل **أبنوب**، **والهكسوس** في بطشه وعُتوِّه خصم فظيع، ويمتلك مركبات غريبة سريعة لا يمكننا مقاومتها.*

ولتعلم أيضًا أننا تكبدنا الهزيمة وهلك جيشنا، ولم يعد بمقدورنا التصدي لهم.

ولتعلم كذلك أن الفرعون مصاب إصابة بالغة وحياته في خطر.

*نحثك على عدم مواجهة **الهكسوس** في سهل مفتوح، فإن مركباته كالريح، لذا فلتحتمِ وراء جدران حجرية، أو انتظر على متن سفنك لتراوغ العدو.*

*لا يحوز **الهكسوس** سفنًا، ولا يمكننا أن نغلبه إلا عن طريق سفننا وحدها.*

نحثك على انتظار قدومنا قبل أن ترسل قواتك إلى المعركة.

*وأدعو لك بحماية **حورس** وجميع الآلهة.*

*قال هذا **تانوس**، سيد **حاراب**، قائد فرقة **بتاح** من جيش الفرعون.*

كتبتُ أربع نسخ من هذه الرسالة، وكلما أتممتُ إحداها، نادى **تانوس** رسلًا يحملونها إلى **نِمبِت أسد مصر العظيم**، الذي يتقدم من الجنوب

ليساندنا، فأرسل قادسين سريعين يصعدان النهر، يحمل كل منهما نسخة واضحة من الإرسالية، ثم أرسل أفضل عدَّائيه برًّا على الضفة الغربية، على الجانب الآخر من النهر من جيش **الهكسوس**، إلى **نِمبِت**.

طمأنته: «ستصل إحدى لفائفك إلى **نِمبِت** بالتأكيد، ولم يَعُد بوسعك فعل شيء آخر حتى الصباح، لذا عليك النوم الآن، فإن أهلكت نفسك، تهلك مصر كلها معك».

وحتى آنذاك، رفض أن يدخل المقصورة، بل تكوَّر على نفسه فوق السطح مثل كلب ليكون مستعدًّا إذا ما طرأ طارئ، لكنني ذهبتُ إلى المقصورة لأكون بجوار ملكي وأسلِّي مولاتي.

عدتُ إلى سطح السفينة قبل أول بصيص فجر، ووصلتُ لأسمع **تانوس** يعطي الأوامر بحرق أسطولنا. ليس من حقي التشكيك في هذا القرار، لكنه رآني أحدق إليه فاغرًا مرتابًا، وعندما أرسَل الرسل قال لي بفظاظة: «لقد تلقيتُ تقرير التفقد من قادة الأفواج. من ثلاثين ألف رجل وقفوا على سهل **أبنوب** البارحة بمواجهة عربات **الهكسوس**، نجا سبعة آلاف فقط، وخمسة آلاف من هؤلاء جرحى، والكثير منهم سيموت. وليس بين السليمين إلا قلة قليلة من البحارة، لذا لم يعُد معي من الرجال ما يكفي إلا لإبحار نصف أسطولنا، وسأضطر إلى هجر بقية السفن، لكن لا يمكنني تركها تسقط في أيدي **الهكسوس**».

استخدموا حزمًا من القصب لإشعال النار، وحالما اشتعلت، بدأت تأكل السفن بضراوة. كان مشهدًا حزينًا وفظيعًا، وشقَّت رؤيته حتى عليَّ وعلى مولاتي، ولسنا بحارة. أما على **تانوس** فكان أسوأ بكثير، إذ وقف وحيدًا في جؤجؤ الصندل الملكي، واليأس والحزن يملآن كل خط في وجهه وكتفيه العريضتين، يراقب سفنه تحترق، سفنه التي كانت في نظره كائنات حية، وجميلة.

لم تستطع مولاتي الوقوف بجواره، حيث تنتمي أمام البلاط كله، لكنها أمسكت يدي خلسة، وبينما رثى كلانا **تانوس** ومصر كلها راقبنا هذه المراكب النبيلة تحترق كالمشاعل. كانت أعمدة اللهب الهادرة المتصاعدة من كل المراكب مشوبة بالدخان الأسود، ومع ذلك، ضاهى ضوؤها المحمرُّ شروق الشمس المقترب.

أخيرًا، أمر **تانوس** قوادسه المئة الباقية برفع المراسي، واستدار أسطولنا الصغير المحمل بالرجال الجرحى والمحتضرين عائدًا إلى الجنوب.

ومن خلفنا، ارتفع دخان محرقة أسطولنا الجنائزية عاليًا في سماء الصباح المبكر، بينما اتسعت سحابة الغبار الصفراء من أمامنا وعلَت على امتداد ضفة النيل الشرقية مع تقدم سرب عربات **الهكسوس** أكثر في المملكة العليا باتجاه **طيبة** العاجزة وجميع كنوزها.

بدا أن الآلهة قد أدارت ظهورها لمصر وهجرتنا تمامًا، ذلك أن الريح، التي عادةً ما تهبُّ شديدة من الشمال في هذا الفصل من العام، خبَت عن آخرها، ثم هبت ثانية بعزم مُجدد من الجنوب، فصرنا مجبرين على التصارع مع التيار والريح بسفنٍ مُثقلة بحمولتها من الجرح، وأخذنا نعبر الماء ببطء وثقل شديدين، وطواقمنا المستنزفة تكدح على المجاديف، فلم نتمكن من مجاراة جيش **الهكسوس**، وراح يبتعد عنا بعناد.

كنتُ مستغرقًا في واجباتي بوصفي طبيب الملك، لكن في كل مركبة من مراكب أسطولنا، كان الرجال الذين يمكنني إنقاذهم يموتون بالعشرات. وكلما خرجتُ إلى سطح السفينة باحثًا عن بعض الهواء العليل واستراحة قصيرة من نوبة حراستي بجوار الفرعون، رأيتُ جثثًا تُلقى عن القوادس القريبة منا، فتثور دوامة من التماسيح المُروِّعة تحت السطح مع كل طرطشة ماء، إذ تبعت هذه الزواحف المُروِّعة الأسطول كأنها صقور.

بدأ الفرعون يسترد عافيته بقوة، وفي اليوم الثاني، تمكنتُ من إطعامه زبدية صغيرة من الحساء. طلب في ذلك المساء رؤية الأمير ثانية، وجيء **بِممنون** إليه.

كان **مِمنون** قد بلغ السن الذي يمتلئ فيه بنشاط الجنادب وصخب الزرازير، لكن معاملة الفرعون إياه كانت حسنة دائمًا، وإن مال للإفراط في تدليله، وسُرَّ مِمنون بصحبته. كان صبيًّا وسيمًا له أطراف قوية بارعة، ورث عن أمه بشرتها وعينيها الكبيرتين الخضراوين الداكنتين، أما شعره فكان مُجعّدًا كفروة حملٍ أسودٍ حديث الولادة، لكنه يتلألأ تحت أشعة الشمس بلهيب شعر **تانوس** الكثّ المحمرّ.

كانت غبطة الفرعون **بِممنون** مثيرة للمشاعر أكثر من العادة حتى، فالطفل والوعد الذي اعتصره من مولاتي هما أمله بالخلود. خالف رغبتي وأبقى الطفل معه حتى غربت الشمس، وكنتُ أعرف أن طاقة **ممنون** العارمة

وحاجته إلى الاهتمام ترهقان الملك، لكنني لم أتمكن من التدخل حتى حان وقت عشاء الأمير وأخذته مربياته.

ثم بقيتُ ومولاتي بجوار سريره، لكنه غطَّ من فوره تقريبًا في نوم أشبه بالموت، وحتى من دون مكياجه الأبيض، كان وجهه شاحبًا بقدر الملاءات الكتانية التي يرقد عليها.

كان اليوم التالي ثالث الأيام بعد الإصابة، ومن ثَمَّ أخطرها، لأنني أعرف أنه إذا ما صمد هذا اليوم، فسأتمكن من إنقاذه، لكن عندما أفقتُ عند الفجر كانت رائحة التعفُّن المسكيَّة تثقل هواء المقصورة، وعندما لمستُ جلد الفرعون، أحرق أصابعي كأنه غلَّاية على موقد، فناديتُ مولاتي، وجاءت تتعثر من قبتها وراء الستارة حيث تنام.

سألتني: «ما الأمر يا **تايتا**؟»، ولم تزِد، ذلك أن الإجابة واضحة على وجهي، فوقفتْ بجواري وأنا أفكُّ ضماد الجرح. التضميد فنٌّ عالٍ من فنون الجراحة، وقد خطتُ الضمادات الكتانية في المكان الصحيح. قطعتُ الخيوط التي تثبتها ونزعتها.

شهقت الملكة **لوستريس** لشدة النتانة: «يا **حابي** الرحيمة، صلِّي لأجله!» ثم انفجرَت القشرة السوداء التي سدَّت فم الجرح، وسال صديد أخضر لزج في جدول بطيء وسميك.

همستُ: «غنغرينا!». والغنغرينا كابوس الجرَّاح، هذا الخِلط الشرير الذي ضرب في اليوم الثالث وانتشر في الجسد كنيران الشتاء في أحواض البردي اليابسة.

سألتني: «ما الذي يمكننا فعله؟». فهززتُ رأسي.

قلت لها: «سيموت قبل هبوط الليل»، لكننا بقينا بجوار سريره ننتظر المحتوم. وعندما انتشر نبأ احتضار الفرعون في السفينة، امتلأت المقصورة بالكهنة والنساء وأهل البلاط، وانتظرنا في صمت.

كان **تانوس** آخر الواصلين، ووقف في مؤخر الحشد حاملًا خوذته تحت إبطه، وقفة الاحترام والحداد. لم تستقر نظرته على سرير الموت، بل على الملكة **لوستريس**، التي ظلت مشيحةً بوجهها عنه، لكنني عرفت أنها تشعر بوجوده في كل نسيج من جسمها.

كانت قد غطت رأسها بشال كتاني مُوشًى، لكنها ظلت عارية من فوق دكَّة تنورتها. ولأن الأمير قد فُطِمَ، فقد ثدياها حملهما الثقيل من الحليب، فبدت رشيقة رشاقة عذراء، إذ لم تترك الولادة ندوبها الفضية على صدرها أو بطنها الغض، بل ظلت بشرتها ناعمة وصافية كأنها دُهِنَت للتَّوِّ بزيت عطري.

وضعتُ قماشًا مُبللًا على جسد الفرعون المشتعل في محاولة لتسكين الحمى، لكن الحرارة بخَّرت البلل واضطررتُ إلى تبديله على فترات قصيرة. أخذ الفرعون يتقلَّب في فراشه باضطراب ويصيح هاذيًا، تطارده جميع وحوش العالم السفلي وأهواله التي تنتظر استقباله.

وصار يتلو بين الحين والآخر مقاطع من *سفر الموتى*، فمنذ طفولته، حفَّظه الكهنة الكتاب الذي كان المفتاح والخريطة عبر الظلال إلى حقول الفردوس البعيدة:

للطريق البلوري واحد وعشرون منعطفًا
والممر الضيق رفيع كنصلٍ برونزي
والإلهة التي تحرس البرج الثاني
غدَّارة وملتوية الأساليب
يا سيدة اللهب، يا عاهرة الكون
يا ذات فم اللبؤة
إن مهبلك يبتلع الرجال
ويضيعون في ثدييكِ الحليبيين.

ضعف صوته وحركاته تدريجيًّا، وبعد أن بلغت الشمس الزوال بقليل، تنهَّد تنهيدة مرتعشة أخيرة وهَمَد، فانحنيتُ فوقه وتحسستُ نبض الحياة في حلقه، لكن لم أشعر بشيء منه، وأخذ جلده يبرد تحت يدي.

قلتُ بصوت خفيض: «لقد مات الفرعون»، ثم أغمضتُ جفنيه فوق عينيه المحدقتين، ونطقتُ: «فليعش أبدًا!».

تصاعدت صيحة التفجُّع من جميع المجتمعين هناك، وقادت مولاتي النساء الملكيات في ولولة حزن عاصفة. كان صوتًا أرعشني وأدبَّ حشرات

خفية على جلدي، لذا غادرت المقصورة بأسرع وقت ممكن، فتبعني **تانوس** إلى سطح السفينة وقبض على ذراعي.

ثم سألني بقسوة: «لقد فعلت كل ما في وسعك لإنقاذه صحيح؟ لم تكُن هذه حيلة من حيلك، أليس كذلك؟».

عرفتُ أن معاملتي بهذه الفظاظة تعبيرٌ عن شعوره بالخوف وتأنيب الضمير، لذا أجبته بترفُق: «لقد قتله سهم **الهكسوس**. فعلتُ كل ما في طاقتي لإنقاذه. كان ذلك القدر الذي تنبأت به متاهات **آمون رع**، ولا ذنب أو خطأ على عاتق أي منا فيه».

طمأنته مرة ثانية، رغم غياب أي أساس لزعمي: «سيحل زمان من السعادة على جميعنا بعدئذٍ. لكن لا يزال على كاهل مولاتي واجب مقدس، ومن خلالها، فهو على كاهلك وكاهلي أيضًا»، وذكرته بالقسم الذي أقسمته الملكة **لوستريس** للملك، أنها ستحفظ جسده المادي وتمنحه الدفن الملائم حتى تمكّن *الكا*[1] الخاصة به من الانتقال إلى حقول الفردوس».

أجابني ببساطة: «أخبرني كيف يمكنني المساعدة في ذلك، لكن تذكر أن **الهكسوس** يجتاحون المملكة العليا أمامنا، ولا أضمن أن قبر الفرعون لن يُنتهك».

- إذن فعلينا إيجاد قبر آخر له إذا اقتضت الحاجة. يجب أن يكون همنا الأول هو الحفاظ على جسده، ففي هذا الحر، سيتعفَّن ويأكله الدود قبل شروق الشمس. لستُ ماهرًا في فن التحنيط، لكنني أعرف وسيلة واحدة فقط يمكننا أن نعتمد عليها.

أرسل **تانوس** بحارته إلى عنبر الصندل، فحملوا إحدى جرارنا الفخارية الضخمة الملأى بالزيتون المخلل من المخزن، ثم أفرغوها وفق تعليماتي وملؤوها بالماء المغلي، وبينما لا يزال الماء ساخنًا، مزجوا به ثلاثة أكياس من الملح البحري عالي الجودة، ثم ملؤوا أربع جرار خمرٍ أصغر حجمًا بالمُضاض نفسه وتركوها كلها على السطح لتبرد.

---

(1) آمن المصريون القدماء أن الروح البشرية تتكون من خمسة أجزاء: رن وبا وكا وشيوت وإيب. كا هي المفهوم المصري عن جوهر الحياة، أو ما يفرق بين الحي والميت، وتغادر الجسد عند الوفاة. (المترجم).

في الوقت نفسه، كنت أعمل وحدي في المقصورة. أرادت مولاتي مساعدتي، إذ شعرتْ أن ذلك جزء من واجبها تجاه زوجها الميت، لكنني أرسلتها لتعتني بالأمير.

شققتُ أيمن جثة الفرعون من الأضلاع إلى عظم الورك، ومن هذه الفتحة، أخرجتُ أحشاء صدره وبطنه، محررًا إياها على طول الحجاب الحاجز بالسكين. وبالطبع، تركتُ قلبه مكانه، فهو عضو الحياة والمعرفة. تركتُ الكليتين أيضًا، ذلك أنها أوعية الماء وتمثل النيل المقدس. ثم حشوت التجويف بالملح بعدئذ، وخطته مغلِقًا إياه بخيوط أمعاء القطط. لم يكن بحوزتي ملعقة تحنيط أقحمها في المنخرين فأخرج تلك المادة الرخوة الصفراء من قرعة الجمجمة، لذا تركتها مكانها، فهي غير مهمة بأي حال. ثم قسَّمت الأحشاء إلى أجزائها المنفصلة: الكبد، والرئتين، والمعدة، والأمعاء. وغسلتُ المعدة والأمعاء بالمُضاض، وكم كانت مهمة مُقززة.

عندما أنهيتُ ذلك، استغللتُ الفرصة لأعاين رئتي الملك بدقة. كانت اليمنى صحيحة ووردية، لكنِ اليسرى مثقوبة بالسهم، وقد تقوَّضت كنفّاخة مثقوبة وامتلأت دمًا أسود وصديدًا متعفنين. أذهلني أن العجوز عاش كل هذا الوقت وهو مصاب هذه الإصابة، وشعرتُ أنني برأت ساحتي، إذ لا يمكن لأي طبيب إنقاذه، ولا عيب في علاجي أدى إلى فشله.

وأخيرًا، طلبت من البحارة جلب جرار المُضاض المبردة. ساعدني **تانوس** بطيِّ جسد الفرعون إلى وضعية الجنين ووضعناه في جرة الزيتون، وحرصتُ أن يكون مغمورًا بالكامل في المُضاض القوي، ثم وضعنا أحشاءه في أواني الخمر الكانوبية[1] الأصغر حجمًا. ختمنا أخيرًا جميع الجرار بالشمع والقار، وأحكمنا حزمها في القسم المُحصّن تحت السطح حيث خزَّن الملك كنوزه. أظن أن الفرعون لا بدَّ راضٍ بأن يرقد هناك، مُحاطًا بذهبه وقضبان فضته.

لقد بذلت ما في وسعي لأساعد مولاتي على الوفاء بعهدها، وفي **طيبة**، سأسلّم جثمان الملك للمحنِّطين، إن لم يصل **الهكسوس** قبلنا، وإن ظلت المدينة وسكانها موجودين عندما نصل.

***

(1) الأواني الكانوبية: أو خابية الموتى، هي أوان استخدمها قدماء المصريين في عملية التحنيط لتخزين وحفظ أحشاء الموتى للآخرة. (المترجم).

عندما بلغنا مدينة **أسيوط** المسوَّرة، بدا واضحًا أن **الهكسوس** قد تركوا قوة صغيرة فقط لتطوقها، وتابعوا زحفهم جنوبًا بجيشهم الكبير. ورغم أن قوة **الهكسوس** المحاصِرة هذه ليست إلا سَريَّةً رفقة أقل من مئة عربة، فقد كانت أقوى بكثير من أن نهاجمها بجيشنا المحطم.

كان أول أهداف **تانوس** إنقاذ **رِمرِم** وجنوده الخمسة آلاف من داخل أسوار المدينة، ثم المواصلة عبر النهر والانضمام إلى السيد **نِمبِت** وتعزيزاته البالغ عددها ثلاثين ألفًا. وعندما رسونا في تيار النهر الرئيس، في مأمن من هجمات تلك العربات القاتلة، تمكن **تانوس** من إرسال إشارة تُبلغ **رِمرِم** عند أسوار المدينة بنواياه.

قبل سنوات، ساعدتُ **تانوس** بوضع نظام إشارات يستخدم أعلامًا ملونة يمكن عن طريقها تهجئة رسالة لأي شخص ضمن مرمى البصر، عبر وادٍ، أو من قمة إلى قمة، أو من أسوار المدينة إلى السهل والنهر، فتمكن **تانوس** باستخدام الأعلام من تنبيه **رِمرِم** أن ينتظرنا في تلك الليلة، ثم، وتحت جناح الظلمة، أسرع عشرون قادسًا من قوادسنا إلى الشاطئ تحت أسوار المدينة. وفي اللحظة نفسها، فتح **رِمرِم** البوابة الجانبية وحارب على رأس فوجِه شاقًا طريقه بين خفر **الهكسوس** قبل أن يتمكن العدو من تطقيم أحصنته، وصعد **رِمرِم** ورجاله جميعهم السفن بأمان.

وعلى الفور، أشار **تانوس** لبقية الأسيطيل أن تقلع. تركنا مدينة **أسيوط** تُسلَب وتُنهَب، وانطلقنا صعودًا في مجرى النهر بدفع المجاديف. وطيلة تلك الليلة، ظللنا نرى متى ما نظرنا خلفنا من فوق الكوثل ألسنة اللهب المتصاعدة من المدينة المحترقة تضيء الأفق الشمالي.

تمتم **تانوس** محدِّثًا إياي: «فليسامحني أولئك اللقطاء التعِسون. ليس أمامي خيار إلا التضحية بهم، فواجبي ينتظرني جنوبًا، في **طيبة**».

كان جنديًا بالقدر الكافي لاتخاذ القرار الصعب من دون أن يرف له جفن، لكنه رجل بالقدر الكافي ليحزن حزنًا مريرًا عليه. وضاهى إعجابي به آنذاك حبي له.

***

أخبرنا **رِمرِم** أن فرقاطات[1] الإشارة التي أرسلناها قد أبحرت عابرة **أسيوط** في اليوم الماضي، وأن الإرساليات التي أعددتُها بالنيابة عن **تانوس** لا بدَّ صارت في يد السيد **نمبِت**.

تمكن **رِمرِم** أيضًا من تزويدنا ببعض المعلومات والأنباء بخصوص **الهكسوس** واجتياحهم الجنوب، ذلك أنه قبض على خائنَين مصريين فرَّا وذهبا إلى العدو ثم دخلا **أسيوط** ليتجسسا على المدافعين. عويا تحت التعذيب كالثعالب، وهما ثعلبان حقًا، وقبل أن يموتا، أخبرا **رِمرِم** بأمور كثيرة مهمة وقيّمة عن **الهكسوس**.

كان اسم ملك **الهكسوس**، الذي واجهناه مواجهةً كارثية على سهل **أبنوب**، **ساليتيس**، وقبيلته من سلالة سامية، وهم في الأصل شعب بدويٌّ رعويٌّ عاش في جبال **زاغروس** قرب بحيرة **وان**. وفي هذا، تأكد الانطباع الأول الذي أخذته عن أولئك الآسيويين الرهيبين، فقد خمنتُ أصلهم السامي من ملامحهم، لكنني عجبتُ من تطوير شعب رعوي مركبة استثنائية كهذه العربة ذات العجلات، وتساءلت أين وجدوا هذا الحيوان البديع الذي صرنا نسميه نحن المصريون الآن بالحصان، ونخشاه كما لو أنه مخلوق قادم من العالم السفلي.

ظهر أن **الهكسوس** شعب متخلف في المجالات الأخرى، فقد كانوا أميين لا يقرؤون ولا يكتبون، وحكمهم طغيان قاسٍ يمارسه ملكهم وحاكمهم الأوحد، **ساليتيس** الملتحي هذا، الذي كرهناه نحن المصريين وخشيناه أكثر حتى من تلك الكائنات الجامحة التي جرَّت عربته.

أما كبير آلهة **الهكسوس** فاسمه **سوتِخ**، إله العواصف، ولا حاجة إلى تعليم دينيٍّ عميق لنرى **سِت** المهيب الخاص بنا فيه. وكان اختيارهم لإلههم ملائمًا، وسلوكهم يشرِّف هذا الإله، إذ لم يمارس شعبٌ متحضر النهب والقتل مثلما فعلوا، وحقيقة أننا نعذب الخونة لا تُكال بمكيال الفظائع نفسه التي ارتكبها أولئك الهمج.

لاحظتُ في مرات كثيرة أن الأمم تختار آلهة تلائم طبيعتها، فالفلسطينيون يعبدون **بعل**، ويرمون رُضَّعهم أحياء في أفران مشتعلة يعدّونها فمه، وقبائل الكوشيين السود تعبد وحوشًا ومخلوقات من العالم السفلي بأغرب الطقوس

(1) الفرقاطة: سفينة حربية سريعة. (المترجم).

الدينية، أما نحنُ المصريون فنعبد آلهة عادلة وجديرة ورؤوفة بالبشر، ولا تطلب أضاحيَ بشرية. ثم جاء **الهكسوس** **بسوتِخهم**.

بدا أن أسيرَيْ **رِمرِم** لم يكونا المصريين الخائنين الوحيدين المسافرين رفقة جموع العدو، فقد أخبره أحدهما، بعد أن ألقم سُرمَه جمرة مشتعلة، بأن سيدًا مصريًّا عظيمًا من المملكة العليا يحتل كرسيًّا في مجلس الملك **ساليتيس** الحربي. وعندما سمعتُ ذلك، تذكرتُ تعجبي من المعرفة التي أبداها **الهكسوس** بنظام معركتنا على سهل **أبنوب**، وأنني خمنتُ آنذاك وجود جاسوس يعرف أسرارنا بينهم.

إذا كان ذلك صحيحًا، فيجب أن نتوقع أن العدو يعرف جميع نقاط قوتنا وضعفنا. لا بدَّ أنهم يعرفون مخططات مدننا كلها ودفاعاتها، ويعرفون على وجه التحديد بأمر الكنز الكبير الذي جمعه الفرعون في معبده الجنائزي.

اقترحتُ على **تانوس**: «لعل هذا يفسر عجلة الملك **ساليتيس** في تقدمه ناحية **طيبة**. يمكننا توقع أن يحاول عبور النيل في أول فرصة تسنح له»، فشتم بمرارة.

قال: «إذا كان **حورس** رؤوفًا، فسيضع هذا السيد المصري الخائن بين يديَّ (ولَكَم راحة يده بقبضة الأخرى)، علينا منع **ساليتيس** من عبور النهر. سفننا هي أفضليتنا الوحيدة عليه، وعليَّ استغلالها أتمَّ الاستغلال».

راح يجوب سطح السفينة خابطًا برجليه، ثم نظر إلى السماء: «متى سترجع هذه الريح النجسة لتهب من الشمال؟ في كل ساعة تمر تسبقنا عربات العدو أكثر. أين أسطول **نِمبِت**؟ يجب أن نجمع قواتنا وندافع عن خط النهر».

***

في تلك الظهيرة، انعقد مجلس دولة مصر العليا على مؤخرة سطح الصندل الملكي أمام العرش، فمثَّل كاهن **أوزيريس** الأعلى الهيئة الروحية، ومثَّل المستشار السيد **ميرسيكيت** الهيئة الدنيوية للدولة، ووقف **تانوس** سيد **حاراب** ممثلًا السلطة العسكرية.

حمل السادة الثلاثة الملكة **لوستريس** وأجلسوها على عرش مصر، ثم وضعوا ابنها في حجرها. وبينما يرفع كل رجل وامرأة على متن الصندل صوته في تحية إخلاص، مرَّت بقية سفن الأسطول بجوارنا، وحتى الجنود

الجرحى جرجروا أنفسهم إلى أسوار سفنهم ليهللوا للوصية الجديدة والوريث الصغير لعرش مصر العظيم.

طوَّق الكاهن الأعلى ذقن مولاتي بلحية الملَكية الزائفة، ولم تنتقص شيئًا من جمالها وأنوثتها الجليَّة، وربط السيد **ميرسيكيت** ذيل الأسد حول خصرها ثم وضع التاج الأحمر والأبيض الطويل فوق جبهتها، وأخيرًا، ارتقى **تانوس** العرش ليضع عصى الراعي والمذبة الذهبية في يديها، فرأى **مِمنون** الدمى اللامعة التي يقترب **تانوس** بها منه ومدَّ يديه لينتزعها منه.

هتف **تانوس** بفخر: «ملكٌ حقيقي! إنه يعرف أن عصا الراعي من حقه»، وهدر أهل البلاط استحسانًا لهذا السلوك المبكّر.

أظن أن هذه كانت أول مرة يضحك فيها أيُّنا منذ ذلك اليوم الفظيع على سهل **أبنوب**. بدا لي أن الضحكات تنفيس، وأعلنتْ بداية جديدة لجميعنا، فحتى تلك اللحظة، كانت صدمة الهزيمة وفقدان الفرعون مستحوذة علينا، لكن الآن، عندما أخذ أسياد مصر العظماء يذهبون واحدًا واحدًا ليركعوا أمام العرش الذي جلست عليه هذه الشابة البهيَّة وابنها الملكي، دبَّت روح جديدة فينا جميعًا، فأنقذتنا من تبلُّد اليأس، وأعادت عزيمتنا على القتال والتحمُّل ومحبة الحياة.

كان **تانوس** آخر الراكعين أمام العرش والمقسمين على الولاء، وعندما خفضت الملكة **لوستريس** نظرها إليه، ظهر عشقها له واضحًا حتى إنه ملأ وجهها الجميل وأشرق كطلوع الشمس من تينك العينين الخضراوين الداكنتين. وأذهلني أن لا أحد غيري في كل الحشد بدا عليه إدراك ذلك.

بعد أن غربت الشمس في ذلك المساء، أرسلتني مولاتي إلى جسر الصندل الملكي حاملًا رسالة لقائد جيوشها تستدعيه إلى مجلس حربي في المقصورة الرئيسة، وهذه المرة لم يجرؤ **تانوس** على الامتناع، فقد أقسم لتوِّه على طاعتها.

وما كاد هذا المجلس الحربي الاستثنائي الذي كنتُ الشاهد الوحيد عليه يبدأ حتى طردتني الوصية الجديدة على مصر باستبداد من المقصورة، وأرسلتني أحرس المدخل وأردُّ جميع الزوار، ورأيتُ في آخر لمحة التقطتها لهما وأنا أسدل الستارة الثقيلة ارتماء أحدهما في أحضان الآخر. كانت حاجتهما عظيمة، وحرمانهما منها طويلًا، حتى إنهما هجما على بعضهما كعدوين فتَّاكين يشتبكان في قتال حتى الموت، لا كعاشقين.

تواصلت الأصوات الفرِحة إثر هذا الاشتباك لمعظم الليل، وأراحني أن الصندل ليس راسيًا، بل يتحرك صعودًا في مجرى النهر بعجالة للانضمام إلى السيد **نِميت**، فغطت تقريبًا قرقرة المجاديف وحفيفها، ودويّ الطبل الذي يضبط إيقاع التجديف، وأهازيج المجدفين فوق مقاعدهم، على صخب المقصورة الملكية.

عندما عاد **تانوس** إلى مؤخرة السطح عند تبديل نوبة الحرس، كان وجهه حاملًا ابتسامة ورضى جنرال حقق لتوه انتصارًا ذائع الصيت. تبعته مولاتي بعد ذلك بقليل، ووجهها يشعُّ بجمال جديد وسماويٍّ أجفلني وأنا المعتاد على بهائها. ظلت بقية ذلك اليوم محبة وعطوفة على كل المحيطين بها، وأوجدت فرصًا كثيرة لتستشير قائد جيشها، وهكذا تمكنتُ والأمير **مِمنون** من قضاء معظم اليوم معًا، وقد لاءم هذا الظرف كلينا أيّما ملاءمة.

بمساعدة الأمير الغامضة، كنتُ قد بدأتُ بالفعل بنحت سلسلة من النماذج الخشبية؛ أحدها لعربة وأحصنة خشبية، وآخر لعجلة على محور أجري تجارب بها.

وقف **مِمنون** على رؤوس أصابعه ليراقب العجلة تدور بسلاسة على محورها المصغر.

- القرص المُصمت ثقيل أكثر من اللازم، ألا توافقني الرأي يا **مِم**؟ انظر إلى سرعة فقدانه العزم والسرعة.

طالبني بإلحاح: «أعطني إياه!»، واختطف القرص الدوَّار، فطار من أصابعه الممتلئة وتهشم على السطح منقسمًا أربعة أقسام تكاد تكون متساوية.

قلتُ له بحزم: «إنك لبربريٌّ من برابرة **الهكسوس**»، ما بدا أنه عدَّه إطراءً عظيمًا، ونزلتُ على ركبي أجمع نموذجي البائس.

كانت الأجزاء المكسورة لا تزال مرصوفة في نمط دائري، وقبل أن تلمسها يدي، أصابني عَمَه بصري غريب، فصارت في ذهني قطع الخشب المصمتة فراغات، بينما بدت الفراغات بينها مصمتة.

عانقته قائلًا: «بحق أنفاس **حورس** العذبة! لقد فعلتَها يا **مِم**! طارة تدعمها دعامات من المحور! أي معجزات أخرى سترينا إياها عندما تصير فرعونًا؟».

وهكذا ابتكر الأمير الملكي، **مِمنون الأول**، حاكم الفجر -بمساعدة ضئيلة فقط من صديقه- العجلة ذات القضبان. ولم أحلم آنذاك أننا سنركبها معًا إلى المجد.

***

قابلنا أول موتى المصريين قبل الظهيرة، إذ جاء يعوِّمه بطنه المنتفخ في النهر، ووجهه يحدق بذهول إلى السماء. وعلى صدره، جثم غراب أسود اقتلع عينيه وألقى رأسه خلفًا ليبتلعهما واحدة تلو الأخرى.

وقفنا على سور السفينة صامتين وراقبنا الميت يعبرنا بسكون.

قال **تانوس** بصوت خفيض: «إنه يرتدي تنورة حرس الأسد، والأسود رأس حربة جيش **نِمبِت**. أدعو **حورس** أن لا يتبعه آخرون على النهر».

لكنهم تبعوه، عشرةٌ آخرون، ثم مئة، ثم المزيد والمزيد، حتى فُرش سطح النهر من الضفة للضفة بالجثث العائمة. كانت بكثافة أوراق ورد النيل التي تسد قنوات الري في الصيف.

وجدنا بينهم أخيرًا رجلًا حيًّا. كان أحد نقباء حرس الأسد انتُدِبَ إلى طاقم **نِمبِت**، وقد تشبث ببساط من جذوع البردي العائمة في التيار، فأخرجناه من الماء وعنيت بجروحه، ووجدتُ أن رأس مِقمَعة حجرية قد هشم عظام كتفه ولن يستخدم ذراعه تلك ثانية.

عندما استرد عافيته بالقدر الكافي ليتكلم، قرفص **تانوس** بجوار فراشه.

- ماذا حل بالسيد **نِمبِت**؟

أجابه النقيب بصوت أجشَّ: «لقد ذُبح السيد **نِمبِت** وطاقمه كله».

- ألم يتلقَّ إرساليتي التي تحذره من **الهكسوس**؟

- تلقاها عشية المعركة، وبينما يقرؤها ضحك.

سأل **تانوس** بإلحاح: «ضحك؟ كيف أمكنه الضحك؟».

- قال إن الجرو قد سقط -سامحني يا سيد **تانوس**، لكن هذا ما نعتك به- والآن يسعى إلى تغطية غبائه وجبنه بالرسائل الكاذبة. قال إنه سيخوض المعركة بالطريقة الكلاسيكية.

ندبه **تانوس**: «يا له من أحمق عجوز متغطرس. أكمل كلامك».

- نشر السيد **نِمبِت** قواته على الضفة الشرقية، والنهر من ورائه، وانقض العدو علينا كالريح دافعًا إيانا إلى الماء.

فسأل **تانوس** بلين: «كم من رجالنا هرب؟».

- أعتقد أنني الناجي الوحيد بين الذين نزلوا إلى الشاطئ مع السيد **نِمبِت**. لم يغادر غيري حيًّا، وتفوق المذبحة فوق ضفة النهر قدرتي على الوصف.

تحسّر **تانوس** قائلًا: «فنيَ أشهر أفواجنا، وبقينا عُزّلًا، في ما خلا سُفننا. ماذا أصاب أسطول **نِمبِت**؟ أكان راسيًا في وسط مجرى النهر؟».

- أرسى السيد **نِمبِت** الجزء الأكبر من الأسطول في المجرى، لكنه جلب خمسين قادسًا إلى الشاطئ في مؤخرتنا.

فثارت ثائرة **تانوس**: «ما الذي دفعه لذلك؟ إن أمان السفن المبدأ الأول في خطة معركتنا القياسية».

- لا أعرف كيف يفكر السيد **نِمبِت**، إلا أنه ربما تركها في المتناول لترجع قواتنا إليها بسرعة في حال تبين أن تحذيرك مُحِقّ.

- ما مصير أسطولنا إذن؟ لقد ضيّع **نِمبِت** جيشنا، لكن هل أنقذ السفن؟

كانت لهجة **تانوس** خشنة غضبًا وانزعاجًا.

- أما عن السفن التي كانت راسية في المجرى، فمعظمها أغرقه طاقمه أو أحرقه. رأيتُ ألسنة اللهب والدخان من على عوّامة البرديّ التي حملتني. وقطع بعض من الآخرين حبال المراسي وفروا جنوبًا إلى **طيبة**. بينما صحتُ للطواقم يعبرونني، لكن رعبهم بلغ مبلغًا منعهم من التوقف لالتقاطي من الماء.

- السفن الخمسون على الشاطئ... (توقف **تانوس** وأخذ نفسًا عميقًا قبل أن يكمل سؤاله) ماذا حلَّ بالسرب الراسي على الشاطئ؟

- لقد وقع بأيدي العدو. (ارتجف النقيب عندما أجاب من شدة خوفه من غضب **تانوس**)، نظرتُ خلفي وأنا أنجرف مع التيار، ورأيتُ العدو ينثال على القوادس الراسية على الشاطئ.

وقف **تانوس** ووسّع خطاه إلى الجؤجؤ، ثم حدق إلى أعلى المجرى من حيث ما زالت الجثث والألواح المحترقة المسودّة من أسطول **نِمبِت** تنجرف

على فيض النهر الأخضر الثابت، فذهبتُ ووقفت جواره، لأكون مستعدًا لتسكين حنقه عندما يعصف.

- إذن فقد ضحى العجوز الأحمق الأشمُّ بحياته، وحيوات رجاله كلهم، ليغيظني فقط. يجب أن يبنوا هرمًا لحماقته، لأن مصر لم ترَ شيئًا مثلها قطُّ.

تمتمت: «وهذا ليس كل ما انطوت عليه حماقته»، وأومأ **تانوس** بتجهم.

- لا، ليس كل ما انطوت عليه. فقد منح **الهكسوس** وسيلة عبور النهر. يا لحليب ثدي **إيزيس** العذب، لكن حالما يعبرون النيل، ينتهي أمرنا بحق.

لعل الإلهة سمعته ينادي اسمها، لأنني شعرتُ في تلك اللحظة بالريح التي نفخت في وجوهنا وقتًا طويلًا تغير اتجاهها، وشعر **تانوس** بذلك أيضًا، فاستدار على عقبيه وصاح هادرًا لضباطه على مؤخرة السطح.

- لقد انقلبت الريح إلى الاتجاه الصحيح. أرسلوا إشارة عامة للأسطول، وارفعوا جميع الأشرعة. أريحوا المجدِّفين كل ساعة وفق الساعة المائية. وأنتم أيها الطبالون، ارفعوا الإيقاع للسرعة القصوى. اتجهوا بأقصى سرعة جنوبًا.

استقرت الريح وأخذت تهب بقوة شمالًا، فامتلأت أشرعتنا وشُدت كبطون الحوامل. ثم سرَّعت الطبول ضربات المجدفين، وصعدنا تيار النهر بأسطول معركة يُسرع بكامله جنوبًا.

صاح تانوس: «كل الشكر لإلهة الريح. يا **إيزيس** المقدسة، ساعدينا لندركهم في الماء في الوقت المناسب».

***

كان الصندل الأميري بطيئًا وغليظًا، وبدأ يتخلف عن الركب، لكن بدا أن الأقدار قد تدخلت مرة أخرى، إذ كان قادس **تانوس** القديم، ***أنفاس حورس***، الذي يحبه حبًا جمًا يبحر قريبًا منا في التشكيلة.

كان تحت إمرة قبطان آخر، لكنه لا يزال مركبًا صغيرًا موقرًا صُمم للسرعة والهجوم، والقرن البرونزي الدكَّاك ينتأ من جؤجه فوق مستوى الماء بقليل،

فناداه **تانوس** ليصطف بمحاذاة الصندل ونقل راية **التمساح الأزرق** إليه متوليًا قيادته من قبطانها الجديد.

كان ينبغي لي البقاء بجوار مولاتي والأمير، ولستُ واثقًا كيف انتهى بي المطاف على متن ***أنفاس حورس*** واقفًا بجوار **تانوس** على سطح مؤخرته على حين نشق عباب النهر. أعترف أنني في بعض الأحيان أجترح حماقات تكاد تكون بجسامة حماقة **نِمبِت** الأخيرة، ولم أتذكر ذلك إلا بعدما بدأ الصندل الملكي بالتخلف عنا، وبدأت أندم على تسرّعي شديد الندم. فكرتُ أن أخبر **تانوس** أنني غيرتُ رأيي، وأن أطلب منه تغيير اتجاهه وإعادتي إلى متن الصندل، لكنني نظرتُ نظرة واحدة إلى وجهه وقررتُ أنني أفضل مواجهة **الهكسوس** مرة أخرى.

من سطح ***أنفاس حورس***، أصدر **تانوس** أوامره، وراحت تتناقلها المراكب بالأعلام والنداءات، فأعاد تشكيل الأسطول من دون تعطيل سير تقدمنا، وبينما يندفع بينها إلى المقدمة جمع القوادس من حوله.

نُقل الجرحى وغير القادرين على القتال إلى المركبات الأبطأ التي تلكأت لتحاذي الصندل الملكي، وأُخليَت القوادس السريعة في الطليعة من أجل المعركة. كان جنود **رِمرِم** النشيطون الذين حُرروا من حصار **أسيوط** يشغلون معظمها، وكانوا يتحيّنون الفرصة للانتقام بعد عار **أبنوب**. ثم رفع **تانوس** راية **التمساح الأزرق** على صارية ***أنفاس حورس***، وأخذوا يهدرون تشهّيًا للمعركة. يا لسرعته في شدِّ عزيمتهم بعد تلك الهزيمة الدامية!

أخذت أمارات فاجعة **نِمبِت** الأخيرة تزداد وضوحًا مع كل فرسخ نقطعه. كانت الجثث والحطام والطُّفاوة مبعثرة بين أحواض البردي على كلا ضفتي النهر، ثم أخيرًا، رأينا أمامنا في السماء غبار العربات يمتزج بدخان نيران الطبخ من مخيمات **الهكسوس**.

قال **تانوس** باغتباط: «مثلما أمِلتُ، لقد أوقفوا تقدمهم العَجول إلى **طيبة** بعد أن أهداهم **نِمبِت** وسيلة عبور النهر. لكنهم ليسوا بحّارة، وسيشقّ عليهم حمل الرجال والعربات على متنها. إذا منَّ **حورس** علينا، فسنصل في الوقت المناسب لنساعدهم على عبور طريقهم».

اكتسحنا آخر حنيات النهر بتشكيلة المعركة الموسعة، ووجدنا **الهكسوس** أمامنا. وصلنا بفضل إحدى مصادفات الحرب السعيدة في اللحظة نفسها التي همُّوا فيها بعبور النيل.

وهناك كانت القوادس الخمسين الأسيرة طافية في عرض النهر بأشد المناظر خراقة؛ الأشرعة وحبالها متشابكة، وكل مُجدِّف يجدِّف بإيقاعه الخاص، وضربات المجاديف خاطئة ترشُّ الماء على هواها. وكان كل مركب يسير متقلقلًا وجانحًا وغير متناغم البتة مع السفن المحيطة به.

رأينا أن معظم **الهكسوس** الذين يشغلون سطوح السفن متسربلون بدروع برونزية كاملة، وبدا واضحًا أنهم لا يدركون صعوبة السباحة بهذه الملابس، ثم بينما ننقض عليهم حدَّقوا إلينا مذعورين. انقلبت الأدوار أخيرًا، فصِرنا في ميداننا وبيئتنا، وصاروا في مهبِّ الريح كشراع ممزق.

بينما نقترب حظيتُ ببضع لحظات أدرس فيها العدو، فرأيت أن أكثرية جيش **الهكسوس** لا تزال على الضفة الشرقية حيث أقاموا مخيَّمهم، وأن أعدادهم غفيرة حتى إن مخيَّمهم امتد إلى سفوح تلال الصحراء، أقصى ما يبلغه بصري وأنا على متن ***أنفاس حورس***.

كان الملك **ساليتيس** قد أرسل قوة صغيرة فقط عبر النهر، وكنتُ واثقًا تقريبًا أن أوامرها تقتضي الإسراع على الضفة الغربية واحتلال معبد الفرعون **ماموس** الجنائزي قبل أن نتمكن من نقل الكنز.

انقضضنا بسرعة على قافلة سفن **الهكسوس**، وصحتُ **لتانوس** بصوت أعلى من قرع طبول الأوغاد وتهليلاتهم المتعطشة للدماء: «لقد عبرت أحصنتهم بالفعل، انظر هناك!».

اجتمع على الضفة الأخرى قطيع ضخم من هذه الحيوانات الرهيبة يكاد يكون بلا حماية، فيما عدا بضعة حراس مسلحين. خمنتُ أن عددها عدة مئات، وحتى من هذه المسافة، تبيَّنَّا شعورها وذيولها الطويلة المسترسلة تتموج في الريح الشمالية القوية. كانت منظرًا مُقلقًا لنا، فارتعد بعض الرجال من حولي وشتموها مقتًا، وسمعتُ أحدهم يغمغم بخوف: «إن **الهكسوس** يطعمون هذه الوحوش من لحمهم البشري، كالأسود المروضة أو بنات آوى، وهذا سبب المذبحة، إذ لا بدَّ لهم من توفير الطعام لها. لا يمكننا إلا تخمين عدد رفاقنا المقيمين بالفعل في بطونها».

لم أتمكن من معارضته، واضطربت أحشائي حتى الغثيان خشية أنه ربما يكون على حق، ثم حوّلت انتباهي عن هذه الوحوش الجميلة الدمويَّة إلى القوادس في التيار أمامنا.

ونوَّهت **لتانوس**: «لقد قبضنا عليهم وهم ينقلون العربات والرجال إلى الضفة الأخرى». كانت متون مراكب **نِمبِت** الأسيرة مُترعة بالعربات والمعدات، ومكتظة بسائقي عربات **الهكسوس** الذين يُنقلون إلى الجانب الآخر، وعندما أدركوا مصيبتهم، حاول بعضهم الاستدارة والإسراع إلى الضفة الشرقية، فاصطدموا بالسفن التي تتبعهم وتشابكت السفن وراحت تنجرف عاجزة في التيار.

ضحك **تانوس** من ارتباكهم ضحكة وحشية، وصرخ في الريح: «إشارة عامة: سرِّعوا إيقاع الهجوم، وأشعلوا سهام النار».

لم يجرب **الهكسوس** هجومًا بسهام النار من قبل، وضحكت مع **تانوس** عندما تأملتُ فيما سيحدث، لكن ضحكتي كانت متوترة، ثم تخشَّبتُ فجأةً واختنقت ضحكتي.

قبضتُ على ذراعه: «**تانوس**! انظر! انظر إلى القادس أمامنا مباشرة! على سطح المؤخرة! هاك خائننا».

للوهلة الأولى، لم يتعرف **تانوس** القامة الطويلة المهيبة على درابزون القادس، ذلك أنه كان يرتدي درعًا محرشفةً وخوذة **هكسوسية** طويلة، ثم هدر فجأة بغضب: «**إنتف**! لِمَ لم نحزر أنه الخائن؟».

قلت: «الآن أفهم الأمر بوضوح. لقد قاد **ساليتيس** إلى مصرنا، بعد أن ذهب إلى الشرق وأغرى **الهكسوس** عمدًا بحكايات كنوز مصر»، وضاهى حنقي وكراهيتي ما يجيش في قلب **تانوس** منها.

أوتر **تانوس** قوسه **لاناتا** وأطلق سهمًا، لكن المسافة كانت بعيدة جدًا وارتد السهم عن درع السيد **إنتف**. رأيتُ آنذاك رأسه يستدير مهتزًّا إثر الصدمة، ثم نظر إلينا مباشرة. خصَّني **وتانوس** بنظرته، وللحظة، ظننتُ أنني رأيت الخوف في عينيه، ثم غاص بعيدًا عن الأنظار تحت شفير ظهر القادس.

اخترق سربنا القائد مجموعة السفن المرتبكة المتطاحنة، ثم ضرب قرننا الدكاك البرونزي قادس **إنتف** في وسطه مصدرًا أصوات سحق وشقّ، وسقطتُ على الأرض من هول التصادم. عندما عدتُ واقفًا، كان المجدفون قد عكسوا تجديفهم بالفعل، وانفصلنا عن السفينة المصابة انفصالًا رافقه صريرُ انفلاق أخشاب آخر.

في الوقت نفسه، كان نبَّالتنا يمطرونها بسهام من نار رُبِطَتْ على رؤوسها جذوع برديٍّ مغمسة بالقار فباتت تشتعل كالمذنبات، وكل منها يترك خطًّا من الشرارة والدخان على حين يحلِّق إلى الأشرعة ورأس البرج. ثم هوَّت ريح الشمال ألسنة اللهب فانقضت تلتهم الأشرعة والحبال بنهَمٍ شيطاني.

فاضت المياه إلى السفينة من الثقب الفاغر الذي شققناه في بطنها، فمالت ميلانًا حادًّا، وسرَت النار في الأشرعة وأشعلتها بسرعة مجفلة. سفعت الحرارة رموشي رغم المسافة، واختلجت الصارية الثقيلة الملتهبة ساقطةً على السطح فحاصرت الطاقم والعربات المكتظة تحتها، وصرَّت صرخاتهم في آذاننا بينما تلتهم النيران شعورهم وثيابهم لكنني تذكرتُ سهل **أبنوب** ولم أشعر بأي شفقة عليهم وهم يقفزون مشتعلين عن جانب السفينة ويغرقون تحت ثقل دروعهم، من دون أن يدل على مكان اختفاء واحدهم إلا دوَّامة تموُّجات ونفخة دخان متلكئة.

كانت قوادس **الهكسوس** تحترق وتغرق على امتداد الأفق أمامنا، فلا خبرة لديهم ولا مهارة تمكنهم من ردِّ هجومنا، وواجهونا عاجزين كما كنا عاجزين أمام هجوم عرباتهم. ثم تراجعت سفننا وهجمت ثانية ساحقةً هياكل سفنهم ومرسلة وابلًا من السهام المشتعلة عليهم.

كنت أراقب أول قادس هاجمناه، وقصدي أن ألمح السيد **إنتف** مرة أخرى، وكان القادس موشكًا أن يغرق عندما ظهر ثانية وقد نزع خوذته ودرعه ولبس وزرة كتانية فقط. توازن بسهولة على شفير السفينة الغارقة، ثم عندما مدَّت النيران أذرعها لتعانقه، ضم يديه فوق رأسه وغطس في الماء شاقًّا سطحه، فهو ابن النيل، ومياهه موطنه، ثم ظهر بعد دقيقة على بُعد خمسين خطوة من حيث غطس، وشعره الطويل مُملَّسٌ خلفًا ككلب الماء.

صحتُ **لتانوس**: «ها هو الحلُّوف[1]! دُسْه».

وأعطى **تانوس** الأمر من فوره ***لأنفاس حورس*** أن تستدير، لكن استدارتها كانت بطيئة رغم سرعة قائد الدفة في توجيهها، وفي هذه الأثناء، انسلَّ السيد **إنتف** في الماء مثل سمكة، وراح يمدُّ ذراعيه قاصدًا الضفة الشرقية وحماية حلفائه **الهكسوس**.

(1) حلُّوف: خنزير بري. (المترجم).

أوعز **تانوس** لمجدفي الميمنة: «جدِّفوا بقوة!»، فدار الجؤجؤ بشدَّة، وحالما صرنا على خط مستقيم مع السبَّاح، أعطى الأمر بتوحيد الجهود وانطلقنا نطارده. بحلول هذا الوقت كان السيد **إنتف** قد سبقنا بكثير واقترب من الضفة، حيث ينتظره خمسة آلاف نبَّال **هكسوسي** وأقواسهم الطويلة المعقوفة موتورة ومستعدة لتغطيه.

صاح **تانوس** متحديًا: «عليهم بَول سِت! سنأخذ **إنتف** أمام أنظارهم»، وقاد ***أنفاس حورس*** إليهم مباشرة، منقضًا على الجسم السابح وحده.

وعندما صرنا على مرمى الشاطئ، أرسل **الهكسوس** وابلًا عتَّم السماء، وسقطت أسهمهم في غيمة صافرة من حولنا. حطت كثيفة حتى إن سطح السفينة سرعان ما امتلأ بها كما يمتلئ جنح الإوزة بالريش، وأُصيب بعض بحَّارتنا وسقطوا من مقاعدهم يتلوون وينزفون.

لكننا كنا قريبين من **إنتف**، ورأيتُ الرعب في وجهه عندما نظر من فوق كتفه وأدرك أنه عاجز عن الهروب من قيدومنا الحاد، فتجاهلتُ السهام وركضتُ إلى الجؤجؤ لأصرخ عليه: «لقد كرهتكَ من يوم التقيتك. كرهتُ كل لمسة مُقززة، وأريدُ مشاهدتك تموت. إنك الشرُّ بعينه!».

سمعني، رأيتُ ذلك في عينيه، ثم تدخلت آلهته السوداء مرة أخرى، إذ انجرف أحد قوادس **الهكسوس** علينا والنار والدخان يتفجران منه. ولو مسّنا، لتفجرنا معه في برج من اللهب، لذا أُجبر **تانوس** على تحويل اتجاه الدفة وإرسال إشارة عاجلة لمجدفيه أن يعكسوا الحركة. تابع القادس المحترق انجرافه بين الشاطئ وحيث توقفنا، حاجبًا السيد **إنتف** خلفه، وعندما مرَّ رأيته ثانية يسحبه ثلاثة سائقي عربات مفتولي العضلات من الماء ويُصعدونه الضفة المنحدرة.

توقف قليلًا على رأس الضفة ونظر إلينا، ثم اختفى عن الأنظار تاركًا إيَّاي أرتجف حنقًا وإحباطًا. كانت السهام النازلة لا تزال تضرب رجالنا، لذا أعطى **تانوس** الأمر فانحرفنا وأسرعنا عائدين لنشارك في تدمير المراكب القليلة الباقية التي لا تزال طافية.

وعندما مال آخرها وانقلب على ظهره، انسكبت مياه النيل الخضراء فيه وأخمدت ألسنة اللهب فصارت سحابة بُخار مهسهسة. ثم مال نبَّالتنا عن جوانب سفنهم ورموا **الهكسوس** القلائل المتخبطين بوهنٍ على سطح الماء.

غرقوا جميعًا من فورهم، وحوَّل **تانوس** انتباهه إلى الضفة الغربية حيث علِقَت جماعة الأعداء الصغيرة وقطيع الخيول. عندما أسرع قادسنا إلى الشاطئ، تبعثر رُعاة **الهكسوس** وفرّوا، لكن رجالنا قفزوا حاملين سيوفهم بأيديهم وركضوا خلفهم. كان **الهكسوس** ركاب عربات معتادين على خوض المعركة راكبين، أما فتياننا فجنود مشاة مُدربون على الركض، ومثل قطيع من كلاب الصيد وراء ابن آوى طوقوهم وانفردوا بهم، ثم مزقوهم وتركوا مئة جثة نازفة مبعثرة على حقول خضراء من الذرة البيضاء المنتصبة.

كنتُ قد قفزتُ إلى الشاطئ وراء أول موجة من جنودنا وفي رأسي مسألة مهمة، فلا جدوى من صناعة نماذج وتصميم عربات من دون وسيلة لقيادة العجلات ذات القضبان التي رأيتها في مخيلتي.

احتجتُ إلى قدر هائل من الشجاعة لأتقدم ناحية قطيع المخلوقات الرهيبة الذي تركه رعاة **الهكسوس** قرب حافة الماء، وكانت كل خطوة أخطوها جهدًا جهيدًا على عزيمتي، ذلك أن عددها يبلغ عدة مئات، وبدا واضحًا أنها مضطربة وخائفة بسبب صراخ الرجال وفرارهم وصلصلة الأسلحة. كنت واثقًا أنها ستهجم عليَّ في أي لحظة كالأسود الجريحة، وتصورتها تلتهم لحمي الذي لا يزال دافئًا مرتعشًا، فتبخرت شجاعتي وعجزتُ عن التقدم أكثر. وقفت على مسافة مئة خطوة أحدق إلى هذه المفترسات المتوحشة تحديقة افتتان مرعوب، لكنني بقيت متجهزًا للاستدارة والركض إلى أمان القادس عند أول علامة هجوم.

ونلتُ أول فرصة لدراسة هذه الحيوانات. كان معظمها كُميت اللون، لكن ترافقه تدرجات دقيقة كستنائية وغبراء، باستثناء واحد أو اثنين منها سودًا سواد سِت، وكانت تبلغ في انتصابها طول رجُل، بصدور منتفخة وأعناق طويلة مقوَّسة تقوسًا بهيًّا، وأعراف تتموج كخصلات شعر امرأة جميلة على حين تتوهج جلودها في ضوء الشمس كأنها مصقولة.

ألقى حصان قريب مني رأسه خلفًا وموَّج شفته العليا، ونكصتُ عندما رأيت الأسنان البيضاء المربعة الضخمة التي تسطِّر فكه، ثم ركل بقائمتيه الخلفيتين وأطلق صوت صهيل مرعب إلى درجة أنني استدرتُ واتجهت إلى السفينة ببعض الرشاقة.

ثم شلَّت صيحة مبحوحة صاحها أحد جنودنا القريبين مني تراجعي الجبان: «اقتل وحوش **الهكسوس**!».

ورددها الآخرون: «اقتل الوحوش!».

فصرخت: «لا! (ونسيتُ خوفي على سلامتي الشخصية)، استبقوا الأحصنة، نحن في حاجة إليها».

بينما ضاع صوتي في صيحات جنودنا الحربية الغاضبة يهجمون على قطيع الخيول رافعين تروسهم وسيوفهم لا تزال تقطر دماء الرعاة، وتوقف بعض الرجال ليوتروا أقواسهم ويطلقوها على القطيع.

صحت: «لا!» عندما شبَّ فحل أسود لامع وصرخ وقد حطَّ سهمٌ في غاربه(1).

صحتُ ثانية: «لا! أرجوكم لا!» بينما يركض أحد البحارة حاملًا فأسًا حربية خفيفة قطع بها مفصل ثُنَّة(2) فرس صغيرة، فشلَّتها الضربة ومنعتها من تجنب ضربة الفأس التالية التي أصابتها بين أذنيها وأرسلتها تركل التراب.

توسلتُ إليهم: «اتركوها! اتركوها!»، لكن السهام أردَت دزينة منها، وشوَّهت السيوف والفؤوس دزينة أخرى قبل أن ينهار القطيع أمام الهجوم، وفرَّ ثلاثمئة حصان انطلقت تعدو جماعةً عبر السهل الترابي الغربي باتجاه الصحراء.

ظلّلتُ عيني لأراقبها تهرب، وشعرتُ أن جزءًا من قلبي ذهب معها. وعندما اختفت، ركضتُ لأحمي الحيوانات التي تُركت مشوَّهة ومصابة بالأسهم بين أحواض البردي وأعتني بها، لكن الجنود سبقوني، وبلغوا من السخط أنهم اجتمعوا حول الجثث الساقطة وأخذوا يطعنون اللحم المستسلم بنصالهم ويقطِّعون الرؤوس الكسيرة بكراهية مسعورة.

كانت ثمة أجمة من بوص البردي معزولة جانبًا، وقف وراءها الفحل الأسود الذي رأيته يتلقى السهم محجوبًا عن الجنود المهتاجين. كانت إصابته بليغة، وأخذ يترنح ويعرج متقدمًا والسهم في عمق صدره، فركضتُ إليه من دون أي تفكير بسلامتي، ثم توقفتُ عندما استدار ليواجهني.

ولم أدرك إلا تلك اللحظة الخطر المحدق بي، فأمامي وحش جريح لا بدَّ أن يهاجمني كما يفعل الأسد إذا ما وقع في المأزق نفسه. ثم حدقتُ إليه وحدق إليَّ، وشعرتُ بالخوف يسقط عن كتفي كعباءة مهملة.

(1) الغارب: قمة أو نتوء بين عظام الكتف للثدييات التي تمشي على أربع. (المترجم).

(2) ثُنَّة الفرس: شعرة من شعرات مؤخر رجلها. (المترجم).

كانت عيناه كبيرتين وتفيضان ألمًا، عينان رقيقتان جميلتان ملأتا قلبي إشفاقًا، وبينما أحدق إليه، أصدر صوتًا خفَّاقًا خفيفًا وأخذ يعرج باتجاهي، فرفعتُ يدي لألمس خطمه وكان ملمسه كحرير عربي دافئ، ثم جاء إليَّ مباشرة، وضغط بجبهته على صدري في إشارة ثقة واسترحام تكاد تكون بشرية، وعرفتُ أنه يطلب مساعدتي.

ألقيتُ ذراعيَّ حول عنقه عفويًّا وعانقته، وأردتُ في تلك اللحظة إنقاذه أكثر من أي شيء آخر في حياتي، لكن دماء دافئة قطرت من منخريه على صدري، وعرفتُ أنه مصابٌ في رئتيه وأنه يحتضر. كان قد تجاوز أي مساعدة يمكنني منحه إياها.

همستُ له: «يا عزيزي المسكين! ماذا فعل بك أولئك الأوغاد الأغبياء الجهلة؟».

أدركتُ إدراكًا خافتًا في خضم اغتمامي ومضاضتي الروحية أن حياتي قد تغيرت ثانية، وأن هذا المخلوق المحتضر سبب هذا التغيُّر. شعرتُ بطريقة ما أنني حيثما سأترك آثار أقدام في السنوات القادمة على الأرض الإفريقية، ستنطبع بجوارها آثار حوافر حصان. لقد وجدتُ حبًّا عظيمًا آخر أملأ أيامي به.

أصدر الفحل ذاك الصوت الخفَّاق مرة أخرى، وشعرتُ بأنفاسه دافئة على جلدي، ثم انهارت سيقانه من تحته وسقط سقطة ثقيلة على جانبه رقد إثرها يلهث الهواء إلى رئتيه المثقوبتين. أزبدَت بعد ذلك فقاعات دم قانئ من الجرح في صدره، فجلست بجواره، ورفعت ذاك الرأس النبيل إلى حجري وانتظرت معه حتى مات، ثم وقفت وعدت إلى حيث ترسو ***أنفاس حورس***.

شقَّت عليَّ رؤية الطريق أمامي، فقد أعمتني دموعي الساخنة، وشتمتُ نفسي ثانية لأنني أحمق هش وعاطفي، لكن ذلك لم يساعدني كثيرًا على تقوية نفسي. لطالما كنتُ ضعيفًا جدًّا أمام رؤية المعاناة في كائن آخر، سواء أكان إنسانًا أم غيره، ولا سِيَّما في كائن نبيل وجميل.

بينما أتسلق السفينة شتمني **تانوس**: «عليك اللعنة يا **تايتا**! أين كنت؟ ثمة معركة تدور رحاها، وبينما تعيش حلمًا آخر من أحلام يقظتك لا يمكن للجيش بأكمله أن ينتظرك». ورغم اهتياجه كله، لم يهجرني.

***

رفض **تانوس** الاستماع إليَّ حتى، بل قاطعني بفظاظة عندما طلبت الإذن باللحاق بقطيع الخيول الفارة إلى الصحراء رفقة بعض الرجال.

وصرخ بي: «لا أريد شاحنة تجرها هذه المخلوقات الخبيثة الأثيمة! بل إنني متأسف لأن رجالي تركوها تفرّ ولم يذبحوها جمعًا. فلنأمل أن تعوِّض الأسود وبنات آوى هذا التقصير»، فأدركتُ أنه يكرهها بقدر ما يكرهها أجهل مغفَّل في أفواجه.

ليس من عادتي الاسترسال في جدالات صاخبة، لكن هذا التعنُّت أثار سخطي: «أكنتَ حاضرًا على سهل **أبنوب**؟ أم كان الواقف بجواري أبلهَ بليدًا آخر؟ ألم ترَ المستقبل يهاجمك على حوافر وعجلات ويفرم رجالك طعامًا لبنات آوى؟ ألا تعي أن أمرك وأمر مصر التي نعرفها قد انتهى من دون العربة والحصان؟».

كان هذا النقاش الوديّ يجري على مؤخرة سطح ***أنفاس حورس***، وأُصيب ضباط **تانوس** بصدمة أسكتتهم وخشَّبتهم لسماعهم عبدًا يخاطب **أسد مصر العظيم** وقائد جيوشها كلها على أنه أبله بليد، غير أنني تجاوزت كل القيود وتابعتُ اندفاعي.

- لقد أهدتك الآلهة هذه الهدية العظيمة، وضعت ثلاثمئة حصان بين يديك! وسأصنع لك عربات تجرها. أأصابك العمى إلى درجة أنك لا ترى ذلك؟

أجابني هادرًا: «لديَّ سفني! لستُ في حاجة إلى هذه الوحوش الخبيثة آكلة الرجال. إنها رجس في وجوه الرجال المحترمين وجميع الآلهة الخيِّرة. إنها مخلوقات **سِت وسوتخ**، ولا أريد منها شيئًا».

أدركت متأخرًا جدًّا أنني دفعتُ **تانوس** إلى موقف لا يمكنه التراجع عنه، فهو رجل فطن وذكي إلى درجة أن يشلَّ كبرياؤه منطقَه، لذا لطَّفت لهجتي وجعلتُ صوتي معسولًا.

- **تانوس**، أرجوك اسمعني. لقد أمسكتُ رأس أحد هذه الحيوانات بيديَّ. إنها قوية لكنها لطيفة لطافة غريبة. أعينها تشع بذكاء كلب مخلص، ولا تأكل اللحم...

قال هازئًا: «وكيف لك أن تعرف ذلك من لمسة واحدة وجيزة؟»، ولا يزال متغطرسًا ومجروح الكرامة.

أجبته: «من أسنانها، إذ إنها لا تمتلك أنياب لاحمٍ ولا مخالبه. الخنازير هي المخلوقات الوحيدة ذات الحوافر التي تأكل اللحم، وهذه ليست خنازيرَ».

رأيتُه يتذبذب أخيرًا، واستغللت قوة موقفي: «وإن لم يكن ذلك كافيًا، فانظر إلى المؤن التي حملها **الهكسوس** عبر النهر. أيحتاجون إلى جبل الأعلاف هذا لإطعام زمرة من الأسود اللاحمة؟».

قال: «سواء أكان لحمًا أم علفًا، لن أجادلك أكثر. لقد سمعت قراري. ستترك هذه الخيول الملعونة تهلك في الصحراء، وقراري نهائي»، وابتعد يخبط الأرض بقدميه، لكنني قلتُ في سري: «نهائي قلت لي؟ حسنًا، سنرى».

كانت المناسبات التي لم تُنِلني فيها مولاتي مرادي قليلة جدًّا، وهي الآن السلطة الأعلى في مصر، فذهبتُ إليها في ذلك المساء حالما وصل الصندل الملكي تحت حماية القوادس الحربية.

ومن دون علم قائد جيوشها وعشيقها، أريتها نموذج العربة الصغير المشغول مع الأحصنة المصغرة المنحوتة التي صنعتها له، وأُخِذَت به، ذلك أنها لم ترَ أسراب العربات الحربية في أوج هجومها، ولم تكنَّ لها الكراهية نفسها التي يكنها الجزء الأكبر من الجيش. وبعد أن أسرتُ كامل انتباهها بنموذج العربة، وصفتُ لها موت الفحل بتفصيل أليم أجرى دموع كلينا. وقدرتها على مقاومة دموعي ليست أقوى من قدرتي على مقاومة دموعها.

قالت باكية: «عليك الذهاب على الفور لإنقاذ هذه الحيوانات البديعة من الصحراء، وعندما تأتي بها، آمرك بصناعة سرب عربات لجيوشي».

لو حادثها **تانوس** قبل أن تسنح لي الفرصة بإقناعها، أشك في أنها كانت لتأمرني هذا الأمر، وكان تاريخ عالمنا ليختلف كثيرًا. وفي الحقيقة، فقد أثار مكري ثائرة **تانوس**، واقتربنا من الشقاق الدائم أكثر ما اقتربنا في كل هذه السنوات.

من حسن الحظ أن الملكة أمرتني بالذهاب إلى البر من غير إبطاء، وتمكنتُ من تفادي سخطه في أشدِّه، فما كان أمامي إلا بضع ساعات أجمع فيها بضعة مساعدين، وكان قائدهم الذي اخترتُه أبعدهم احتمالًا.

لم آنس إلى **هُوي** قط، الصُّرد الذي أسرناه في **جلالة** ثم صار قائدًا لأحد قوادس **تانوس** التي غرقت في **أبنوب**. لكنه بات قبطانًا من دون سفينة،

ورجلًا يبحث عن سبب للاستمرار، فجاءني حالما شاعت إشاعة مهمتي بين الأسطول.

سألني متحديًا: «ماذا تعرف عن الخيول؟» ما لم أكن متجهزًا للإجابة عنه.

فأجبت جوابًا حذرًا: «من الواضح أنني لا أعرف عنها بقدرك».

فتباهى بطريقته المحببة المعهودة: «لقد كنتُ سائسًا فيما مضى».

- وأي مخلوق هو السائس؟

فأجابني: «خادم دواب، شخص يعتني بالخيول»، وحدقت إليه ذاهلًا.

ثم سألته بإلحاح: «أين رأيت في عمرك حصانًا قبل ذلك اليوم الدامي في **أبنوب**؟».

- عندما كنتُ رضيعًا، قُتل والدي، وأسرتني قبيلة برابرة تتنقل بين سهول في أقصى الشرق على بعد سفر سنة عن نهر الفرات. كان آسريَّ شعب خيَّالة، وفي طفولتي عشت أيامي جميعها مع هذه الحيوانات. كان حليب الفرس طعامي، واتخذت ملجأ ليلاتي تحت بطونها، فخيام القبيلة ممنوعة على العبيد. وعندما فررت من العبودية، هربتُ على ظهر فحلي المفضل، وحملني سريعًا وبعيدًا، لكنه مات قبل وقت طويل من بلوغنا الفرات.

وهكذا كان **هُوي** معي عندما أنزل قادس جماعتي الصغيرة من صيادي الخيول المُكرهين على الضفة الغربية. لم أستطع تجنيد إلا ستة عشر رجلًا، ومعظمهم من حثالة الجيش، إذ حرص **تانوس** على ألا ينضم إليَّ أحد من خيرة رجاله. لا يمكنه مخالفة أمر الوصية على عرش مصر، لكنه صعَّب عليَّ تنفيذ أمرها بقدر استطاعته.

' بناء على اقتراح **هُوي**، جهزتُ رجالي بحبال كتانية خفيفة وأكياس من الذرة المجروشة، وكان الجميع، باستثنائي و**هُوي**، مرعوبًا حدَّ فقدان السيطرة على نفسه من مجرد التفكير في المخلوقات التي انطلقنا نتبعها. وعندما استيقظت في الصباح بعد أول ليلة تخييم، وجدتُ أن أولئك الشجعان قد اختفوا جميعًا، ولم أرَ أحدًا منهم ثانية.

قلت بيأس: «سنضطر إلى العودة. لا يمكنني فعل شيء وحدي. وسيسرُّ السيد **تانوس**، فهذا بالضبط ما كان يعرف أنه سيحدث».

قال **هُوي** بمرح: «لست وحدك، أنا معك»، وكانت تلك أول مرة تميل فيها مشاعري إلى ذلك المختال الشاب، فتقاسمنا حمل الحبال وأكياس الذرة المجروشة الجلدية ومضينا.

بحلول هذا الوقت، كان عمر آثار حوافر الخيول ثلاثة أيام، لكنها ظلت معًا في قطيع واحد لذا رسمت طريقًا يسهل اللحاق به. طمأنني **هُوي** أن غريزة القطيع قوية عندها، وأنها لن تبتعد بوجود هذا المرعى الخصب على امتداد ضفة النهر. كان متأكدًا أنها لم تذهب إلى الصحراء كما أخشى.

قال: «لِمَ عساها تفعل ذلك؟ لا طعام أو شراب لها هناك»، وفي آخر الأمر ثبت أنه على حق.

عندما جاء **الهكسوس**، هجر الفلاحون مزارعهم واحتموا داخل جدران المدينة، تاركين الحقول مهملة والذرة نصف ناضجة. وجدنا القطيع قبل ظهيرة اليوم الثاني منتشرًا يرعى بسلام في أحد الحقول، وعلى الرغم من تجربتي مع الفحل الجريح، ظللت أقرب إلى المتوتر من هذه المخلوقات الغامضة.

أسررت **لهُوي** باحثًا عن طمأنته ونصيحته: «لا شك أن أسر بضعة منها سيكون أمرًا شاقًا وخطرًا»، ففي هذه المرحلة، لم تخطر ببالي فكرة أسر الثلاثمئة كلها، وكنت لأرضى بعشرين، وأغتبط بخمسين منها. تصورتُ أننا سنضطر إلى الركض خلف كل منها وتقييده بالحبال التي جلبناها معنا لهذا الغرض.

ابتسم **هُوي** معتدًا بنفسه ومسرورًا بفهمه المتفوق للموضوع: «سمعتُ أن لك صيتًا ذائعًا بكونك عبدًا ذكيًا. من الواضح أنه صيتٌ ضعيف الأساس».

علمني بعد ذلك كيف أثني الحبال وأجدلها لأصنع لجامًا، ولم يرضَ حتى صنعنا دزينة منها، ثم سلَّح كل منا نفسه بكيس جلدي من الذرة المجروشة، ومضينا إلى القطيع في مرعاه. احتذيتُ حذو **هُوي** ولم أمشِ إليها مباشرة، بل تمشينا مواربين بخطوٍ متمهِّل عابرين الحيوانات التي في حاشية القطيع.

ثم حذرني: «تمهَّل الآن»، عندما رفعت رؤوسها وراحت تتفحصنا بنظرتها الصادقة صدقًا غريبًا والطفولية تقريبًا التي صرت لاحقًا أعرفها حق المعرفة.

قال: «اقعد».

غصنا في الذرة المنتصبة وثبتنا بلا حراك حتى عادت الخيول إلى طعامها، ثم تقدمنا حتى اضطربت من جديد.

أمرني ثانية: «انخفض».

وعندما جثمنا بين الذرة أردَف: «إنها تحب وقع الصوت الرقيق. عندما كنتُ طفلًا، كنت أغني لخيولي حتى أهدئها. راقب هذا!» وبدأ يغني لازمة بلغة غريبة افترضتُ أنها لسان آسريه البرابرة في طفولته.

كان صوت **هُوي** شجيًّا بقدر زعيق الغربان المتنازعة على جثة كلب ميت متعفنة، وحدق إلينا أقرب الخيول تحديقة فضول، فوضعتُ يدي على ذراع **هُوي** لأسكته، إذ كنتُ واثقًا بأن القطيع لا بدَّ يرى مجهوده في الغناء مُوجعًا مثلي.

وهمست: «دعني أجرب»، ثم أخذتُ أغني تهويدة أَلِفتها لأميري:

نَم يا صغيري مِم، يا حاكم الفجر،

نَم يا أميري، يا من سيحكم العالم.

أرِح رأسك المجعد المملوء بالأحلام المدهشة،

أرِح ذراعيك، لتقويا على حمل السيف والقوس.

اقتربتْ إحدى الأفراس القريبة بضع خطوات ناحيتي، وعندما توقفتْ، أصدرتْ الصوت الخفَّاق نفسه بشفتيها. كان الفضول يعتريها، فتابعتُ الغناء برقة وإغواء، وجاء في أعقابها مُهر، مخلوق جميل صغير كُميت اللون له رأسٌ فاتن وأذنان منتصبتان.

بإحساسي وفهمي المميزين للطيور والحيوانات، كنتُ بدأت أتعرف بالفعل الخواص السلالية المستحبة في الخيول، وأتعلم بسهولة غريزية كيف أتعامل معها، فلم أعُد معتمدًا كل الاعتماد على **هُوي** ليوجهني.

وبينما تابعت غنائي الرقيق، غرفتُ حفنة من الذرة المجروشة وقدمتها للفرس، وعرفتُ من فوري أنها أُطعمت باليد من قبل، وأنها تفهم ما أقدمه، إذ نفخَت نفخة صاخبة من منخريها الواسعين، واقتربت مني بضع خطوات أخرى. وحتى هذه اللحظة، يمكنني تذكر الإثارة التي كادت توقف نبض قلبي

عندما خطَت آخر خطوة ناحيتي، وأخفضت خطمها برقّة إلى يدي لتتذوق الوجبة البيضاء. غطّى المسحوق شاربيها عندما أكلتْ، وضحكتُ غبطة وحماسة، ثم طوقت عنقها بذراعي الأخرى ووضعتُ خدي برفق على خدها لأتنشق رائحة جلدها الغريبة الدافئة، فلم تحاول الابتعاد عني.

ذكّرني **هُوي** بهدوء: «اللجام»، فأزلقته من حول رأسها مثلما علمني.

ثم قال: «صارت ملكك».

فأجبته من دون تفكير: «وأنا ملكها»، لكنني نطقتُ بالحقيقة، فقد أسر أحدنا الآخر.

كانت بقية القطيع قد شاهدت كل هذا، وحالما صار اللجام على الفرس، هدأتْ وسمحت لي و**لهُوي** بالتجول بينها بحرية، ثم جاءت تأكل من أيدينا وتركتنا نرفع حوافرها ونمسّد أعناقها وأكتافها الهائلة.

بدا كل ذلك في نظري عجائبيًا آنذاك، لكن بعد بعض التفكير فقط، أدركتُ أنه طبيعي تمامًا، فهي معتادة منذ ولادتها أن تُلمس ويُربت عليها، وأن تُطعَم وتُلجَم، وعاشت طيلة حياتها رفقة الوجود البشري المستمر. أما المعجزة الحقيقية فحدثت لاحقًا، عندما أدركتُ أنها تميّز العاطفة، وأن بإمكانها ردُّها بمثلها تمامًا.

بينما يحاضر بي طيلة الوقت ويستعرض تعليمه وخبرته في أمور الخيل اختار **هُوي** فرسًا أخرى ولجمها، لكنني كنتُ في مزاجٍ مُنتشٍ حتى إن غروره للمرة الأولى لم يزعجني.

قال أخيرًا: «حسنٌ جدًا، سنمتطيها الآن»، وأمام مطلق ذهولي، وضع كلتا يديه على ظهر فرسه، ثم رفع نفسه ورمى بإحدى ساقيه إلى الجانب الآخر ليجلس على ظهرها فاتحًا ساقيه. حدّقتُ إليه ببلاهة غير مصدق، ومتوقعًا أن ترد الفرس بعنف، أن تشبَّ وترميه أرضًا، أو تعض على الأقل ساقه العارية بأسنانها البيضاء القوية وتجره عن مجثمه، لكنها لم تفعل شيئًا من ذلك، بل وقفت بهدوء وإذعان.

ناداها قائلًا: «هيا يا عزيزتي»، ووكزها بكعبيه في أضلاعها، فمشَت الفرس قُدمًا بطاعة، وعندما حثّها ثانيةً هرولَت ثم انطلقت تعدو. قادها **هُوي** بسهولة لم تكُن واضحة لي عندها، ورسمت الفرس والفارس بحركتهما أشكالًا أنيقة في عرض الحقل، ثم استدارا وعادا إلى حيث أقف.

ناداني: «تعال يا **تايتا**، جرِّب جولة!»، ورأيتُ أنه يتوقع مني الرفض، ما دفعني إلى تجاوز ترددي، إذ لن أسمح لذلك التافه الصغير أن يغلبني.

فشلت محاولة امتطائي الأولى، لكن الفرس وقفت بصبر، وضحك **هُوي** قائلًا: «لديها الكثير لتعلمك إياه، يجب أن تسمي الحيوان المسكين «**صابرة**»»، ولم أرَ فَكاهة قوله آنذاك، لكنَّ الاسم التصق بها وصارت مذ ذاك فصاعدًا **صابرة**.

ثم أرشدني: «ارفع نفسك أكثر قبل أن ترمي ساقك حولها، واحذر أن تنحصر خصيتاك تحتك عندما تهبط (ثم ضحك ضحكة صاخبة)، وهذه نصيحة لا شأن لك بها. أخمن أنك تتمنى لو ما زلت تمتلك خصيتين تجلس عليهما!».

بردت كل المشاعر الدافئة التي بدأت أحسها تجاه **هُوي** بعد هذه النكتة، وألقيتُ نفسي على ظهر الفرس متشبثًا بعنقها بكلتا يدي خشية تكسُّر الأطراف أو تصدُّع الجمجمة.

أخذ يرشدني: «استقِم في جلستك!»، وساعدتني صابرة بطبيعتها العذبة وصدرها الرحب.

فاجأت نفسي بتفكيري بهذه الحيوانات من منظور إنساني، لكن في خلال الأيام التالية وبينما نركبها جنوبًا إلى **طيبة**، اكتشفت أنها يمكن أن تكون غبية أو ذكية، شكَّاكة أو وثوقة، صارمة أو خبيثة، ودودة أو محتاطة، شجاعة أو جبانة، متوترة أو رابطة الجأش، صبورة أو ضيقة الخلق، مفاجِئة أو يمكن التنبؤ بطباعها، بوجيز العبارة، أقرب إلى الإنسان في مزاجها من أي مخلوق يسير على أربعة. وكلما عرفت عنها أكثر، أردتُ أن أعرف أكثر. وكلما عملتُ معها أكثر، أحببتها أكثر.

تابعتُ طريقي راكبًا على صابرة ومهرها في أعقابها، وتبعَنا القطيع طوعًا، الثلاثمئة وست عشرة كلها. سار **هُوي** في المؤخرة ليدفع المتخلفين عن الركب، ومع كل فرسخ نقطعه، كانت ثقتي وبراعتي على ظهر صابرة تزداد، وعلاقتنا تتوطَّد. صارت الفرس امتدادًا لجسدي، لكنها أسرع وأقوى من أطرافي الواهنة بكثير، وشعرتُ أن جلوسي مفرشَخًا على ذلك الظهر المتين العريض طبيعي وصحيح إلى درجة شعوري بالذهول من قلة الراغبين بمشاركتي التجربة.

لعل السبب ليس الرعب المدمِّر الذي دبَّ فيهم على سهل **أبنوب** وحسب، بل كان لكلام **تانوس** سيد **حاراب** وسلوكه أثر في أفواج جيشنا أيضًا. وأيًّا ما كان السبب، عجزت عن إيجاد مصري مستعد لامتطاء ظهر حصان إلا **هُوي**، والأمير **مِمنون** بعد وقت طويل. تعلموا بالطبع كيف يزوِّجون الخيول ويولِّدونها ويعتنون بها، وتحت إرشادي، صاروا سائقي عربات حاذقين وجسورين، لكنني لم أرَ رجلًا منهم يمتطي ظهر حصان، باستثنائي **وهُوي** والأمير. وعندما حققت العربات التي صممتُها لاحقًا بعجلاتها الخفيفة ذات القضبان نجاحًا باهرًا، وجعلت مصر سيدة هذا الاختراع، لم يحتذِ **تانوس** حذونا قطُّ، ولم أسمعه يعرب عن أي شعور لطيف تجاه هذه الحيوانات الواعية والشجاعة التي جرته إلى المعركة.

حتى في السنوات اللاحقة، عندما صار الحصان شيئًا مألوفًا في المملكة، ظل امتطاؤها يعدُّ أمرًا شائنًا وبذيئًا إلى حد ما. وكلما مر ثلاثتنا راكبين مفرشِخين، كان العديد من العامة يبصقون على الأرض ثلاث مرات ويرسمون الإشارة الحارسة من العين الشريرة.

***

بينما أقود قطيعي على الضفة الغربية باتجاه **طيبة** كان كل ذلك في المستقبل، وعندما وصلنا، استقبلنا امتنان مولاتي، وترحيب جلف وفاتر من قائد الجيوش المصرية.

قال لي **تانوس**: «أبق هذه البهائم الشريرة بعيدة عن ناظري وحسب». لم يسامحني بعد على ذهابي إلى مولاتي من وراء ظهره.

ولأنصفه القول، فإن مزاجه السيئ مُبرر تمامًا، إذ لم يمرَّ على حضارتنا في تاريخها وقت هددها فيه البرابرة إلى هذه الدرجة.

كنا قد خسرنا **أسيوط** بالفعل، والضفة الشرقية بكاملها حتى **دندرة**، فقد تابع الملك **ساليتيس** وعرباته اكتساحهم وحاصروا مدينة **طيبة** المسوَّرة من دون أن تعطلهم الهزيمة البحرية التي أنزلها **تانوس** بهم أو تحط من عزيمتهم.

كان يفترض بهذه الأسوار أن تقاوم الحصار لعقود، لكن هذا الفرض من دون الحضور المشؤوم للسيد **إنتف** في معسكر العدو، فقد حدث عندما كان لا يزال الوزير الأعظم للمملكة العليا أن أمر سرًّا ببناء ممر مخفي تحت

أسوار المدينة، وحتى أنا رغم معرفتي معظم أسراره لم أشكَّ بذلك قطُّ، ثم قتل العمال الذين نفذوا هذا العمل، فلم يبقَ من يعرف بوجوده غيره. لا أملك أدنى فكرة عن سبب بنائه القناة في المقام الأول، إلا أن عقله الماكر كان ميَّالًا جدًا إلى هذه الخطط، وترك القصر مثقَّبًا بالأبواب الخفية والدهاليز السرية، كجحر أرنب أو وجار ثعلب صحراوي.

عندما كشف السيد **إنتف** للملك **ساليتيس** عن ذلك، أرسل الملك مجموعة صغيرة من خيرة رجاله عبر الممر السري، وحالما صاروا داخل الأسوار، عصفوا بالحراس المصريين الغافلين عند البوابة الرئيسة وذبحوهم وفتحوا البوابة على مصراعيها. ثم انسكب حشد **الهكسوس** الأساسي إلى المدينة، وفي غضون أيام من بدء الحصار، سقطت المدينة ونُحِرَ نصف سكانها.

من الضفة الغربية، حيث أقام **تانوس** مقره في قصر **مِمنون** نصف المبني، رأينا أسقف الأبنية المحترقة والمسوَّدة التي أضرم **الهكسوس** النار فيها في المدينة على الطرف الآخر من النهر. وبينما يسرعون جيئة وذهابًا على الضفة البعيدة صرنا نراقب كل يوم سحب الغبار التي تبعثها عرباتهم، وبريق أسنَّة حرابهم على أكتافهم على حين يتجهزون للمعركة التي يعلم جميعنا أنها آتية.

تمكن **تانوس** بهذا الأسطول المستنزف استنزافًا محزنًا من حماية خط النهر حتى الآن، وكان في غيابي قد صد محاولة أخرى أجراها **الهكسوس** لعبور النيل بأعداد كبيرة، بيد أن دفاعاتنا منتشرة انتشارًا هزيلًا، ذلك أن علينا حماية مجال كبير من النهر، في حين يستطيع **الهكسوس** العبور من أي نقطة يختارون. أخبرنا جواسيسنا في الضفة الشرقية أنهم قد جنَّدوا كل مركبة وقعت في أيديهم، من العبَّارات إلى الزوارق، وأسروا صنَّاع المراكب وشغلوهم في باحات سفن طيبة. وبالطبع، نحن متأكدون من أن السيد **إنتف** سيسديهم النصح السديد في كل هذه المسائل، فلا بدَّ أنه متشوِّق بقدر البربري **ساليتيس** إلى الاستيلاء على كنز الفرعون.

وقفت طواقم قوادسنا على أهبة الاستعداد في كل هُزُع الليل والنهار، ولم ينَم **تانوس** إلا عندما تسنح له الفرصة، ولم تسنح كثيرًا. لم أكن ومولاتي نراه إلا قليلًا، وفي هذه الأوقات القليلة يغلب عليه الإنهاك والنزق.

شهدت كل ليلة وصول عدة مئات من اللاجئين إلى الضفة الغربية، من كلا الجنسين وجميع الأعمار، بعد أن عبروا النيل على تشكيلة غريبة من الطوافات

والمراكب الصغيرة، حتى إن الكثير من الأقوياء سبحوا عرض الماء كله. كانوا جميعًا مستقتلين للفرار من إرهاب **الهكسوس**، وجلبوا معهم قصصًا مرعبة عن السلب والنهب، لكنهم جلبوا أنباءً مفصلة وحديثة عن تحركاتهم أيضًا.

رحبنا بهؤلاء الناس بالطبع، فهم أهل الريف وأقرباؤهم، لكن أعدادهم أنهكت مواردنا، ذلك أن صوامعنا الرئيسة كلها في **طيبة**، ومعظم قطعان الأبقار والخراف صار في يد العدو. أوكلت لي الملكة **لوستريس** مسؤولية جمع كل مؤن الحبوب والقطعان على الضفة الغربية، وكتبتُ قوائم وسجلات لتقنين مؤن اللحم والحبوب. لحسن الحظ، كان النخيل مترعًا ببلحه، وإمدادات السمك من النهر لا تنفد، فلا يمكن **للهكسوس** تجويعنا أبدًا.

عينتني مولاتي سيد الخيول الملكية أيضًا، ولم يكن المنصب محط تنافس شديد، لا سِيَّما وأنه غير مصحوب بمرتَّب أو امتيازات، فجعلتُ **هُوي** نائبي، وتمكن، عن طريق الرشوة والتهديد والابتزاز، من تجنيد مئة خادم خيل يساعده في العناية بقطيعنا الصغير، ودربناهم لاحقًا ليكونوا أوائل سائقي عرباتنا.

لم يشق عليَّ إيجاد بعض الوقت كل يوم لزيارة إصطبلاتنا المؤقتة في مدينة الموتى. كانت **صابرة** تأتي راكضة لتستقبلني على الدوام، وكنت على الدوام أحمل كعك الذرة لها ولمهرها. وفي أحيان كثيرة، تمكنت من اختلاس الأمير **مِمنون** من أمه ومربياته وحمله إلى الإصطبلات على كتفي، وكان يزعَق حماسةً عندما يرى الخيول.

بينما أعدو **وصابرة** على طول ضفة النهر أجلستُ الأمير في حجري، وراح يصدر أصواتًا بلسانه ويهز مقعدته الصغيرة مقلدًا الطريقة التي أحث فيها **صابرة** على الإسراع في عدوها. حرصت على اختيار طريق لا يمكن أن يمرّ بها **تانوس** أبدًا، فما يزال لم يسامحني، وأعرف أنني سأكون في خطر بدني إذا ما رأى ابنه على ظهر حصان ملعون.

قضيتُ أيضًا جزءًا كبيرًا من وقتي في مصنع الأسلحة بمعبد الفرعون الجنائزي، حيث ساعدني أفضل الحرفيين في العالم على بناء عربتي الأولى، وفيه، بينما أعمل على تصميم هذه المركبات، ابتدعت الأدوات التي صارت لاحقًا خطنا الدفاعي الأول ضد عربات **الهكسوس**. كانت ببساطة عصيًّا طويلة مدببة من الطرفين، ورؤوسها مقساة بالنار، يحمل كل من مشاتنا عشرًا منها في حزمة على ظهره، وعند اقتراب سرب خيالة، يغرزون العصي

في الأرض بزاوية تجعل رؤوسها على مستوى صدور الخيول، ثم يتخذ رجالنا مواقعهم وراء حاجز الرماح اللئيم هذا ويطلقون السهام عليهم.

عندما عرضتُ ذلك **لتانوس**، ألقى ذراعه حول كتفيَّ للمرة الأولى منذ شجارنا بخصوص الخيول وقال: «حسنًا، على الأقل لم يصبك خرف الشيخوخة بعد»، وعرفتُ أن ذنبي قد غُفِرَ جزئيًا على الأقل.

وفسدت الأرض التي كسبتها معه بكاملها تقريبًا بسبب عربة **تايتا**.

أتممت وعمالي أخيرًا العربة الأولى. جعلتُ حاجبتها وجانبيها من الخيزران المفلوق والمجدول كما تجدل السلال، أما محور العجلات فمن خشب السنط، وقلوبها من البرونز المصبوب يدويًا والمشحَّم بدهن الضأن، وأطَّرْت العجلات ذات القضبان بإطارات برونزية، فكانت خفيفة حتى إن بمقدور سائقَين رفعها وحملها فوق الأراضي الخربة حيث لا يمكن للخيول جرها. أدركتُ شخصيًا أنها تحفة، وسماها العمال عربة **تايتا**، ولم أعترض على الاسم.

طقَّمتُ أنا **وهُوي** اثنين من أفضل خيولنا، **صابرة ونَصل**، وأخذنا عربة **تايتا** في جولتها الأولى. احتجنا إلى بعض الوقت لنتعلم التحكم بالعدَّة، لكننا تعلمنا بسهولة، وكانت الخيول قد وُلدت وشبَّت على هذا فأرشدتنا. وفي آخر الأمر، صرنا نحلِّق فوق الأرض، ونندفع منعطفين انعطافات حادة بالسرعة القصوى.

عندما رجعنا إلى الإصطبلات منتشيين حماسة وتهلُّلًا لإنجازنا، كان كلانا مقتنعًا أن عربتنا أسرع وأطوَع من أي عربة يمكن **للهكسوس** مواجهتنا بها. بقينا عشرة أيام بتمامها ندرس اختراعي هذا ونعدِّله ونعمل على أضواء السرج في مصنع الأسلحة إلى الهزيع الأخير من كل ليلة، حتى صرت راضيًا عنها بما يكفي لأريها **لتانوس**.

جاء **تانوس** إلى الإصطبلات بامتعاض متجهِّم، وحرَن عن الصعود إلى حجرة العربة من ورائي.

تذمَّر قائلًا: «إن ثقتي ببِدعتك هذه كثقتي بتلك البهائم اللعينة التي تجرها»، لكنني كنتُ مقنعًا، فصعد أخيرًا على لوح القدم بحذر شديد وانطلقنا.

أبقيتُ الخيول في البداية على خبَبٍ هيِّن، حتى شعرتُ أنه بدأ يسترخي ويستمتع رغمًا عنه بالجولة المنعشة، ثم دفعتهما إلى المنتصف وقلت بابتهاج: «شاهد سرعتها، يمكنك الانقضاض على العدو قبل أن يدرك وجودك».

ضحك **تانوس** للمرة الأولى، وشجعتني ضحكته: «بسفنك تحكم النهر، وبهذه العربة تحكم الأرض، وبين الاثنتين، تحكم العالم. لا يمكن لشيء الوقوف في وجهك». كنتُ حذِرًا أن لا أستهين بسفنه الحبيبة، وأن لا أقارن مقارنات غير محبذة.

صاح بين خفق الريح وخبط الحوافر: «أهذه أقصى سرعتك؟ إن ***أنفاس حورس*** أسرع إذا ما واتتها ريح مناسبة»، وكان قوله كذبًا وتحديًا.

فحذرته: «تمسَّك بالجانبين وخذ نفسًا عميقًا، سأعلو بك إلى حيث تحلق العِقْبان»، وأطلقت العنان **لصابرة ونَصل**.

لم يسافر إنسانٌ سفرًا أسرع قط. لفحت الريح أعيننا، وساقَت الدموع المنسكبة منها خلفًا إلى شعورنا.

صرخ **تانوس** حماسة: «يا لأنفاس **إيزيس** العذبة! إن هذا لـــ...»، ولم أعرف قطُّ ما كان هذا في رأيه، ذلك أنه لم ينهِ جملته، فقد اصطدمت إحدى عجلاتنا بصخرة في تلك اللحظة وانفجر الإطار.

انقلبت العربة وتشقلبت، وقُذفتُ **وتانوس** عاليًا منها. هبطتُ بعد ذلك على الأرض بقوة تكفي أن تشلَّني، لكنني كنتُ منشغلًا بالتفكير بتأثير هذه الحادثة فيه، وبانتهاء أحلامي وخططي، حتى إنني لم أشعر بألم.

وثبتُ واقفًا ورأيتُه يحبو على ركبتيه الداميتين بعدي بعشرين خطوة. كان مغطى بالتراب ويبدو أنه فقد نصف جلد وجهه، لكنه حاول الحفاظ على وقاره وأجبر نفسه على الوقوف منتصبًا، ثم عاد يترنح إلى العربة المحطمة ويعرج بشدَّة.

وقف برهةً طويلة يحدق إلى بقايا إبداعي المحطم، ثم أطلق جؤارًا فجأة كثور مجروح، وركلها ركلة هائلة قلبتها من جديد كأنها لعبة أطفال، ثم استدار على عقبيه من دون أن يلقي نظرة باتجاهي حتى، ومضى يعرج. لم أره لأسبوع بعدها، وعندما التقينا لم يذكر أيٌّ منا العربة.

أظن أن هذه الحادثة كانت لتنهي المسألة، وما كنا لنجمع أول أسراب عرباتنا، لولا حقيقة أن عناد مولاتي وكبرياءها يفوقان عناد حبيبها وكبرياءه حتى. فقد أعطتني الأمر الأوَّلي، وأبَت التراجع عنه، وعندما حاول **تانوس** التحايل عليها لتتراجع عنه، لم يُفد ذلك إلا جعل موقفي أقوى، فأعدتُ **وُهوي** صناعة العربة في ثلاثة أيام، وصنعنا أخرى مطابقة لها.

وبحلول وقت إنهاء المحنِّطين في المصلًى الجنائزي أيام التحنيط الملكي الطقسية السبعين، كنا قد جهزنا أول أسرابنا وقوامه خمس عشرة عربة، ودربنا سائقين لها.

***

منذ عدنا إلى قصر **مِمنون** من هزيمتنا في معركة **أبنوب** ومولاتي منشغلة بشؤون الدولة التي فرضتها عليها الوصاية، وتقضي معظم ساعاتها مع وزرائها ومستشاريها.

وهنا أثمر التدريب الأوَّلي الذي دربتها عليه في قصر **إلفنتين**، فقد علمتُها كيف تمشي بشديد الحذر والدقة عبر متاهة السلطة والنفوذ، ولم يكُن عمرها يجاوز الحادية والعشرين، لكنها كانت ملكة حقًّا، وحكمت كملكة.

قل كثيرًا أن تواجه مشكلة تعتاص عليها أو تربكها، وكانت ترسل في طلبي آنذاك، فأترك عملي في مصنع الأسلحة أو الإصطبلات أو المكتب الصغير الذي خصصته لي في آخر الرواق من حجرة الاجتماع الخاصة بها وأهرع إلى جوارها.

بين الفترة والأخرى، كنتُ أقضي أيامًا جالسًا أسفل عرشها أوجهها في اتخاذ بعض القرارات العسيرة، ومرة ثانية، أنجدتنا قدرتي على قراءة شفاه الناس من دون سماع كلامهم ونفعتنا أيَّما نفع، إذ لم يدرك بعض النبلاء في مؤخر الحضور أنني، وبينما يتآمر ويخطط مع جاره، أنقل كلماته بدقة لمولاتي، فاكتسبتُ سريعًا سمعة الحصافة والتبصُّر، ولم يتمتع أي منا بالكثير من الراحة في تلك الأيام الكالحة المُقلقة.

طالت ليلاتنا رغم امتلاء نُهُرنا، وامتَدَّت مجالس الحرب والدولة المطوَّلة حتى وقت متأخر بعد منتصف الليل. كنا لا نكاد نتجاوز أزمة حتى تلوح أخرى في الأفق، وفي كل يوم يزداد تهديد **الهكسوس** خطورة، وتضعف قبضة **تانوس** على خط النهر.

تخللنا جميعًا بالتدريج شعور بالهلاك واليأس، فشحُت ابتسامات الرجال وغابت ضحكاتهم، وحتى لعب الأطفال غدا مكتومًا وهادئًا. ما كان علينا إلا النظر عبر النهر لنرى العدو هناك يحشد قواته ويزداد بطشًا كل يوم.

وبعد سبعين يومًا، تمت عملية تحنيط الفرعون. كانت جهودي الأولى في الحفاظ على جثمان الملك ناجحة، وقد أثنى عليَّ الرئيس الأعلى لهيئة المحنطين بحضور مولاتي، إذ لم يجد أي أثر للتعفن عندما أخرج جثة الملك

من برطمان الزيتون، وحتى كبده، وهو العضو الأكثر عرضة للنخر، كان محفوظًا جيدًا.

عندما سُجِيَ الملك على البلاطة الديوريتية في مُصلاه الدفنيّ، أقحم الرئيس الأعلى الملعقة في منخره وغرف مكنونات جمجمته المتخثرة التي قسَّاها التخليل فصارت بكثافة الجبن، ثم وُضع الملك، ولا يزال بوضعية الجنين، في حوض من ملح النطرون[1] بحيث لم يبقَ إلا رأسه خارج السائل الخشن. وعندما أُخرج من الحوض بعد ثلاثين يومًا، كانت الأنسجة الدهنية قد ذابت كلها، وتقشرت الطبقات الخارجية من الجلد، باستثناء جلد الرأس.

سجوه ثانية على البلاطة الحجرية المزركشة وأجلسوه فصار ممددًا، ثم مُسح وجُفف، ومُلئ بطنه الفارغ بحشوة من الكتان المنقوع بالصموغ والشمع، وأُغلق بالخياطة. في هذه الأثناء، جُففت أعضاؤه الداخلية ووُضعت في أوانيها الكانوبية المصنوعة من المرمر الحليبي، والتي خُتمت بعد ذلك.

في الأيام الأربعين الباقية، تُرك جثمان الملك ليجفَّ تمامًا. كانت أبواب المصلّى متراصفة مع اتجاه الريح الساخنة الجافة الشائعة لتهب على البلاطة الجنائزية، وفي نهاية الأيام السبعين، صار جثمانه جافًا كالحطب.

أُعيدت أظفاره، التي نُزعت قبل أن يُنقع في حوض النطرون، إلى مكانها وثُبتت في موضعها على أصابع يديه وقدميه بخيوط دقيقة من الذهب. ثم رُبطت الطبقة الأولى من الضمادات الكتانية البيضاء في مكانها من حول جسده، تاركة رأسه وعنقه مكشوفين. كان الربط نيِّقًا ومُعقدًا، فتصالبت الضمادات وتقاطعت في أنماط متقنة، وتحتها، وُضعت تمائم وتعاويذ الذهب والأحجار الكريمة، ثم نُقِعَتْ الضمادات بالورنيش والصموغ التي جفت فصارت بقساوة الأحجار.

ثم حان وقت مراسم فتح الفم، التي يؤديها تقليديًّا أقرب أقرباء الفرعون المتوفى، ولأن مِمنون أصغر سنًّا من تأدية هذا الدور، استُدعي وصيُّه بدلًا منه.

ذهبتُ ومولاتي إلى المُصلى معًا في عتمة الفجر، وشهدنا إزالة الملاءة الكتانية التي تغطي الملك. كان رأس الفرعون محفوظًا حفظًا إعجازيًّا، وكانت عيناه مغمضتين وتعابيره جليلة، وقد حمَّر المحنطون شفتيه وزينوا وجهه بمساحيق التجميل، فبدا في موته أفضل من حياته.

(1) النطرون: معدن طبيعي يتكون من مزيج من ملح كربونات الصوديوم عشاري الهيدرات مع بيكربونات الصوديوم. (المترجم).

وبينما يجهز كاهن آمون رع الأعلى والرئيس الأعلى لهيئة المحنطين أدوات المراسم، غنينا الرقية الحامية من الموت الثاني:

هو الانعكاس لا المرآة.
هو الموسيقى لا القيثارة.
هو الحجر لا الإزميل الذي يشكّله.
سيعيش إلى الأبد.
ولن يموت ثانية.

ثم ناول الكاهن الأعلى مولاتي الملعقة الذهبية وأخذها من يدها إلى البلاطة الجنائزية، فانحنَت فوق جثمان الفرعون ووضعت ملعقة الحياة على شفتيه المحمَّرتين.

أفتح شفتيك حتى تتكلم مرة أخرى،
أفتح منخريك لتتنفس.

رنَّمت الكلمات ثم مسَّت جفنيه بالملعقة.

أفتح عينيك حتى تبصر مرة أخرى بهاء هذا العالم، والعالم السفليّ عالم الآلهة حيث ستقطن من هذا اليوم فصاعدًا.

ثم لمسَت صدره الملفوف بالملعقة.

أسرِّع قلبك، حتى تعيش إلى الأبد
لن تموت مرة ثانية.
ستعيش إلى الأبد!

ثم بينما يربط المحنطون رأس الفرعون بعصابات الضماد الأنيقة ويطلونها بالصمغ انتظرنا، فقولبوا الضمادات المنقوعة بالصمغ على شكل وجهه تحتها، وأخيرًا، وضعوا فوق وجهه المضمَّد المحجوب أول الأقنعة الجنائزية الأربعة.

كان هذا القناع الجنائزي نفسه الذي شاهدناه يُصاغ من الذهب النقي، فقد جلس الملك في حياته أمام النحات في حين يعمل عليه، لذا كان القناع نابضًا بالحياة على نحو مذهل. بدَت الأعين المصنوعة من المرو الشفاف اللامع والسَّبج كأنها تحدق إليَّ بكل الإنسانية التي امتلكها الرجل الراقد تحت القناع فيما مضى. وانتصب رأس الصل الفرعوني من الجبهة النبيلة، ملكيًّا ورمزًا باطنيًّا.

ثم وُضعت المومياء الملفوفة في النعش الذهبي الداخلي، الذي خُتم ووُضع في نعش ذهبي ثانٍ نُقش على غطائه قناع موت آخر. كان نصف الكنز الذي استُرد من مخزن السيد **إنتف** قد خُصص لصناعة هذا الوزن الهائل من المعادن والجواهر الثمينة.

وكان مجموع النعوش سبعة، بما فيها الناووس الحجري العملاق المنتصب على الزلاجة الذهبية، التي تنتظر مستعدة لتحمل الفرعون على طول الطريق المعبدة إلى قبره في التلال الكئيبة، لكن مولاتي رفضت منح ذلك موافقتها.

- لقد قطعت عهدًا مقدسًا. لا يمكنني وضع زوجي في قبر قد ينهبه برابرة **الهكسوس**. سيرقد الفرعون هنا حتى أتمكن من البر بوعدي له. سأجد له قبرًا آمنًا يرقد فيه إلى الأبد. لقد أعطيت كلمة شرف أن أحدًا لن يُقلق راحته.

***

ثبتت حكمة قرار الملكة **لوستريس** بتأجيل الدفن بعد ثلاث ليلات، إذ بذل **الهكسوس** جهدًا عازمًا لعبور النهر، وبالكاد نجح **تانوس** في صدهم. حاولوا محاولة عند مساحة غير محمية من النهر تبعد ميلين شمال **إسنا**، فجعلوا خيولهم تسبح جماعةً ثم تبعوها بمجموعة من القوارب الصغيرة التي حملوها برًا من **طيبة** لإخفاء نواياهم عنا.

ونجحوا في الحقيقة بإقامة مربط لهم على الضفة الغربية قبل أن يسرع **تانوس** بقوادسه إلى تلك النقطة، لكنه وصل قبل أن يتمكنوا من تنزيل عرباتهم وتطقيم خيولهم، فدمَّر قواربهم والعربات لا تزال على متنها تاركًا نحو ثلاثة آلاف **هكسوسيٍّ** على جانبنا من النهر، ثم تبعثرت خيولهم وانطلقت تعدو إلى الليل عندما هجم جُند **تانوس** هجمتهم الأولى.

كان **الهكسوس** من دون عرباتهم على كف المساواة مع جنودنا، لكن لا مفر أمامهم، لذا قاتلوا بعزيمة ضارية. ومن حيث الأعداد فكنا متعادلين تقريبًا، ذلك أن **تانوس** لم يستطع جلب إلا فوج واحد فقط، بينما ظلت بقية جيشه منتشرة انتشارًا هزيلًا على طول الضفة الغربية. ثم احتدم اقتتال دمويٌّ شرس شوّشته ظلمة لا تضيؤها إلا المراكب المحترقة التي أشعلها **تانوس** على الشاطئ.

وبمحض أكثر المصادفات جنونًا، أو بوكزة أخرى من الآلهة، كنت قد جلبت **وهُوي** سربنا الصغير المكون من خمس عشرة عربة وسائقيها الأغرار إلى **إسنا** من أجل تمارين المناورة. وفي الحقيقة، فقد قدناها لعشرين ميلًا بعيدًا عن **طيبة** حتى نتفادى استهجان **تانوس** وتدخله في المقام الأول.

كنا معسكرين في بستان التمر الهندي المقدس بجوار معبد **حورس بإسنا**، وقد أنهكني يوم طويل من العدو والمناورة بالسرعة القصوى. وعندما عدنا إلى المعسكر، خرج **هُوي** ببرطمان من نبيذ لذيذ لذة استثنائية أفرطتُ إلى حد ما في تذوقه، لذا كنتُ في سبات عميق عندما ترنح إلى خيمتي وهزني موقظًا إياي.

قال لي: «ثمة نيران تشتعل على الضفة أسفل النهر، وعندما تتبدل الريح، يمكن سماع أصوات التهليل، وأخال أنني سمعتُ نشيد معركة الزرق منذ قليل. أظن أن معركة تدور هناك».

كنتُ مختل التوازن مثله وطائشًا بفعل النبيذ عندما صحتُ له أن يستنهض المعسكر ويطقِّم الخيول. وكنا لا نزال مبتدئين، فانبلج الفجر تقريبًا قبل أن نسيطر على الخيول ونلجمها في أماكنها. ثم رحنا، في الانجراف البارد لشبّورة النهر وارتعاشة الفجر الدامس، نمشي خببًا على طول الطريق الشمالي في رتل ثنائي من العربات. قُدتُ عربة المقدمة وقاد **هُوي** عربة المؤخرة، وكانت عرباتنا الخمس عشرة قد باتت ثلاث عشرة بعد تدريب اليوم السابق، ذلك أنني لم أنجح بعد في إحكام صناعة عجلاتي ذات القضبان،

فظلت تميل ميلًا مقلقًا إلى التشظي عندما تسير بسرعة، وصار نصف قوتي تقريبًا متعطلًا.

جعلني مرور الريح على صدري العاري أرتعش ثانية، فأبطَل ما حشده النبيذ من شجاعتي، وكنت بدأت آمل أن يكون **هُوي** مخطئًا وقتما جاءت فجأة من بعيد عاصفة صياح وتهليل واضحة، وسمعتُ صليل البرونز على البرونز الذي لا يمكن أن يعني إلا شيئًا واحدًا، فحالما يسمع المرء أصوات المعركة مرة، لا يمكنه نسيانها أو إخطاؤها بسهولة. ثم اتخذ ممر الفلاحين الوعر الذي نسلكه على طول ضفة النهر منعطفًا إلى اليسار، وعندما خرجنا منه، امتدت الساحة منبسطةً أمامنا.

كانت الشمس تعلو الأفق بقليل، وقد أحالت سطح النهر صفيحة متلألئة من النحاس المطروق تؤلم الأعين. وكانت سفن **تانوس** راسية قبالة الشاطئ تمامًا، محتشدة بالقرب منه في محاولة لتقريب النبَّالة على متونها حتى يصير **الهكسوس** في مرماهم، وقطع طريق تقهقرهم عبر النهر.

اتخذ فوج **الهكسوس** المحاصر وقفته في منتصف حقل ذرة خضراء بارتفاع الركبة، وشكَّل عناصره دائرة تواجه وجوههم فيها الخارج، متراصين كتفًا لكتف، بتروس متشابكة ورماح منشورة إلى الأمام. عندما خرجنا إلى مرمى البصر، كانوا قد صدوا لتوهم محاولة أخرى من محاولات جنود **تانوس** لكسر الدائرة، وتراجع الفوج المصري ليعيد الاحتشاد، تاركًا الموتى والجرحى مبعثرين حول محيط دائرة العدو.

لستُ جنديًا رغم أنني كتبتُ لفائف حول إدارة المعركة، وقبلتُ رتبة قائد الخيول الملكية التي فرضتها عليَّ مولاتي بشديد الكُره، إذ كنتُ أنوي مجرد إحكام صناعة عربتي، وتدريب أول سرب، ثم تسليم الأمر **لهُوي** أو شخص غيره أكثر ملاءمة للوظائف الحربية.

كنتُ أشعر بالبرد ولا أزال نصف ثمل عندما سمعتُ صوتي يعطي الأمر بالانتشار في تشكيلة رأس السهم، الحركة التي تمرننا عليها في اليوم الماضي، وانتشرت العربات التي تبعتني إلى كلا الجانبين بكفاءة مقبولة. وجدت نفسي منتبهًا انتباهًا شديدًا إلى صوت الحوافر على الأرض الطرية، وقرقعة أطقم العربات، وصرير العجلات الدائرة على قلوبها المؤطرة بالمعدن، وجلجلة الرماح القصيرة في حين يسحب سائقو العربات السهام من الكنانات، ثم

نظرت يمنةً ويسرة لأتفقَّد انتشار سربنا الصغير بقيادة عربتي في التشكيلة التي أخذتها عن **الهكسوس**، وأخذت نفسًا عميقًا.

صرختُ: «فليتقدم السرب! (بصوت جعله الخوف حادًا)، بالسرعة القصوى إلى الأمام!».

وما كان عليَّ إلا رفع يدي اليسرى القابضة على اللجُم لتنطلق **صابرة ونصل** قُدمًا، وكدتُ أسقط خلفًا، لكنني قبضتُ على الحاجبة بيدي الحرة ومضينا مباشرة إلى دائرة **الهكسوس**.

أخذت العربة تتنطط وترتجُّ تحتي على الأرض الوعرة المحروثة، ثم نظرتُ من فوق خلفيتيَّ حصانيَّ المندفعين فرأيتُ جدار تروس **الهكسوس** المنيع الملتمع تحت شمس الصباح المبكر يقترب أكثر مع كل قفزة نقفزها.

أخذ الرجال يوَعوعون ويهللون لإخفاء ذعرهم، فوعوَعتُ معهم مثل كلب ضالٍّ تحت بدر تمام، وبينما تنخر الخيول وتصهل، رفعت **صابرة** ذيلها طويل الشعر فجأة وراحت تضرط على إيقاع قفزها، فرأيتُ ذلك فكاهيًّا للغاية، واستحالت وعوَعات خوفي ضحكًا صارخًا، ثم سقطت الخوذة التي استعرتُها من **هُوي**، وكانت أكبر من رأسي، وطيَّرت الريح شعري من ورائي.

كانت **صابرة ونصل** أسرع زوج في السرب، فسبقَتْ عربتنا بقية التشكيلة، وحاولتُ إبطاء اندفاعنا بشدّ اللجُم، لكن **صابرة** لم تقبل، إذ كان ابتهاجها واضحًا، وغلبتها الحماسة كما غلبتنا، ثم خفضت عنقها وانطلقت آخذةً إياي معها.

اخترقنا صفوف المشاة المصرية المتراجعة العائدة من الهجمة الفاشلة على دائرة **الهكسوس**، فتفرقوا مبتعدين عن طريقنا وأخذوا يحدقون إلينا ببلاهة ذاهلة.

صرختُ ضاحكًا: «هيا! سنفتح لكم الطريق!» فاستداروا وتبعونا عودًا إلى العدو بأقصى سرعة. سمعتُ النافخين من خلفي يطلقون لحن الهجوم، وبدا أن الأبواق الملعلعة تهمز خيولنا، ثم رأيتُ لواء **تانوس** يلوح إلى يميني، وتعرفتُ خوذته ذات القنزعة منتصبة أعلى من بقية الرجال حوله.

صحتُ عليه بينما نمرُّ بجواره: «ما رأيك ببهائمي اللعينة الآن؟»، وضرطت صابرة مرة ثانية فجددتْ نوبات ضحكي المتوترة.

كانت العربة إلى يساري تجري بمحاذاتي تقريبًا، ثم تكسرت إحدى عجلاتها تحت الإجهاد فتشقلبت رأسًا على عقب قاذفةً سائقيها ومرسلة الحصانين أرضًا يصرخان، لكن بقيتنا تابعت من غير إبطاء.

صار الصف الأول من الأعداء قريبًا حتى إنني رأيت عيونهم تحدق إليَّ من فوق حواف تروسهم، وأخذت سهامهم تهسهس حول أذنيَّ. تبيَّنتُ بوضوح أشكال الوحوش والعفاريت المنقوشة على خوذهم المعدنية الطويلة، ورأيتُ قطرات العرق تلتمع على لحاهم المجدولة المزيّنة بالشرائط، وسمعتُ هتاف صيحاتهم الحربية، ثم اصطدمنا بهم.

وثب حصاناي معًا إلى حاجز التروس فتهشَّم أمام وزن هجومنا وحدَّته. رأيتُ رجلًا يُرمى على ارتفاع رأسه، وسمعتُ صوت تكسُّر عظامه كصوت الضِّرام في النار. وعلى صفيحة القدم من ورائي، أخذ النبَّال يعمل عملًا قاتلًا، فقد اخترته على أنه أفضل المجندين كلهم، وأثبت صحة اختياري في ثبات وقفته وإمطاره الأعداء بالنبال.

وفي أعقابنا، شقت العربات التالية طريقها من خلال الثغرة التي فتحناها، وبالكاد تمهَّلنا فيما نخترق دائرة **الهكسوس** ونخرج من طرفها الآخر، ثم ندور في ثلاثات ونرجع إليهم.

استغل **تانوس** اللحظة ورمى بمشاته في الفجوة التي شققناها، فتفرَّقت تشكيلة **الهكسوس** إلى زمر رجال يكافحون، ثم انهارَت هذه الزمر بدورها، فسرى بهم الهلع وانفضوا راكضين إلى النهر، وحالما صاروا في مرمى السهام، أرسل النبَّالة على متون قوادسنا سحبًا منها عليهم.

رأيتُ أمامي ثُلة من محاربي **الهكسوس** ما زالت تقاتل ظهرًا لظهر وتصدُّ رجالنا، فحرفتُ العربة وقدتها باتجاههم بالسرعة القصوى، وقبل أن أصل إليهم، انفجرت عجلتي اليمنى وتشظَّت، وانقلبت قشرة العربة الخفيفة، فحلقتُ في الجو ثم هبطتُ على الأرض هبطة تُمزِّق الأحشاء. خبط رأسي أولًا، وامتلأت عيناي بالنجوم ونيازك الضوء الباهر، ثم لا شيء إلا الظلام.

استيقظت تحت الظُّلَّة على متن سفينة **تانوس** قائدة الأسطول. وجدتُ نفسي مستلقيًا على فراش من جلود الغنم، **وتانوس** منحنٍ فوقي، وحالما رآني استعدتُ وعيي أخفى تعابير الخوف والقلق التي لوَّت ملامحه.

وأجبر نفسه على الابتسام: «أيها الأحمق المجنون العجوز! علامَ كنتَ تضحك بحق اسم **حورس**؟».

حاولت الجلوس، لكن رأسي آلمني ألمًا شنيعًا وأننتُ، ثم قبضتُ على ذراعه عندما تذكرتُ كل شيء.

- **تانوس**، خيول العدو التي سبحت إلى الطرف الآخر الليلة الماضية.. يجب أن أحظى بها.

فطمأنني: «لا تُقلق رأسك المُحطَّم، لقد أرسلتُ **هُوي** بالفعل ليجمعها. إن كنتُ سأنال خمسمئة من بدعكِ هذه لفرقة العربات الجديدة في جيشي، فسأحتاج إلى ألف من هذه البهائم اللعينة لتجرها. غير أن عجلاتك العصريَّة هذه أخطر علينا من فوج من **الهكسوس**. لن أركب معك مرة أخرى حتى تجد حلًا لها».

للوهلة الأولى، لم يخترق الأمر جمجمتي المتألمة، ثم أدركت أنه قد حدث. لقد قمع **تانوس** كبرياءه وأذعن لي. سيصير سرب عرباتي اليتيم جزءًا من الجيش الدائم أخيرًا، وسيعطيني الرجال والذهب لبناء خمسمئة عربة أخرى. حتى إنه سيركب معي ثانيةً، شريطة أن أصلح عجلاتي.

لكن ما ملأني غبطةً بحق هو أنه سامحني أخيرًا، وعدنا صديقين.

***

كان نجاح عرباتي في **إسنا** وشعور الثقة الذي غرسه فينا جميعًا قصير الأجل، وفي سرِّي، توقعتُ ما سيحدث تاليًا وخشيته، ذلك أنها الحركة المنطقية للعدو، وكان ينبغي **لساليتيس** والسيد **إنتف** أن يتخذاها قبل ذلك بكثير.

كنا نعرف أن **ساليتيس** عندما اجتاح المملكة السفلى، استولى على معظم أسطول المدَّعي الأحمر سليمًا غير ممسوس، وكانت هذه السفن تهجع مهجورة في مواني **مِنف وتانيس**[1] وفي **الدلتا**. وبأي حال، لا بدَّ أن ثمة جموعًا هائلة من المصريين المنشقِّين عن بحريَّة الغاصب متاحة **لساليتيس**، وحتى إن لم يكن ذلك، فيمكنه بكل تأكيد تجنيد ما يكفي من البحارة السوريين

(1) اسمها اليوم صان الحجر، وهي إحدى مدن مركز الحسينية محافظة الشرقية في مصر. (المترجم).

المرتزقة في غزة **ويوبا**[1] وبقية الموانى على طول الشاطئ الشرقي للبحر الكبير، لتشغيل عدة مئات من هذه القوادس والناقلات.

أدركتُ أن هذا سيحدث لا محالة، لكنني امتنعتُ عن تحذير **تانوس** أو مولاتي من هذا الترجيح، لأنني لم أرغب بزيادة الغمِّ ويأس الناس، إضافة إلى أنني فتَّشتُ بعزم باحثًا عن صدٍّ لهذه الحركة عندما يجريها **ساليتيس وإنتف** فلم أستطع التفكير في شيء، وما دامت عاجزًا عن تسكين هذه المخاوف، ارتأيتُ أن من الأفضل الاحتفاظ بها لنفسي.

عندما حدث أخيرًا، ونبهنا جواسيسُنا من الضفة الشرقية المواجهة **لأسيوط** إلى اقتراب هذا الأسطول من **الدلتا**، هُرِعَ **تانوس** بسفنه شمالًا ليلاقيه. كان أسطوله متفوقًا على ما جمعه **ساليتيس وإنتف** من كل النواحي، لكن المعركة التي خاضوها استمرَّت أسبوعًا تقريبًا قبل أن يتمكن **تانوس** من تدميرهم أو ردِّهم إلى **الدلتا**.

إلا أن **ساليتيس** كان قد صفَّ ناقلاته خلف ستارة القوادس المحاربة، وبينما لا تزال معركة النهر محتدمة، تمكن من تحميل فوجين كاملين تقريبًا من الخيول والعربات، ونقلها بسلامة إلى جانبنا من النهر، من دون أن تتمكن قوادسنا من مسِّهم.

تألف هذان الفوجان من نحو ثلاثمئة من أسرع عربات **ساليتيس** الحربية، ونخبة فِرقه التي يقودها بنفسه. وصل إلى ضفتنا أخيرًا، ولم يعُد ثمة ما يمكنه إيقافه وعرباته قادمة تتدحْرَج جنوبًا على امتداد جانبنا من النهر. لم يكُن بوسع قوادسنا فعل شيء إلا محاولة مجاراة سحب الغبار التي يثيرها بينما ينطلق مسرعًا إلى معبد **ماموس** الجنائزي وكنوزه.

***

استدعت الملكة **لوستريس** مجلسها الحربي عندما وصلت أنباء عبور **الهكسوس** إلى قصر **مِمنون**، ووجهتْ سؤالها الأول **لتانوس**: «الآن وقد عبر البربري النهر، أيمكنك إيقافه؟».

فأجابها صراحة: «ربما يمكنني إبطاؤه، فقد بتنا نعرف الكثير عنه. يمكننا انتظاره وراء الأسوار الحجرية، أو وراء سواتر من عصيٍّ مدببة زوَّدَنا **تايتا**

(1) يوبا: أقدم تسجيل لاسم «يافا»، وجاء باللغة الهيروغليفية من عهد تحتمس الثالث. (المترجم).

بها. لكن يجب أن لا نحاربه، فعرباته سريعة حتى إنه قادر على الالتفاف حول مواقعنا مثلما فعل في **أسيوط**. لا، لا يمكنني إيقافه».

ثم نظرت الملكة إليَ: «ماذا عن عرباتك يا **تايتا**؟ ألا يمكنها محاربة **الهكسوس**؟».

- لديَّ يا صاحبة الجلالة أربع عشرة عربة يمكنني إرسالها لملاقاته، ولديه ثلاثمئة. عرباتي أسرع من عرباته، لكن رجالي لا يضاهون رجاله مهارة وتدريبًا. ثمة مسألة العجلات أيضًا، إذ لم أحكم صنعها بعد، لذا سيقهرنا **ساليتيس** ويدمرنا ببالغ السهولة. إذا ما مُنِحْتُ الوقت والمواد، فيمكنني صنع عربات أحدث وأفضل بعجلات لا تتكسَّر، لكن لا يمكنني استبدال الخيول. لا أجرؤ على المجازفة بالخيول، فهي أملنا الوحيد بالنصر النهائي.

وبينما نتناقش، وصل رسول آخر، وهذه المرة من الجنوب. كان قد فرَّ إلينا راكبًا التيار والرياح، لذا أنباؤه عمرها يومٌ واحد فقط، فأمر **تانوس** بإدخاله إلى حجرة المجلس، وخرّ الرسول على ركبتيه أمام الملكة **لوستريس**.

دعاه **تانوس**: «تكلم أيها الرفيق، ماذا تحمل في جعبتك؟».

فتلعثم الرسول خوفًا على حياته: «يا صاحبة الجلالة الإلهية، بينما كان أسطولنا منشغلًا في **أسيوط**، عبر البربري مرة أخرى عند **إسنا**. جعلوا الخيول تسبح مثلما فعلوا قبلًا، لكن هذه المرة لم يكن أيٍ من قوادسنا مستعدًّا لردهم إلى قواربهم، فعبر فوجان من **الهكسوس** وطقَّموا خيولهم وهم الآن في طريقهم على غمامة من غبار بسرعة السنونو. سيصلون في ثلاثة أيام».

لم يتكلم أيُنا حتى أرسل **تانوس** الرجل وأمر أن يطعموه ويعتنوا به، وقبَّل الرسول، الذي كان يتوقع أن يُقتل، صندل الملكة **لوستريس**.

عندما صرنا وحدنا، قال **تانوس** بلين: «عبرَت أربعة من أفواج **ساليتيس** النهر. ستمئة عربة. لقد انتهى الأمر».

- لا! (ارتجف صوت مولاتي بقوَّة إنكارها)، لا يمكن للآلهة أن تهجر مصرنا الآن. لا يمكن أن تفنى حضارتنا. لدينا الكثير لنقدمه للعالم.

وافقها **تانوس**: «يمكنني الاستمرار بالقتال، لكن سيظل الأمران سيَّان في النهاية، لا يمكننا الانتصار على العربات».

عادت مولاتي بنظرها إلي: «**تايتا**، لم أطلب منك هذا من قبل، لأنني أعرف تكلفته الغالية عليك، لكن لا بدَّ لي من طلبه الآن قبل أن أتخذ قرارًا نهائيًا. أطلب منك إعمال متاهات **آمون رع** من أجلي. يجب أن أعرف ما تطلبه الآلهة منا».

فحنيتُ رأسي إذعانًا وهمست: «سأجلب صندوقي».

***

كان الموقع الذي اخترته للتكهُّن المقدسَ الداخلي لحرم **حورس** في قصر **مِمنون** نصف المكتمل. لم يكُن الحرَم قد خُصص للإله بعد، ولم تُرفع صورته فيه، لكنني كنتُ واثقًا أن **حورس** قد شمل البناء بالفعل بسلطانه الخيِّر.

قعدت مولاتي أمامي **وتانوس** إلى جانبها، وبينما أشربُ جرعة الساحرات لأفتح عيني روحي، *الكا* الخاصة بي راقبتني مسحورة، المخلوق الصغير الشبيه بالعصفور الذي يعيش في قلب كل منا، والذي هو أنانا الثانية.

ثم فرشتُ المتاهات العاجية أمامهما وطلبتُ من كليهما تمسيدها وتلمُّسها، ليهباها روحهما وروح الأمة التي يمثلانها، مصرنا هذه. وبينما أراقبهما يقسمان أكداس القطع العاجية، شعرتُ بالعقار يزداد قوةً في دمي، وتباطأ نبض قلبي مع دبيب الموت الصغير فيَّ.

أخذتُ المتاهتين المتبقيتين من الكدسة الأخيرة، وضممتهما إلى صدري. بدأت حرارتهما تزداد على جلدي، وحثتني غريزتي على إبعادهما عن الظلمة التي شعرت أنها تغلبني، لكنني بدلًا من ذلك استسلمتُ لها وتركتها تحملني بعيدًا.

ثم سمعتُ صوت مولاتي، كأنه قادم من مسافة بعيدة: «ما الذي سيحل بالتاج المزدوج؟ كيف يمكننا مقاومة البربري؟».

فبدأت الرؤى تتشكل أمام عينيَّ، وحُملتُ إلى الأيام التي لم تأتِ بعد، ورأيتُ الأحداث التي لم تحدث بعد.

كان شعاع شمس الصباح ينساب من خلال المَنوَر في السقف ويضرب مذبح **حورس** عندما رجعتُ أخيرًا من رحلتي البعيدة رفقة المتاهات، وكنتُ

مرتجفًا وجائش النفس بفعل العقار المُهلوِس، ودائخًا ومرتعدًا بفعل ذكريات المشاهد الغريبة التي رأيتها.

ظلت مولاتي و**تانوس** معي في خلال الليلة الطويلة، فكان وجهاهما القلِقان أول ما رأيته عند عودتي، لكنهما كانا مشوهين ومتهدجين حتى إنني خلتهما جزءًا من الرؤيا.

بدا القلق على مولاتي وهي تقول: «هل أنت بخير يا **تايتا**؟ كلِّمنا. قل لنا ماذا رأيت»، ولم تستطع إخفاء الشعور بالذنب لأنها أجبرتني على دخول متاهات **آمون رع** مرة أخرى.

قلت: «رأيتُ ثعبانًا (وكنتُ أسمع صدى صوتي غريبًا في أذنيَّ، كأنني أقف بجواري)، ثعبانًا أخضر عظيمًا يزحف عبر الصحراء».

رأيتُ الحيرة على وجهيهما، لكنني ما زلتُ لم أفكِّر في معنى الرؤيا، لذا لم أتمكن من تقديم أي تفسير.

ثم همستُ: «إنني ظمآن. حلقي جاف ولساني كصخرة غطَّاها الطحلب».

فجلب **تانوس** إبريق نبيذ صبَّه في زبدية، وشربتُ بنَهَم.

- لم أرَ نهاية لجسمه المتعرِّج. كان يتلألأ بلون أخضر تحت أشعة الشمس، ويزحف عبر أرض غريبة، يعيش فيها بشر طوال عُريٌ ووحوش غريبة بديعة.

سألتني مولاتي: «أرأيتَ رأس الثعبان أم ذيله؟»، فهززتُ رأسي.

ألحَّت عليَّ: «أين كنتَ؟ أين وقفتَ؟» كنتُ قد نسيتُ كم تتشوق وتستمتع برؤاي، وأي سرور يعمّها بتفسيرها.

أجبتُها: «كنتُ راكبًا ظهر الثعبان، لكنني لم أكُن وحدي».

- من كان معك؟

- كنتِ إلى جانبي يا مولاتي، و**مِمنون** معك. وكان **تانوس** إلى جانبي الآخر، والثعبان يحملنا جميعًا.

هتَفتْ بانتصار: «إنه النيل! الثعبان هو النهر. لقد تكهَّنتَ برحلة نذهب فيها عبر النهر».

ثم سأل **تانوس** بإلحاح: «في أي اتجاه؟ (وكان منتشيًا مثلها)، في أي اتجاه كان النهر يجري؟».

بذلتُ جهدًا لأتذكر التفاصيل: «رأيتُ الشمس تشرق عن يساري».

فصاح: «جنوبًا!».

وقالت مولاتي: «إلى إفريقيا».

- وأخيرًا، رأيتُ رأسي الثعبان أمامنا. كان جسد الثعبان ذو شعبتين، وعلى كل شعبة رأس.

تساءلت مولاتي جهارًا: «أللنيل فرعان؟ أم ثمة معنى أعمق للرؤيا؟».

فأوقف **تانوس** تخميناتها: «دعينا نسمع بقية ما بجعبة **تايتا**. تابع يا صديقي القديم».

وتابعتُ: «ثم رأيتُ الإلهة. كانت جالسة على جبل شاهق، وكلا رأسي الثعبان يعبدانها».

لم تتمكن مولاتي من تمالك نفسها: «أي إلهة رأيت؟ أخبرني بسرعة من كانت».

- كان لها رأس رجلٍ ملتحٍ لكن رفقة نهدي وفرج امرأة، ومن فرجها، ينبجس شلالا ماء عظيمان إلى فمي الثعبان مزدوج الرأس المفتوحين.

همست الملكة **لوستريس**: «إنها **حابي**، إلهة النهر، هي التي تخلق النهر داخلها وتصبّه خارجًا ليتدفق عبر العالم».

وساءلني **تانوس**: «ماذا رأيت أيضًا؟».

- ابتسمتْ الإلهة لنا، وأشرق وجهها بالحب والإحسان، ثم تكلمت بصوت كان صوت الريح والبحر، صوت الرعد على قمم الجبال البعيدة.

سألتني الملكة برهبة: «ماذا قالت لنا؟».

فرددتُ الكلام الذي ما زال يضرب كالطبول في رأسي: «قالت: «فلتأتِ طفلتي إليَّ. سأقوّيها حتى تنتصر ولن يفنى شعبي أمام البربريّ»».

قالت مولاتي ببساطة: «أنا طفلة إلهة النهر. كُرستُ لها عند ولادتي، وهي الآن تستدعيني، ويجب أن أذهب إلى حيث تسكن في نهاية النيل».

تفكَّر **تانوس**: «إنها الرحلة نفسها التي اعتزمتُها و**تايتا** ذات مرة، والآن تأمرنا الإلهة بها. لا يمكننا رفض أمرها».

تعهَّدتْ مولاتي: «أجل، علينا الذهاب، لكننا سنرجع، فمصرنا هذه بلادي، وهذه مدينتي، **طيبة** الجميلة ذات البوابات المئة. لا يمكنني تركها إلى الأبد. سأرجع إلى **طيبة**. أقسم بهذا وأدعو الإلهة **حابي** لتشهد قسمي. سنرجع!».

***

كان هذا القرار بالفرار جنوبًا فوق الجنادل، وإلى الأرض البرية المجهولة وراءها، قرارًا اتخذتُه **وتانوس** من قبل. أول مرة كانت للهرب من حنق الفرعون وانتقامه، أما الآن فهربًا من خصم أقسى، كأنما الآلهة عازمة على أن نخوض هذه الرحلة وتأبى الرفض.

لم يكن أمامنا إلا قليل الوقت للتحضير لترحال مصيريٍّ كهذا، **فالهكسوس** قادمون علينا من اتجاهين، وأخبرنا خفرنا أن جماعاتهم ستُرى من سطح قصر **مِمنون** في غضون ثلاثة أيام على أكثر تقدير.

سلَّم **تانوسُ كراتاس** قيادة نصف قوته المتاحة وأرسله لملاقاة الملك **ساليتيس** القادم بسرعة من **أسيوط** في الشمال ويُرجح أن يكون أول الواصلين إلى مدينة الموتى والقصر، وحمَّله أوامر بأن يخوض معركة جارية، ويؤخر **ساليتيس** بقدر المستطاع باستخدام العصي والدفاع عن كل نقطة محصنة، من دون أن يخاطر بأن يُغلب أو يُقطع عليه الطريق، وعندما تنفد قدرته على تأخيره، يخلي رجاله إلى القوادس.

ثم أخذ **تانوس** بنفسه النصف الآخر وزحف جنوبًا لخوض معركة مؤخِّرة أخرى ضد فرقة **الهكسوس** القادمة من **إسنا**.

وبينما يشتبكون، كان على مولاتي تحميل شعبنا وممتلكاتهم كلها على سفن أسطولنا الباقية. أوكلت هذه الوظيفة إلى السيد **ميركيسيت** لكنها بالطبع عينتني معاونه، ولم يكن السيد **ميركيسيت** قد قطع شوطًا لا بأس به من شيخوخته وحسب، بل اتخذ مؤخرًا زوجة عمرها ستة عشر عامًا، لذا لم يكن مفيدًا لي ولا لنفسه، فوقع تخطيط الإخلاء وتنفيذه على عاتقي بالكامل.

غير أنني، وقبل أن أوجه انتباهي إلى ذلك، كان عليَّ الاعتناء بخيولي، فحتى في هذه المرحلة المبكرة، كنت مدركًا بوضوح صارخ أنها مفتاح نجاتنا بصفتنا أمةً وشعبًا متحضرًا. وبعد ما أسرناه في **أسنا**، صار مجموع خيول قطيعنا عدة مئات، فقسمتُ هذا القطيع إلى أربعة أرباع حتى يسهل

عليها إيجاد المرعى في طريقنا، ولأن القطعان الأصغر تثير غبارًا أقل، فيسهل عليها تجنب كشافة **الهكسوس** أيضًا.

ثم أرسلتُ **هُوي** وسائقي العربات وخادمي الخيول جنوبًا رفقة هذه القطعان إلى **إلفنتين**، بعد أن حمَّلتهم أوامر بتفادي ضفة النهر التي تتقدم عليها عربات **الهكسوس** والبقاء في الداخل، أقرب إلى حافة الصحراء.

وحالما أُرسلت الخيول، صار بمقدوري تحويل انتباهي إلى البشر. أدركتُ أن عدد السفن المتاحة يحدُّ قدر الناس الذين سيتمكنون من مرافقتنا في رحلتنا الطويلة، إذ كنتُ متأكدًا أن كل المصريين تقريبًا سيرغبون في أن يكونوا جزءًا من هذا النزوح، فوحشية **الهكسوس** وضراوتهم واضحة جليَّة في كل مدينة أحرقوها وفي كل فظاعة أنزلوها بشعبنا، وأخطار البرية الإفريقية كلها أحبُّ من هذه الوحوش المتعطشة للدماء المنقضة علينا بعرباتها.

حسبتُ في آخر الأمر أن بمقدورنا استيعاب اثني عشر ألفًا من هذه الأرواح على أسطولنا الفار، وأبلغتُ مولاتي بذلك.

قلت لها: «يجب أن نكون حازمين في اختيار من نأخذ معنا ومن نترك وراءنا»، لكنها لم تنصت لنصيحتي.

- هذا شعبي، وإنني مستعدة للاستغناء عن مكاني بدلًا من ترك واحد منهم **للهكسوس**.
- لكن يا صاحبة الجلالة، ماذا عن العجائز والمُقعدين؟ والمرضى والأطفال؟

قالت: «سيُمنح كل مواطن خيار المجيء معنا. لن أتركَ أشهب لحيةٍ ولا متسولٍ، ولا رضيعًا عمره يوم ولا مجذومًا. هؤلاء شعبي، وإن كانوا عاجزين عن المجيء، فسأبقى والأمير **مِمنون** معهم»، وبالطبع، ذكرتْ الأمير لتتأكد تأكدًا مضاعفًا من نصرها علي.

ستنغمر السفنُ حتى شفيرها تحت هذا الثقل الإنساني العظيم، لكن لا خيار أمامي. ومع ذلك، نلتُ بعض الرضا من تحميل أكثر المواطنين إبداعًا وفائدةً أولًا. اخترتُ رجالًا من جميع الحرف والمهن، بنائين ونساجين، ونحَّاسين وخزَّافين، ودبَّاغين وصنَّاع أشرعة، ونسَّاخين وفنانين، وصنَّاع سفنٍ ونجارين، وكلهم أسياد مجالاتهم، وحرصتُ أنهم صاروا آمنين على متن المواصلات المنتظرة. ثم استمتعتُ بتخصيص أكثر القمرات إزعاجًا في أقذر

المراكب للكهنة وكتبة العدل، أولئك البراغيث مصاصة الدماء الذين يتغذون على جسد الدولة الغض.

وعندما ركب أولاء جميعهم، سمحتُ للدهماء بالاحتشاد على الرصيف تحت المعبد.

نتيجة لعناد مولاتي، اضطررتُ إلى اختيار ما سنحمِّله بحذر، إذ لا متَّسع للبهارج التافهة، لذا جمعتُ الأسلحة والأدوات والمواد الخام التي سنحتاج إليها لبناء حضارة أخرى في البلاد المجهولة، وأما عن بقية الحمولة، فحاولت بجميع الطرق خفض الوزن والحجم؛ حمَّلت مثلًا، بدلًا من الحبوب والفاكهة، بذرة كل نبتة مستحبَّة في برطمانات من الفخار ختمتها بالقار والشمع.

كل دبن حمولةٍ نحمله معنا يعني أن شيئًا غيره سيُترك وراءنا، وقد تستمر رحلتنا عشر سنوات، أو عُمرًا، وسيكون الطريق شاقًّا. كنا نعرف أن الجنادل العظيمة أمامنا، ولم نجرؤ على تحميل أنفسنا عبء أيِّ شيء إلا الأساسيات، لكن يبقى وعدُ مولاتي للفرعون، وبالكاد ثمة متسع للأحياء، فكم من المتسع يمكننا تحمُّل منحه للموتى؟

أصرَّتْ مولاتي: «لقد أقسمتُ قسمًا للملك وهو على فراش موته. لا يمكنني تركه هنا».

- يا صاحبة الجلالة، سأجد مخبأً آمنًا لجثمان الملك، قبرًا غير مميز في التلال حيث لا يجده إنسان. وعندما نرجع إلى **طيبة**، ننبشه ونمنحه الدفن الملكيَّ الذي وعدتِ.

- إذا ما حنثتُ بوعدي، فستهجرنا الآلهة وتهلك رحلتنا. لا بدَّ أن يذهب جثمان الملك معنا.

عرفتُ من نظرة واحدة إلى وجهها أن لا جدوى من إطالة الجدال، ففتحنا الناووس الجرانيتي الهائل وأخرجنا النعوش الداخلية الستة، وحتى هذه كانت جسيمة إلى درجة أنها تحتاج إلى قادس يحملها وحدها.

اتخذتُ قرارًا من دون استشارة الملكة **لوستريس**، إذ حملتُ العمال على إزالة النعشين الذهبيين الأعمق فقط، وهذين كانا مغطيين بقماشة كتانية سميكة خِطناها من حولهما حماية لهما، فانخفض الوزن والحجم هكذا إلى أبعاد مقبولة، وخزننا هذين النعشين المغطيين بالقماش في عنبر ***أنفاس حورس***.

خُزن معظم كنز الفرعون، كل الذهب والفضة والأحجار الكريمة، في صناديق من خشب الأرز، وأمرتُ صاغة الذهب أن يُجَرِّدوا النعوش المتروكة وإطار الزلاجة الجنائزية العظيمة الخشبي من الذهب فيُذيبوه ثم يصبوه في قضبان، وسرَّني في سري أن أكون أداة دمار هذه الدمامة معدومة الذوق. ثم حُمِلت صناديق الكنز وقضبان الذهب إلى الرصيف وحُمِّلت على متون السفن المنتظرة. وزعتُها حتى تحمل كل سفينة صندوقًا واحدًا أو كدسة قضبان على الأقل، وبهذه الطريقة، انخفضتِ احتمالات أن يضيع الكنز كله إثر ضربة حظ عاثر واحدة انخفاضًا كبيرًا.

ظل الكثير من الكنز الجنائزي لم نستطع أخذه معنا، كل الأثاث والتماثيل، والدرع المراسميَّة وصناديق تماثيل **الأوشبتي**، وبالطبع الإطار البشع لعربة الدفن الذي عرَّيتُه من الذهب. وبدلًا من أن نتركها تسقط في أيدي **الهكسوس**، كوَّمناها في فناء المعبد، ورميتُ بيدي مشعلًا مشتعلًا على قمة جبل الكنز ثم راقبته يحترق إلى رماد.

جرى هذا كله بعجلة مخيفة، وقبل أن تُحمَّل السفينة الأخيرة، صرخ الرُصَّاد عن سطح القصر محذرين بأن سحب تراب عربات **الهكسوس** صارت في مرمى البصر. وفي خلال الساعة نفسها، بدأ جنودنا المستنزفون الذين أنهكتهم المعركة، والذين كانوا يخوضون حربًا طويلة ضارية في المؤخرة تحت قيادة **تانوس وكراتاس**، بالانسحاب إلى مدينة الموتى، وصعود متن القوادس المنتظرة.

التقيتُ **تانوس** عندما جاء من الطريق المعبدة على رأس فصيل من الحرس، فحتى تلك اللحظة، كان قد تمكَّن هو ورجاله من كسب بضعة أيام إضافية بوخز الشجاعة والتضحية لنكمل الإخلاء، ولم يعُد بوسعهم فعل المزيد، إذ صار العدو يدفعهم إلى الداخل.

وعندما لوَّحتُ وناديتُ اسمه، رآني وصرخ من فوق رؤوس الحشد: «أين الملكة **لوستريس** والأمير؟ هل صعدا متن ***أنفاس حورس***؟».

فشققت طريقي عبر الجمهرة إلى جواره: «مولاتي تأبى المغادرة حتى يركب شعبها كله متون السفن. أمرتني أن آخذك إليها حالما تصِل، إنها تنتظرك في حجرتها في القصر».

نظر إليَّ مشدوهًا: «إن العدو يضغط علينا بشدة، والملكة **لوستريس** والأمير أثمن عندي من كل هذه الغوغاء، لمَ لم تجبرها؟».

فضحكتُ: «ليسَت سيدةً يسهل إجبارها، وأنت تعرف ذلك مثلما أعرفه. لن تترك أحدًا من شعبها **للهكسوس**».

قال: «عسى أن ينسفَ **سِت** كبرياء تلك المرأة! سوف تتسبب بقتلنا!» لكن تعابير الفخر والإعجاب على وجهه المغبَّر المخطط بالعرق كذبت كلماته القاسية، وابتسم لي، وقال: «حسنًا، إن كانت تأبى المجيء وحدها، فعلينا الذهاب وجلبها».

تدافعنا بين الصفوف الطويلة للمسافرين المحمَّلين بصرر ممتلكاتهم والحاملين أطفالهم، والتي تتدفق إلى الميناء لتركب السفن. وبينما نسرع على طول الطريق المعبدة، أشار **تانوس** من فوق المتاريس إلى سحب التراب المشؤومة المنقضة علينا من كلا الاتجاهين.

ثم قال بتجهم: «إنهم يتحركون أسرع مما ظننتُ أنه ممكن. لم يتوقفوا لسقاية خيولهم حتى. إذا لم نسرع في الركوب فسيقبضون علينا ونصف شعبنا لا يزال على الشاطئ»، وأشار إلى الرصيف تحتنا.

كان عرض الرصيف لا يكفي إلا مركبين معًا، وسدَّت حشود اللاجئين الطريق المعبدة فأغلقت بوابة الدخول إلى الميناء. زاد نحيبهم وعويلهم الاضطراب اضطرابًا، وفي تلك اللحظة، صرخ أحدهم من مؤخرة الطابور: «لقد وصل **الهكسوس**! اركضوا! انجوا بحياتكم! **الهكسوس** هنا!».

انتشر إثر ذلك الذعر عبر الحشد وماج متقدمًا بطيش، فسُحقت النساء على البوابات الحجرية، وديس الأطفال تحت الأقدام. بدأ النظام والانضباط ينهاران بالكامل، وانحطَّ المواطنون المحترمون النبلاء والجنود المنضبطون إلى همج يائسين يكافحون في سبيل نجاتهم.

فاضطررتُ إلى استخدام العصا المدببة التي كنت أحملها لشق طريق عبرهم في حين أرجع **وتانوس** إلى القصر، وأخيرًا، خرجنا من الحشد وركضنا إلى بوابة القصر.

كانت الردهات والدهاليز خالية ومهجورة إلا من بضعة لصوص يقلِّبون الغرف الفارغة فروا عند رؤياهم **تانوس**، فقد كان منظره مخيفًا؛ مُنهكًا ومُغبّرًا إثر المعركة، وتغطي فكَّه لحية محمرَّة خفيفة. ثم اندفع أمامي إلى حجرة الملكة الخاصة، ووجدناها من دون حراسة وبابها مفتوح على مصراعيه، فهرعنا داخلين.

كانت مولاتي جالسةٍ وحيدة على الشرفة تحت الدالية المنبسطة والأمير **مِمنون** على حجرها تدلُّه على أسطول السفن الراسي في النيل تحت الشرفة، وكلاهما متأثر بالمشهد.

- انظر إلى السفن الجميلة.

وقفتْ مبتسمة عندما رأتنا، وانزلق **مِمنون** عن حجرها فركض إلى **تانوس**.

أرجحه **تانوس** رافعًا إياه إلى كتفه، ثم عانق مولاتي بيده الحرة.

وسألها بإلحاح: «أين إماؤك؟ أين **أتون** والسيد **ميرسيكيت**؟».

- أرسلتهم إلى السفن.

- يقول **تايتا** إنك رفضت الذهاب. إنه غاضب منك جدًّا، ويحق له ذلك.

قالت: «سامحني يا عزيزي **تايتا**». ابتسامتها قادرة على إنارة حياتي أو كسر قلبي.

فاقترحتُ بتصنُّع: «حريٌّ بك ترجِّي المسامحة من الملك **ساليتيس**، إذ سيصل قريبًا (ثم قبضت على ذراعها)، الآن وقد وصل جنديكِ الوقح هذا، أيمكننا الذهاب إلى السفن من فضلك؟».

وهرعنا عائدين عن الشرفة إلى أروقة القصر. كنا وحدنا تمامًا، فحتى اللصوص والنهَّابين قد اختفوا كما تختفي الجرذان في جحورها، وكان خالي البال الوحيد بيننا الأمير **مِمنون**، فهذه في نظره لعبة ممتعة أخرى، وراح ينخز بكعبه وهو راكبٌ على كتفي **تانوس** ويصيح «هيا!»، كما تعلم مني عندما امتطينا **صابرة**.

أسرعنا عبر حدائق القصر والدرج الحجري الذي يقود إلى الطريق المعبدة التي كانت أقصر الطرق إلى ميناء المعبد، وبينما نسرع فيها، انتبهتُ إلى أن الظروف قد تغيرت تغيرًا جذريًّا في الوقت الذي مرّ منذ غادرنا لنجلب مولاتي والأمير من القصر، فقد باتت الطريق مهجورة، وصعد اللاجئون عن آخرهم إلى السفن في الميناء، ومن وراء المتاريس الحجرية، أمكنني رؤية صواريهم تتحرك ببطء عبر القناة إلى النهر المفتوح.

أدركتُ، بشعورٍ أجوف في فم معدتي، أننا آخر المتبقين على الشاطئ، ولا يزال أمامنا نصف ميل نقطعه قبل الوصول إلى الميناء الفارغ، ثم توقفنا جميعًا معًا، وأخذنا نراقب آخر القوادس يُبحر.

قلتُ متأوهًا: «لقد أخبرتُ القبطان أن ينتظر، لكن باقتراب **الهكسوس** إلى هذا الحد، لا همَّ عندهم إلا سلامتهم».

فقالت مولاتي بيأس: «ما الذي يمكننا فعله الآن؟»، وحتى صيحات **ممنون** السعيدة نضبت.

اقترحتُ: «إذا تمكنًا من بلوغ ضفة النهر، فسيرانا بالتأكيد **رِمرِم** أو **كراتاس** فيرسل زورقًا يقلُّنا، ما رأيكما؟» ووافقني **تانوس** من فوره.

ثم صاح: «من هنا! اتبعاني! انتبه إلى مولاتك يا **تايتا**».

أخذتُ بيدها لأساعدها، لكنها كانت بقوة فتًى راعٍ ورشاقته، وجارتني في الركض بسهولة. ثم سمعتُ فجأة صهيل الخيول، وصرير عجلات العربات، وكانت الأصوات واضحة وقريبة قربًا مُرعبًا.

لقد غادرت خيولنا قبل ثلاثة أيام، ولا بدَّ أنها قد قطعت شوطًا لا بأس به من طريقها إلى **إلفنتين** بحلول هذا الوقت، وفُكِّكَتْ عرباتنا وحُمِّلَتْ في عنابر الأسطول المغادر. ورغم أن العربات التي أسمع صوتها الآن لا تزال خارج مرمى البصر تحت سور الطريق المعبدة، فقد عرفنا من صاحبها.

قلتُ بصوت خفيض: «**الهكسوس**! (وتوقفنا في مجموعة صغيرة متراصة)، لا بدَّ أنها واحدة من جماعاتهم الاستطلاعية المتقدمة».

وافقتني **تانوس**: «الصوت يشي بأنها عربتان أو ثلاث فقط، لكنها كافية. لقد قطعوا علينا الطريق».

وقالت مولاتي بهدوء عرفتُ أنه مزيف: «يبدو أننا غادرنا متأخرين قليلًا (ثم نظرت إلى **تانوس** وإلي بمطلق الثقة)، ماذا تقترحان أن نفعل الآن؟».

شدهتني وقاحتها، فتعنُّتها هو سبب مأزقنا بكامله، ولو أنها تبعت إرشادي لكنَّا جميعًا على متن ***أنفاس حورس*** الآن نشق النهر إلى **إلفنتين**.

رفع **تانوس** يده طلبًا للصمت، ووقفنا ننصت إلى أصوات عربات العدو تمرُّ أسفل السور، وكلما اقتربت، تأكدنا أكثر أنها ليست إلا جماعة متقدمة صغيرة.

وفجأة، توقفت أصوات العجلات الدائرة، وسمعنا الخيول تنفخ وتضرب الأرض، ثم أصوات رجال يتكلمون بلسان جلفٍ حُلقوميّ. كانوا تحتنا تمامًا، وأشار **تانوس** إشارة مستعجلة أخرى تطلب الصمت. لم يكن الأمير **مِمنون**

معتادًا الكَبت، ولا الحفاظ على هدوئه بما يتعارض مع غرائزه، وكان مثلنا قد سمع الأصوات وتعرَّفها.

فصاح بصوته العالي الرنَّان المعهود: «خيول! أريد أن أرى الخيول!».

سمعنا ضجَّة فورًا إذ صرخت أصوات **الهكسوس** بالأوامر، وصلصلت الأسلحة في أغمادها، تلا ذلك وقع خطوات ثقيلة تخبط الدرج الحجري في حين تصعد جماعة العدو إلى الطريق المعبدة.

وظهرت خوذهم الطويلة فوق الدربزين الحجري أمامنا تمامًا، ثم ظهرت بقيتهم. كانوا خمسة مجتمعين هجموا علينا مستلين سيوفهم، رجال ضخام يلبسون قمصانًا محرشفة مزرّدة وفي لحاهم شرائط زاهية الألوان، لكنَّ أحدهم أطول من البقية. لم أتعرَّفه في البداية، فقد أطال لحيته وزيَّنها بالشرائط على سيرة **الهكسوس**، وستر قناع خوذته نصف وجهه، ثم صرخ بذلك الصوت الذي ما كنتُ لأنساه أبدًا: «إذن فهذا أنت يا سيد **حاراب** الصغير! لقد قتلتُ الكلب العجوز، والآن سأقتل جروه!».

كان ينبغي لي معرفة أن السيد **إنتف** سيكون أول القادمين منهم ليتشمَّم كنز الفرعون كالضبع الجائع. لا بدَّ أنه أسرع أمام فرقة **الهكسوس** الرئيسة ليكون أول الداخلين إلى المعبد الجنائزي. وعلى الرغم من تبجحه، لم يتقدم لمواجهة **تانوس**، بل لوح لعصبة سائقي **الهكسوس** ليتقدموا وينجزوا العمل بالنيابة عنه.

أرجح **تانوس** الأمير **مِمنون** عن كتفيه ورماه لي كما لو أنه دمية.

ثم أمرني: «اركضا! سأكسب لكما بعض الوقت هنا»، وبينما هجم على **الهكسوس** كانوا لا يزالون محتشدين على الدرج ولا متسع أمامهم للتلويح بسيوفهم، فقتل الأول بأناقة بطعنة الحلق تلك التي ينفذها دائمًا ببالغ المهارة.

وصرخ من فوق كتفه: «لا تقفا محدقين كأبلهين، اركضا!».

لم أكُن أحدق ببلاهة، لكن بوجود الطفل متشبثًا بصدري، عرفتُ مدى عقم أمره، ذلك أنني لن أصل إلى ضفة النهر أبدًا بهذا العبء.

وقفتُ على تصوينة الطريق المعبدة ونظرتُ إلى الأسفل، فرأيتُ عربتين من عربات **الهكسوس** مركونتين تحتي مباشرة وخيولها تنفخ وتدق الأرض تحت لُجمها، وليس معها إلا رجل واحد يمسك بها في حين يسرع رفاقه على

الدرج. كان واقفًا عند رؤوس الخيول مركزًا انتباهه كله على مهمته، فلم يرني على الطريق فوق رأسه.

رميتُ ساقيَّ، ولا أزال ممسكًا **بمِمنون**، فوق التصوينة ثم دفعتُ نفسي خارجًا، وبينما نسقط زعق الأمير خوفًا. كانت المسافة من أعلى الطريق المعبدة إلى حيث وقف راكب عربة **الهكسوس** تعادل أربعة أضعاف ارتفاع رجل طويل، وربما كنتُ لأكسر قدمي بسهولة إثر السقطة، إلا أنني حططتُ بخفَّة على رأس **الهكسوسي** الغافل، فكسر التصادم عنقه، وسمعتُ طقطقة الفقرات بوضوح، ثم انهار تحتنا مخففًا سقطتنا.

وثبتُ واقفًا، **ومِمنون** يصرخ غضبًا إزاء هذا التعامل الخشن، لكن ثمة المزيد منه بعد، إذ تركته في حجرة أقرب عربة ورفعتُ نظري إلى مولاتي التي ترنو من على التصوينة فوقي.

صحتُ بها: «اقفزي! سأمسك بك!» ولم تتردد حتى، بل قذفت نفسها عن الحافة بسرعة حتى إنني لم أكُن قد استعددت لتلقيها. نزلت بعنفٍ عليَّ، وتنورتها القصيرة تطير مرتفعةً كاشفةً عن ذينك الفخذين الطويلتين الرشيقتين، فأصابتني إصابة مباشرة قطعَت أنفاسي، وتكومنا على بعضنا.

وقفتُ بصعوبةٍ أصفر أنفاسي صفرًا، وسحبتها موقفًا إياها، ثم دفعتها بقسوة على صفيحة القدم إلى العربة وصحتُ بها: «اعتني **بمِمنون**!»، فأمسكتْ به في اللحظة التي كاد يفر من حجرة العربة فيها. كان لا يزال يصرخ غضبًا وخوفًا، واضطررتُ إلى القفز من فوقهما لأبلغ العِنان وأسيطر على الخيول.

«تشبثي!» استجاب زوج الخيول ليديَّ من فوره، فدحرجتُ العُدة كلها بذكاء تحت السور، وقفزت إحدى العجلات فوق جثة الرجل الذي قتلته بسقطتي.

صرختُ: «**تانوس**! من هنا!».

فوثبَ على التصوينة فوقنا وتوازن بسهولة بينما يتبادل الطعنات والمراوغات مع مجموعة السائقين النابحين عليه ككلاب صيد تحاصر نمرًا على شجرة.

صحتُ: «اقفز يا **تانوس**! اقفز!»، فمدَّ قدمه عن الحافة وترك نفسه يسقط. أخذت عباءته ترفرف حول رأسه وكتفيه، وحط مفرشخًا على ظهر

الحصان الأبعد، فاهتزَّ السيف وسقط من يده مجلجلًا على الأرض الصلبة، وألقى بذراعيه حول عنق الحيوان.

ناديتُ الزوج: «هيا!»، وجلدتُ مؤخرتيهما بطرف اللجُم، فاندفعا قدمًا بالسرعة القصوى، وقدتهما عبر الممر إلى الحقول المفتوحة التي تؤدي إلى ضفة النهر. كان بمقدوري رؤية أشرعة أسطولنا في وسط النهر، وتمكنتُ حتى من تمييز راية ***أنفاس حورس*** تخفق في غابة الصواري. بقي أمامنا نصف ميل لنبلغ الضفة، ونظرتُ من فوق كتفي.

كان السيد **إنتف** ورجاله قد أسرعوا هابطين الدرج، ورأيتهم يصعدون العربة الأخرى. شتمتُ نفسي لأنني لم أعطِّلها، فما كنتُ لأستغرق إلا لحظة لأقطع اللجم وأهشّ الخيول، لكنني كنتُ هلعًا ومنشغلًا بإبعاد مولاتي والأمير.

صار السيد **إنتف** في أثرنا، ولم تكد عربته تقطع مئة خطوة حتى أدركتُ أنها أسرع من عربتنا، إذ إن ثقل **تانوس** على ظهر الحصان الأبعد يعيق عَدْوَه، فهو رجل جسيم، ولا يزال متشبثًا بعنقه بكلتا يديه، ويبدو أنه متجمدٌ ذعرًا. أظن أن هذه أول مرةٍ أراه خائفًا بحق على الإطلاق، وكنت قد رأيته يقف بثبات ويرمي أسدًا هاجمًا عليه بقوسه، لكن الحصان أرعبه.

حاولتُ تجاهل العربة اللاحقة بنا، ونظرتُ أمامي مركزًا مهارتي المكتسبة حديثًا كلها على توجيهنا فوق الحقول المحروثة المفتوحة وعبر متاهة قنوات الري وخنادقه إلى ضفة النيل. كانت عربة **الهكسوس** ثقيلة وصعبة الانقياد بالمقارنة مع مركبة **تايتا** التي صممْتها، فحفرت العجلات الخشبية المصمتة وسكاكينها المتلألئة الدوَّارة في تربة الأراضي المحروثة الخصبة، وأسهمت الدرع والزينة البرونزية على الحاجبة والجوانب بإثقالنا. ولا بدَّ أن الخيول قد قيدَت بشدة قبل أن أتولى زمامها، ذلك أنها كانت مزبدة بالعرق وتقطر من خطميها رغوة بيضاء.

ولم نكد نقطع نصف المسافة إلى ضفة النهر حتى سمعتُ صيحات سائق عربة **الهكسوس** وخبط حوافر خيولها، ونظرتُ خلفي فرأيتُ أنهم على بُعد أقل من ثلاث قصبات. كان السائق يجلد الخيول بسوط من ذيول الجلد المعقود ويصرخ بها بتلك اللغة البشعة الفِجَّة، وبجواره، وقف السيِّد **إنتف** متكئًا بتشوُّق على الحاجبة، ولحيته المزيَّنة بالشرائط تطير على جانبي فكه، وقسماته الوسيمة مضاءة بنَشوة الصياد.

صاح بي، وبلغني صوته محمولًا على أصوات الخيول الكادحة: «**تايتا**، يا عزيزي القديم، أما زلت تحبني؟ أريدك أن تثبت ذلك مرة أخرى قبل أن تموت»، ثم ضحك وقال: «ستركع أمامي وتموت بفمٍ ملآن»، ووخزت جلدي أرجل حشرات الخوف إثر الصورة التي استحضرتها كلماته.

ثم ظهر أمامنا خندق ري، فانحرفتُ لأجري بمحاذاته، ذلك أن حافتيه عميقتين متحدِّرتين، وتبعتنا عربة **الهكسوس** مقتربة منا مع كل قفزة.

قال **إنتف**: «وأنت يا ابنتي الجميلة، سأسلمكِ لجنود **الهكسوس** ليلعبوا بك، وسيعلمونك بضع خدع جديدة نسي **حاراب** تعليمك إياها. لم أعُد في حاجة إليك بعد أن صار طفلك المزعج في قبضتي»، فشدَّت الملكة **لوستريس** الأمير إلى صدرها وشحب وجهها وتجمد.

فهمت من فوري خطة السيد **إنتف**، فطفل من السلالة الملكية المصرية، وإن كان مرزبانًا[1] **للهكسوس**، يستوجب ولاء شعبنا كله. كان الأمير **مِمنون** الدمية التي ينوي الملك **ساليتيس** والسيد **إنتف** حكم المملكتين بها، وهذه وسيلة قديمة ناجعة يستخدمها الغازي. دفعتُ حصانيَّ إلى أقصى طاقتهما، لكنهما كانا متعبين ويتباطآن، واقترب السيد **إنتف** مني بسرعة حتى إنه لم يعد في حاجة إلى الصراخ لأسمعه.

واصل كلامه: «إن هذه لمسرَّة طال تأجيلها يا سيد **حاراب**. ما الذي سنفعله بك يا ترى؟ أولًا، سنشاهد أنا وأنت الجنود يمتِّعون ابنتي...».

حاولتُ سدَّ أذني عن وساخته، لكن صوته كان مُغرِّرًا. ظللتُ أحدق أمامي، مركزًا على الأرض الوعرة الخطرة، لكنني رأيت من زاوية عيني رأسي حصاني **الهكسوس** يحاذيان مركبتنا بعرفين يرفرفان وراءهما، وأعين جامحة في حين يقتربان منا بالسرعة القصوى.

ثم نظرتُ خلفًا، ورأيتُ نبَّال **الهكسوس** ضخم البنية الواقف على صفيحة القدم خلف **إنتف** يلقم قوسه القصيرة المعقوفة سهمًا، وكانت المسافة قريبة حتى إنه لا يمكن أن يخطئ أيًّا منا رغم تنطط العربة وقفزها.

(1) مرزبان: لفظة فارسية تعني رتبة دون الملك تقابل المحافظ أو أمير المنطقة، أي يكون أميرًا تابعًا للدولة الغازية. (المترجم).

كان **تانوس** خارج القتال، فقد ألقى سيفه، ولا يزال متشبثًا بعنق الحصان الأبعد عن العربة المقتربة، أما أنا فليس معي إلا خنجري، والملكة **لوستريس** راكعة على ركبتيها تحاول حماية الأمير بجسدها.

وفي تلك اللحظة أدركتُ الخطأ الذي ارتكبه سائق **الهكسوس**، فقد دفع زوج خيوله إلى الفراغ بيننا وبين خندق الري العميق، ولم يترك لنفسه مجالًا للمناورة.

رفع النبَّال قوسه وشد ريشات سهمه حتى شفتيه مصوبًا عليَّ. حدقتُ إلى عينيه من فوق رأس السهم الصوَّاني المثلَّم، ورأيتُ حاجبيه أسودين وكثيفين وكثَّين، وعينيه داكنتين وحاقدتين كعيني عظاءة، ثم نظرتُ إلى الحصانين ورأيتهما يركضان بمحاذاة محور عجلتي القريبة، فجمعتُ اللُّجُم وملتُ ناحيتهما، وبينما أزَّت السكاكين البرونزية اللماعة المنبثقة من إطارات عجلتي أزيزًا خفيفًا دارت باتجاه أرجل الخيول.

صاح سائق **الهكسوس** ذعرًا عندما أدرك خطأه، فقد حوصر خيلاه بين الخندق والسكاكين الوحشية، ونصولها لا تبعد أكثر من شبرٍ عن رُكب الفحل الكستنائي الضخم الأقرب إليَّ.

وفي اللحظة نفسها أطلق نبَّالهم سهمه، لكن التفافتي المفاجأة أربكته. بدا السهم يحلِّق ببطء تام باتجاه رأسي، لكن لم يكن ذلك إلا وهمًا خلقه رُعبي، إذ إنه في الحقيقة مرَّ ملتمعًا كشعاع الشمس من فوق كتفي، ومسّ الرأس الصواني أذني فأنزل قطرة دم من جلدي المسحوج إلى صدري.

حاول السائق التصدي لالتفافتي بالابتعاد عني، لكنَّ عجلته البعيدة باتت تدور على شفة خندق الري، فأخذت الأرض تتفتت تحت الإطار الملفوف بالبرونز، وترنَّحت العربة وتأرجحت على الحافة.

لجمتُ حصانيَّ وميَّلتهما ثانية ناحيتهم، فقطَّعت سكاكين عجلاتي أرجل الحصان الأقرب، وصرخ الحيوان البائس ألمًا. رأيتُ قطع اللحم والشعر تطير في الجو فوق لوح عربتي الجانبي، وقوَّيت نفسي على صياح الحصان وحمحمته لأميل عليهم بشدة مرة أخرى. وهذه المرة، طارت شظايا الدم والعظام المهروسة من الأقدام المكسَّرة، وسقط الحصان يرفس ويزعق مسقطًا رفيقه معه، فانقلبت عربة **الهكسوس** من فوق حافة الخندق، وانقذف الراكبَين من حُجرتها، لكن السائق وقع معها وانسحق تحت جسمها المنقلب وعجلاتها الثقيلة الدوارة.

صارت عربتنا تتقدم على قُرب خطر من حافة الخندق، لكنني تدبرتُ لجم الحصانين والسيطرة عليهما.

بطَّأتهما واستدرتُ أنظر خلفي، ورأيتُ سحابة من التراب فوق مكان اختفاء عربة **الهكسوس**، فأعدتُ الحصانين إلى مشي الخبب، إذ إن ضفة النهر تبعد مئتي خطوة أمامنا، ولا شيء يقف بيننا وبين بر الأمان.

ثم التفتُّ ألقي نظرة أخيرة. كان نبَّال **الهكسوس**، الذي أطلق سهمه عليَّ، يرقد كسيرًا متكومًا على نفسه حيث أُلقِي، والسيد **إنتف** يرقد أبعد بعض الشيء عن حافة الخندق. أعتقدُ بحقٍّ أنني كنتُ لأتركه مكانه لو أنه لم يتحرك، لكنه في تلك اللحظة جلس ودفع نفسه حتى وقف مهزوزًا على قدميه.

وفجأة، عادت لي كل كراهيتي له بعنف ووضوح جعل مخِّي يغلي، كأنما قد انفجر عِرق خلف عينيَّ، فاسودَّ بصري، والتمع ببريقِ أحمرِ دموي، ثم تفجَّرت من حلقي صيحة وحشية غير مفهومة ودوَّرتُ الحصانين في دائرة ضيقة عودًا إلى الطريق المعبدة.

كان السيد **إنتف** واقفًا في طريقي مباشرة، وقد فقد خوذته وأسلحته في السقطة، وبدا نصف دائخ يتمايل على قدميه، فجلدتُ الحصانين دافعًا إياهما إلى أقصى سرعة مرة أخرى، وراحت العجلات الثقيلة تهدر في تقدمها باستقامة إليه. كانت لحيته قد شعثت وتلوثت شرائطها بالتراب، وذوت عيناه وذهلتا، لكنهما صفتا فجأة في حين أقود الحصانين باتجاهه، وانتصب رأسه.

ثم صرخ: «لا!»، وبدأ يتراجع مادًّا يديه باتجاهي كأنما ليصدَّ العربة الهائلة والخيول الراكضة. صوَّبت عليه مباشرة، لكن في اللحظة الأخيرة، دافعت آلهته المظلمة عنه مرة أخيرة، فرمى نفسه جانبًا عندما وصلتُ إليه. كنتُ قد رأيته يترنح، لكنني افترضتُ أنه ضعيف وعاجز، إلا أنه كان سريعًا ورشيقًا كثعلب تطارده كلاب الصيد، ولم أستطع -نظرًا إلى ثقل العربة وصعوبة قيادتها- أن أديرها بالسرعة الكافية لأتبع قفزته الجانبية ومراوغته.

أخطأته ومضيت ورحتُ أتصارع مع اللجُم، لكن الحصانين جراني مئة خطوة قبل أن أسيطر عليهما وأدير المركبة الثقيلة ثانية، وريثما دُرنا، كان **إنتف** يركض ليحتمي بالخندق. أدركتُ أنه إذا ما بلغه فسيكون في أمان، فشتمتُ بمرارة وقدتُ الزوج خلفه.

وآنذاك هجرته آلهته أخيرًا، إذ كان قد بلغ الخندق تقريبًا، غير أنه أخذ ينظر إليَّ من فوق كتفه من دون أن يراقب خطواته، فعثر بكتلة طينية ناشفة كالصخر والتوى كاحله تحته، وسقط سقطة شديدة، لكنه تدحرج ووقف من جديد كبهلوان وحاول الركض، إلا أن الألم في كاحله المكسور منعه، فعرج خطوة أو اثنتين ثم راح يحاول القفز على قدم واحدة ناحية الخندق.

صرختُ به: «صرتَ في قبضتي أخيرًا!»، وبينما أقود العربة إليه استدار حول نفسه ليواجهني متوازنًا على ساق واحدة. كان وجهه شاحبًا، لكن عينيه النمريتين تشتعلان بكل مرارة روحه الوحشية الملتوية وكراهيتها.

صاحت مولاتي بجانبي وهي تشدُّ وجه الأمير إلى صدرها حتى لا يرى: «إنه أبي! اتركه يا **تايتا**، إنه لحمي ودمي».

لم أعصِها في حياتي، وكانت تلك المرة الأولى، إذ لم أتخذ أي حركة لإبطاء الخيول، بل حدقتُ إلى عيني السيد **إنتف**، ولأول مرة، من دون خوف.

وفي آخر المطاف كاد يخدعني ثانيةً، إذ رمى نفسه جانبيًا، وكان من الرشاقة والقوة أنه لوى نفسه مبتعدًا عن بدن العربة وعجلاتها، لكنه لم يتمكن من تفادي سكاكين العجلات، فعلقت إحدى النصول الدوَّارة بين الوصلات المحرشفة لمعطفه المزرَّد، ومزَّقت سنُّه الدرع وصولًا إلى لحم بطنه. ومع دوران السكين، تمزَّقت مصارينه والتفت حولها، وخرجت أحشاؤه منه كأنه إحدى أسماك الفرخ الزرقاء النهرية الكبيرة تبقرها زوجة صياد في مُجمَّع السوق.

جُرَّ خلفنا بحبال مصارينه الزلقة، لكنه تخلف عنَّا مع خروج المزيد من لفَّات أحشائه وكتلها من تجويف بطنه المفتوح، فقبض عليها بكلتا يديه وهي تُسحَب منه، لكنها انسلَّت من بين أصابعه كحبل سرِّي بشع يربطه بعجلة العربة الدوَّارة.

كانت صرخاته صوتًا أتمنى أن لا أسمعه ثانيةً ما حييت، وما زالت أصداؤها تسكن كوابيسي أحيانًا، لذا كانت في النهاية آخر ما أنزله بي من وحشية. لم أتمكن من نسيانه قط، وكم تمنيتُ ذلك وعزَّت عندي هذه الأمنية.

عندما انقطع الحبل القبيح الذي يجرُّه على الأرض السوداء أخيرًا، تُرك راقدًا في منتصف الحقل، ثم خبَت صيحاته وهجع من دون حراك.

أوقفتُ الحصانين بعد ذلك، فانزلق **تانوس** عن ظهر مطيَّته عائدًا إلى العربة، ثم رفع مولاتي والأمير وضمهما إلى صدره، وكانت مولاتي تنتحب.

- أوه، كان ذلك في غاية الشناعة! أيًا كان ما فعله بنا، يظل أبي.

ضمَّها **تانوس**: «لا بأس الآن، لقد انتهى كل شيء».

كان الأمير **مِمنون** يرنو من فوق كتف أمه إلى قوام جده منبسط الأطراف بكل دهشة الأطفال أمام الموت، ثم رفع فجأة صوته العالي الرنان قائلًا: «كان رجلًا شريرًا».

فوافقتُه برفق: «أجل، كان رجلًا شريرًا جدًا».

- هل مات الرجل الشرير؟

- أجل يا مِم، لقد مات. والآن صار بمقدور جميعنا التنعُّم بنوم أهنأ ليلًا.

اضطررتُ إلى حث الحصانين بشدَّة على طول ضفة النهر لندرك أُسيطيلنا المغادر، لكنني حاذيتُ قادس **كراتاس** أخيرًا، وتعرَّف علينا في المركبة الغريبة. وحتى عبر تلك المساحة الواسعة من الماء، بدا ذهوله واضحًا. أخبرني لاحقًا أنه كان يظننا في أمان على متن سفن الأُسيطيل الأولى.

أطلقتُ سراح الحصانين قبل أن أغادر العربة، ثم خضنا في الماء لنبلغ القارب الصغير الذي أرسله **كراتاس** ليلتقطنا.

***

أبى **الهكسوس** تركنا بسهولة، وطاردتنا عرباتهم يومًا بعد يوم على كلا ضفتي النهر في فرارنا إلى الجنوب.

متى ما نظرنا من فوق كوثل ***أنفاس حورس***، كنا نرى غبار صفوف العدو يتبعنا، وفي أوقات كثيرة كان الغبار يخالط سحب الدخان الأدكن المنبعثة من البلدات والقرى التي يحرقونها وينهبونها على ضفتي النهر. وكلما مررنا أمام بلدة مصرية، أبحر سرب من المراكب الصغيرة منضمًا إلى أسطولنا، فرحنا نزداد عددًا كل يوم.

مرَّت أوقات لم تسعفنا الريح فيها، فأدركتنا صفوف العربات، ورأينا جماعاتها تلتمع على الضفتين إلى جانبينا، وسمعنا صيحات السخرية والتحدي الجلفة العقيمة تدوي فوق الماء. إلا أن أمنا الأبدية، النيل، منحتنا حمايتها، مثلما فعلت لقرون، ولم يتمكنوا من بلوغنا ونحن في مجرى النهر.

ثم تنقلب الريح فتهبُّ من الشمال مرة أخرى ونسبقهم من جديد تاركين سحاب الغبار يتلاشى في الأفق الشمالي.

قلت **لتانوس** في صباح اليوم الثاني عشر: «لا تستطيع خيولهم الاستمرار في هذه المطاردة كثيرًا».

فأجابني ببساطة: «لا تعتدَّ بنفسك كثيرًا. إن **ساليتيس** مدفوع بإغراء كنز الفرعون **ماموس** والوريث الشرعي للتاج المزدوج، وللذهب والسلطة قدرة عجيبة على تقوية عزيمة الرجال. ما زلنا لم نرَ كل ما بجعبة ذلك البربري بعد».

تبدَّلت الريح في الصباح التالي مرة أخرى، ولحقت بنا العربات ببطء من جديد متجاوزة السفن القائدة لأسطيلنا في لحظة اقترابنا من بوابة **حابي**، أول الأسوار الجرانيتية التي تحدّ النهر أسفل **إلفنتين**. بين جانبي البوابة، يضيق النيل إلى أقل من أربعمئة خطوة من الضفة إلى الضفة، وترتفع الجروف الجرانيتية السوداء عموديةً تقريبًا على كلا الطرفين، وكان تدفق التيار ضدنا تمامًا حيث يدوِّم عبر بوابة **حابي**، لذا تلاشت سرعتنا وأمر **تانوس** بتسليم مقاعد التجديف لمجدفين جدد.

قال لي بتجهُّم: «أظن أنك محق يا **تايتا**، سينتظرون هنا»، ثم بعد ذلك مباشرة تقريبًا أشار إلى الأمام: «ها هم».

كانت ***أنفاس حورس***، قائدة الأسطول، تدخل البوابة من توِّها، لذا اضطررنا إلى إرجاع رؤوسنا خلفًا لنرى الوجوه على الجرف من فوقنا، وكانت أشكال نبَّالي **الهكسوس** أعلى الحواف الصخرية قد صغَّرتها زاوية نظرنا، فبدوا أقزامًا مشوَّهين.

غمغم **تانوس**: «يمكنهم من هذا الارتفاع إطلاق سهامهم بسهولة من الضفة إلى الضفة. سنكون في مرمى سهل لمعظم هذا اليوم، وسيكون ذلك صعبًا علينا جميعًا، بخاصة على النساء والأطفال».

وكان الأمر أسوأ حتى مما توقع **تانوس**، فقد ترك أول سهم أُطلق على قادسنا من الجرف ذيلًا من الدخان في قبة السماء الزرقاء في حين يرسم مسارًا مقوّسًا ويصيب الماء على بُعد ذراع فقط من جؤجؤنا.

أومأ **تانوس**: «سهام مشتعلة. لقد كنتَ محقًّا مرة أخرى يا **تايتا**. البربري يتعلّم بسرعة فعلًا».

قلت: «لا صعوبة في تعليم القرد خدعًا جديدة». كنت أكره **الهكسوس** بقدر ما يكرههم أي رجل في الأسطول.

قال: «فلنرى ما إن كان بمقدور منافخك ضخ الماء إلى السفينة مثلما تضخّها منها».

كنتُ قد توقعتُ الهجوم الناريّ هذا، لذا، وفي الأيام الأربعة الماضية، عملتُ على القوادس التي جهزها **تانوس** بمضخات الماء التي صممتها له. والآن، كلما تقدمت سفينة من سفننا، أمر **تانوس** قبطانها بإنزال أشرعته ليُضخ الماء إلى متونها فينقع حبال الأشرعة والصواري، ثم تُملأ الدلاء الجلدية وتوضع على المتون، ويرافق أحد قوادسنا السفينة إلى ممرّ النهر ووابل سهام **الهكسوس** المشتعلة.

استغرق مرور الأسيطيل يومين كاملين، فقد حجبت الجروف الريح، وكان الجو حارًا وخاملًا في الفجوة لذا اضطررنا إلى قيادة السفن بالتجديف طوال الطريق ضد التيار. أخذت السهام تنهال علينا في قطوع مكافئة من شرارة جميلة تضرب صوارينا ومتوننا، وكل منها يشعل لهيبه الخاص الذي وجب إخماده بسلاسل الدلاء أو بالخراطيم الجلدية من القادس المرافق. ولم يكن أمامنا من طريقة للرد على هذه الهجوم، فالنبَّالة فوقنا على الجروف العالية خارج مرمى أقواسنا الأضعف بكثير، وعندما قاد **رِمرِم** جماعة برية لينحّيهم عن مجاثمهم، تمكنوا من الإطلاق نزولًا على رجاله وإعادتهم إلى القوارب بخسائر فادحة.

تندّبت السفن التي نجحت بالمرور ببقع سوداء محروقة، وكان الكثير من البقية أردأ حظًا، إذ غلبت ألسنة اللهب دلاء الماء والمضخات وابتلعتها، فاضطررنا إلى تحريرها وتركها تنجرف مع التيار، مسببة هَرجًا ومرجًا بين بقية الأسطول المارة عبر الفجوة. تمكننا في معظم الحالات من إخراج الطاقم والركاب قبل أن تخرج ألسنة اللهب عن السيطرة، لكننا تأخرنا على البعض وفات الأوان. كانت صرخات النساء والأطفال في قلب اللهيب كافية لإيقاف الدم في قلبي، وحُفرت في ذاكرتي إلى الأبد صورة من ذلك اليوم المُروِّع لشابةٍ تقفز عن متن عبَّارة محترقة وشعرها الطويل مكلل باللهب كإكليل العرس.

خسرنا أكثر من خمسين سفينة في بوابة **حابي**، وخفقت رايات الحداد على كل السفن بينما نبحر باتجاه **إلفنتين**، لكن على الأقل بدا أن **الهكسوس**

قد استنفدوا أنفسهم وخيولهم في مطاردتهم الطويلة إيانا جنوبًا، فلم تعُد سحب التراب تلوث أفقنا الشمالي، وحظينا بمهلة نحدُّ فيها على موتانا ونصلح مراكبنا.

إلا أن أحدًا منا لم يصدق أنهم استسلموا بالكامل، ففي النهاية، لا بدَّ أن يثبت كنز الفرعون أن إغواءه أقوى من أن يُقاوَم.

***

لكوننا ملزمين بمتن قادسنا، قضيتُ والأمير **مِمنون** الكثير من الوقت جالسين تحت ظُلة مؤخرة السطح، حيث أنصتَ بنَهَمٍ لقصصي، أو جلس يراقبني أصمم وأنجزُ أول نماذج قوس جيشنا الجديد، المبنيّ على قوس **الهكسوس** المعقوفة. وكان بحلول هذا الوقت قد تعلم الخدعة القديمة التي تقوم على طرح الأسئلة لإبقاء انتباهي مركزًا عليه.

- ماذا تفعل يا **تايتا**؟
- أصنع قوسًا جديدًا.
- فهمت، لكن لمَ؟

قلت: «حسنٌ، سأخبرك. إن أقواسنا ذات الانحناء الواحد، بمعزل عن كونها تفتقر إلى القوة والمرمى نفسيهما، فهي أطول من أن تُستخدم من العربة»، وجلس ينصت إليَّ بانتباه. حتى عندما كان رضيعًا، حاولتُ أن لا أنخرط في أي حديث طفولي معه، وطالما خاطبته على أنه نظير لي. وإن لم يفهم في بعض الأوقات، فعلى الأقل كان سعيدًا بوقع صوتي.

واصلتُ: «لقد بلغتُ قناعة تامة بأن مستقبلنا يكمن في الحصان والعربة، وأثق بأن جلالتك الملكية توافقني الرأي (ثم رفعتُ نظري إليه)، أنت تحب الخيول أيضًا، أليس كذلك يا **مِم**؟».

وفهم كلامي فهمًا وافيًا، فأومأ بشدَّة: «أحب الخيول، ولا سِيَّما **صابرة ونصل**».

كنتُ قد ملأتُ ثلاث لفائف بأفكاري ورسوماتي عن الطريقة المثلى التي تصوّرتها لاستغلال هذه الأصول العسكرية بأحسن صورة، وتمنيتُ لو أن بمقدوري مناقشتها بالتفصيل مع **تانوس**، لكن اهتمام **أسد مصر العظيم** بمسائل الخيول حاقد وسطحي.

فقد قال لي: «اصنع تلك الأشياء الملعونة إذا كان عليك ذلك، لكن لا تستمر بالثرثرة عنها».

أما الأمير فكان مستمعًا أكثر انفتاحًا بكثير، وبينما أعمل، أجرينا هذه المحادثات المديدة، التي لم تأتِ بجناها الكامل إلا بعد وقت طويل. من ناحية الصحبة، كان خيار **مِمنون** الأول **تانوس** دائمًا، لكنني لم أكُن في منزلة بعيدة جدًّا عنه، وقضى أحدنا ساعات سعيدة طويلة في صحبة الآخر.

كان منذ نعومة أظفاره طفلًا ألمعيًا مبكر النضوج على نحو استثنائي، وتحت إشرافي، طوّر مواهبه أسرع من أي شخص آخر أرشدتُه. حتى مولاتي في السن نفسها لم تكُن سريعة التعلم مثله.

صنعتُ له قوسًا دُمية من التصميم الذي كنتُ أدرسه، فأتقنها من فوره تقريبًا وتمكن من إطلاق أحد سهامه الضئيلة من أول متن القادس إلى آخره، مثيرًا انزعاج الإماء والمربيات اللاتي كنّ أهدافه في العادة. لم تجرؤ إحداهن على الانحناء وقتما يكون الأمير مُسلحًا بقوسه، فقلما أخطأ زوجًا مغريًا من الأرداف الأنثوية تحت أقل من عشرين خطوة.

بعد قوسه، كانت دميته المفضلة العربة والحصان المصغَّرين الذين نحتُّهما له. حتى إنني صنعتُ له جسدًا ضئيلًا لسائق يقف في الحجرة، ولُجمًا يقود بها الحصانين. سمَّى الأمير السائق **مِم** من فوره، وحملت الفرَسان اسمي **صابرة ونصل**، وراح يحبو بلا كلل جيئة وذهابًا دافعًا العربة أمامه، ومصدرًا أصوات الخيل الملائمة بينما يصيح «هيا!» و«قف!».

بالنسبة إلى صبي في عمره، كان مدركًا لمحيطاته على الدوام، وقلّما فوّتت تينك العينان الداكنتان المتلألئتان ما يجري من حولهما، فلم يفاجئني أنه كان أول من اكتشف قوامًا غريبًا أمامنا على الضفة اليمنى للنهر من أفراد طاقم ***أنفاس حورس***.

وزعق قائلًا: «خيول! (ثم بعد لحظات)، انظروا، انظروا! إنه **هُوي**!».

هرعتُ إلى حيث يقف على الجؤجؤ، وطار قلبي عندما أدركتُ أنه محق، وأن **هُوي** قادم على ظهر **نصل** على ضفة النهر ليلاقينا بأقصى سرعة.

- لقد أوصل **هُوي** الخيول إلى **إلفنتين**، وإنني أسامحه على جميع آثامه وحماقاته الأخرى، فقد أنقذ خيولي.

قال الأمير بجدية: «إنني فخور جدًّا **بهُوي**»، مُحاكيًا كلماتي ولهجتي بدقة شديدة حتى إنني ومولاتي وجميع من حولنا انفجرنا ضاحكين.

***

مُنحنا استراحة عندما بلغنا **إلفنتين**، إذ لم نرَ أمارات عربات مطاردة لأيام عديدة حتى إن تفاؤلًا جديدًا عمّ الأسطول والمدينة، وبدأ الرجال يتكلمون عن ترك الفرار إلى الجنوب والبقاء هنا تحت الجنادل لبناء جيش جديد نجابه الغازي به.

لم أسمح لمولاتي أن تغريها روح الثقة ضحلة الجذور هذه، بل أقنعتها أن رؤياي في المتاهات أرتنا الطريق الصحيح وأن مصيرنا لا يزال ينتظرنا في الجنوب. في الوقت نفسه، تابعتُ تحضيراتي من أجل الرحلة من دون انقطاع، وأظن أنني غدوتُ مسحورًا بالمغامرة أكثر حتى من ضرورة الفرار من **الهكسوس**.

أردتُ أن أرى ما يقبع وراء الجنادل، وفي الليالي، بعد نهار كامل من العمل في الميناء، كنتُ أجلس حتى هُزُع الليل الأخيرة في مكتبة القصر، أقرأ حكايات الذين خطوا أول خطوة إلى المجهول قبلنا.

كتبوا أن النهر لا نهاية له، وأنه يتدفق حتى نهاية الأرض. كتبوا أنه بعد الجندل الأول، ثمة آخر أشد هولًا، آخرٌ لا يمكن لإنسان أو سفينة اجتيازه أبدًا. قالوا إن الرحلة من أول جندل إلى تاليه تستغرق عامًا كاملًا، ويظل النهر مستمرًا بالجريان.

أردتُ رؤيته، وأكثر من أي شيء آخر في حياتي، أردتُ أن أرى مبدأ هذا النهر العظيم، النهر الذي كان حياتنا كلها.

عندما كنتُ أغفو أخيرًا على ضوء السراج فوق اللفائف، كنت أرى في أحلامي مرة ثانية الإلهة المرحّبة جالسة على قمة جبل، وينبوعا الماء التوءمين يتدفقان من فرجها العظيم. ورغم أنني ما كنت أنام إلا قليلًا، كنتُ أفيق عند الفجر متنشطًا ومتحمسًا، وأرجع إلى الميناء لأكمل تحضيرات الرحلة.

حالفني الحظ في أن معظم حبال ملاحتنا كانت تُنسج وتُجدل هنا في حظائر سفن **إلفنتين**، فصار في متناول يدي نخبةُ نخبةِ الحبال الكتّانية. بعضها ثخين ثخن إصبعي، وبعضها ثخن فخذي، وملأت بها كل مساحة

متاحة في عنابر السفن غير المكتظة بالفعل، إذ كنتُ أعرفُ كم ستكون حاجتنا ماسَّة إليها عندما نصل إلى الجنادل.

لم تكُن مدعاة مفاجأة أن أصحاب القلوب الواهية والعزيمة الضعيفة من جماعتنا أظهروا أنفسهم هنا في **إلفنتين**، فقد أقنعت قسوة الهروب من **طيبة** العديد من هؤلاء أن إشفاق **الهكسوس** ورحمتهم خير من استمرار الرحلة إلى الصحارى الجنوبية القائظة حيث ينتظرهم بشر ووحوش أكثر وحشية.

وعندما سمع **تانوس** أن ثمة آلاف كثيرة من المواطنين التواقين لهجر الأسطول، هدر قائلًا: «اللعنة على الخونة والمرتدين! أعرف ما أفعله بهم!». وأعرب عن نيته تحويل جحافله عليهم وإعادتهم إلى ظهور السفن.

في البداية، دعمته مولاتي في ذلك، وكانت دوافعها مختلفة جدًّا عن دوافعه، إذ لم يكن همّها إلا سلامة رعاياها، ووعدها أنها لن تترك أيًا منهم لإرهاب **الهكسوس**.

اضطررتُ إلى قضاء نصف الليلة أجادل كليهما حتى تمكنت من إقناعهما بأننا أفضل حالًا من دون المسافرين المترددين، وفي النهاية، أصدرت الملكة **لوستريس** مرسومًا يسمح للراغبين بالبقاء في **إلفنتين** بأن يبقوا، لكنها أضافت لمسة صغيرة متقنة من عندها إلى البيان، وقُرئ جهارًا بصوت مسموع في كل شوارع المدينة، وعلى ظهور السفن الراسية:

*أنا، الملكة **لوستريس**، الوصية على مصر وأم الأمير **مِمنون**، وريث تاج المملكتين المزدوج، أبلغ شعب بلادي بوعدي.*

*أقسم أمام الآلهة وأدعوهم ليشهدوا قسمي المقدّس. أقسم لكم أنني، وعند بلوغ الأمير، سأرجع وإياه إلى مدينة **إلفنتين** هذه، لأجلسه على عرش مصر، وأضع التاج المزدوج على جبهته، حتى يطرد الغاصب ويحكمكم بالعدل والرحمة طيلة سنيّ حياته.*

*هذا ما قالته الملكة **لوستريس**، الوصية على مصرنا هذه.*

ضاعف هذا التصرف وهذا البيان الحب والإخلاص الذي يكنه العامة لمولاتي والأمير مئة ضعف، وأشكّ أن تاريخنا كله قد ضم على الإطلاق حاكمًا محبوبًا بقدرها.

عندما كُتبت قوائم القادمين معنا إلى ما وراء الجنادل، لم أُفاجأ من أنها ضمت معظم أصحاب الولاء الأقوى والمهارات الأثمن، وكنا أسعد ما يكون بخسارة أولئك الذين رغبوا بالبقاء في **إلفنتين**، بما فيهم معظم الكهنة.

لكن الزمان سيثبت أن أولئك الذين ظلوا في **إلفنتين** كانوا مهمين جدًّا أيضًا، ففي سنوات الخروج الطويلة، أبقوا الشعلة حية في قلوب شعبنا، وذكرى الأمير **مِمنون**، ووعد الملكة لوستريس بالعودة إليهم.

وبالتدريج، في سنوات طغيان **الهكسوس** الطويلة المريرة، انتشرت أسطورة عودة الأمير عبر المملكتين، وفي النهاية، صار شعب مصر كله، من الجندل الأول إلى أفواه النيل السبعة في **الدلتا** العظيمة، مؤمنًا بعودته، ويصلي أن يأتي ذلك اليوم.

***

كان **هُوي** قد ترك الخيول تنتظرني على حقول الضفة الغربية، تحت الكثبان البرتقالية المتاخمة للنهر، وكنتُ والأمير نزورها كل يوم، ورغم أنه يزداد وزنًا، ظل يركب على كتفيّ ليحظى برؤية أفضل للقطيع.

بحلول هذا الوقت، صار **مِمنون** يعرف خيوله المفضلة كلها بالاسم، وصارت **صابرة ونصل** تأتيان لتأكلا كعك الذرة من يده عندما يناديهما. وقتما ركب على ظهر **صابرة** أول مرةٍ من دون أن تثبته يدي، عاملتْه برقّةٍ كما تعامل مهرها، وصاح الأمير عاليًا من فرط إثارة الركوب بمفرده حول الحقل.

كان **هُوي** قد تعلم كمًّا كبيرًا من المعلومات عن إدارة القطعان في أثناء الزحف، وباستخدام هذه المعرفة، رسمنا خطة مفصّلة لرفاهها في المرحلة التالية من الرحلة. شرحتُ له أيضًا الدور الذي أردتُ من الخيول أن تلعبه في عبور الجنادل، وجعلته والسائقين وخدم الخيول يبدؤون بجَدل الأطقُم ووصلها.

ركبتُ **وتانوس** مجرى النهر لنستطلع الجندل في أول فرصة سنحت لنا. كانت المياه منخفضة حتى إن الجزر مكشوفة كلها، والقنوات بينها ضحلة إلى حد يسمح لرجل بالخوض عبرها من دون أن يغمر الماء رأسه.

امتدَّت الجنادل أميالًا عديدة في معمعة شاسعة من الجلاميد الجرانيتية البراقة التي نحتتها المياه، والجداول الثعبانية التي تلتف وتتلوى بينها. وحتى أنا تهيّبتُ وخملت شجاعتي إزاء المهمة التي تنتظرنا، بينما ظل **تانوس** على

سجيته المعهودة المستقيمة استقامة وحشية، وقال: «لن تتمكن من دفع زورق هنا من دون تمزيق بطنه، فماذا ستفعل بقادس ثقيل الحمولة؟ تحمله على ظهر واحدٍ من خيولك اللعينة؟» وضحك، لكن من دون أدنى أثر للدعابة.

انطلقنا عائدين إلى **إلفنتين**، لكن قبل أن أبلغ المدينة، كنتُ قد عقدتُ العزم على أن الطريقة الوحيدة لنتقدم هي هجر السفن والمضيّ برًّا، ويصعب تصوّر المشاقّ التي سيجلبها ذلك المسار علينا، إلا أنني افترضتُ أننا قد نتمكن من إعادة صناعة الأسيطيل على ضفاف النهر فوق الجنادل.

عندما وصلنا إلى القصر على جزيرة **إلفنتين**، ذهبتُ **وتانوس** مباشرةً إلى حجرة الاجتماع لإبلاغ الأميرة **لوستريس**، فأنصتَتْ لكل ما بجعبتنا ثم هزت رأسها، قائلةً: «لا أصدق أن الإلهة قد هجرتنا بهذه السرعة»، وقادتنا وجميع حاشيتها إلى معبد **حابي** على الحافة الجنوبية للجزيرة.

قدمتْ أضحية سخية للإلهة، وصلينا طيلة تلك الليلة طالبين هداية **حابي**. لا أومن بأن حظوة الآلهة يمكن شراؤها بذبح الماعز ووضع عناقيد العنب على المذبح الحجري، ومع ذلك، صليت بحماسة الكاهن الأعلى كلها، رغم أن مؤخرتي آلمتني ألمًا بشعًا عند الفجر من السهرة الطويلة على المقاعد الحجرية.

حالما مرَّت أشعة الشمس الآخذة بالإشراق عبر أبواب المقدس وأنارت المذبح، أرسلتني مولاتي إلى بئر مقياس النيل، وما كدتُ أبلغ الدرجة السفلى حتى وجدتُ كاحلي غارقًا بالماء.

لقد أنصتت **حابي** لصلواتنا، وبدأ النيل في الفيضان قبل أسابيع من موعده.

***

في اليوم التالي لبدء ارتفاع الماء، جاء أحد قوادسنا الاستطلاعية السريعة التي تركها **تانوس** لمراقبة تحركات جموع **الهكسوس** مسرعًا على أجنحة الريح الشمالية ليبلغنا أن **الهكسوس** قد تابعوا زحفهم، وسيبلغون **إلفنتين** في غضون أسبوع.

فغادر السيد **تانوس** من فوره رفقة قوته الرئيسة للاستعداد لحماية الجنادل، تاركًا السيد **ميركيسيت** وأنا للإشراف على صعود شعبنا إلى السفن. تمكنتُ من رفع السيد **ميركيسيت** عن بطن زوجته الشابة مدة بالكاد

تكفي ليوقع الأوامر التي جهزتها له بدقة شديدة، وهذه المرة تمكنا من تجنب الفوضى والهلع اللذين داهمانا في **طيبة**، وتحضّر الأسطول للإبحار إلى ذيل الجنادل بانتظام.

سطّر خمسون ألف مصريّ ضفتي النهر، وبينما نبحر أخذوا ينتحبون ويغنون ترانيم **حابي** ويلوّحون بسعف النخيل وداعًا. وقفت الملكة **لوستريس** في جؤجؤ ***أنفاس حورس*** والأمير الصغير بجوارها يلوحان للحشود على الضفة في حين يمران ببطء. في الحادية والعشرين من عمرها، كانت مولاتي في أوج جمالها، تُنزل مهابة تكاد تكون دينية في قلوب المحدقين إليها، وتكرر جمالها على وجه الصبي الواقف بجوارها، الصبي حامل عصا الراعي والمذبة المصريتين بيديه الصغيرتين العازمتين.

نادتهم مولاتي قائلة: «سوف نرجع»، وقلّدها الأمير: «سوف نرجع. انتظرونا. سوف نرجع».

وفي ذلك اليوم، وُلدت على ضفتي أمنا النيل الأسطورة التي ستسند بلادنا المنكوبة المُستضعفة في أحلك أزمانها.

***

عندما بلغنا ذيل الجندل في الظهيرة التالية، كان الخانق المرصع بالصخر قد استحال مجرى أخضر سَلِسًا من المياه المتدفقة، وفي بعض الأماكن يتقلّب ويهدر بمياه بيضاء وزبد، على أنه لم يطلق العنان لقوته الكاملة الرهيبة بعد.

كانت تلك اللحظة الفضلى في دورة حياة النهر لمشروعنا، فالمياه مرتفعة بما يكفي لتمر سفننا من دون أن ترتطم بالقيعان الضحلة، لكن الفيضان لم يبلغ من الجموح والهياج بعد أن يتقاذفها ويلقيها خشبًا طافيًا على درجات الجندل الجرانيتية.

أدار **تانوس** بنفسه السفن، بينما أدرتُ **وهُوي**، تحت القيادة الشكلية للسيد **ميركيسيت**، جماعة اليابسة، إذ وضعتُ العجوز المَرِح رفقة جرة كبيرة من أفضل نبيذنا إلى جانبه، وزوجته الجميلة الصغيرة ابنة الستة عشر عامًا إلى جانبه الآخر، تحت ظُلة على الأرض المرتفعة فوق الخانق. ثم تجاهلت الأوامر المشوشة المتضاربة التي كان يرسلها السيد النبيل لي بين الحين والآخر في خلال الأيام التالية، وتابعنا انشغالنا بقضية عبور الجندل الأول.

مُدت أثقل حبال الكتان على الضفة، وطُقمت خيولنا في فرق قوامها عشر، ثم سرعان ما وجدنا أن بمقدورنا تحريك عشر فرق مرة واحدة -مئة حصان- وربطها بالحبال الرئيسة، وأي عدد يزيد على ذلك لا يمكن التحكم به.

إضافة إلى الخيول، كان معنا نحو ألفي رجل على الحبال وخيوط الكتان الثانوية، فصرنا نبدل الخيول والرجال كل ساعة حتى تظل الفرق نشيطة، وعند كل انعطافة وانحناءة خطيرة للنهر، نثبت جماعات أخرى على الضفة وعلى الجزر الجرانيتية المكشوفة، وهذه الجماعات مسلحة بقوائم طويلة لردّ هياكل السفن عن الصخور في أثناء انجرارها.

رجالنا مولودون على ضفاف النهر، ويفهمون القوارب وأمزجة النيل أفضل من فهمهم زوجاتهم، لذا عندما أعددتُ **وتانوس** نظام إشارات بوقية بين جماعة السفن وجماعة الشاطئ، عمل بسلاسة أكثر مما تمنيتُ حتى.

على متون المراكب، كان البحارة أيضًا مسلحين بقوائم حتى يدفعوا أنفسهم إلى الأمام ويوجّهوا الجؤجؤ. بينما يعملون أخذوا يغنون أهازيج النهر القديمة، وكانت ***أنفاس حورس*** أول سفينة أجرت المحاولة، فامتزج صوت الأهازيج وصيحات عمال الخيول بهدير النيل المكتوم بينما نشدّها قدمًا، ثم أقحمت جؤجؤها في أول مجاري المياه المتدفقة السلسة.

احتشدت المياه الخضراء على جؤجئها، لكن عجز دفعها عن هزيمة إصرارنا وقوة ألفي رجل ومئة حصان كادح، فجررناها فوق المنحدر النهري الأول، وهلّلنا عندما انزلقت إلى البحيرة الخضراء العميقة أمامنا.

لكن لا يزال أمامنا ستة أميال. بدلنا الرجال والخيول وجررنا جؤجؤها إلى الحيّز المتقلّب المدوّم التالي من المياه الوعرة التي تنتصب فيها صخور كرؤوس أفراس نهر هائلة مستعدة لتمزيق أخشابها الواهية بأنياب من الجرانيت. أمامنا ستة أميال من هذه المنحدرات الجحيمية نتفاوض معها، والموت والبليّة يدوّمان حول كل صخرة، لكن الحبال صمدت، وتابع الرجال والخيول كدّهم قُدمًا وصعودًا في نوبات.

مشت مولاتي على طول الضفة بجوار فرق الرجال المتعرقين. كانت تبدو غضةً وجذابة كوردة حتى تحت أشعة الشمس المُحمِّصة، ومنحهم ضحكها ومُزاحها غايةً جديدة. غنَّت أغاني العمل معهم، وبينما نمضي انضممتُ إلى جوقتها فرحنا نختلق كلمات جديدة، وضحك الرجال على المقاطع قليلة الحياء وشدوا الحبال بقوة مُتجددة.

امتطى الأمير **مِمنون** ظهر **نصل** في فريق الخيول المتقدم. كان **هُوي** قد ربط حبلًا على صدر الفرس وراء ساقيها الأماميتين ليمنحه ما يمسك به، ذلك أن ساقي **ممنون** لا تزالان أقصر من أن تمنحاه قبضة محكمة، وتبرزان بزاوية مخجلة من جانبي ظهر **نصل** العريض، فأخذ الأمير يلوّح بفخر لأبيه الواقف على مؤخرة سطح القادس.

عندما خرجنا أخيرًا إلى المجرى الهادئ العميق للنهر فوق المنحدرات، تحولت أهزوجة عمل المراكبيين إلى ترنيمة ثناء على **حابي**، التي رعَت مرورنا.

حالما عادت مولاتي إلى متن القادس، طلبت كبير البنائين، وأمرته بقص مسلّة من الهضبة الصخرية المحصورة في الخانق، وبينما نكدّ في جلب بقية الأسطول عبره، عمل البناؤون بالنار والإزميل لرفع عمود طويل ممشوق من الحجر المبقّع من الصخرة الأم. وعندما أتموا تحريره من أصله، نقشوا الكلمات التي أملتها مولاتي عليهم باستخدام الحروف الهيروغليفية الفرعونية التي طوّقت اسمها واسم الأمير في الإطار الملكي المزخرف.

***

استمررنا في عبور الجندل، وأخذنا نزداد خبرة مع كل خطوة نخطوها في مواجهة النهر.

استغرقنا يومًا كاملًا حتى حملنا ***أنفاس حورس*** فوق المنحدرات، وفي غضون الأسبوع التالي، صرنا ننجز النقلة في نصف الوقت، ونمرر خمسة أو ستة مراكب في الخانق معًا، فكادت القوادس تشبه الموكب الملكي في صعودها واحدًا تلو الآخر، رأسًا لعقب. عشرة آلاف رجل وما يقارب ألف حصان كانوا مطقّمين ومستعدين تحت أي ظرف.

وكان أكثر من مئة مركب يرسو على طول الضفة في المياه الخضراء الهادئة فوق المنحدرات عندما انقض علينا **الهكسوس** مرة أخرى.

تأخر الملك **ساليتيس** بسبب نهبه وسلبه مدينة **إلفنتين**، إذ لم يدرك من فوره أننا تابعنا صعود النهر حاملين القسم الأعظم من كنز الفرعون في عنابر قوادسنا، فقد أقنعه كل ما يعرفه عن النهر، وكل ما تمكن جواسيسه والسيد **إنتف** من إخباره به، بأن الجنادل حاجز لا يمكن الملاحة عبره، لذا أهدر كل هذا الوقت في **إلفنتين** قبل أن يعاود الانطلاق خلفنا.

كان قد فتّش المدينة والقصر على الجزيرة بدقة، ودفع للمخبرين وعذب الأسرى محاولًا معرفة ما مصير الكنز والأمير، وأخلص مواطنو **إلفنتين** لأميرهم خير إخلاص، فصمدوا أمام **الهكسوس** ليمنحوا أسيطيلينا الفرصة لإتمام العبور.

وبالطبع، لا يمكن أن يستمر ذلك لأجل غير مسمى، إذ انهارت في آخر الأمر روحٌ مسكينة تحت تعذيب الطاغية، فطقّم الملك **ساليتيس** خيوله من جديد وجاء يعصف بالأرض من ورائنا إلى خانق الجندل.

لكن **تانوس** كان مستعدًّا للقائه، وبأمر منه، اتخذ **كراتاس ورِمرِم وآستيس** تشكيلاتهم بعناية، وأُرسل كل رجل يمكن الاستغناء عنه من عملية سحب السفن عبر الخانق إليهم للدفاع عنه.

كانت البيئة أعظم حلفائنا، فالخانق منحدِر وصخري، والطريق الممتدة على الضفة ضيقة وملتوية ووعرة. وعند كل التفافة للنهر، تنتصب الجروف العالية شديدة الانحدار المثقبة بالكهوف، وكل منها حصن طبيعي يمكننا استغلاله.

نتيجة لذلك، كانت العربات عاجزة عن المناورة ضمن حدود الخانق. ولم يتمكنوا من ترك النهر والالتفاف حوله عبر الصحراء المفتوحة، ذلك أن الأراضي اليباب الترابية لا تحوي ماءً ولا علفًا لخيولهم، والطريق رخوة وغدَّارة، إضافة إلى أن عرباتهم الثقيلة ستنغرس وتضيع في الصحراء معدومة الطرقات قبل أن يتمكنوا من بلوغ النهر من جديد، فلم يكن أمامهم من حل بديل، وأُجبروا على الهجوم علينا في رتل واحد عبر ضفة النهر الضيقة.

من الناحية الأخرى، فقد مُنح **كراتاس** مُهلة مسهبة ليعزز الدفاعات الأرضية الطبيعية من خلال بناء أسوار حجرية في الأماكن التي يسهل الدفاع عنها، فمَوضَع نبَّالته في الجروف فوق هذه الروادع، وأعدّ انزلاقات صخرية صُنعيَّة فوق المرتفع المطل على الممر.

عندما وصلت طليعة **الهكسوس** إلى الخانق، استقبلهم وابل سهام من المتاريس المصوّنة بالصخور على المرتفع فوقهم، ثم عندما ترجلوا من عرباتهم ومضوا لإزالة الحواجز الحجرية التي وُضعت على الطريق، صاح **كراتاس** بالأوامر وضُربت الأسافين من تحت الانزلاقات الصخرية المتوازنة على حافة المنحدر.

هوَى الانهيار متدحرجًا عليهم، جارفًا الرجال والخيول والعربات عن الضفة إلى مياه النيل الخضراء المتدفقة. بينما راقبت أقف **وكراتاس** على الجرف رؤوسهم تتأرجح وتدور بين الشلالات، وسمعتُ رجع صيحاتهم الواهية اليائسة يتردد من الجروف قبل أن يشدّهم وزن دروعهم تحت سطح الماء ويغلبهم النهر.

كان الملك **ساليتيس** عنيدًا، وأرسل رغم ذلك المزيد من جحافله قدمًا لتُخلي الطريق، وغيرها لتتسلق الجروف وتطرد جنودنا من المرتفعات، فأصابت **الهكسوس** خسائر مخيفة في الرجال والخيول، بينما ظللنا سالمين تقريبًا. أمطرناهم بالسهام عندما أخذوا يكدحون في صعود الجروف بدروعهم البرونزية الثقيلة، ثم قبل أن يتمكنوا من بلوغ مواقعنا، أمر **كراتاس** رجالنا بالانسحاب إلى معقلنا التالي.

كان **تانوس** ومولاتي معنا على القمة عندما بدأ **الهكسوس** يتراجعون إلى الخانق، تاركين حطام عرباتهم مبعثرًا في الطريق رفقة معداتهم المهجورة وفُتات هزيمتهم.

فأعطى **تانوس** أمره: «انفخوا في الأبواق!»، وردد الخانق الجوقة الهازئة التي أرسلها في أثر جحافل **الهكسوس** المتقهقرة. كانت آخر عربة في الموكب البائس عربة الملك **ساليتيس** المذهبة المنقوشة، وحتى من مجثمنا على قمة المنحدر، تمكننا من تمييز قوامه الطويل الهمجيّ، بخوذته البرونزية الطويلة ولحيته السوداء المنسابة وراء كتفيه. ثم رفع قوسه التي يحملها بيمناه، وهزّها باتجاهنا ووجهه متغضنٌ إحباطًا وحنقًا.

راقبناه يغيب عن أنظارنا، ثم أرسل **تانوس** مستطلعينا ليتبعوهم إلى **إلفنتين** في حال كانت حيلة، أو انسحابًا زائفًا، لكنني عرفتُ في قلبي أن **ساليتيس** لن يتبعنا ثانية، وأن **حابي** قد برَّت بوعدها ومنحتنا حمايتها مرة أخرى.

ثم استدرنا، ومشينا على الممر الذي رسمته حوافر الماعز البري على امتداد المنحدر عودًا إلى حيث يرسو أسيطيلنا.

***

أنهى البناؤون العمل على المسلّة. كانت عمودًا من الجرانيت الصلب بثلاثة أضعاف طول رجل، وقد حددتُ أبعادها وشكلها على الصخرة الأم قبل أن

يقصوها، لذا كانت خطوط الصرح أنيقة وسارَّة للنظر حتى إنه بدا أطول بكثير حالما نُصب على قمة الجرف فوق آخر حيِّز جامح من الجندل، مطلًّا على محلّ نصرنا.

ثم اجتمع شعبنا كله تحته بينما تكرّس الملكة **لوستريس** الحجر لإلهة النهر، وقرأتُ جهارًا النقش الذي نقشه البناؤون على الصخرة المصقولة.

*أنا، الملكة **لوستريس**، الوصية على مصر وأرملة الفرعون **ماموس** الثامن، أم وليّ العهد **مِمنون**، الذي سيحكم المملكتين بعدي، أمرتُ بنصب هذا الصرح.*

هذه علامة وميثاق عهدي لشعب مصرنا، أني سأرجع إليهم من البرية التي دفعني إليها البربريّ.

*وُضع هذا الحجر هنا في أول عامٍ من عهد حكمي، العام التسعمئة بعد بناء الهرم العظيم للفرعون **خوفو**.*

فلينتصب هذا الحجر راسخًا كالهرم حتى أبرّ بوعد عودتي.

ثم، وعلى مرأى من الشعب كله، وضعت **ذهب البسالة** على أكتاف **تانوس وكراتاس ورِمرِم وآستس**، الأبطال الذين جعلوا عبورنا الجندل ممكنًا.

نادتني إليها آخرًا، وعندما ركعتُ عند قدميها، همسَت حتى لا يسمعها سواي: «أنى لي أن أنساك يا عزيزي المخلص **تايتا**؟ فما كنا لنبلغ هذا المبلغ لولا مساعدتك (ولمسَت خدي برقّة)، وأعرفُ كم تحب هذه الحُلي الجميلة»، ثم وضعت **ذهب الثناء** الثقيل حول عنقي. زنتُه لاحقًا ووجدتُ أن وزنه ثلاثون دبنًا، أثقل بخمس دبنات من السلسلة التي أسبغها الفرعون عليَّ.

في طريق عودتنا إلى جانب الخانق، مشيتُ بجوار مولاتي وحملتُ المظلة المصنوعة من ريش النعام فوق رأسها. ابتسمَت لي أكثر من مرة، وكانت كل ابتسامة أثمن عندي من السلسلة الثقيلة الهاجعة على كتفيّ.

عدنا في الصباح التالي إلى متن ***أنفاس حورس*** وأدرنا جؤجؤنا مرة أخرى إلى الجنوب. لقد بدأت رحلتنا الطويلة.

***

وجدنا أن النهر قد بدّل سحنته وشخصيته، فلم يعُد الحضور الواسع الهادئ الذي فرّج حيواتنا وحافظ عليها، بل صار كائنًا أصرم وأعنف، لا تحمل روحه إلا قليلًا من الرقة والرحمة، إذ ازداد ضيقًا وعمقًا، وازدادت الأراضي على جانبيه انحدارًا ووعورة، بينما انحفرت الخوانق والقيعان الجافة بفظاظة في الأرض الخشنة، وعبسَت الجروف المطلة المكفهرَّة في وجهنا بجبهات متغضنة.

في بعض المناطق، ضاقت الأراضي حتى اضطُرت الخيول والأبقار والخراف إلى المرور في رتل أحادي على الطريق الخشنة التي خطّتها حوافر الماعز الجبلي بين الجروف والماء، وفي مناطق أخرى، اختفى الطريق كليًّا حيث اقتربت الجروف والمنحدرات بجرأة من فيضان النيل. وحينئذ، لم يعد أمام قطعاننا طريق تعبرها، فاضطُر **هُوي** إلى قيادتها إلى النهر وحملها على السباحة عبر متّسع الماء الأخضر إلى الضفة البعيدة، حيث تراجعت الجروف مفسحةً لها الطريق لتمر.

وبالكاد رأينا أثرًا للحياة البشرية مع انقضاء الأسابيع. ذات مرة، وجد مستطلعونا هيكل قارب خشبي بسيط بالٍ جُرف إلى الضفة الرملية، وكتلة من الأكواخ المهجورة على الأرض المنخفضة، أسقفها المتدلية مصنوعة من القش والقصب، وجوانبها مفتوحة. وجدنا أيضًا بقايا رفوف لتدخين الأسماك ورماد نيران، لكن ذلك كل شيء، لم نرَ كسرة خزف أو خرزة أو أي إلماحة لهوية هؤلاء الناس.

كنا متشوقين لأول اتصال مع قبائل **كوش**، إذ إننا في حاجة إلى العبيد، فحضارتنا بكاملها قائمة على امتلاك العبيد، ولم نستطع جلب إلا قلة قليلة منهم معنا من مصر. كان **تانوس** قد أرسل مستطلعيه مسافة بعيدة أمام أسطولنا، حتى نحظى بتحذير كافٍ على أول المساكن بشرية ووقتًا يمكننا من تنظيم صيادي عبيدنا. ولم أرَ مفارقة في حقيقة أنني، وأنا عبد، أنفقتُ الكثير من وقتي وفكري في التخطيط لاستعباد الآخرين.

تُحصى الثروة كلها في أربع سلع: الأرض والذهب والعبيد والعاج، وكنا مؤمنين أن الأرض الممتدة أمامنا غنية بأربعتها، وإذا ما أردنا أن نبلغ من القوة ما يكفي لنرجع ونطرد **الهكسوس** من مصرنا، فعلينا اكتشاف هذه الثروة في الأرض المجهولة التي نبحر إليها.

أرسلت الملكة **لوستريس** المنقبين عن الذهب إلى التلال التي نقطعها على طول النهر، فتسلقوا الخوانق والوديان الجافة، يكشطون ويحفرون في كل بقعة محتملة، ويشظّون شظايا من شعاب المرو والشيست[1]، ثم يطحنونها ويغسلونها في صحن خزفي مُسطح، آملين أن يروا أثرًا برَّاقًا ثمينًا باقيًا في قعر الصحن.

خرج الصيادون الملكيون معهم بحثًا عن طرائد يطعمون بها جموعنا الغفيرة. بحثوا أيضًا عن أي دلالة على تلك الوحوش الرمادية العظيمة التي تحمل الأسنان العاجية الثمينة في رؤوسها الهائلة، وقد أجريتُ تحقيقًا نشيطًا عبر أسطولنا لعلّي أجد رجلًا سبق له أن رأى أحد تلك الفيلة حية، أو حتى ميتة، ورغم أن أسنانها شائعة في عالمنا المتحضر، لم يستطع أي رجل مساعدتي على تحقيقي، وشعرتُ بحماسة غريبة مجهولة السبب إزاء فكرة لقائنا الأول مع هذه الوحوش الأسطورية.

رأينا أيضًا جمهرة من المخلوقات الأخرى التي تقطن هذه الأرض البرية، بعضها نألفه وكثيرها غريب وجديد علينا.

حيثما وجدنا قصبًا على ضفة النهر، وجدنا قطعانًا من أفراس النهر الراقدة كالجلاميد الصخرية المستديرة في المياه الضحلة، وبعد جدال لاهوتيّ متبحِّر وطويل، ظللنا غير واثقين مما إن كانت هذه الوحوش فوق الجندل ملكًا للإلهة كأخواتها أسفله، أم طرائد ملكية من حق العرش. تشبَّث كهنة **حابي** بمعتقدهم تشبثًا شديدًا، لكن بقيتنا، بشهية مفتوحة لدهون هذه الحيوانات الغنية ولحمها الطري، خالَفْتهم الرأي.

وبالصدفة المحضة اختارت الإلهة **حابي** أن تتجلى لي في أحد أحلامي الشهيرة، إذ رأيتها تنهض من المياه الخضراء، مبتسمة بإحسان، وتضع في يد مولاتي فرس نهر ضئيل لا يزيد حجمه على حجم حجَل بري. وحالما أفقتُ، لم أضيع وقتًا في نقل فحوى هذا الحلم العجيب الشيِّق إلى الوصيَّة، فبحلول ذلك الوقت، صارت أحلامي وتكهناتي مقبولة لدى مولاتي، ومن ثَمَّ لدى بقية جماعتنا، على أنها شريعة الآلهة ورغبتها الواضحة.

في ذلك المساء، أولمنا جميعًا على شرائح لحم أبقار النهر الشهيَّة المشويَّة على الفحم فوق الضفة الرملية التي ترسو سفننا قبالتها. عزز هذا

(1) الشيست: صخر متحول عن صخور نارية أو رسوبية بفعل الضغط والحرارة. (المترجم).

الحلم سمعتي وشعبيتي بين الأسطول، وكانتا حسنتين بالفعل، أيما تعزيز، وظل كهنة **حابي** وحدهم لم تمسّهم موجة المشاعر الدافئة تجاهي.

كان النهر يغصّ بالأسماك، فقد صاد شعبنا أسفل الجندل لألف عام وتزيد، أما هذه المياه فلم يمسّها البشر ولا شِباكهم. أخرجنا أسماك فرخ زرقاء براقة أثقل من أسمن رجل في جماعتنا، ورأينا أسماك سلّور ضخمة، لها شوارب قضيبية بطول ذراعي، أقوى وأثقل من أن نلتقطها بالشباك، ذلك أنها، وبنقرة من ذيولها الضخمة، مزقت خيوط الكتان كأنها خيوط عنكبوت واهية، فصادها رجالنا في المياه الضحلة بالرماح كما يصيدون أبقار نهر. كان بمقدور أحد هذه العمالقة إطعام خمسين رجلًا لحمًا أصفر غنيًا يقطر دهنًا فوق نيران الطبخ.

تعلّقت أعشاش العقبان والصقور في الجروف فوق النهر، فبدت من الأسفل كأنها كتل من الأخشاب المجروفة، وطلَى ذرقُ الطيور الضخمة الصخورَ تحتها بخطوط بيضاء ساطعة. أخذت الطيور تحلق فوقنا على أجنحتها الواسعة، محوّمة ومتأرجحة فوق الهواء الساخن المتصاعد من صخور الخانق السوداء.

راقبتنا قطعان الماعز البري من الأعالي بسحنة جليلة مُتكبّرة بينما نمرّ، وخرج **تانوس** ليصطادها فوق منحدراتها الشاهقة، لكن مرَّت أسابيع عديدة قبل أن ينجح بجلب إحدى هذه الجوائز، فلها بصر الصقور ورشاقة السحالي الصخرية زرقاء الرأس التي يمكنها الركض ببالغ السهولة على جدار جرانيتي عمودي.

بلغ أحد هذه الأكباش من الطول ارتفاع كتف رجل، وانسابت لحيته من ذقنه وعنقه حتى لمست الصخرة التي يقف عليها. كان قرناه يلتفان على نفسيهما من قاعدتين عظيمتين مفرّجتين، وعندما أرداه **تانوس** أخيرًا، أرداه بسهم أطلقه عبر خانق عمقه مئة خطوة، من قمة إحدى التلال الوعرة إلى قمة أخرى، فسقط الماعز إلى الخليج ودار في الجوّ عدة مرات قبل أن يرتطم بالصخور في الأسفل.

وبسبب اهتمامي الشغوف بكل المخلوقات البرّية، جلب لي **تانوس** الرأس والقرنين بعد أن سلخ الجثة وقصبها، وتطلّب حمل هذا العبء الثقيل من تلك المنحدرات القاتلة قوّته الهائلة كلها، بينما نبحر إلى المجهول نظفتُ الجمجمة وبيّضتها ونصبتها تمثالًا حيزوميًا على جؤجؤ قادسنا.

***

مرَّت الشهور، وبدأ النهر يشحّ تحت سفننا مع انحسار الفيضان، وعندما عبرنا الرؤوس النهرية المائلة، رأينا ارتفاع النهر مُقاسًا على الجرف حيث تركت الفيضانات السابقة علاماتها.

كنتُ أجلس في الليالي رفقة **مِمنون** على متن السفينة إلى آخر وقت تسمح لنا أمه به ندرس معًا النجوم التي تنير قبة السماء بسناها الحليبيّ. علّمتُه أسماء وطبائع نقاط الضوء النارية هذه وتأثيرها في مصائر البشر المولودين تحتها. وبمراقبة هذه الأجرام السماوية، عرفت أن النهر لم يعد يحملنا مباشرة إلى الجنوب، بل صرنا ننحرف غربًا، وأثارت هذه الملاحظات جدلًا حاميًا آخر بين علماء جماعتنا وحكمائها.

اقترح كهنة **أوزيريس وآمون رع**: «إن النهر يأخذنا مباشرةً إلى حقول الفردوس الغربية»، وجادل كهنة **حابي** الذين مارسوا حتى اللحظة نفوذًا مفرطًا على مجالسنا: «إنها حيلة من حيل **سِت**، يريدُ أن يربكنا ويتوّهنا».

كانت الملكة **لوستريس** طفلة إلهتهم، وقد صار معظمنا متقبلًا بالعموم أن **حابي** راعية حملتنا، فغضبوا لرؤية مكانتهم تهتزّ بسبب هذا الانعطاف العاصي للنهر، وتعهدوا قائلين: «قريبًا سينعطف النهر جنوبًا مرة أخرى». لطالما روّعتني مشاهدة تلاعب هؤلاء الرجال منعدمي الضمير برغبات الآلهة لتوافق رغباتهم.

وقبل أن تُحَل القضية، وصلنا إلى الجندل الثاني.

كان ذلك الجندل أقصى حد تجرأ إنسان متحضر على بلوغه من قبل، ولم يتجاوزه أحد، وعندما استطلعناه ومسحناه، بدا سبب ذلك واضحًا وضوح الشمس، فمنحدراته أوسع وأعظم من التي قطعناها.

إذ انقسم النيل على امتداد مساحة شاسعة بين عدة جزر هائلة ومئات الجزر الأصغر حجمًا، وصار منسوب الماء أدنى حتى انكشف قاع النهر في معظم الأماكن، وأمامنا، امتدَّت متاهة من قنوات وفروع تتناثر فيها الصخور لأميال، وأرهبتنا عظمتها وخطورتها.

أخذ أولئك الذين يسهل إحباطهم يسأل بعضهم بعضًا: «وما أدرانا أنه لا يوجد جندل آخر، ثم ثالث، تحرس النهر؟ سنستنفد قوتنا ونجد أنفسنا في النهاية محاصرين بين المنحدرات بلا قوة لنتقدم أو نتراجع. علينا العودة الآن، قبل أن يفوت الأوان»، واتفقوا على ذلك فيما بينهم.

فقضَت مولاتي: «سوف نتابع المضي، وللراغبين بالعودة الآن مطلق الحرية، إلا أنه لا مراكب ستحملهم ولا خيول ستجرهم. سيرجعون وحدهم، وإنني واثقة بأن **الهكسوس** سيرحبون بهم ترحيبًا حارًا».

لم يقبل أحد عرضها السخي، وبدلًا من ذلك، نزلوا إلى شواطئ الجزر الخصبة التي خنقت مجرى النهر.

كان رذاذ المنحدرات الذي يرشّه الطوفان والمياه المترشّحة عبر التربة في أوقات الجزر قد حوّلت هذه الجزر إلى غابات وارفة، في تناقض صارخ مع الصحاري الجافة الرهيبة على كلتا الضفتين. ومن البذور التي جلبتها المياه من أقاصي الأرض، نبتت أشجار طويلة من نوع لم يره أيّنا من قبل في الطمي الذي كوّمته أمنا النيل على أساس الجزيرة الجرانيتي.

ولم نتمكن من محاولة عبور هذه المنحدرات حتى أتت النيل بفيضانها ومنحتنا عمق مياه كافٍ لقوادسنا، بعد شهور عديدة.

نزل مزارعونا إلى الشاطئ ونظفوا فسحة من الأرض ليزرعوا البذور التي جلبناها معنا، فتبرعمت في غضون أيام، وبدأت النباتات تنمو أمام أعيننا تحت أشعة الشمس الحارة. صارت الذرة البيضاء جاهزة للحصاد بعد أشهر قليلة، فعدنا نلتهم الفاكهة والثمار الحلوة التي اشتقنا إليها أيما اشتياق منذ غادرنا مصر، وتلاشت الدمدمة بين الناس.

وفي الحقيقة، كانت هذه الجزر جذابة وتربتها خصبة حتى إن بعض شعبنا بدأ الحديث عن الاستقرار الدائم هنا. ذهب وفد من كهنة **آمون رع** إلى مولاتي يطلبون إذنها بنصب معبد للإله على إحدى الجزر، فأجابتهم: «نحن مسافرون هنا، وفي النهاية سنرجع إلى مصر. هذا وعدي وقسمي لشعبي كله. لن نبني معابد أو مساكن دائمة، وحتى نرجع إلى مصر، سنعيش كالبدو، في خيم وأكواخ».

***

والآن وقد صار في متناول يدي خشب هذه الأشجار التي صادفناها على الجزر، صار بإمكاني إجراء تجاربي واكتشاف خصائصه المتعددة.

كان بينها سنطٌ خشبه ليّن وقوي شكّل قضبانًا لعجلات عربتي أفضل من أي مادة جربتها حتى اللحظة، فجعلتُ نجّاريّ ونسّاجيّ يبدؤون العمل على

إعادة تجميع العربات التي جلبناها معنا، وبناء عربات جديدة من الخشب والخيزران النامي على الجزيرة.

امتدت الأراضي المنبسطة على اتساع عدة أميال على الضفة اليسرى تحت الجندل، وسرعان ما عادت أسراب عرباتنا تتدرّب على هذه السهول الممهدة المفتوحة. ظلت قضبان العجلات تتكسر عند القيادة العنيفة، لكن بمعدّل أقل، وتمكنتُ من استدراج **تانوس** ليصعد صفيحة القدم مرة أخرى، إلا أنه رفض الركوب مع أي سائق سواي.

في الوقت نفسه، تمكنتُ من إنجاز أول قوس معقوفة ناجحة كنتُ أعمل عليها منذ غادرنا **إلفنتين**. صنعتها من توليفة مواد **لاناتا** نفسها: خشب وعاج وقرن، لكن بشكل مختلف، إذ ينعقف طرفاها العلوي والسفلي في وضع استرخائها إلى الخارج بعيدًا عن النبَّال، ولا يرجعان بالقوة إلى شكل القوس المألوف إلا عندما يوتَر السلاح، لكن بقوة شدّ تتضاعف في الوتر والجذع بما لا يتناسب البتة مع طوله الأقصر بكثير.

ونزولًا عند إلحاحي اللطيف، وافق **تانوس** أخيرًا على إطلاق القوس على سلسلة أهداف نصبتها له على الضفة الشرقية. لم يقل إلا القليل بعد إطلاقنا عشرين سهمًا، لكنني رأيتُ ذهوله من مداه ودقته، إذ إنني أعرف عزيزي **تانوس** حق المعرفة. كان محافظًا ورجعيًا حتى النخاع، **ولاناتا** حبه الأول، **لاناتا** المرأة **ولاناتا** القوس. عرفتُ أن الاعتراف بحب جديد سيعذّبه، لذا لم أثقل عليه في السؤال عن رأيه، وتركته يتقبّل الأمر على راحته.

وآنذاك جاءنا مستطلعونا ليبلغونا بقدوم مها مهاجرة من الصحراء. كنا قد رأينا عدة قطعان صغيرة من هذه الحيوانات المهيبة وقتما عبرنا الجندل الأول ترعى على الضفة، لكنها فرَّت إلى الصحراء حالما أبحرت سفننا باتجاهها، وما يبلغنا مستطلعونا به الآن هو هجرة جماعية لهذه الحيوانات لا تحدث إلا نادرًا. شهدتها مرة واحدة فقط من قبل، فعندما تحدث العواصف الرعدية الاستثنائية في الصحراء النائية كل عشرين عام أو نحوها، تجذب غزارة العشب الأخضر الذي ينبت من الأرض الندية قطعان المها المتبعثرة من مئات الأميال.

بينما تتحرك باتجاه المراعي الغضة إلى قطيع هائل واحد عبر الصحراء اندمجت القطعان، وما دام ذلك يحدث حاليًا، فقد منحنا الفرصة لنغير نظامنا الغذائي ونرسل عرباتنا في حركة جدية.

وللمرة الأولى، أظهر **تانوس** اهتمامًا حقيقيًّا بعرباتي، بعد أن صار أمامنا طرائد نلاحقها بها، وعندما اتخذ مكانه على صفيحة قدم مركبتي، لاحظتُ أن القوس المعقوفة الجديدة معلقة على الرف، لا قوسه القديمة الموثوقة **لاناتا**. ولم أنطق بأي كلمة، بل دفعتُ الخيول ووجهتها إلى الفجوة بين التلال التي فتحت لنا طريقًا من وادي النيل الضيق إلى الصحراء المفتوحة.

تألف سربنا من خمسين عربة، تتبعها دزينة مركبات ثقيلة لها عجلات مصمتة تحمل علفًا وماءً تكفي خمسة أيام، ومشينا خببًا في طابور ثنائي العربات بين صفيه ثلاث قصبات، في تشكيل جعلناه تشكيل سفرنا النظامي.

من أجل خفض الوزن، تعرينا جميعًا من كل شيء إلا الوزرات، وكان جميع رجالنا في حالة بدنية ممتازة إثر أشهر العمل الطويلة على مقاعد التجديف في قوادسنا، وجذوعهم مفتولة العضلات المدهونة بالزيت تلتمع تحت أشعة الشمس كأجساد الآلهة الشابة. حملت كل عربة راية تعريفها الملونة الزاهية على قضيب طويل لَدِنٍ من الخيزران، وقدمنا عرضًا شجاعًا في صعودنا ممر الماعز بين التلال. وعندما نظرت خلفي إلى آخر الصف، تأثرتُ، أنا الذي لم أكُن جنديًا قطّ، بالمشهد.

لم أرَ الحقيقة بوضوح آنذاك، لكن **الهكسوس** والخروج أجبرا أمتنا على اعتناق روح عسكرية جديدة. كنا عِرق علماء وتجار وكهنة، غير أننا بدأنا، بإصرار الملكة **لوستريس** على طرد الطاغية وقيادة السيد **تانوس**، نستحيل شعبًا محاربًا بسرعة.

وبينما نقود الطابور فوق قمم التلال، والصحراء المفتوحة منبسطة أمامنا، ظهر قوامٌ ضئيل من وراء آخر كومة صخور حيث كان يجلس في كمين.

فلجمتُ خيولي: «قفا! ما الذي تفعله هنا بعيدًا جدًّا عن السفن؟».

لم أكُن قد رأيتُ الأمير منذ العشية الماضية، وظننتُ أنه آمنٌ مع مربياته، لذا صدمتني مصادفته هنا على حافة الصحراء، وخرجَت لهجتي حانقة. لم يكُن آنذاك قد بلغ السادسة بعد، لكنه يحمل قوسه الدمية على كتفه، وتعلو محياه نظرة عازمة تحاكي نظرة أبيه وقتما يكون في أصعب أمزجته.

قال **مِمنون**: «ذاهب معك إلى الصيد».

وعارضته: «لا، لن تذهب، بل سترجع إلى أمك في هذه اللحظة، وهي أدرى بالتعامل مع الصبية الصغار الذين يتسللون من المعسكر من دون إخبار معلميهم بوجهتهم».

فصرّح قائلًا: «أنا وليّ عهد مصر (لكن شفته ارتعشت رغم هذا التصريح الجلل)، ولا رجل يجرؤ على منعي. إن قيادة شعبي في وقت الحاجة حقي وواجبي المقدس».

وصلنا إلى مرحلة خطرة، إذ بات الأمير يعرف حقوقه ومسؤولياته، وأنا من علمه إياها. إلا أنني، وبمطلق الصدق، لم أتوقع أن يطبقها بهذه السرعة. لقد جعل الأمر قضية عُرف ملكي، وصار من الصعب، بل من المستحيل، مجادلته، فسعيتُ سعيًا مستميتًا لأتملص منه.

قلت: «لمَ لم تسألني قبلًا؟»، محاولًا كسب الوقت وحسب.

فقال بصدق بسيط: «لأنك كنتَ لتذهب إلى أمي، وكانت لتؤيدك كما تفعل دائمًا».

هددتُه: «ما زال بإمكاني الذهاب إلى الملكة»، فنظر خلفه إلى الوادي حيث تبدو السفن صغيرة كالدمى، ثم ابتسم لي. كلانا يعرف أنني لا يمكنني أمر السرب بأكمله بالعودة كل هذه المسافة.

لكنه غيّر لهجته قائلًا: «أرجوك أن تسمح لي بالمجيء معك يا **تايتا**». العفريت الصغير يهاجمني على جميع الجبهات، ولطالما استحالت عليَّ مقاومته عندما يمارس سحره كله. ثم نزل عليَّ الإلهام، وقلت: «إن سيد **حاراب** قائد هذه البعثة، عليك سؤاله».

كانت العلاقة بين هذين الاثنين غريبة، إذ لا يعرف إلا ثلاثتنا -الأبوين وأنا- بأبوة **مِمنون** الحقيقية، وكان الأمير ينظر إلى **تانوس** على أنه معلمه وقائد جيوشه، ورغم أن حب **تانوس** قد نما في قلبه، فقد ظل يهابه مهابة شديدة. وليس **تانوس** من صنف الرجال الذين يعبث بهم صبيّ صغير، وإن كان أميرًا.

أخذ أحدهما يحدق إلى الآخر، ورأيتُ أن **مِمنون** يتفكّر بأفضل خطة هجوم، بينما شعرتُ **بتانوس** يتهدّج بسبب الجهد الذي يبذله في منع نفسه من الضحك.

قرر **مِمنون** اتباع النهج الرسمي: «يا سيد **حاراب**، أرغب بالمجيء معكم، وأظن أنه سيكون درسًا مفيدًا جدًّا لي. فبالنهاية، سأضطر يومًا ما إلى قيادة الجيش»، كنتُ قد علمته المنطق والجدل، وكان تلميذًا يُفخَر به.

تمكن **تانوس** من إخفاء تَسَلّيه بتجهُم مخيف وقال: «أهذا أمرٌ أيها الأمير **مِمنون**؟»، ورأيتُ الدموع تبدأ بالاحتشاد في عيني الأمير.

ثم هز رأسه هزةً بائسة: «لا يا سيدي (وعاد صبيًّا صغيرًا)، لكنني أرغب شديد الرغبة في الذهاب إلى الصيد معكم، رجاءً».

فأجابه **تانوس**: «ستأمر الملكة بشنقي، لكن اركب هنا أمامي أيها البلطجيّ الصغير».

كان الأمير يحب أن يناديه **تانوس** بالبلطجي، إذ إنها لفظةٌ عادة ما يستبقيها لرجال فوج الزرق، وجعل ذلك **مِمنون** يشعر أنه واحد منهم. أطلق صرخة بهجة وكاد يتعثر بقدميه في عجلته لإطاعة الأمر، فمدّ **تانوس** يده وقبض على ذراعه، وأرجحه رافعًا إياه إلى موضع آمن على صفيحة القدم بيننا.

صاح **مِمنون لصابرة ونصل**: «هيا!»، وقدنا السرب إلى الصحراء المفتوحة، لكن بعد أن أرسلتُ رسولًا إلى الأسطول يبلغ الملكة بأن الأمير في أمان، فلا توجد ملكة أشرس من مولاتي في حماية شبلها.

عندما أدركنا طريق الهجرة، وجدناه مساحة واسعة من الرمل المخضوض عرضها عدة مئات من الياردات، فحوافر المها عريضة ومفلطحة لتستطيع المشي على رمال الصحراء الناعمة، وتتركُ خلفها مسارًا مميزًا له شكل سنّ رمح **الهكسوس**. لقد مرَّت هذه الطريقَ آلاف عديدة من تلك الظباء الضخمة.

سأل **تانوس**: «متى؟»، فترجّلتُ لأتفحّص الأثر وأخذتُ مِمنون معي، ذلك أنني لم أضيّع فرصة لتعليمه قط. أريته كيف حتّ نسيم الليل آثار الحوافر، وكيف أضافت السحالي والحشرات الصغيرة آثارها إلى آثار القطيع.

أعطيتُ رأيي: «لقد مرَّت من هنا عشية الأمس عند الغروب (وحصلتُ على تأييد الأمير)، لكنها تسافر على مهل، وإذا حالفنا الحظ، فسنلحق بها قبل الظهيرة».

انتظرنا أن تلحق بنا العربات، ثم سقينا الخيول ومضينا نتبع الطريق الواسع الذي رسمته الحوافر بين الكثبان.

سرعان ما وجدنا جثث الحيوانات الأضعف التي استسلمت، وكانت إما الصغيرة جدًّا وإما المسنَّة جدًّا، وبينما تتسلل الثعالب الحمراء الصغيرة من الحواشي آملةً أن تنال قضمة أخذت الغربان والنسور تنعق وتتشاجر على بقاياها.

مشينا على الطريق العريضة حتى رأينا في آخر الأمر الغبار الخفيف يرتفع في الأفق الجنوبي، فحثثنا خطونا. وعندما علونا صفًا من تلال مُخدّدة تتراقص قممها في سراب الحرّ، رأينا القطعان منتشرة تحتنا، إذ بلغنا منطقة ضربتها عاصفة رعدية قبل أسابيع، وقد استحالت الصحراء على امتداد بصرنا حديقة زهور.

ربما هطلت آخر الأمطار هنا قبل مئة عام، وبدا الأمر مستحيلًا، لكن بذور الحصاد قد رقدت نائمة طيلة ذلك الوقت بعد أن أحرقتها الشمس ورياح الصحراء وجففتها، وتركتها تنتظر عودة الأمطار. كانت هذه المعجزة دليلًا للشكاكين بوجود الآلهة، وبرًا بوعد الخلود للشكاكين بأبدية الحياة، فإذا ما كان بمقدور الزهور أن تنجو هكذا، إذن فلا بدَّ أن روح الإنسان، الأروع والأثمن بما لا يقاس، ستعيش إلى الأبد أيضًا.

تلوّن المشهد تحتنا بتدرجات الأخضر الفاتح، وتميّزت خطوط التلال وحدودها بمسحات من أخضر أغمق، راسمةً بذلك خلفية لقوس القزح الرائع الذي أضاء الأرض، إذ نمت الورود في نبكات ودهاليز، وبدَت أزهار كل صنف منها تسعى إلى رفقة بنات صنفها مثلما تفعل قطعان الظباء وأسراب الطيور، فنمَى الأقحوان برتقالي اللون متجاورًا في برك وبحيرات، وكسَا ذو البتلات البيضاء منه سفح التلة كله، إلى جانب حقول الدلبوث الأزرق والزنابق القرمزية والخلنج الأصفر.

حتى أجمات النباتات الرفيعة في الخوانق والوديان، التي كانت تبدو محروقة وجافة كمومياوات رجال ماتوا قبل ألف عام، اكتسَت أثوابًا خضراء غضة وأكاليل من زهور صفراء توجت رؤوسها العتيقة الذاوية. ورغم أن الجمال طاغٍ الآن، عرفتُ أنه زائل، وأن الصحراء ستنتصر من جديد بعد شهر، فتذبل الأزهار على أعناقها، ويستحيل العشب غبارًا تنفخه عصفات الريح الحامية. لن يبقى من هذا الجمال إلا البذور الضئيلة كحبات الرمل، لتنتظر مرور السنوات ببالغ الصبر.

قال **تانوس** بإجلال: «ينبغي لجمال كهذا أن يشاركه المرء مع حبيبه، يا ليت الملكة معي الآن!».

ويثبت تأثره الشديد بهذا المشهد مدى عظمته، فهو جندي وصياد، لكنه، ولأول مرة، لم يفكر بالطريدة، بل أخذ يحدق إلى المنظر بمهابة دينية.

وكانت صيحة **كراتاس** من إحدى العربات خلفنا هي ما أيقظنا من هذا الحلم الجميل: «بحق أنفاس **سِت** النتنة! لا بدَّ أن ثمة عشر آلاف منها في الأسفل».

كانت المها منتشرة وصولًا إلى الأشكال الخضراء الظليلة للتلال الأبعد. ظل بعض ذكورها منعزلًا، مبعدًا الجميع عنه، أما البقية ففي قطعان من عشرة أو مئة، وبعضها لا يُحصى. بدت محض بُقَع غبراء، كظلال السحب على السهول، وخُيل إليَّ أن كل مهاة في إفريقيا قد جاءت إلى هذا الاجتماع.

سقينا الخيول من جديد قبل أن يبدأ الصيد، ومنحني ذلك فرصة للتقدم ومراقبة حشد الكائنات الحية هذا. وبالطبع، أخذتُ **مِمنون** معي، لكن عندما حاولتُ أخذه من يده حرر أصابعه من قبضتي وقال بجدية: «لا تأخذني من يدي أمام الرجال يا **تايتا**، سيظنون أنني ما زلتُ طفلًا».

وقتما وقفنا على خط الأفق، رفعت أقرب الحيوانات إلينا رؤوسها ولحظتنا بفضول معتدل، وخطر ببالي أنها على الأرجح لم ترَ إنسيًّا من قبل، وأنها لم تشعر بخطر في حضورنا.

المهاة كائن بديع، طويلةٌ طول الحصان، ولها الذيل الداكن المنساب الممتلئ نفسه والذي يكنس الأرض من ورائها. وجوهها مطلية بدوائر حلزونية وشروط مائلة سوداء على قناع شاحب ترابيّ اللون، وعلى أعناقها تنساب أعراف غامقة كثيفة تعزز المظهر الشبيه بالحصان، لكن قرونها لا تشبه قرون أي حيوان خلقته الآلهة، ممشوقة ومنتصبة ومائلة كالخنجر على حزامي. وهذه القرون أسلحة مرعبة ما دام الحيوان الذي يحملها حيّ، ففي حين أن الظباء الأخرى كلها وديعة وغير مؤذية، وتفضل الفرار على العنف، المها مستعدة للدفاع عن نفسها أمام هجوم أسدٍ حتى.

حَكيتُ **لمِمنون** عن شجاعتها وقوة احتمالها، وشرحتُ له أنها قادرة على عيش حياتها كلها من دون شرب الماء من بركة أو نهر: «تحصل على مائها من الندى، ومن الجذور والدرنات التي تنبشها بحوافرها من أرض الصحراء».

وأنصتَ بتوق شديد، ذلك أنه ورث حب المطاردة من دماء أبيه، وتعلم مني توقير كل مخلوقات البرية.

قلت له: «الصياد الحقيقي يفهم ويحترم الطيور والحيوانات التي يصيدها»، وأومأ بجدية.

- أريدُ أن أصير صيادًا وجنديًّا حقيقيًّا، مثل السيد **تانوس** تمامًا.

- لا يولد المرء بمواهب كهذه، بل عليه تعلمها، مثلما عليك أن تتعلم كيف تصير حاكمًا عظيمًا وعادلًا.

شعرتُ بغصة حسرة عندما ناداني **تانوس** قائلًا إن الخيول قد ارتوت، ونظرتُ خلفي فرأيتُ السائقين يركبون العربات. كنتُ لأفضل قضاء بقية ذلك اليوم مع أميري نشاهد العرض الملكي على السهول تحتي، لكنني عدتُ على مضض لأمسك اللجم وأقود عربتنا إلى رأس الصف.

أوتر النبَّالة أقواسهم على صفائح أقدام العربات الأخرى، وقد استبدَّت حميَّة الصيد بالرجال جميعهم فصاروا ككلاب صيد مربوطة برسنٍ قصير ورائحة الطريدة في أنفها.

صاح **كراتاس** لنا: «هيه! سيد **تانوس**! ما رأيك برهان على الحصيلة؟».

وقبل أن يرد **تانوس**، غمغمتُ: «أضف رهانًا لأجلي، فهذا المتشدّق الكبير لم يطلق سهمًا عن متن عربة مسرعة من قبل».

ثم ردّ **تانوس**: «على القتلات الصحيحة فقط، أي حيوان فيه سهم رجل آخر لا يُحتسب (فلكلّ نبَّال رمز خاص يعلّم به جذوع سهامه حتى يحصدها لاحقًا، وكانت علامة تانوس **وادجيت**، عينُ حورس الجريحة) - دبنٌ ذهبي واحد عن كل مهاة فيها سهمك».

فاقترحتُ: «اجعلها دبنين، واحد عني». لستُ رجلًا مقامرًا، لكن هذه ليست مقامرة، **فتانوس** يحمل قوسه المعقوفة الجديدة، وأنا أفضل سائق عربة في جيشنا كله.

كنا لا نزال مبتدئين، لكنني درستُ استخدام **الهكسوس** للعربة، ونُقشت كل حركة أدتها أسرابهم في ذلك اليوم الفظيع على سهل **أبنوب** في ذاكرتي. لذا لم أرَ الأمر مجرد صيد لحم ولهو، بل مِرانًا وتدريبًا على لعبة الحرب الأعظم بكثير. كان علينا تعلُم تسيير تشكيلاتنا أحسن تسيير والسيطرة عليها

في لجة المعركة ومعمعتها، بينما تتبدل الظروف مع كل حركة من حركات العدو، وكل طارئ ومخاطرة تطرأ في الحرب.

وبينما نمشي خببًا إلى السهل، أعطيتُ الإشارة الأولى، وانقسم الطابور إلى ثلاثة أرتال. انفتح طابورنا بسلاسة كما تنفتح أوراق زنبقة، والتفّت الأجنحة كقرني ثور لتطوّق الطرائد، بينما انتشر الرتل الأوسط إلى صف عرضي تفصل بين عجلات عرباته مساحة تتسع لثلاث عربات، لنشكّل صدر الثور، ويحاصر القرنان العدو بينما نطحنه بعناقنا الوحشي.

وأمامنا، رفعت قطعان الغزلان المتناثرة رؤوسها وحدقت إلينا أول تحديقة هلع، ثم بدأت تنجرف مبتعدة وتجمع رفاقها بينما تمرّ، فتندمج القطعان الصغيرة بقطعان أكبر، مثلما يجرّ جلمود يتدحرج على منحدر انزلاقًا صخريًا معه. وسرعان ما صار السهل كله يضج تحت حوافر المها، إذ أخذت تهرول بحركة مهتزة غريبة، وارتفع الغبار في ضباب باهت تعلّق فوق ظهورها المتمايلة، بينما تتأرجح ذيولها الطويلة الداكنة من جانب إلى آخر.

خفضتُ سرعة سربي حتى صار يمشي مشيًا، إذ لم أُرِد إرهاق الخيول مبكرًا أكثر مما ينبغي بمطاردة طويلة وعنيفة، وكنتُ أراقب سحب الغبار الأكثف والأعلى التي يثيرها رتلانا الآخذان في تطويق القطيع من كلا جانبيه.

وأخيرًا، التقيا في المقدمة البعيدة، وانغلقت الحلقة، فأبطأت قطعان المها عندما رأت طريق فرارها ينسدّ، وبدأت تتحرك في مكانها بارتباك عندما استدارت المها التي في المقدمة وركضت إلى الصفوف الخلفية.

وإطاعة لأوامري، أبطأت الأجنحة أيضًا حالما أتمّت حركة التطويق إلى سير هادئ، وأخذت تتقدم إلى مركز الدائرة. أحكمنا قبضتنا على قطيع المها الضخم، وأطبقناها عليه على مهل، فتوقفت معظم الحيوانات الحائرة في مكانها، غير واثقة في أي اتجاه ينبغي أن تركض، وحيثما حدقت، رأت صفوف العربات تنقض عليها.

اقتربنا أكثر على إيقاع سير ثابت وخيولٍ لا تزال نشِطَة وتوّاقة للركض. وكانت قد استشعرت الحماسة، فبينما تصهل وتقلب أعينها حتى يظهر بياضها رفعت رؤوسها وأخذت تقاتل اللُّجُم. بدأ قطيع المها بالتحرك من جديد، لكن باتجاه غير محدد، وراحت الحيوانات تتخبط حول نفسها ثم تنطلق انطلاقًا مترددًا في اتجاه ما قبل أن تتوقف وتستدير وتعدو عائدة.

سرّني انتظام السرب وانضباطه، فقد حافظ السائقون على التشكيلات بحزم من دون أن يتقدم أحدهم زيادة عن البقية ويفتح ثغرة في الصفوف، وكانت الإشارات التي أعطيها تنتقل عبر الصف وتُطبق من فورها. بدأنا أخيرًا نستحيل جيشًا، وقريبًا نتمكن من مواجهة أي خصم بحالة ملائمة، حتى محاربي **الهسكوس** القدامى الذين قضوا حيواتهم كلها على صفائح أقدام العربات.

مددتُ يدي خلفًا وأخذتُ بذراع الأمير **مِمنون** فشددته إلى الأمام وأوقفتُه أمام الحاجبة حاشرًا إياه بجسدي، فقبض على اللوح الأمامي، وصارت كلتا يدي **تانوس** حرة ليطلق قوسه، والأمير في أمان.

ناشدني **ممنون**: «دعني أمسك اللجُم يا **تايتا**، سأقود أنا»، وكنتُ قد تركتُه يقود من قبل، لذا قال ذلك بجدية، رغم أن طوله بالكاد يمكّنه من الرؤية من فوق الحاجبة، ولم أجرؤ على الهزء به، فقد كان آخذًا نفسه على محمل الجد.

صرنا في آخر الأمر على بُعد أقل من مئة خطوة من أقرب مهاة، وصار الضغط عليها أشدّ من أن تحتمله، فهجمت مئة منها بقيادة أنثى عجوز مُندَّبة على صفنا مباشرة هجومًا جماعيًا. قصّرنا صفنا آنذاك عند إشارتي حتى كادت تتلامس عجلاتنا، فصرنا جدارًا مصمتًا من خيول ورجال، ثم نفخ النافخون في أبواقهم، وأطلقتُ العنان لخيولي لتعدو بسرعتها القصوى وتلاقيها.

أخذ **تانوس** يطلق سهامه من فوق كتفي الأيمن، ورأيتُ كلًا منها يحلّق عبر الفتحة الآخذة بالانغلاق. كانت تلك أول مرة يطلق فيها عن ظهر عربة ماشية، فبينما تجري العربة إلى قطيع المها الراكضة أخطأت سهامه الثلاثة الأولى أهدافها، لكنه كان نبّالًا جهبذ وعدّل تصويبه بسرعة. أصاب سهمه التالي العجوز قائدة الهجمة في منتصف صدرها، ولا بدَّ أنه شق قلبها، ذلك أنها سقطت وتمرّغ أنفها بالتراب ثم انقلبت على رأسها، فمالَت الحيوانات التالية على كلا جانبيها مانحة إياه أهدافًا عريضة، وأذهلتني رؤية سهميه التاليين يلتفان ويتأخران عنها.

دائمًا ما يدفع الإغراءُ المرء إلى الإطلاق على الهدف الراكض مباشرة، لا على الفراغ في الهواء أمامه حيث سيكون عندما يبلغه السهم، ويزداد حساب التصويب المتقدم هذا تعقيدًا بسبب حركة العربة بالنسبة للهدف. حاولت تسهيل التصويب عليه من خلال تسيير العربة مع حركة الطرائد، لكن لا فرق، ولم أتفاجأ عندما أخفق سهمان آخران من سهامه.

ثم عدّل شيخُ النبّالة تصويبه، وانغرس السهم التالي حتى ريشاته في صدر المهاة التالية. قتل بعدئذ ثلاثًا أخرى بثلاثة أسهم، بينما انهار الصيد من حولنا إلى معمعة جامحة، وحجب الغبار كل شيء إلا البارقات القريبة للعربات المتسارعة والحيوانات الراكضة.

كنت أقود عربتي قريبًا من زوج مها وأتجاوزه ببطء وقتما قذفت حوافر إحداها شظية صوان حادة بحجم آخر مفصل في إبهامي أصابَت **مِمنون** في جبهته قبل أن يتمكن من تحاشيها، وعندما نظر إليَّ، رأيتُ الدم يقطر من الجرح السطحي فوق عينه.

صحتُ: «لقد أُصبتَ يا **مِم**»، وبدأتُ ألجم الخيول.

فقال: «ليست إصابة تُذكر (ومسح الدم بحاشية شاله)، لا تتوقف يا **تايتا!** ابقَ خلفهما، فسيهزمنا **كراتاس** إن لم تفعل».

تابعتُ القيادة إلى سحابة الغبار بينما تغني قوس **تانوس** أغنيتها الرهيبة بجواري، وصاح **مِمنون** ووَعوَع حماسةً مثل جرو يطارد أرنبًا لأول مرة.

تحررت بعض المها من صفوفنا وهربت إلى الصحراء المفتوحة، بينما استدار بعضها بعضًا عائدًا إلى المصيدة. أخذ الرجال يصيحون حماسة ونصرًا، والخيول تحمحم، بينما تخنفر المهاة وتجأر انهالت عليها السهام وأسقطتها في كتل متشابكة من الحوافر المرفوعة والقرون المنجليَّة. ثم عمّ هدير الحوافر والعجلات محيطنا كله، وانغمسنا في ضباب التراب الأصفر.

حتى أجود الخيول وأكثرها جاهزية ثمة حد لقدرتها على الركض بسرعتها القصوى، لذا عندما لجمتُ **صابرة ونصل** أخيرًا إلى سيرٍ خفيف، كان التراب قد انعجن طينًا بالعرق الذي أزبد على جنبيهما، ودلّتا رأسيهما تعبًا.

ثم تنحَّت سحب الغبار التي حجبَت الميدان جانبًا على مهل وتفرّقت، وكشفت عن منظر فظيع.

كان سربنا منتشرًا على السهل كله، وأحصيتُ خمس عربات تكسّرت عجلاتها في أثناء المطاردة. بدت المركبات المنقلبة كألعاب مكسورة لعملاق نزِق، وبينما رقد الرجال المصابون على الأرض الترابية بجوار عرباتهم المحطمة انحنى رفاقهم فوقهم يطببون جراحهم.

وحتى العربات التي نجَت من دون أضرار كانت مركونة في مكانها بخيول مُنهكة تلهث وتنتفخ أجنابها بينما تجاهد لتتنفس، والرغوة البيضاء تقطر من خُطُمِها، وكلها منقوعة بالعرق كأنها قد عبرت النهر سباحة.

تبعثرت الطرائد فوق الحقل بالاضطراب نفسه وانعدام الهمَّة والرغبة. كان الكثير من تلك الوحوش الضخمة ميتًا ترقد جيفته ممددة على جنبها، والكثير غيرها مُعاقًا ومشوهًا. وقف بعضها مدلّيًا رأسه، وبعضها أخذ يعرج مبتعدًا بين الكثبان بخطوٍ بطيء متردد، وقد تركت جذوع السهام بقعًا داكنة من الدماء الرطبة على الجلود الشاحبة غبراء اللون.

كانت هذه النهاية المؤسفة لكل صيد، وقتما تبرُد الحماوة والحماسة، وينبغي جمع الطرائد الجريحة وإعفاؤها من بأسائها.

رأيتُ بجوارنا ذكر مهاة عجوزًا جالسًا على نصفه الخلفي المشلول وساقاه الأماميتان متخشبتان أمامه. كان السهم الذي شلّه يبزغ عاليًا من ظهره، وعرفتُ أن سنّه قد قطع عموده الفقري، فأخذتُ القوس الثاني عن رف اللوح الجانبي للعربة وقفزتُ عن صفيحة القدم إلى الأرض. وبينما أمشي ناحية الذكر المعاق، رفع رأسه ليراقبني، ثم بذل جهدًا شجاعًا أخيرًا، إذ جرّ ساقيه الخلفيتين المشلولتين متقدمًا ناحيتي وأخذ يشقّ الهواء بقرنيه الطويلين في وجهي، لكن عينيه كانتا غارقتين بدموع الألم القاتل، واضطررتُ إلى إرسال سهمين إلى عمق تجويف صدره قبل أن يطلق أنةً أخيرة وينقلب على جانبه، ثم ركل ركلةً متشنجة ورقد من دون حراك.

عندما عدتُ وصعدتُ إلى العربة، ألقيتُ نظرة إلى الأمير، ورأيتُ عينيه دامعتين ووجهه الملطخ بالدم متغضنًا شفقةً على المهاة. أشاح بوجهه عني حتى لا أرى دموعه، لكنني فخرتُ به، فمن لا يشفق على طريدته ليس صيادًا حقيقيًا.

أحطتُ رأسه أجعد الشعر بيدي وأعدتُ وجهه إليَّ، ثم نظفتُ جرح جبهته برفق وضمدته بشريطة كتان.

خيمنا تلك الليلة على سهل الزهور، وعطّر شذاها العذب الظلمة، مغطيًا على رائحة الدماء حديثة الإراقة.

لم يكُن القمر ظاهرًا، لكن النجوم رصّعت قبة السماء كلها، واستحمَّت التلال بضيائها الفضي. سهرنا حتى وقت متأخر بجوار نيران المعسكر،

وأولمنا على أكباد وقلوب المها المشوية على الجمر. وفي البدء، جلس الأمير بيني وبين **تانوس** بجوار النار، لكن الضباط والرجال تنافسوا على انتباهه، فقد أسر قلوبهم، وراح يتنقل بيُسر من مجموعة لأخرى تلبية لدعواتهم، فقوّموا ألفاظهم ومزاحهم لتلائم أذنيه، وكان الأمير مرتاحًا بصحبتهم.

ثم أثاروا هرجًا ومرجًا حول رأسه المضمد، وقالوا له: «لقد صرتَ جنديًّا حقيقيًّا الآن، كأنك واحد منا»، وأخذوا يرونه ندوبهم.

بينما يراقبه كلانا بفخر قلت **لتانوس**: «لقد فعلتَ الصواب بالسماح له بالمجيء معنا، فهذا أفضل تدريب يمكن لأي تلميذ عسكري أن يناله على الإطلاق».

فوافقني: «إن الرجال يحبونه بالفعل. ثمة شيئان يحتاج الجنرال إليهما، أولهما الحظ، وثانيهما إخلاص رجاله».

قررتُ قائلًا: «يجب أن يُسمح **لِممنون** بمرافقة جميع الحملات، طالما أنها ليست بالغة الخطورة»، وقهقه **تانوس**.

- سأتركُ أمر إقناع أمه بذلك لك، فثمة أمور تتجاوز قدرتي على الإقناع.

على الجانب الآخر من المعسكر، انشغل **كراتاس** بتعليم **مِمنون** النسخ النظيفة من كلمات أغاني الزحف الخاصة بالفوج، فللأمير صوتٌ عذبٌ صافٍ، وأخذ الرجال يصفقون على الإيقاع، ويشاركون في غناء اللازمة. احتجوا بصخب وخشونة عندما حاولتُ أخيرًا إرساله إلى الفراش الذي جهزتُه له تحت هيكل العربة، ونالوا دعم **تانوس** حتى.

إذ أمرني: «دع الصبي يسهر معنا قليلًا بعد»، وكان الوقت قد تجاوز منتصف الليل بكثير عندما تمكنتُ أخيرًا من لفّ الأمير ببساط جلد الخروف الخاص بي.

سألني وقد أخذه النعاس: «**تايتا**، هل سأتمكن من إطلاق السهام مثل السيد **تانوس** يومًا ما؟».

- ستصير أحد جنرالات مصرنا العظماء، ويومًا ما، سأنقش سردًا لانتصاراتك على مسلّات من حجر، حتى يعرف بها العالم كله.

فكّر بذلك بعض الشيء ثم تنهّد قائلًا: «أستصنع لي قوسًا حقيقية، لا مجرد دمية أطفال؟».

فوعدتُه: «حالما تتمكنُ من شدّه».

قال: «أشكرك يا **تايتا**. يروقني ذلك»، وغط في النوم فجأة كأنني نفختُ لهيب سراج.

***

عدنا ظافرين إلى الأسطول بعربات محملة بلحوم قطيع المها المملحة والمجففة تحت الشمس. توقعتُ أن تؤنبني مولاتي بشدة لاختطافي الأمير، وكنتُ قد جهزتُ حجتي واعتزمتُ إلقاء اللوم بكامله على كتفي سيد **حاراب** العريضتين، إلا أن تأنيبها كان أخفَّ من توقعاتي، إذ قالت **لِممنون** إنه صبي طالح لأنه أقلقها، ثم عانقته حتى داهمه خطر الاختناق، وعندما التفتت إليَّ، بدأتُ شرحًا مطوّلا لدور **تانوس** في المسألة، وقيمة التمرين والخبرة التي تلقاها الأمير، لكن بدا أنها قد صرفت النظر عن الواقعة برمتها.

سألتني: «متى ذهبتُ وإياك لصيد السمك آخر مرة؟ اجلب جِراب صيدك يا **تايتا**، سنأخذ أحد زوارقنا ونذهب إلى النهر، كلانا فقط، كما كنا نفعل في الأيام الخوالي».

عرفتُ أننا لن نصيد إلا قليلًا، وأنها ترغب في الاختلاء بي على النهر حيث لا يمكن لأحد استراق السمع. أيًا كان ما يؤرقها، فلا بدَّ أنه مسألة جدية.

جدفتُ مع التيار على المياه الخضراء البطيئة المنحسرة حتى خبأتنا حنية النهر والجرف الصخري العالي عن الأسطول، وباءت جميع محاولاتي لبدء محادثة بالفشل، لذا وضعتُ مجدافي جانبًا وحملتُ عودي، ورحتُ أعزف وأغني النغمات التي تحب، منتظرًا أن تتكلم.

نظرت إليَّ أخيرًا، وكانت عيناها ممتلئتين بمزيج غريب من الغبطة والقلق.

- أظن أنني سأنجب طفلًا آخر يا **تايتا**.

لا أعرف لمَ فاجأني تصريحها إلى هذه الدرجة، فبالنهاية، كانت تجتمع بقائد جيشها كل ليلة منذ غادرنا **إلفنتين** في خلوة سرية في حين أقف حارسًا على باب قمرتها. بلغتُ من الفزع أن تجمدت يدي على أوتار العود وماتت الأغنية في حلقي، واحتجتُ إلى عدة لحظات قبل أن أسترد صوتي.

سألتها بحياء: «أكنتِ تستخدمين نقيع الأعشاب الذي حضرته لك يا سيدتي؟».

ابتسمتْ بخجل: «استخدمته مرات، ومراتٍ نسيت. أحيانًا يكون السيد **تانوس** رجلًا عجولًا جدًّا، وأيضًا، من غير الرومانسي أبدًا العبث بالقدور والبرطمانات عندما توجد أمور أفضل وأكثر إلحاحًا تنتظر أن نفعلها».

- أمور كإنجاب أطفال لا آباء ملكيين لهم.

- الأمر جديّ بعض الشيء، أليس كذلك يا **تايتا**؟

بينما أصيغ جوابًا عزفتُ تآلفًا على العود: «جدي بعض الشيء؟ أوه، أظنك استخدمت الكلمة الخاطئة. إذا ما أنجبتِ نغلًا، أو اتخذتِ بعلًا، فستُلزمين بالتخلي عن الوصاية. هذا هو العرف والقانون. سيكون السيد **ميركيسيت** التالي في صف الوصاية، لكن ستنشب حرب خفية بين النبلاء على المنصب، ومن دون حمايتك بصفتك الوصية، سيكون الأمير في خطر جلل. سيمزّقنا الصراع الطاحن...»، ثم توقفتُ، وارتعشتُ إزاء ذلك الاحتمال.

فاقترحَتْ بفرح: «يمكن **لتانوس** أن يصير وصيًا، وآنذاك يمكنني أن أتزوجه».

قلتُ لها بتجهُم: «لا تحسبي أنني لم أفكر بذلك من قبل، إذ سيكون الحل لجميع مصاعبنا، لكن مشكلتنا في **تانوس**».

ابتسمتْ ابتسامة راحة: «إذا ما طلبتُ منه ذلك فسيسرّ بفعله، وأنا واثقة بما أقول. ثم أصير زوجته، ولا يعود لنا حاجة بممارسة هذه الأكاذيب والذرائع لنكون معًا».

- يا ليت الأمر بهذه السهولة، لكن **تانوس** لن يوافق أبدًا. لا يمكنه...

صرخت: «ما هذه السخافة؟» وأبرقت عيناها ببارقة الغضب الأولى، فعجلتُ في كلامي.

- في تلك الليلة **بطيبة**، ليلة أرسل الفرعون الرجال لاعتقال **تانوس** بتهمة إثارة الفتن، حاولنا إجباره على الاستيلاء على العرش. أقسم **كراتاس** وجميع ضباطه على دعمهم له، كما أقسم الجيش كله، وأرادوا الزحف إلى القصر وتنصيبه على العرش.

- لمَ لم يوافق؟ كان ليصير ملكًا رائعًا، وكان لينقذ جميعنا من غمّ كثير.

- ازدرى **تانوس** عرضهم، وأعلنَ أنه ليس بخائن، وأنه لن يجلس على عرش مصر أبدًا.

فهتفَت بغضب: «كان ذلك منذ وقت بعيد، وكل شيء قد تغير».

- لا، لم يتغير. لقد أقسم **تانوس** قسمًا في ذلك اليوم، ونادى الإله **حورس** أن يشهد عليه. أقسم أنه لن يعتمر التاج أبدًا.

- لكن ذلك لم يعُد يحتسَب، يمكنه التراجع عن قسمه.

سألتها بإلحاح: «أكنتِ لتتراجعين عن قسمٍ أقسمته على مرأى من الإله **حورس**؟»، فأشاحت بنظرها ودلَّت رأسها.

ألححتُ أكثر: «أكنتِ لتفعلين ذلك؟»، فهزَّت رأسها على مضض، وهمسَت: «لا».

فشرحتُ لها بلطف: «و**تانوس** مقيّد بقواعد الشرف نفسها. لا يمكنك أن تطلبي منه فعل ما لا تجرؤين نفسك على فعله. يمكننا بالطبع أن نرجع القرار إليه، لكن كلانا يعرف ماذا ستكون إجابته».

نظرت إليَّ بتلك الثقة العمياء التي تغضبني: «لا بدَّ أن ثمة شيئًا يمكنك فعله، صحيح؟».

في كل مرة أوصلت نفسها إلى أخطر الأخطار، كانت تلجأ إليَّ ببساطة وتقول: «لا بدَّ أن ثمة شيء يمكنك فعله، صحيح؟».

- أجل ثمة شيء، لكنك لن توافقي عليه مثلما لن يوافق **تانوس** على اعتمار التاج.

فهمتني من فورها، ونكصت فزعًا كأنني ضربتُها: «إذا كان في قلبك أي حب لي فلن تقترح ذلك حتى. أفضل الموت على أن أقتل معجزة الحب هذه التي وضعها **تانوس** في رحمي. الطفل يمثله ويمثلني ويمثل حبنا، ولن أقتل كل ذلك».

- إذن يا صاحبة الجلالة، لا شيء آخر يمكنني اقتراحه.

ابتسمَت لي بثقة واطمئنان عظيمين ابتسامة سلبَت أنفاسي: «أعرف أنك ستجد حلًا يا عزيزي **تايتا**، دائمًا ما تفعل».

فحلمتُ حلمًا.

***

سردتُ حلمي أمام اجتماع كامل النصاب لمجلس الدولة عقدته وصيَّة مصر.

جلسَت الملكة **لوستريس** والأمير **مِمنون** على العرش العالي فوق مؤخرة سطح ***أنفاس حورس***، وكان القادس راسيًا على الضفة الغربية للنيل، وأعضاء المجلس جالسين على الشاطئ تحته.

مثّل السيد **ميركيسيت** والنبلاء السلطة الدنيوية للدولة، ومثل الكهنة الأعلون **لآمون رع وأوزيريس وحابي** السلطة الدينية، بينما مثل سيد **حاراب** وخمسين ضابطًا كبيرًا الجيش.

وقفتُ على السطح المفتوح تحت العرش مواجهًا هذا الجمع المرموق، وقد بذلتُ جهدًا أكبر من المعتاد حتى فيما يخص مظهري، فجعلتُ مكياجي مُتقنًا وجذابًا، وزيّنت شعري بالزيوت العطرية وسرحته تسريحة اللفائف التي درّجتُها بين الناس، ثم ارتديتُ سلسلتي **ذهب الثناء** حول عنقي، وكانت قيادة العربة قد شدَّت عضلات صدري وذراعيّ وفتلتها. لا بدَّ أنني قدمتُ لهم مظهرًا جماليًّا استثنائيًّا، إذ نظر الكثير منهم إليَّ فاغرًا فمه، ورأيتُ الشهوة في أعين أولئك الذين مالَت نوازعهم باتجاهي.

حييتُ الزوج الجالس على العرش التحية الخفيضة: «صاحبي الجلالة»، وابتسم لي الأمير **مِمنون** بشيطنة. كان رأسه لا يزال مضمدًا رغم أن الضمادة لم تعُد ضرورية، إلا أنه كان فخورًا بجرحه الحربي حتى إنني اضطررتُ إلى تركه يبقيها. ثم عبستُ به، فعدّل تعابيره لتتناسب أكثر مع الحدث.

- يا صاحبة الجلالة، حلمتُ البارحة حلمًا غريبًا ورائعًا أشعرُ أن من واجبي قصّه عليكم، وأطلب منكم الإذن بالكلام.

ردّت الملكة **لوستريس** بلطف: «أفرادُ هذه الصحبة جميعهم مدركون النعمة المقدسة التي مُنيتَ بها، وأنا والأمير نعرفُ أنك قادرٌ على رؤية المستقبل، وعلى التكهن بإرادة الآلهة ورغباتها من خلال الأحلام والرؤى. آمركُ الآن بالكلام عن هذه الخفايا».

فانحنيتُ ثانية وأدرتُ وجهي إلى المجلس.

- نمتُ البارحة عند باب القمرة الملكية، كما يملي عليَّ واجبي، وكانت الملكة **لوستريس** راقدة وحدها في مضجعها، والأمير نائم في كوّته وراء سريرها.

حتى السيد **ميركيسيت** انحنى قدُمًا ووضع يده المكوّرة على أذنه الصالحة، ذلك أن الأخرى صمَّاء تمامًا، وجميعهم يحب سماع قصة جيدة ونبوءة ساحرة.

- أفقتُ في الهزيع الثالث ورأيتُ ضوءًا غريبًا يشعّ على طول السفينة، وشعرتُ بريح باردة تهب على خدي رغم أن الأبواب والفتحات مغلقة كلها.

ضج جمهوري اهتمامًا، فقد أصبتُ الوتر الروحيّ الصحيح.

«ثم سمعتُ وقع أقدامٍ يرجّع بطن السفينة صداه، وقع أقدام بطيء وجليل، لم يصدر مثله عن إنسانٍ فانٍ قط (وتوقفتُ وقفة درامية)، جاءت هذه الأصوات الغريبة والمُخيفة من عنبر القادس»، وتوقفتُ ثانية حتى يستوعبوا ما قلت.

- أجل يا سادتي، من العنبر حيث يرقد النعش الذهبي للفرعون **ماموس** الثامن منتظرًا الدفن.

بينما ارتعش بعض الحضور مهابةً، رسم آخرون الإشارة الحامية من العين الشريرة.

- أخذت هذه الخطوات تقترب أكثر إلى حيث أهجعُ عند باب الملكة، وازداد وهج الضوء السماوي سطوعًا، وبينما أرتعش، ظهر قوامٌ أمامي. كان له شكل رجل، لكنه ليس بشريًا، إذ إنه يشعّ كالبدر التمام، ووجهه تجلٍ إلهي للملك بهيئته التي أعرفها، غير أنه معدول ومملوء بربوبية لاهوتِه الرهيبة كلها.

سادَت بينهم النشوة والصمت، ولم يحرّك أيّهم ساكنًا، وفتّشتُ وجوههم عن أي دليل ارتياب، فلم أجد.

ثم فجأة، كسر صوتُ طفلٍ الصمت إذ صاح الأمير بصوتٍ عالٍ واضح: «*باك*- هير! لقد كان أبي. *باك*- هير! إنه الفرعون!».

وتلقفوا الصيحة: «*باك*- هير! إنه الفرعون. فليعش أبدًا!».

انتظرتُ الصمت، وعندما عمّ من جديد، تركته يمتدّ حتى كاد التشويق يستبدّ بهم.

- تقدم الفرعون ناحيتي، وتجمدتُ في مكاني، ثم عبرني ودخل قمرة صاحبة الجلالة الكريمة، الملكة **لوستريس**. ورغم أنني لم أقدر على الحراك أو النطق، رأيتُ كل ما جرى. فبينما لا تزال الملكة نائمة، اعتلاها

الفرعون بكل سموّه، ومارس متعته الزوجية معها، وامتزج جسداهما امتزاج الرجل وامرأته.

ظلت الوجوه خالية من أي دليل تكذيب، فانتظرتُ أن يكتمل تأثير كلماتي فيهم، وتابعت: «نهض الملك بعد ذلك عن حضن الملكة النائمة ونظر إليَّ، ثم نطق التالي».

عندي القدرة على تقليد أصوات الآخرين بأمانة تجعل السامع يظن أنه قد سمع الشخص الذي أقلّده، لذا تكلمتُ بصوت الفرعون **ماموس**.

- لقد وهبتُ الملكة ألوهيّتي، وتماهَت معي ومع الآلهة. أحبلتُها ببذرتي الإلهية، وهي التي لم تعرف رجلًا غيري، ستحمل طفلًا من دمائي الملكية. هذه إشارة للبشر جميعهم أنها تتمتع بحمايتي، وأنني ما زلتُ أحرسها.

انحنيتُ مرة أخرى للزوج الجالس على العرش: «ثم عاد الملك عبر السفينة، ودخل من جديد نعشه الذهبي حيث يرقد الآن. وهذه رؤياي كلها».

هتف السيد **تانوس** مثلما علمتُه: «فليعِش الفرعون أبدًا!»، وانتشر الهتاف.

- حيوا الملكة **لوستريس**! فلتعِش أبدًا! حيوا الطفل الإلهي الذي تحمله! فليعِش أطفالها جميعهم أبدًا!

عندما جهزتُ نفسي للنوم في تلك الليلة، نادتني مولاتي، وهمسَت: «لقد كانت رؤياك واضحة جدًا، وسردتَها ببراعة شديدة، إلى درجة أنني لن أستطيع النوم حتى يجيء الفرعون ثانية. احرس الباب جيدًا».

- أظن أن ثمة شخصًا جريئًا ولجوجًا بالحد الكافي لإزعاج الغفوة الملكية، لكنني أشكُ أنه سيكون الفرعون **ماموس**. ماذا أفعل إذا ما جاء أزعرٌ ما ليستغل طبيعتك اللطيفة المحبة؟

قالت: «نم قرير العين يا عزيزي **تايتا**، وصمّ أذنيك»، واحمرّ وجهها فتوهّج خداها بلون ورديّ تحت ضوء السراج.

ومرة أخرى، ثبت أن استشعاري أحداث المستقبل دقيق، إذ جاء في تلك الليلة زائر سري إلى قمرة مولاتي، ولم يكن شبح الفرعون، ففعلتُ ما أمرت به الملكة: صممتُ أذنيَّ.

***

فاض النيل من جديد، مذكرًا إيانا أن عامًا آخر قد مر. كنا قد حصدنا الذرة التي زرعناها على الجزر، وجمعنا قطعاننا، وفككنا العربات وربطناها على متون قوادسنا، ثم لففنا الخيم وحزمناها في العنابر، وأخيرًا، عندما صار الجميع مستعدًّا للمغادرة، مددنا الحبال على الضفة وأعملنا كل رجل وحصان سليم البدن عليها.

استغرقنا شهرًا تقريبًا من العمل المضني حتى أتممنا عبور هذا الجندل المخيف. خسرنا ستة عشر رجلًا غرقًا، وتحطمت خمسة قوادس مضغتها أنياب الصخور السوداء وحولتها إلى شظايا، لكننا على الأقل عبرنا، وأبحرنا على تيار النهر المستقر فوق المنحدرات.

وبينما تستحيل الأسابيع شهورًا، أخذ النيل يرسم منعطفًا بطيئًا ومهيبًا تحت قوادسنا. كنتُ بدأتُ أرسمُ مسار النهر منذ مغادرتنا **إلفنتين** مستخدمًا الشمس والنجوم لتدلّني على الاتجاه، لكنني واجهتُ صعوبة شديدة في قياس المسافة التي قطعناها. في البداية، أمرتُ أحد العبيد أن يمشي على الضفة ويحصي كل خطوة يمشيها، لكنني عرفتُ أن هذه الطريقة معيبة إلى درجة أنها ستخرب حساباتي كلها.

خطر لي الحل ذات صباح كنا نتدرب على المناورة بالعربات فيه، إذ راقبتُ دوران عجلتي اليمنى، وأدركتُ أن كل دورة لإطارها ترسم مقياسًا دقيقًا للمسافة التي تقطعها على الأرض، وبالتالي، جعلتُ عربة تسير على ضفة النهر، ووضعت على أحد إطارات عجلاتها رايةً، وأمرتُ رجلًا موثوقًا بالجلوس على صفيحة القدم ورسم علامة على لفيفة كل ما دارت الراية دورة.

وفي كل مساء، أحسب الاتجاه والمسافة التي قطعناها في النهار، وأثبّت ذلك على خارطتي. بدأ شكل النهر واتجاهه يتضحان لي بالتدريج، فرأيتُ أننا درنا دورة واسعة إلى الغرب، لكن النهر انعطف من جديد إلى الجنوب، مثلما تنبأ كهنة **حابي**.

أريتُ **تانوس** والملكة ما اكتشفته، وسهرنا ليالٍ كثيرة في القمرة الملكية نناقش مسار النهر وتأثيره في خططنا بالعودة إلى مصر. بدا أن كل ميل نقطعه يعزز شدة قسم مولاتي على العودة بدلًا من إضعاف عزيمتها، وأمرَت: «لن نبني معبدًا أو قصرًا من حجر في البرية. لن نقيم نصُبًا أو مسلات. إن مكوثنا هنا مؤقت، لذا لن نبني مدنًا، بل سنعيش في سفننا، أو تحت خيام

وأكواخ مصنوعة من العشب والقصب. لسنا إلا قافلة في رحلة ستأخذنا في النهاية إلى مسقط رأسي، إلى **طيبة** الجميلة ذات الأبواب المئة».

ثم أوعزَت إليَّ سرًّا: «حافظ على جودة خرائطك يا **تايتا**. أثق بأنك ستجد لنا أسهل طرق العودة إلى الوطن».

وهكذا، تابعت قافلتنا النهرية رحلتها قدُمًا، وبدّلت الصحراء في الجانبين وجهها مع كل ميل ينقضي، لكنها ظلَّت رغم ذلك ثابتة في النهاية.

صرنا نحنُ المبحرين في النهر مجتمعًا مترابطًا، يكاد يكون مدينة متنقّلة من دون أسوار أو بنية دائمة، فأزهرَت حيوات وذوَت حيوات وازدادت أعدادنا، ذلك أن معظم الذين جاؤوا معنا من **إلفنتين** في ريعان حياتهم، والنساء منهم وَلُودات. تزوج الشبان على ضفة النهر، وكسروا جرار ماء النيل بينهم، ووُلد أطفالٌ راقبناهم يكبرون.

مات بعض كبارنا، وحدثت حوادث وألمَّت أخطار اقتصَّت من شباننا، فحنطناهم وحفرنا قبورًا لهم في التلال البرية، ثم تركناهم لرقادهم وتابعنا المسير.

احترمنا المهرجانات وصلينا لآلهتنا. أولمنا وصُمنا في الفصل الصحيح، ورقصنا وغنينا ودرسنا العلوم. أعطيتُ دروسًا للأطفال الأكبر سنًّا على متن القادس، وكان **مِمنون** نخبة طلابي كلهم.

وقبل أن ينقضي العام، وبينما لا يزال مجرى النهر يأخذنا جنوبًا، وصلنا إلى الجندل الثالث الذي يعتلي المسار. ومرة أخرى، نزلنا إلى اليابسة ونظفنا الأرض وزرعنا محاصيلنا، ومكثنا ننتظر النيل أن يرتفع ويساعدنا على العبور.

***

وهنا، عند الجندل الثالث العظيم، جاءَت فرحة أخرى لتملأ حياتي حد الطفح.

ففي خيمة من كتان على ضفة النهر، صحبتُ مولاتي في مخاضها، وقدمتُ للعالم الأميرة **تحوت**، الابنة المعترف بها للفرعون **ماموس** الراحل منذ أمدٍ بعيد.

كانت تحوت في عيني جميلةً جمالًا لا يمكن أن تحمله إلا معجزة، وكلما سنحت لي الفرصة، كنتُ أجلس بجوار مهدها وأتفحص يديها وقدميها الضئيلة بدهشة ورهبة. وعندما تجوع في انتظار حلمة أمها، كنتُ أحيانًا أضع خنصري في فمها لأستمتع بشعور مضغها إياه بلثتيها المجردتين من الأسنان.

ارتفع النهر أخيرًا ومكننا من عبور الجندل الثالث، ثم أبحرنا قُدمًا، وعلى نحو لا يُلحظ البتة، انعطف النهر عودًا إلى الشرق، راسمًا حلقة واسعة تحت قوادسنا.

وقبل أن ينقضي العام، اقتضت الضرورة أن يراودني حلم آخر من أحلامي الشهيرة، ذلك أن مولاتي تعرضت لحملٍ بِكرٍ آخر لا يمكن تفسيره إلا بطرقٍ خارقة للطبيعة، وخرج شبح الفرعون المتوفى في جولة أخرى.

كان الطفل قد ضخَّم مولاتي عندما بلغنا الجندل الرابع العظيم، وكان شلَّال المياه المتشقلبة والصخور الأشبه بأسنان التماسيح هذا أهوَل من سابقيه، فساد يأس أشد بكثير بين جماعتنا. وعندما ظنوا أن لا أحد يسمعهم، أخذ واحدهم يشتكي للآخر: «إننا محفوفون بهذه الحواجز الصخرية الجهنّمية، لقد وضعتها الآلهة في النهر لتمنعنا من التقدم».

بينما يحتشدون على ضفة النهر قرأتُ شفاههم، ولم يدرك أيّهم أن بمقدوري فهم ما يقولون من دون سماع كلامهم.

- سنُحاصر وراء هذه المنحدرات الفظيعة، ولن نتمكن من العودة عبر النهر أبدًا. علينا الرجوع الآن، قبل أن يفوت الأوان.

حتى في مجلس الدولة، رأيتُ الكلمات على شفاه بعض سادة مصر العظماء الذين جلسوا في مؤخر الحشد وتكلموا بأصوات خافتة: «إذا ما تابعنا، فسنموت جميعًا في هذه الصحراء، وستجوبها أرواحنا إلى الأبد من دون استراحة».

سادَت بين النبلاء الصغار روحٌ متعجرفة وجامحة في آن معًا، فصاروا يشجعون الاستياء ويخلقون التمرّد، وعرفتُ أن علينا التصرف بسرعة وحزم عندما سمعتُ السيد أقر يقول لأحد تبعه: «نحن في أيدي هذه المرأة، عاهرة الملك الميت الصغيرة هذه، بينما ما نحتاج إليه بحق هو رجل قوي يقودنا. لا بدَّ أن ثمة وسيلة ما لنخلص أنفسنا منها».

أولًا، وبمساعدة صديقي القديم **أتون**، توصّلتُ إلى أسماء جميع الساخطين والخونة المحتملين، ولم يفاجئني أن القائمة كانت برئاسة السيد **أقر** نفسه، وهو الابن الأكبر للسيد **ميركيسيت**، الذي قرأتُ على شفتيه تلك المشاعر الخائنة. كان **أقر** شابًّا غاضبًا في رأسه أفكار متضخمة عن قيمته وأهميته، وشككتُ في أنه قد يتمتع بالوقاحة الكافية ليرى نفسه جالسًا على عرش المملكتين معتمرًا التاج المزدوج.

عندما شرحتُ **لتانوس** ومولاتي ما أظن أن علينا فعله، عقدا مجلس دولة جادًّا كامل النصاب على ضفة النهر.

افتتحت الملكة **لوستريس** الاجتماع: «أعرف حق المعرفة كم تتوقون لأراضيكم، وكم أنهكتكم هذه الرحلة الطويلة. وأشارككم جميع أحلامكم **بطيبة**».

رأيتُ **أقر** يتبادل نظرات ذات معنى مع أزلامه، وعزز ذلك شكوكي.

- لكن الأمور يا مواطني مصر ليست بالسوء الذي تبدو عليه، فقد رعَت **حابي** حملتنا مثلما وعدتْ، وصرنا أقرب إلى **طيبة** مما يتصوّره أي منكم. عندما نرجع إلى مدينتنا الحبيبة، لن نُضطر إلى العودة عبر طريقنا المنهكة نفسها، ولن نُضطر إلى مواجهة ثانية مع أخطار هذه الجنادل الجهنمية وصعابها التي تسدّ مسار النهر.

فهاج الحضور وعمَّت همسات الشك والتكذيب، وضحك **أقر** ضحكة لا تتجاوز حدود الاحترام واللباقة، ورغم ذلك، أفردته مولاتي قائلة: «هل أرى أنك تشكك في كلامي يا سيد **أقر**؟».

فتراجع بسرعة: «بتاتًا يا صاحبة الجلالة، وألعن هذه الفكرة الخائنة». لم يكُن بالقوة الكافية بعد، ولا واثقًا كفايةً بمناصريه ليفرض مواجهةً. لقد كشفتُ أمره قبل أن يستعد.

تابعت الملكة: «لقد خطّط عبدي **تايتا** مسار النهر الذي قطعناه في السنوات الماضية، ورأى جميعكم العربة بعجلتها ذات العلم التي تقيس الأرض، إضافة إلى أنه درس الأجرام السماوية لمعرفة اتجاه رحلتنا، لذا آمره الآن بالنهوض أمام المجلس والكشف عن حساباته».

كان الأمير **مِمنون** قد ساعدني في رسم نسخ من خريطتي على عشرين لفيفة، وكان في سنّ التاسعة ماهرًا في فن القلم بالفعل. وزعتُ النسخ على

النبلاء الكبار، حتى يتبعوا محاضرتي بوضوح أشد، ولفتتُ نظرهم إلى المسار الدائري تقريبًا الذي تبعناه منذ غادرنا **إلفنتين**.

بدا ذهولهم واضحًا. لم يكُن إلا الكهنة على علم مسبق بما حدث، ذلك أنهم درسوا النجوم كذلك ولهم بعض الخبرة في الملاحة، لكن حتى الكهنة بوغتوا بامتداد دائرة النهر. ولم يفاجئني ذلك، نظرًا إلى أن النسخ التي أريتهم إياها لم تكُن دقيقة تمامًا، فقد تجرأتُ على بعض الحقائق من أجل **أقر** وزمرته، وجعلتُ المسافة عبر المنعطف تبدو أقصر مما أشارت إليه حساباتي.

- يا سادتي، مثلما يمكنكم أن تروا على الخرائط، فقد سافرنا ما يقرب من ألف ميل منذ غادرنا الجندل الثاني، لكننا الآن لا نبعد أكثر من بضع مئات من الأميال عن نقطة انطلاقنا.

فنهض **كراتاس** ليسأل سؤالًا لقنته إياه قبل بدء الاجتماع: «أهذا يعني أن بإمكاننا سلوك هذا الطريق المختصر عبر الصحراء وبلوغ الجندل الثاني بالوقت نفسه الذي نحتاجه إلى السفر من **طيبة** إلى البحر الأحمر ذهابًا وإيابًا؟ فقد قطعتُ تلك الرحلة عدة مرات».

التفتُ إليه: «كنتُ رفيقك في تلك الرحلة. استغرقت منا عشرة أيام في كل اتجاه، ولم يكن معنا خيول آنذاك. لن يكون عبور شريط الصحراء الهزيل هذا أكثر إرهاقًا، وهذا يعني أننا من هنا، يمكننا العودة إلى مدينة **إلفنتين** في غضون أشهر قصيرة، ولن نضطر إلا إلى عبور الجندل الأول في **أسوان**».

سادَ بينهم طنين تعقيب وذهول، وتناقلوا الخرائط من يدٍ إلى يدٍ وفحصوها بدقة، ثم بينما أراقبهم تغيّر مزاج الجمع كله، وتشوقوا جميعًا تشوقًا مُحزنًا لقبول نظريتي، فقد أبهجهم هذا القرب من الوطن والديار التي يعرفونها.

إلا **أقر** وأصدقاءه ظلوا منزعجين، فقد حُرم الورقة العليا في اللعبة التي كان يلعبها، ومثلما أملتُ أن يفعل، نهض واقفًا بغضب ليسألني السؤال التالي: «ما مدى دقة خربشات هذا العبد؟ (كانت نبرته عدوانية وتعابيره متعجرفة)، إن رسم بضعة خطوط بقلم على لفيفة أمر سهل، لكن عندما تتحوّل هذه الخطوط إلى أميال من الرمل والصخر، فهذا أمر آخر تمامًا. كيف سيثبت هذا العبد أن نظرياته الجامحة هذه صحيحة؟».

فتدخلت مولاتي بسرور: «لقد وضع سيدي **أقر** يده على لبّ المسألة، وبفعله ذلك، أثبت فهمه النبيه للمشكلة التي تواجهنا. أنوي إرسال بعثة من

الرجال الجديرين ليعبروا عنق الصحراء ويفتحوا طريق عودتنا إلى الشمال، طريق العودة إلى ديارنا **طيبة** الجميلة».

رأيتُ تعابير **أقر** تتبدل فجأة عندما فهم السخرية في خطاب الملكة وأدرك الفخ الذي نُصب له، فعاد إلى جلوسه على عجل وحاول أن يبدو منعزلًا وغير مهتم، لكن مولاتي تابعت بقسوة: «كنتُ محتارة بخصوص الشخص الأجدر بقيادة الحملة، لكن السيد **أقر**، بفطنته وفهمه، اقترح نفسه لهذه المهمة الضرورية. أليس كذلك يا سيدي؟»، سألتْه بعذوبة، وتابعت بسلاسة قبل أن يسعه الرفض.

- إننا ممتنون لك يا سيد **أقر**، ولك أن تأخذ جميع الرجال والعتاد الذي تريد. آمرُ بأن ترحل قبل اكتمال البدر التالي، فالبدر يسهّل عليك سفر الليل، ويجنّبك حرّ النهار، وسأرسل معك رجالًا يجيدون تحديد الاتجاه من خلال النجوم. يمكنك الوصول إلى الجندل الثاني والعودة قبل نهاية الشهر، وإن نجحت، فسألبسُ كتفيكَ **ذهب الثناء**.

حدق السيد **أقر** إليها بفم فاغر، وكان لا يزال جالسًا على مقعده متخشّبًا من هول الصدمة بعد أن تفرّق صحبه كلهم. توقعتُه أن يجد عذرًا ما ليتملّص من المهمة التي احتلنا عليه بها، لكنه في النهاية فاجأني بقدومه إليَّ وطلب نصيحتي وعوني في تنظيم فريق الاستطلاع. بدا أنني ربما أسأتُ الحكم عليه، وأنه الآن مُنح مهمة مفيدة، وربما ثمة فرصة ليتحول من مزعج إلى عضو مفيد في الجماعة.

فاخترتُ له بعضًا من خيرة رجالنا وخيولنا، ومنحته خمسًا من أمتن العربات التي يمكنها حمل قِرَب ماء تكفيهم ثلاثين يومًا إذا ما استُخدمت باقتصاد. وبحلول البدر التمام، كان **أقر** متهللًا ومتفائلًا جدًّا، وشعرتُ بالذنب حيال التقليل من شأن المسافة وأخطار الرحلة.

وقتما انطلقت الحملة، ذهبتُ مع الرجال مسافة وجيزة إلى الصحراء لأدلهم على الطريق الصحيحة، ثم وقفتُ وحيدًا أراقبهم يتحدون بالأراضي اليباب الفضية تحت نور القمر، متجهين إلى مجموعة النجوم التي نسميها **بالعود** والتي تدل على الأفق الشمالي.

بينما نرقد تحت الجندل الرابع فكرتُ **بأقر** في كل يوم من الأسابيع التالية، وأملتُ أن لا تكون الخارطة التي أعطيته إياها خاطئة بقدر ما خشيت، لكن على الأقل، اختفى تهديد التمرُد المباشر معه في الشمال.

وبينما ننتظر، زرعنا محاصيلنا على الجزر المُنظفة وضفاف النهر، لكن الأرض كانت أكثر انحدارًا من المواقع الأخرى أسفل النهر، لذا كان رفع الماء لريّ المحاصيل أصعب، وعرفتُ أن كمية الحصاد ونوعيته لن تأتي بالنتيجة المرجوة.

وبطبيعة الحال، نصبنا شواديفنا التقليدية على أذرعها الطويلة المتوازنة عكسيًا لنرفع الماء من النهر. كانت هذه الشواديف تعمل على يد عبد يميل قدرًا فخاريًا مثبتًا عند طرف الذراع إلى الماء ثم يرفعه ويريقه في قناة الري على الضفة، وهي مهمة بطيئة تكسر الظهر. وحينما تكون الأرض مرتفعة، كما هي الحال هنا، تكون وسيلة مُبدِدة للمياه المُجمّعة أيما تبديد.

في كل مساء، كنتُ **ومِمنون** نقود عربتنا على طول ضفة النهر، وأقلقني شحّ المحصول الذي راقبناه ينمو هناك، فعندنا آلاف عديدة من الأفواه نطعمها، وكان دقيق الذرة لا يزال أساس نظامنا الغذائي. لذا تنبأتُ بحلول مجاعة، إلا إن تمكننا من جلب ماء أكثر إلى الحقول.

لا أعرف ما الذي جعلني أفكر بالعجلة لهذه الغاية، غير أن علم العجلة كان بحلول ذلك الوقت هوَسًا وشغفًا في حياتي. كنتُ لا أزال مُبتلًى بمشكلة تكسُّر عجلات عرباتنا، وامتلأت أحلامي بعجلات دوَّارة وملتفَّة ومتكسّرة، عجلات لها سكاكين برونزية أو أعلام لقياس المسافة، عجلات كبيرة وصغيرة. طاردتني هذه الصور وقضَّت مضجعي.

سمعتُ من أحد كهنة **حابي** أن بعض أنواع الخشب يمكن تقسيته وتطويعه من خلال نقعه بالماء لمدة طويلة، فدفعني ذلك إلى اختبار هذه الفكرة، وبينما كنا نُنزل إحدى عجلات العربة إلى النهر لهذا الغرض، بدأ التيار المرتطم بإطار العجلة يبرمها على محورها، وراقبتُ ذلك من دون أن أفعل شيئًا، لكن عندما غاصت العجلة أكثر في الماء، توقفت الحركة، ولم أفكر بالأمر أكثر.

بعد بضعة أيام، انقلب أحد القوارب الصغيرة التي تعبر بين الجُزر، فانجرف راكباه إلى المنحدرات وغرقا. شاهدتُ **ومِمنون** هذه المأساة من الضفة وأحزنت كلينا، لذا استغللتُ الفرصة لأحذر الأمير من خطر النهر وقوته.

- إنه قويّ إلى درجة أنه يدوّر عجلة عربة حتى.

- لا أصدقك يا **تايتا**، إنك تقول ذلك لتخيفني، فأنت تعرف كم أحب السباحة في النهر.

لذا رتبتُ عرضًا من أجله، وأُعجبَ كلانا إعجابًا مستحقًا بدوران العجلة، بملء إرادتها كما يبدو، عندما غُمست في المياه الجارية.

أعطى **مِمنون** رأيه أخيرًا: «سيدور أسرع يا **تاتا** إن ثُبتت مجاديف حول إطاره»، وحدقتُ إليه مدهوشًا. كان يزيد قليلًا على العاشرة آنذاك، ورغم ذلك، رأى كل شيء بعين جديدة باحثة.

بحلول البدر التمام التالي، كنا قد بنينا عجلة يحركها النهر لترفع الماء في سلسلة من الجرار الفخارية وتسكبه في قناة مرصوفة ببلاطات فخارية على قمة ضفة النيل العالية، ورغم بطنها المنتفخة، نزلت مولاتي إلى الشاطئ لترى هذه البدعة العجيبة وسُرت بها.

قالت لي: «أنت عبقريٌ في الأشياء المتعلقة بالماء يا **تاتا**، أتذكر الكرسي المائي الذي صممته لي في **إلفنتين**؟».

- يمكنني تصميم واحد آخر لك، لو تسمحين لنا بالعيش في منازل جديدة كالناس المتحضرين.

كان **تانوس** معجبًا مثلها بالعجلة المائية، رغم أنه، بالطبع، لم يظهر إعجابه، بل ابتسم لي بدلًا من ذلك.

وسألني: «اختراع ذكي جدًا، لكن متى ستنفجر مثل عربات عجلاتك الشهيرة؟»، ووجد **كراتاس** وبقية الحمقى العسكريين أولئك سؤاله غايةً في الظرافة. ومذ ذاك الحين فصاعدًا، صاروا كلما تكسّرت عجلة عربة يقولون إنها أُصيبت «بكسر **تاتا**»، **وتاتا** اسم الدلع الذي كان الأمير يناديني به.

وبصرف النظر عن هذا العبث، سرعان ما ازدادت حقول الذرة كثافة وخضارًا في التربة الطفالية على الضفاف العالية، وتدلّت أكواز الذرة الذهبية ثقيلة في ضوء الشمس الساطعة المشرقة على النيل. ولم يكن ذلك المحصول الوحيد الذي حصدناه عند الجندل الرابع، إذ أنجبت الملكة **لوستريس** أميرة ملكية صغيرة ثانية، ولا يمكن القول إلا إن هذه الرضيعة كانت أروع من أختها الكبرى.

كان في منتهى الغرابة أن الأميرة **باكاثا** وُلدت بلفائف من شعر ذهبي محمرّ، ذلك أن والدها، الفرعون **ماموس** الشبحيّ الإلهيّ، كان أسمرَ، وشعر

أمها داكنٌ كجناح عُقاب أسود. لم يخطر ببال أحد سبب هذا اللون الاستثنائي، لكن اتفق الجميع على جماله.

كانت الأميرة **باكاتا** بعمر الشهرين عندما بدأ النيل بالارتفاع من جديد وبدأنا نتجهز لعبور الجندل الرابع. صرنا خبيرين بما صار مهمتنا السنوية، وتعلمنا جميع الحيل والمهارات اللازمة لهزيمة النهر الكاسر.

***

لم نكُن قد بدأنا العبور عندما ثارَت حماسة هائلة في المعسكر، وسمعتُ الصياح والتهليل من ضفة النهر البعيدة حيث كنتُ والأمير **مِمنون** نفحص الخيول ونتأكد من أننا مستعدون لارتقاء الجندل.

أسرعنا عودًا إلى القوارب وعبرنا إلى الضفة الشرقية لنجد الجَلَبة تعمّ المعسكر، فشققنا طريقنا بين الحشود الملوّحة بسعف النخيل المغنية أغاني الترحيب والتكريم، وفي وسط ذلك كله، رأينا قافلة صغيرة من عربات متهرّئة وخيول هزيلة، وزمرة من المحاربين الضامرين الذين أضناهم السفر، وأحرقتهم شمس الصحراء حتى اسودَّت جلودهم، وكسرت الصحراء حدة طباعهم.

صاح بي السيد **أقر** من العربة القائدة: «لعنة **سِت** عليك وعلى خريطتك يا **تايتا**. لا أعرف أي منكما أكذب من الآخر. كانت المسافة ضعف ما وعدتنا به تقريبًا».

فبينما أتوثب حماسة وأحاول فتح طريقي بين الحشد رددتُ عليه: «أوصلتَم حقًّا إلى الجانب الشمالي من دائرة النهر؟».

وأجاب ضاحكًا بسرور هائل من إنجازه: «وصلنا ورجعنا! خيّمنا عند الجندل الثاني وتعشينا سمكًا طازجًا من النيل. طريق العودة إلى **طيبة** مفتوحة».

أمرت مولاتي بتحضير وليمة للترحيب بالمسافرين، وكان السيد **أقر** رجل الساعة. وفي ذروة الاحتفال، زينت الملكة عنقه **بذهب الثناء**، ورقّته إلى رتبة **الأفضل في عشرة آلاف**. شعرتُ بالاشمئزاز لرؤية الرفيق يتهندم ويتبختر، ثم، وكأنما لم يكُن ذلك كافيًا، ولّته مولاتي قيادة فرقة العربات الرابعة، وأصدرت له رخصة تخوله بامتلاك مئة فدان من خيرة الأراضي على ضفة النهر عندما نرجع إلى **طيبة**.

ظننتُ أن ذلك سرفٌ بعض الشيء، ولا سِيَّما إهداءه هذه المساحة الكبيرة من الأراضي، والتي لا بدَّ أن تخرج من أملاك مولاتي الخاصة. فبرغم كل شيء، كان **أقر** على شفير العصيان، ومع أن إنجازه جدير بالثناء، فأنا من اقترح الحملة وخطط لها. بدا لي، بموجب هذه الظروف، أن سلسلة ذهبية للعبد الفقير **تايتا** لن تكون في غير مكانها.

ورغم ذلك، لا بدَّ لي من الثناء على حنكة مولاتي وحسن تدبيرها شؤون الدولة، فقد حوّلت السيد **أقر**، الذي يُحتمل أنه كان أحد أخطر أعدائنا، إلى نصير متحمّس ومخلص سيثبت لها قيمته مرات عديدة في السنوات القادمة. كانت تجيد التعامل مع الرجال جميعهم، وتزداد خبرة في أصول الحكم كل يوم.

أمّن ترويض السيد **أقر** واكتشاف الطريق عبر المنعطف مؤخرتنا، وصار بوسعنا صعود الجندل الرابع بمعنويات عالية وقلوب جسور.

***

لم يتجاوز سفرنا الشهر حتى أدركنا أن طالعنا قد تغيّر، وأن الإلهة قد برَّت بوعدها.

كل يوم كان يتضح لنا أكثر أننا قطعنا الجزء الأصعب، إذ صارت الصحراء وراءنا أخيرًا، وانعطف النهر العريض الهادئ جنوبًا مرة أخرى ليحملنا إلى أرض لم يرَ أيّنا مثيلًا لها من قبل.

وهنا، شهد الكثير من جماعتنا معجزة المطر أول مرة. ورغم أنني شهدتُها بالطبع في المملكة السفلى، لم يرَ أحد منهم مطرًا ينزل من السماء قط، وأخذ يهطل على وجوهنا المرفوعة الذاهلة بينما يهدر الرعد في السماوات، ويعمينا البرق بناره البيضاء.

ولّدت هذه الأمطار المدرارة المنتظمة مشهدًا جديدًا مثيرًا، مشهدًا لا يمكننا إلا أن نبهت أمامه، إذ امتدَّت على كلتا ضفتي النيل، وإلى أقصى مرمى النظر من قادسنا القائد، أراض فسيحة معشوشبة، وترك هذا السهل البديع الغنيّ بالمراعي لخيولنا عرباتنا حرةً بلا قيود، فصار بإمكاننا قيادتها متى نشاء، من دون كثبان رملية أو تلال صخرية تعيق تقدمنا.

ولم تكُن هذه النعمة الوحيدة التي منَّت بها الإلهة علينا، بل الأشجار كذلك. رُبما ملأت الغاباتُ الوادي الضيق الذي كان ديارنا ذات يوم، لا أحد يعرف،

لكنها سقطت منذ قرون أمام شهية فؤوس البشر، فصار الخشب سلعة نادرة وثمينة عند المصريين، ووجب نقل كل عود منه على السفن أو ظهور الدواب من أراض غريبة بعيدة.

أما هنا، فحيثما أرسلنا نظرنا رأينا أشجارًا عظيمة. لم تنمُ في غابات كثيفة كالتي رأيناها على الجُزُر في الجنادل، بل في بساتين باسقة تفصل بين جذوعها المهيبة مساحات معشوشبة واسعة. كان فيها خشب يكفي لإعادة بناء أساطيل كل الأمم في كل بحار العالم، ويكفي فوق ذلك لإعادة بناء مدن العالم المتحضر كلها، وسَقْف وفَرش كل غرفة فيها، وبعد ذلك، يظل فيها ما يكفي ليحترق وقودًا على مرّ القرون القادمة، فرحنا نحدق، نحن الذين طبخنا طيلة حياتنا على لَبِنات مصنوعة من روث حيواناتنا، حولنا مشدوهين.

ولم يكُن هذا الكنز الوحيد الذي وجدناه جاهزًا للاستغلال في أرض **كوش** الأسطورية التي بلغناها أخيرًا.

رأيتها من بعيد في البداية، وظننتها صروحًا من جرانيت رماديّ. كانت واقفة فوق سهول العشب الأصفر وفي ظلال فروع السنط المنتشرة، ثم، وبينما نراقب في ذهول، بدأت هذه الصخور العظيمة بالحركة.

«فيلة!» لم أكُن قد رأيت فيلًا من قبل، لكن لا يمكن أن تكون شيئًا آخر، وتلقف الراكبون على المتن من حولي الصيحة.

«فيلة! عاج!» كنا أمام ثروات ما كان الفرعون **ماموس**، بكنزه الجنائزي كله، ليحلم بها، قطعان هائلة تملأ المشهد حيثما نظرنا.

حدق **تانوس** حوله: «ثمة آلاف منها (وبدأ شغف الصياد يشرق في عينيه)، انظر إليها يا **تايتا**، أعدادها لا حصر لها».

كانت السهول تغصُّ بالكائنات الحية، لا قطعان الفيلة وحسب، بل ظباءً وغزلان، بعضها نألفه وبعضها لم نرَه من قبل قط. عرفناها كلها في المستقبل اللاحق، وأطلقنا أسماء على أنواعها الجزيلة المتنوعة.

اختلطت المها بقطعان ظباء ماء بنفسجية لها قرون شبيهة بالقوس التي صنعتُها **لتانوس**، ورأينا زرافات مرقطة بأعناق تصل إلى أعلى أغصان أشجار السنط، وكركدنّيات تنتأ من خطومها قرون بطول رَجُلٍ وحِدَّة رمح. رأينا أيضًا جواميس تتمرّغ في الوحل على حافة النهر. كانت دوابًا بقرية هائلة، سوداء كلحية **سِت**، ولا تقل عنها قبحًا. وقُدر لنا أن نفهم عاجلًا الشرّ

الكامن خلف تحديقتها المكتئبة التي رمقتنا بها في حين نمر، وخطر قرونها السوداء المتدلية.

هدر **تانوس** بصبر نافد: «أنزلوا العربات من العنابر، وجهزوا الخيول في لجُمها. لقد بدأ الصيد!».

لو عرفتُ الخطر الذي كنا نركبُ إليه، لما سمحتُ للأمير **مِمنون** بصعود صفيحة القدم ورائي عندما خرجنا في أول صيد فيلة البتة، فقد بدت في نظرنا، نحن الذين لم نعرف خيرًا من ذلك، بهائم وديعة، بطيئة وخرقاء وغبية، وطريدة سهلة بلا شك.

كان **تانوس** متشوقًا لمطاردة هذه الطريدة الجديدة، ولم ينتظر إعادة جمع فرق عرباتنا الأربعة كلها، بل أعطى الأمر بالركوب حالما صارت أول فرقة من خمسين مركبة جاهزة، وبينما يتدحرج طابور العربات عبر البساتين على ضفة النهر أخذنا نصيح للسائقين الآخرين نتحداهم ونضع رهاناتنا على نتيجة الصيد.

طالبني الأمير: «دعني أقود يا **تاتا**، تعرفُ أن قيادتي بجودة قيادتك»، ورغم أنه بالفطرة خيَّالٌ ذو يدين خفيفتين وطريقة تعامل غريزية مع فريقه، ويتدرب على هذا الفن كل يوم تقريبًا، فقد كان تبجُّحُه دون أساس، فهو من دون شكٍ ليس سائقًا جيدًا بقدري. لا رجل في الجيش يمكنه زعم ذلك، ولا سِيَّما شقيًا عمره إحدى عشرة سنة.

قلت له بحزم: «راقبني وتعلم»، وعندما لجأ إلى **تانوس**، ساندني لأول مرة.

- **تايتا** محق، فهذا شيء لم يفعله أحد منا قبلًا. أغلق فمك وافتح عينيك أيها الصبي.

احتشد أمامنا قطيع صغير من هذه البهائم الرمادية الغريبة يأكل قرون البذور التي سقطت من أغصان الشجرة العليا. درستُها بفضول حادّ، وبينما نقترب خببًا، نشرت آذانها الهائلة خارجًا واستدارت لتواجهنا، ثم رفعَت خراطيمها عاليًا، فخمنتُ أنها تشم رائحتنا، وتساءلتُ عما إن كانت قد شمَّت رائحة رجل أو حصان من قبل.

كان بينها دغافل صغيرة جمعتها أمّهاتها في منتصف القطيع ووقفت حارسة عليها. حركت رؤية هذا القلق الأمومي مشاعري، وراودني أول تلميح

أن هذه الحيوانات ليست بطيئة وغبية كما يظهر عليها، فناديتُ **تانوس** على صفيحة القدم من ورائي: «هذه كلها إناث، ومعها صغار بين أقدامها، وعاجها صغير قليل القيمة».

قال: «أنت محق (وأشار من فوق كتفي)، لكن انظر خلفها. لا بدَّ أن ذينك الاثنين ذكور. انظر إلى ارتفاعهما وضخامة حجميهما، وانظر إلى التماع أنيابهما تحت الشمس».

أعطيتُ إشارة للعربات التي تتبعنا، وحِدنا عن قطيع الإناث والدغافل المُنتِج. ثم تابعنا سيرنا، ولا نزال طابورًا، عبر بستان السنط باتجاه الذكرين الضخمين، وبينما نتقدم، اضطررنا إلى الالتفاف حول الأغصان التي كُسِّرت عن الأشجار، ومراوغة جذوع السنط المُقتلعة. ولأننا ما زلنا لا نعرف شيئًا عن القوة الهائلة لهذه المخلوقات، ناديتُ **تانوس**: «لا بدَّ أن عاصفة مهولة قد ضربت هذه الغابة وأحدثت هذا الدمار»، ولم يمرّ ببالي حتى إن قطعان الفيلة مسؤولة عنها، فقد بدَت في غاية الوداعة والمهادنة.

شعر الذكران العجوزان اللذان اخترناهما باقترابنا، واستدارا ناحيتنا، وآنذاك أدركتُ حجمهما الحقيقي، فعندما نشرا آذانهما، بدا أنهما حجبا السماء مثل غيمة رعدية رمادية داكنة.

صرخ **تانوس**: «انظر إلى العاج!» كان رابط الجأش لا يشغل باله شيء إلا جائزة المطاردة، لكن الخيول توترت وجفلت عندما شمَّت رائحة الطريدة الغريبة، ثم ألقت رؤوسها خلفًا وتبرزت، وشقت علينا السيطرة عليها وإبقاؤها على عدوها المستقيم.

قال **مِمنون** زاعقًا: «ذاك الأيمن أضخم. علينا صيده أولًا». كان الجرو لا يقلّ نباهةً عن أبيه.

فضحك **تانوس**: «لقد سمعتم الأمر الملكي، سنهاجم الأيمن، وليأخذ **كراتاس** الآخر، فهو كافٍ له».

وهكذا، رفعتُ قبضتي وأعطيتُ الأمر الذي قسم الطابور إلى رتلين. بينما ذهب **كراتاس إلى الأيسر** مع خمس وعشرين عربة في صف، مضينا مباشرة إلى الوحش الرمادي الضخم الذي واجهنا بعمودين عاجيين أصفرين ثخينين كأعمدة معبد **حورس** يبرزان من رأسه الرمادي الهائل.

صرخ **تانوس**: «هاجمه بقوة! داهمه قبل أن يستدير ليهرب».

فناديتُ **صابرة ونصل**: «هيا!»، وانطلقتا بالسرعة القصوى. توقع كلانا أن يهرب منا الحيوان الضخم حالما يدرك خطرنا عليه، إذ لم تقف أي طريدة أخرى لتواجه هجمتنا الأولى من قبل. حتى الأسد يهرب من الصياد حتى يُجرح أو يُحاصر، فكيف لهذه الحيوانات البدينة أن تتصرف بغير ذلك؟

بينما يوتر **تانوس** سهمًا قال بتهلُل: «رأسه كبير جدًا، سيكون هدفًا رائعًا. سأقتله بسهم واحد قبل أن يتمكن من الهرب. اقترب من أنفه الطويل السخيف هذا».

من خلفنا، كان الطابور متسلسلًا في رتل واحد، وكانت خطتنا أن نهجم ثم ننقسم إلى جانبي الذكر، مطلقين أسهمنا في حين نمر، ثم نلتفّ ونرجع في تكتيك العربات الكلاسيكي.

صرنا في مواجهته تمامًا، وظل ثابتًا في أرضه. ربما هذه الحيوانات بلهاء كما تبدو تمامًا، ومن ثَمَّ ستكون سهلة الصيد، وشعرتُ بخيبة أمل **تانوس** إزاء فكرة هذا الصيد الرديء.

صرخ باحتقار: «هيا أيها الأحمق العجوز! لا تقف في مكانك وحسب! دافع عن نفسك!».

وكأنما سمع الذكر التحدي وفهمه، فرفع خرطومه وأطلق صوتًا مدويًا صعقنا وصمّنا. نكصَت الخيول نكوصًا شديدًا حتى إنني قُذفتُ إلى الحاجبة بقوة كدّمت أضلاعي، وللحظة، فقدتُ السيطرة عليها والتففنا مبتعدين.

ثم صرخ الذكر من جديد وركض.

جأر **تانوس** مدهوشًا: «بحق **حورس**! انظر إليه يأتي!»، ذلك أن الوحش لم يركض هربًا منا، بل إلينا مباشرة في هجوم حانق. كان أسرع من أي حصان، وأرشق من نمر تطارده كلاب الصيد، فأخذ يثير تفجّرات ترابية مع كل قفزة طائرة طويلة، ووصل إلينا قبل أن أسترد السيطرة على الخيول.

رفعتُ نظري إليه إذ شمَخ فوقنا مباشرة ومد خرطومه لينتزعنا من حجرة العربة، ولم يسعني تصديق حجمه ولا الغضب في عينيه. لم تكُن عيني حيوان، بل عينا إنسان ذكي وواعٍ، ولم يكن كسلانًا خنزيريًا، بل خصمًا شجاعًا ورهيبًا تحديناه بتعجرفنا وجهلنا.

أطلق **تانوس** سهمًا واحدًا أصاب الذكر في منتصف جبهته، وتوقعتُ أن أراه ينهار عندما ثقب السن البرونزي دماغه. لم نعرف آنذاك أن دماغ الفيل

ليس حيث قد يتوقع المرء، بل في مؤخر جمجمته الهائلة محمي بكتلة من العظام الإسفنجية التي لا يمكن لسهم اختراقها.

لم يتمهّل الفيل أو يميل عن مساره حتى، بل رفع خرطومه ببساطة وقبض على السهم بطرفه كما قد يفعل رجل بيده، ثم نزعه من لحمه وألقاه جانبًا وتابع هجومه علينا، مادًا خرطومه الملطخ بالدم.

أنقذنا **هُوي** في العربة التالية من صفنا، فقد كنا عاجزين أمام غضب الذكر العجوز عندما جاء من الجانب يجلد خيوله ويصيح كشيطان، ثم أطلق نبّاله عن صفيحة القدم خلفه سهمًا إلى خد الذكر على بُعد شبر من عينه حوّل انتباهه عنا.

استدار الفيل ليطارد **هُوي**، لكنه كان في أقصى سرعته وابتعد عن الخطر. أما العربة التالية في الصف فلم تكُن محظوظة جدًا، إذ افتقر السائق لمهارة **هُوي** وانعطف انعطافة خرقاء، فرفع الذكر خرطومه عاليًا وأرجحه كسوط الجلاد.

أصاب الحصان القريب في ظهره، من وراء غاربه بالضبط، وكسر سلسلة ظهره كسرًا واضحًا حتى إنني سمعتُ تهشُم فقراته مثل خزفٍ هشّ، فانهار الحصان المشوّه جارًا زميله معه، وتدحرجت العربة قاذفةً الرجال منها. ثم داس الفيل جسد السائق الساقط بإحدى قدميه الأماميتين، وانتزع رأسه بخرطومه فقذفه عاليًا كدمية أطفال، وراح يدور في الجوّ راشًا الدماء القانية الوردية من عنقه المبتور.

ثم تدخلت العربة التالية في الصف وشتتت الذكر عن ضحيته.

أوقفتُ حصانيّ عند حاشية البستان، وحدقنا فاغري الأفواه إلى أشلاء سربنا المحطم. كانت العربات المتكسّرة منتشرة في جميع أرجاء الحقل، ذلك أن ما أصاب **كراتاس** على الميسرة لم يكن خيرًا مما أصابنا.

عجّ الذكران العظيمان بجذوع السهام، وتدفقت الدماء على بدنيهما تاركة خطوطًا نديّة على جلديهما الرماديين المغبّرين. إلا أن الجروح لم تضعفهما، بل بدا أنها صعّدت غضبهما، فثارا في البستان وأخذا يحطمان العربات المنقلبة ويدوسان جثث الخيول بأقدامهما العملاقة المبطّنة، ويقذفان أجساد الرجال الصارخين عاليًا في الجو ثم يدوسانها عندما تسقط عائدة إلى الأرض.

أسرع **كراتاس** من جوارنا وصرخ لنا: «بحق الشقوق الجَربى في مُنفرَج **سِت**! إن هذه لحرب ضروس! لقد خسرنا ثماني عربات في الهجمة الأولى».

رد عليه الأمير **مِمنون**: «رياضة أفضل مما توقعتَ أيها النقيب **كراتاس**»، وكان خيرًا له أن يبقي رأيه لنفسه، ذلك أننا وحتى تلك اللحظة، كنا ناسين أمر الصبي في لجة المعمعة، لكنني **وتانوس** استدرنا إليه في تلك اللحظة معًا.

وقلت له بصرامة: «أما عنك يا فتاي، فكفاك رياضة لهذا اليوم».

وافقني **تانوس**: «فلتعُد إلى الأسطول، الآن فورًا»، وفي تلك اللحظة مرَّت عربة فارغة تتهادى. لا أعرف ماذا حل بطاقمها، ربما قُذفوا من الحجرة أو انتزعهم منها أحد الوحشين الغاضبين.

أمر **تانوس**: «أمسكوا بهذين الحصانين!»، وعندما جُلبت لنا العربة، قال للأمير: «خذ العربة إلى الشاطئ وانتظر عودتنا».

وقف الأمير **مِمنون** بكامل انتصابه فبلغ كتف أبيه، وقال: «سيدي **تانوس**، إنني أحتجُ...».

قال **تانوس**: «لا أريدُ سماع تكلُّفكَ الملكي أيها الفتى. ارجع واحتجّ عند أمك إذا أردت». ورفع الأمير بيد واحدة فوضعه في حجرة المركبة الخالية.

فقال **ممنون**: «من حقي يا سيد **تانوس**...» حاول **مِمنون** محاولة يائسة أخرى ليتابع الصيد.

فقال **تانوس**: «ومن حقي أن أزنّر مؤخرتك الملكية بغمد سيفي إذا كنت لا تزال هنا عندما أنظر خلفي مرة أخرى»، ثم أدار ظهره له، وأخرج كلانا الصبي من فِكره.

ثم علقتُ: «جمعُ العاج ليس بسهولة التقاط الفطر. علينا التفكير في خطة أفضل من هذه».

فتذمّر **تانوس**: «لا يمكننا قتل هذه المخلوقات بإطلاق السهام على رؤوسها. سنحاول مرة أخرى بسهم بين الأضلاع، فإذا لم يكُن في جماجمها أدمغة، فلا بدَّ أن لها رئات وقلوب».

جمعتُ اللُّجم ورفعتُ رأسي الزوج، لكنني شعرتُ أن **صابرة ونصل** متوترتان مثلي إزاء فكرة العودة إلى الميدان، إذ لم يستمتع أيّ منا بالمذاق الأول لصيد الفيلة.

قلت لتانوس: «سأهجم عليه رأسًا، ثم أتحوّل عنه لأمنحك تسديدة جانبية على أضلاعه».

مشّيتُ الخيول خببًا في البداية، ثم بينما رفعتُ السرعة تدريجيًّا دخلنا بستان السنط. رأينا الذكر أمامنا مباشرة يهيج على الأرض التي تناثر من فوقها حطام عرباتنا المنقلبة وجثث رجالنا الموتى وخيولنا الكسيرة، وعندما رآنا قادمين، أطلق صيحة رهيبة أخرى جمّدت الدم في عروقي، وحرّك الحصانان آذانهما ونكصا من جديد، فجمعتهما باللجُم وقدتهما قُدمًا.

هجم الذكر ليلاقينا كانزلاق صخري على سفح تلة منحدر. كان منظرًا رهيبًا بغضبه وألمه، لكنني حافظتُ على ثبات فريقي، ولم أدفعهما بعد إلى سرعتهما القصوى، ثم عندما تلاقينا، جلدتهما وصحتُ بهما فانطلقا، وأملتُ العربة في اللحظة نفسها إلى أقصى اليسار حول خاصرة الفيل.

وعلى مسافة أقل من عشرين خطوة، أطلق تانوس ثلاثة سهام في تتالٍ سريع إلى صدره، فدخلت جميعها خلف كتفه في الفرجات بين أضلاعه، ودفنت نفسها بكامل طولها في الجلد الرمادي القاسي.

صرخ الذكرة مرة ثانية، لكن هذه المرة صرخة ألم قاتل، ورغم أنه حاول الوصول إلينا، فقد أسرعنا مبتعدين عن مدى خرطومه. ثم نظرتُ خلفي ورأيته واقفًا في غبارنا، لكن عندما جأر ثانية، انبجست الدماء من طرف خرطومه كما ينبجس الماء من إبريق.

هتفتُ: «الرئتان! أحسنت يا تانوس! لقد أصبتَ رئتيه».

فقال بابتهاج: «لقد عرفنا حيلة صَيدها. أرجعنا لأعطيه واحدًا آخر في قلبه».

فدوّرت العربة، وكانت الفرَسان لا تزالان قويتين وعازمتين.

ناديتهما: «هيا يا جميلتيّ، مرة أخرى، هيا!».

كان الذكر العجوز لا يزال بعيدًا عن الموت رغم إصابته القاتلة، وعرفتُ لاحقًا مدى تمسُك هذه الوحوش البديعة بالحياة، لكنه في تلك اللحظة هجم ليواجهنا من جديد بشجاعة وجلال ملأتني احترامًا، وحتى في حماسة الصيد وفزعي على سلامتي، شعرتُ بالعار إزاء التعذيب الذي كنا ننزله به.

وربما لهذا السبب دفعتُ الفرسين قريبًا منه، إذ أردتُ أن أجاري شجاعته من باب الاحترام له، وعندما كاد الأوان يفوت، أملتُهما عن الهجمة قاصدًا أن أمرّ به خارج مرمى ذلك الخرطوم اللئيم.

وفي تلك اللحظة تمامًا، انفجر دولاب العربة الجانبي تحتنا، وبينما أصابني الدوار تشقلبت في الجو مثل بهلوان، لكن لم تكُن تلك أول مرة أقذَف فيها، وقد تعلمتُ كيف أحطُّ كقطة، لذا امتطيتُ الصدمة وتركتُ نفسي أبرم مرتين. ولأن الأرض طرية والعشب سميك كالفراش، نهضتُ واقفًا صحيحًا محتفظًا ببديهتي، لكنني رأيتُ بلمحة أن **تانوس** لم يخرج منها مثلي، بل تمدد ناشرًا أطرافه بلا حراك.

ثم رأيتُ الفرسين واقفتين، لكن ثقل العربة المكسورة ثبتهما في مكانهما. وبينما أنظر، هاجمهما ذكر الفيل، وكانت **نصل** الأقرب إليه، فكسر ظهر فرسي الحبيبة بضربة واحدة من خرطومه، وخرَّت على ركبتيها تصرخ **وصابرة** لا تزال مربوطة بها، ثم أقحم نابًا غليظًا في صدر **نصل** وهزّ رأسه رافعًا الحيوان الراكل المنازِع عاليًا في الجو.

كان ينبغي لي الهرب آنذاك، في أثناء تشتت انتباه الذكر، لكن **صابرة** لا تزال سليمة، ولم أقدر على تركها. كان الفيل مستديرًا نصف استدارة عني، وأذنيه المنشورتين مثل شراع سفينة تحجبانني عن بصره، فلم يرني أركض إليه. ثم امتشقتُ سيف **تانوس** من غمده على رف العربة المنقلبة، وانطلقتُ إلى جوار **صابرة**.

ظلت **صابرة** سليمة رغم أن الذكر العظيم يجرها معه بالطقم الجلدي الذي يربطها **بنصل**، وأن دم **نصل** بقّع عنقها وكتفيها. أفقدها الذعر صوابها بالطبع، وأخذت تزعق وتركل بكلتا ساقيها الخلفيتين فكادت تصدع جمجمتي عندما صرتُ وراءها، واضطررت إلى الانحناء وقتما تطايرت حوافرها من فوق رأسي ومسَّت خدي.

ثم قطعتُ حبال الجلد الخام التي تثبتها بعمود توجيه العربة. كان السيف مسنونًا بما يكفي ليحلق شعر رأسي، فانشق الجلد تحت حافته الساطعة، وبعد ثلاث ضربات قوية، تحررت **صابرة** وصار بمقدورها الركض. مددتُ يدي حينئذ لأقبض على عرفها لأرفع نفسي إلى ظهرها، لكنها كانت هلعة إلى درجة أنها وثبت بعيدًا قبل أن أحكم قبضتي، فاصطدم كتفها بي ورماني ألفّ حول نفسي، وسقطتُ سقطة ثقيلة على الأرض تحت جانب العربة المحطمة.

جاهدتُ لأرفع نفسي وأراها تنطلق عبر البستان راكضةً بحرية وخفة، فعرفتُ أنها غير مصابة. بحثتُ عن **تانوس** بعد ذلك، ورأيته راقدًا على بطنه على بُعد عشر خطوات من العربة. ظننتُه ميتًا، لكنه في تلك اللحظة رفع رأسه ونظر إليَّ بوجه ذاهل دائخ. عرفتُ أن أي حركة مفاجئة قد تجذب انتباه الفيل إليه، فأشرتُ إليه أن يرقد بلا حراك، من دون أن أجرؤ على النطق، ذلك أن الحيوان الغاضب لا يزال واقفًا فوقي.

ثم رفعتُ نظري إلى الذكر. كانت **نصل** المسكينة مخوزقة على نابه، وحبال الجلد الخام متشابكة بخرطومه. ثم بدأ يتحرك مبتعدًا، جارًّا العربة المحطمة معه. كان يحاول إخراج وزن جثة **نصل** المدلاة من نابه، وقد مزَّق طرف السن بطنها، فامتزجت نتانة مكنونات المعدة بذَفَر الدم ورائحة الفيل الغريبة الزنخة القوية، والأقوى من ذلك كله، نتانة عرق خوفي التي ملأت منخريّ.

تأكدتُ أن الذكر لا يزال مُعرِضًا عني قبل أن أرفع نفسي وأركض منحنيًا إلى حيث يتمدد **تانوس**. ثم نَعَبتُ بهمس مبحوح: «قف! انهض!»، وحاولتُ إنهاضه، لكنه رجلٌ ثقيل ولا يزال نصف صاحٍ. نظرتُ من خلفي إلى الفيل نظرة يائسة، ورأيته يبتعد عنا جارًّا كتلة المعدات المتشابكة والحصان الميت كاملة معه.

لففتُ ذراع **تانوس** من حول عنقي ووضعتُ كتفي تحت إبطه، وتمكنتُ بكل قوّتي من إنهاضه، فاتكأ عليَّ متداعيًا ومشيتُ متمايلًا تحت ثقله. ثم همستُ بإلحاح: «شُدّ نفسك! سيرانا الفيل في أي لحظة».

حاولتُ جرّه معي، لكنه خطا خطوة واحدة قبل أن يئنّ وينهار علي، ثم قال ناخرًا: «ساقي. لا يمكنني الحركة. لقد أُصيبت رُكبتي؛ التوَت التواءة لعينة».

داهمني إدراك مأزقنا كله عندئذ كما لم يفعل من قبل، واستبدَّت بي خطيئة جُبني القديمة من جديد، فخارت قوى ساقيّ.

قال **تانوس** صارًّا أسنانه: «انجُ بنفسك أيها الأحمق العجوز. اتركني واهرب!».

رفع الفيل رأسه وهزّه كما يهز الكلب رأسه ليُخرج الماء من أذنيه بعد أن يسبح إلى الشاطئ، فصفقت تينك الأذنان الجلديتان الهائلتان كتفيه وطقطقتا، وانزلقت جثة نصل المهشمة عن الناب لتُرمى جانبًا كأنها لا تزيد

وزنًا على أرنب ميت. كانت قوة الفيل لا تُصدق، وإن كان بمقدوره قذف وزن حصان وعربة بهذه السهولة، فما تراه فاعل بجسدي الهش؟

حثني **تانوس** وحاول دفعي: «اركض بحق **حورس**، اركض أيها الأحمق!»، لكن مُعاندة غريبة منعتني من تركه، وتشبثتُ بكتفه. لم أتمكن من التخلي عنه رغم خوفي.

سمع الفيل صوت **تانوس** والتفّ إلينا ناشرًا أذنيه عن آخرهما كالشراع الرئيس لقادس مقاتل، ثم حدق إلينا مباشرة، وكنا على بُعد أقل من خمسين خطوة منه.

لم أعرف آنذاك أن بصر الفيل ضعيف حتى إنه يكاد يكون أعمًى، وأنه يعتمد بالكامل تقريبًا على حاستي السمع والشم، فلا ينجذب انتباهه إلا إلى الحركة، ولو أننا وقفنا من دون حراك لما رآنا.

شهقتُ: «لقد رآنا»، وجررتُ **تانوس** معي مجبرًا إياه على القفز على قدمه السليمة بجواري، فرأى الفيل الحركة وزعق، ولن أنسى بحياتي ذلك الصوت الذي أصمّني وشدهني، وأرسلنا نترنح فتعثرنا وكدنا نقع.

ثم هجم علينا مباشرة.

جاء بقفزات طويلة عاتية، وأذنين تخفقان حول رأسه. كانت السهام بارزة من جبهته العظيمة المسفوعة، والدماء متدفقة على وجهه كالدموع، وكلما زعق، انبجست دماء رئتيه كغيمة من خرطومه. انقض علينا بكل قوته، عاليًا كجرفٍ وأسود كالموت، وتمكنتُ من رؤية كل شق وتجعيدة في الجلد المتغضن حول عينيه. كانت رموشه كثيفة كرموش فتاة جميلة، لكن عينيه تسطعان بوهج غضب مخيف حوّل قلبي إلى صخرة في صدري، وأثقل ساقي حتى عجزتُ عن الحراك.

بدا مرور الوقت يتباطأ، وسيطر عليَّ شعور أن ما أراه وهم كالحلم، فوقفتُ أراقب الموتَ يأتينا برويَّة مهيبة، ولم أقدر على أي حركة لتفاديه.

«تاتا!»، رنّ صوتُ صبي في رأسي، وعرفتُ أنه وهمٌ من صنع ذعري.

«تاتا، أنا قادم!».

أدرتُ رأسي -غير مصدقٍ البتة- عن مشهد الموت أمامي، ورأيتُ عربةً تشق طريقها بالسرعة القصوى عبر البستان. أخذ حصاناها يمدان جسديهما ويحركان رأسيهما كمطرقتين على سندان نحّاس، وقد طويا آذانهما للخلف، واتسعت مناخرهما الوردية الرطبة عن آخرها. ولم أرَ سائقًا يمسك باللُجم.

«استعد يا **تاتا**!»، وفي تلك اللحظة رأيتُ الرأس الصغير الأنيق، بالكاد يظهر من فوق الحاجبة، واللُجُم المجموعة في قبضتين صغيرتين بيّض التوتّر براجمهما.

فصرختُ: «ارجع يا **مِم**! استدِر!».

نشرَت الريح شعره في سحابة من وراء رأسه، وومضت الشمس ومضات ياقوتية على لفائف شعره الداكنة الكثيفة بينما يتابع تقدمه من دون تمهُّل أو توقف.

فبينما يترنح على ساق واحدة زمجر **تانوس**: «سأجلد البلطجي الصغير لعصيانه أمري»، ونسي كلانا الخطر المحدق بنا.

هتف **مِمنون**: «قفا!»، وبطّأ سير الحصانين، ثم لفّ العربة في منعطف حاد إلى درجة أن العجلة الداخلية توقفت في أرضها وأخذت تدور من حول إطارها، وبفعله ذلك، صار أمامنا حاجبًا إيانا للحظة عن الفيل المهاجِم. مرَّت لحظة في أثناء الالتفافة وقفت فيها العربة بلا حراك. لقد نفّذها تنفيذًا جميلًا.

دفعتُ كتفي تحت إبط **تانوس** ورميته على صفيحة القدم، وفي اللحظة التالية تمامًا قذفتُ نفسي رأسيًّا فوقه، ثم أطلق **مِمنون** العنان للخيل حالما حططنا، وأخذنا نعدو قُدمًا بعنف كاد يسقطني عن العربة، لكنني تشبثت باللوح الجانبي وقوّيت نفسي.

صرختُ: «انطلِق يا **مِم**! بكل طاقتك!».

فصاح: «هيا! هيا!»، وانطلقت العربة خلف حصانين مذعورين دفعتهما الزعقات الغاضبة للفيل المهاجم من خلفنا إلى أقصى سرعتهما.

حدق ثلاثتنا من فوق اللوح الخلفي، وكان رأس الفيل متعلقًا من فوقنا، مالئًا مجال بصري كله. ثم مدّ خرطومه إلينا واقترب منا حتى إنه كلما زعق، رشّ سحابة الدم علينا وبقّع وجوهنا المرفوعة، فبدونا كضحايا وباء مُروِّع ما.

لم نتمكن من الابتعاد عن انقضاضه، ولم يتمكن من إدراكنا. ولتكافؤ سرعتينا، مضينا نتسابق عبر المنفسح الغابي، والرأس الدامي العملاق مدلًى فوقنا في حين ننكمش على نفسينا فوق ألواح أرضية العربة المتنطنطة. كان الأمر لا يتطلب إلا غلطة واحدة صغيرة من سائقنا لنقع في حفرة أو تتكسر إحدى عجلاتنا على جذع شجرة ساقطة، فينقض علينا الفيل في لحظة، لكن الأمير تدبّر اللجُم كمحارب قديم، منتقيًّا طريقه في البستان بيد هادئة وعين خبيرة، فأخذت العربة تميل على عجلة واحدة في المنعطفات، قاب قوسين

أو أدنى من الانقلاب، دارئًا بذلك هجوم الفيل المسعور. لم يرتبك ولا مرة، وفجأة، انتهى كل شيء.

إذ شق أحد السهام المدفونة في صدر الفيل طريقه إلى القلب ومزّقه، ففتح فمه على اتساعه، وتدفقت الدماء القانية من حلقه، ثم ماتَ في مكانه. خارَت سيقانه من تحته وسقط سقطةً هزَّت الأرض من تحتنا، ورقد بعد ذلك على جنبه، طاعنًا الهواء بناب طويل معقوف كأنها إشارة تحدٍ عظيمة أخيرة.

أوقف **مِمنون** الحصانين حينئذ، ونزلتُ **وتانوس** متخبطين من العربة. وقفنا نحدق خلفنا إلى الجثة المهولة، ثم اتكأ **تانوس** إلى جانب العربة بسبب ساقه المتضررة، واستدار ببطء لينظر إلى الصبي الذي لم يعرف أنه أبوه.

وقال ببساطة: «أقسم **بحورس** أنني عرفتُ رجالًا شجعانًا في حياتي، لكن لا أحد منهم يضاهيك أيها الفتى»، ثم رفع **مِمنون** بذراعيه وضمه إلى صدره.

لم أرَ مزيدًا مما حدث بعد ذلك، إذ غشَّت دموعي الأزلية الغليظة بصري، ولم أتمكن من كبتها رغم معرفتي أنني أحمق عاطفي، فقد انتظرتُ طويلًا لأرى ذلك يحدث، لأرى الأب يعانق ابنه.

لم أتمكن من استعادة السيطرة على مشاعري الجانحة إلا عندما سمعتُ أصوات التهليل البعيدة الواهية، فما لم يلاحظه أيٌّ منا هو أن المطاردة كلها حدثت تحت أنظار الأسطول، إذ كانت ***أنفاس حورس*** راسية بالقرب من ضفة النيل، وتمكنتُ من تمييز قوام الملكة النحيل على المؤخرة المرتفعة. وحتى من هذه المسافة، بدا وجهها شاحبًا وتعابيرها جامدة.

***

ذهب البسالة جائزة المحارب، وهو تكريم أعلى مكانة وتقديرًا من **ذهب الثناء**، لا يلبسه إلا الأبطال.

اجتمعنا على متن القادس، نحن الأقربين إلى الملكة وقادة جميع فرق جيشها، وكان نابا الفيل معروضين إلى جوار الصاري كغنائم الحرب، والضباط يرتدون حلاهم العسكرية كاملةً، ثم وقف حملة الرايات باستعداد وراء العرش، ونفخ النافخون في الأبواق عندما ركع الأمير أمام الملكة.

نطقت الملكة بصوت واضح: «رعاياي الأحباء، وأعضاء مجلسي وجنرالات جيشي وضباطه النبلاء، أثني أمامكم على ولي العهد، الأمير **مِمنون**، الذي

استحق الامتياز على مرأى مني ومنكم جميعًا»، ثم ابتسمَت للصبي ابن الحادية عشرة الذي يتلقى معاملة جنرال منتصر.

- نتيجة لتصرفه الشجاع في الميدان، آمرُ بأن يُقبَل في فوج حرس **التمساح الأزرق**، برتبة ملازم ثان، وأمنحه **ذهب البسالة** يرتديه بفخرٍ ورفعة.

صاغ الصاغة الملكيون السلسلة خصوصًا لتلائم عنق صبي بعمر **مِمنون**، لكنني نحتتُ بيدي فيلًا ذهبيًّا صغيرًا يتدلى منها. كان مثاليًّا بكل تفاصيله، تحفة مصغرة بكِسرتي عقيق أحمر مكان العينين ونابين عاجيين حقيقيين، وبدا رائعًا عندما تعلق على بشرة صدر الأمير الناعمة الصافية.

بينما يهلل الرجال لأميري الجميل شعرتُ بدموعي تتجمع مرة أخرى، لكنني لجمتها بصعوبة. ولم أكُن الوحيد الذي يتمرغ في عاطفته كما يتمرغ خنزير وحشي في حمام طيني، بل **كراتاس ورِمرِم وأستيس** كذلك، فبرغم سلوكياتهم المتحجرة المختالة التي عادة ما يرعونها باجتهاد، كانوا يبتسمون كالحمقى، وأقسم أنني رأيتُ أكثر من زوج أعين دامعة في صفوفهم. كان الصبي مثل والديه، يجيد حصد مشاعر الرجال وإخلاصهم، وتقدم ضباط الزرق جميعهم في النهاية ليحيوا الأمير ويعانقوه عناقًا شديدًا بوصفه رفيق سلاحهم.

في ذلك المساء، وبينما نقود معًا على امتداد الضفة عند الغروب، لجم **مِمنون** الحصانين فجأة واستدار إليَّ قائلًا: «لقد استُدعيتُ إلى فوجي. صرتُ جنديًّا أخيرًا، لذا عليكَ أن تصنع لي قوسي الخاصة يا **تاتا**».

فوعدتُه: «سأصنع لك أحسن قوس شدّها أي نبَّال على الإطلاق».

تأمّلني برزانة لبعض الوقت، ثم قال متنهدًا: «أشكرك يا **تاتا**. أظن أن هذا أسعد يوم في حياتي كلها».

في اليوم التالي، بعد أن رسا الأسطول ليلًا، ذهبتُ أبحث عن الأمير ووجدتُه وحيدًا على الضفة في بقعة مخفية عن الرؤية العرضية، ولم يرَني، لذا تمكنتُ من مراقبته لبعض الوقت.

كان عاريًّا تمامًا، وعلى الرغم من تحذيراتي بخصوص التيارات والتماسيح، بدا واضحًا أنه كان يسبح في النهر، إذ كان شعره يقطر ماء على كتفيه. لكن سلوكه حيّرني، ذلك أنه انتقى صخرتين مدورتين كبيرتين عن الشاطئ، وأمسك بكل يد واحدة، وأخذ يرفعها وينزلها في طقس غريب ما.

قال فجأة من دون أن يدير رأسه: «**تاتا**، إنك تتجسس علي، أتريد مني شيئًا؟».

- أريد أن أعرف ما تفعله بهاتين الصخرتين. أتعبد إلهًا **كوشيًا** غريبًا ما؟
- إنني أقوّي ذراعيَّ حتى أتمكن من شد قوسي الجديدة. أريدها أن تتمتع بقوة شد كاملة. لن تخدعني بدمية أخرى، أسمعتني يا **تاتا**؟

***

كان ثمة جندل آخر على النهر، الجندل الخامس الذي تبين لاحقًا أنه قبل آخر جندل سنقابله في رحلتنا. إلا أنه لم يكن عائقًا لتقدمنا كالأربعة السابقة، ذلك أننا لم نعُد مُقيدين بمجرى النهر بعد تغير التضاريس من حولنا.

بينما ننتظر ارتفاع النيل من جديد زرعنا محاصيلنا كالعادة، لكن صار بمقدورنا إرسال عرباتنا إلى نطاق أوسع بكثير في الأراضي العشبية، وأرسلت مولاتي حملات إلى الجنوب لتطارد قطعان الفيلة وترجع بالعاج.

صارت قطعان الوحوش الرمادية البديعة، التي استقبلتنا ببالغ الثقة عندما أبحرنا إلى **كوش**، فارة ومتناثرة، وصرنا نصطادها بوحشية أينما وجدناها، لكن هذه المخلوقات العاقلة تعلمت درسها جيدًا وبسرعة.

عندما وصلنا إلى الجندل الخامس، وجدنا قطعان الفيلة ترعى في البساتين على ضفتي النهر في حشود غفيرة، وأمر **تانوس** العربات ببدء العمليات الحربية فورًا. كنا قد صححنا تكتيكات صيدها وتعلمنا تفادي الخسائر التي أنزلها الذكران الأولان بنا، فقتلنا في اليوم الأول فقط عند الجندل الخامس مئة وسبعة فيل، مقابل خسارة ثلاث عربات فقط.

في اليوم التالي لم نرَ فيلًا واحدًا في مرمى البصر من على سطوح السفن، ورغم أن العربات لاحقت القطعان على الطرق نفسها التي سلكتها عبر الغابة في فرارها، مرت أيام خمسة قبل أن تلحق بها.

أحيانًا كثيرة كانت حملات الصيد ترجع إلى المعسكر تحت الجندل بعد خروجها بأسابيع عديدة متواصلة من دون أن ترى فيلًا أو تجمع نابًا واحدًا، وكما عقب الأمير في اليوم الأول، لم يكن صيد الفيلة بالسهولة التي بدا عليها أولًا..

لكن تلك العربات التي سافرت جنوبًا لم ترجع صفر اليدين، بل وجدت شيئًا أثمن من العاج حتى، وجدت رجالًا.

لم أكُن قد غادرت المعسكر منذ عدة شهور، ذلك أنني كنتُ منشغلًا بالتجارب اللانهائية على عجلات عربتي. وفي هذه الفترة وجدتُ أخيرًا حلول مشكلتي التي ابتُليتُ بها منذ البداية، والتي كانت مصدر تسلية وسخرية **لتانوس** وأزلامه العسكريين، ألا وهي الفشل العرضي لبعض تصاميمي.

لم يكن للمشكلة حل واحد في النهاية، بل مجموعة من الحلول، بدءًا من المواد الأولية لقضبان العجلات، إذ صارت أمامي مجموعة لا تكاد تنتهي من الأخشاب أعمل بها، إضافة إلى قرون المها والكركدن التي اصطدناها بقرب مستوطنتنا، والتي -على عكس قطعان الفيلة- لم تهرب عندما أزعجناها.

اكتشفتُ أن نقع القلب الأحمر لخشب سنط الزرافة يصيّره قاسيًا إلى درجة تصد أشد نصال الفؤوس البرونزية، فجمعتُ هذا الخشب بطبقات من القرون وربطت كل ذلك بسلك برونزي، بطريقة تشبه كثيرًا ما فعلته بجذع القوس **لاناتا**، وكانت النتيجة عجلات يمكن قيادتها بالسرعة القصوى على أي نوع من التضاريس من دون أن تتكسر. عندما أتممتُ **وهُوي** أول عشرة عربات بهذه العجلات الجديدة، تحديتُ **كراتاس ورِمرِم**، اللذين كانا الأشهر بثقل اليد وتدمير العربات في جيشنا كله، أن يحاولوا تحطيمها، واتفقنا على رهان قدره عشر دبنات من الذهب عن كل طرف.

كانت هذه اللعبة ملائمة جدًّا لذوق ذينك الطفلين مفرطي النمو، وتلبّستهما روحها باستمتاع صبيانيّ، فدوَّت صيحاتهم المبحوحة ووقع الحوافر عبر البساتين على ضفتي النيل لأسابيع تلَت، وعندما انتهت مهلتهم، جاءَني **هُوي** يتشكى بمرارة من أنهما قد أنهكا عشرين زوجًا من الخيول، إلا أنه وجد بعض التعزية في كسبنا الرهان، فقد صمدت عجلاتنا أمام أعنف الاختبارات.

تذمّر **كراتاس** عندما ناولني ذهبه بافتقار واضح للروح الرياضية: «لو أعطيتنا بضعة أيام إضافية، أعرف أنني كنتُ لأتدبر إحداث كسر **تاتا** آخر». وأومأ لنا إيماءة رآها فَكِهةً، والتي يُفترض أنها توحي بتكسّر عجلة وتشقلُب سائق.

قلت: «إنك لمهرجٌ موهوب يا **كراتاس** الشجاع، لكنني أخذت ذهبك (وخشخشته تحت أنفه)، وليس في جعبتك إلا دعابة سخيفة فسدتْ لشدة قدمها».

وآنذاك عادت الحملة الاستطلاعية، التي خرجت بقيادة السيد **أقر** بحثًا عن الفيلة، بأنباء أنهم وجدوا سكنًا بشريًّا في الجنوب البعيد بدلًا من ذلك.

كنا نتوقع أن نصادف القبائل حالما نعبر الجندل الأول، ذلك أن أرض **كوش** تصدّر العبيد منذ قرون، العبيد الذين أُسروا على أيدي بني جلدتهم، غالبًا في حروب قبلية، وحُملوا رفقة سلع تجارية أخرى -كالعاج وريش النعام وقرون الكركدن وغبار الذهب- إلى البلدات الحدودية في الإمبراطورية. كانت إماء الملكة **لوستريس** السوداوات قليلات الحياء من أهل هذه الأرض، ووصلن إليها عن طريق أسواق النخاسة في **إلفنتين**.

ما زلتُ عاجزًا عن تفسير عدم مصادفتنا البشر قبل الآن. ربما دفعتهم الحروب وغارات النخاسين إلى الداخل، مثلما فرّقنا قطعان الفيلة، وربما أبادتهم مجاعة أو وباء، يستحيل التيقن من السبب. وحتى هذه اللحظة، لم نجد إلا قليل الأدلة على الوجود البشري.

لكننا، وقد أدركناهم أخيرًا، تفشّت الحماسة تفشي الجائحة بين أفراد جماعتنا، إذ كنا في حاجة إلى العبيد أكثر من حاجتنا إلى العاج أو الذهب، فحضارتنا كلها ونمط حياتنا قائمة على نظام ملكية العبيد، وهو نظام سمحت به الآلهة وبرره العُرف القديم. ولأننا لم نتمكن من جلب إلا قلة قليلة من عبيدنا معنا من مصر، صار ضروريًّا لنجاتنا ونموّنا بوصفنا أمةً أن نأسر المزيد لنستبدلهم بالذين أُجبرنا على تركهم.

أمر **تانوس** بإرسال حملة كاملة النصاب فورًا بقيادته شخصيًا، ذلك أننا غير متأكدين مما سنواجهه أعلى النهر، فبمعزل عن أسرى الحرب، دائمًا ما اشترينا نحن المصريين عبيدنا من تجار أجنبيين، وهذه أول مرة منذ قرون، على حد علمي، نُضطر إلى أسرهم بأنفسنا. كان صيدًا جديدًا علينا كصيد الفيلة، لكن على الأقل، لا نتوقع هذه المرة أن تكون طريدتنا وديعة أو بلهاء.

كان **تانوس** لا يزال يأبى الركوب مع أي سائق سواي، وحتى محاولات **كراتاس** و**رِمرِم** الفاشلة لتحطيم عجلاتي الجديدة لم تقنعه بمتانتها، فانطلقنا في طليعة الطابور، لكن العربة التالية في الرتل كانت بقيادة أصغر ملازم ثانٍ بين الزرق، وليّ العهد **مِمنون**.

كنتُ قد اخترتُ أفضل سائقين ليكونا طاقم **مِمنون**، فوزنه الخفيف يسمح للعربة بحمل رجل إضافي، وقوته لم تتطور بعدُ بما يكفي لتمكنه من رفع طرفه من العربة عندما يتطلب الأمر الترجل عنها لحملها على العقبات التي لا يمكن القيادة فوقها، لذا كان محتاجًا إلى ذلك الرجل الإضافي ليعينه.

صادفنا القرى الأولى على ضفة النهر، على بعد سفر ثلاثة أيام فوق الجندل، وكانت مآوٍ عشبية رديئة أكثر بدائية من أن تُسمى أكواخًا، فأرسل **تانوس** مستطلعين إلى الأمام ليستكشفوا، ثم حاصرناهم عند الفجر بهجمة سريعة واحدة.

كان الناس الذين خرجوا يتخبطون من هذه المآوي البسيطة ذاهلين ومصدومين إلى حد منعهم من إبداء أي مقاومة، أو حتى محاولة الهرب منا، بل تلاصقوا وأخذوا يثرثرون ويحدقون ببلاهة إلى حلقة العربات والتروس التي أحطناهم بها.

«صيدٌ رائع!» سُرَّ **تانوس** بينما نتفحصهم، إذ كان الرجال طوالًا عِجافًا يعلون معظم رجال صفوفنا، ولهم أطراف طويلة نحيلة، وحتى **تانوس** بدا قصيرًا بالمقارنة بهم عندما مشى بينهم يوزعهم إلى مجموعات كما يوزع الفلاح قطعانه.

ثم قال بحماسة: «ثمة بعض العينات الجيدة جدًا، انظر إلى هذا الجمال (وانتقى شابًا له بنية جسمانية فريدة)، سيجلب عشر خواتم ذهبية في سوق نخاسة **إلفنتين** في أي يوم».

كانت نساؤهم قويات وصحيحات الأبدان، ظهورهن مستقيمة وأسنانهن بيضاء متناسبة، وكل أنثى بالغة تحمل رضيعًا على وركها وتقود آخر من يده.

ومع ذلك، كانوا أكثر الشعوب التي قابلتها بدائية على الإطلاق، إذ لم يرتدِ رجل ولا امرأة منهم أي مِزقة ملابس، بل تركوا عوراتهم مكشوفة بلا حياء، مع أن الفتيات الأصغر سنًا أحطن خصورهن بسلسلة من خرزات مصنوعة من قشور بيض النعام، ورأيتُ من فوري أن النساء البالغات قد خُتنَّ بأشد الأساليب وحشية. عرفتُ لاحقًا أنهم كانوا يستخدمون إما سكينًا من الصوان وإما شظية خيزران لإجراء هذه العملية، فتُندَّب المهابل وتُشوَّه حتى تصير حُفرًا مفتوحة، ثم تختتن بشظايا من العظم أو العاج. لم تكُن الفتيات الصغيرات قد عانين هذا التشويه، وقررتُ أن هذه العادة ستُحظر في المستقبل. كنتُ واثقًا أن بمقدوري الاعتماد على دعم مولاتي في ذلك.

كانت جلودهم داكنة حتى إن أجسادهم العارية بدت أرجوانية تحت خيوط الشمس الأولى، بلون عنبٍ أسودٍ ناضجٍ زيادة، وقد دهَن بعضهم جسده بمعجون من الرماد والطين الأبيض رسموا عليه أنماطًا بسيطة برؤوس

أصابعهم، وزينوا شعورهم بمزيج من دم الثيران والطين حتى صار خوذة طويلة لامعة زادت طولهم البديع بالفعل.

انتبهتُ من فوري إلى غياب المسنين بينهم، وعلمتُ لاحقًا أن من عادتهم كسر سيقان المسنين بهراواتهم الحربية وتركهم على ضفة النهر أضاحي للتماسيح. كانوا يعتقدون أن أرواح أسلافهم الموتى تتقمص تماسيحًا، وأن الضحية يصير جزءًا من هذه العملية من خلال إطعامها.

لم يصوغوا أي مشغولات معدنية، فكانت أسلحتهم هراوات خشبية وعصيًا مدببة، واحتجب عنهم فن الخزف، فكانت أوانيهم قرعات النباتات البرية، ولم يزرعوا المحاصيل، بل عاشوا على السمك الذي يصيدونه في القراقير[1] وعلى قطعان المواشي القزمية طويلة القرون التي كانت أثمن ما يملكون. كانوا يسْتَدْمونها من عِرق في العنق ويمزجون الدم بحليب الضرع الدافئ، ثم يشربون الخبيصة المتخثرة ببالغ التلذذ.

عندما درستُهم على امتداد الشهور التالية، وجدتُ أنهم لا يجيدون القراءة ولا الكتابة، وآلتهم الموسيقية الوحيدة طبل مصنوع من جذع شجرة مفرغ، وأغانيهم نُعار ونهيق حيوانات برية. كانت رقصاتهم محاكاة ساخرة شائنة للفعل الجنسي، تقترب بموجبها صفوف من الرجال والنساء العراة يدقون الأرض بأقدامهم ويحركون أوراكهم حتى يتلاقوا، وعندما يتلاقون، تتحول المحاكاة إلى واقع، وتبدأ أشدّ الخلاعات فجورًا.

عندما ساءلني الأمير **مِمنون** بأي حق نأسر هؤلاء الناس ونتملّكهم كالماشية، قلت له: «هم همَج، ونحن قوم متحضرون. ومثلما الأب مُلزم بواجب تجاه أبنائه، من واجبنا رفعهم من هذه المنزلة البهيمية، وتعريفهم على الآلهة الحقيقية، فيردون لنا الدين بالعمل». كان **مِمنون** فتى أريبًا، وبعد أن شرحتُ له الأمر، لم يشكك ثانية بمنطقه أو أخلاقيّته.

بناء على اقتراحي، سمحت مولاتي لاثنتين من خادماتها السوداوات بمرافقة الحملة. لم تكُن علاقتي الشخصية بهاتين الوقحتين رائقة تمامًا، لكنهما قدمتا في تلك الأوقات خدمة لا تقدر بثمن، ذلك أن كلتيهما تحتفظ بذكريات طفولة من قبل أسرها، وبمعرفة أساسيَّة بلغة قبائل **كوش** هذه تكفينا لنبدأ عملية ترويض أسرانا. ولأنني موسيقيّ، وأذني مضبوطة على

(1) القرقور: أو الصخاوي، قفص له شكل نصف بيضة يُصنع من سعف النخيل أو البوص لصيد السمك. (المترجم).

أنغام الصوت البشري، إضافة إلى تمتعي بموهبة لغوية فطرية، أجدتُ في غضون أسابيع قليلة جدًا لغة **الشلك**[1]، وهو اسم هؤلاء الناس.

كانت لغتهم بدائية بقدر عاداتهم ونمط حياتهم، فلم تتجاوز مفرداتهم بكاملها خمسمئة مفردة دونتُها على لفائفي ثم علمتها للنخاسين ومدربي الجيش الذين عينهم **تانوس** مسؤولين عن العبيد المأسورين حديثًا، ذلك أنه وجد في هؤلاء الناس أفواج المشاة التي تتمم فِرق عرباته.

لكننا لم نختر كل شعب **الشلك** للجيش، فقد ثبت لاحقًا أن بعضهم مجدّف لا يكلّ على مقاعد القوادس، وبعضهم خادم خيل وقطعان متقان، ذلك أنهم تربوا على رعاية قطعانهم.

عرفنا عاجلًا أن عدوهم التقليدي قبيلتان تعيشان في الجنوب الأبعد هما **الدينكا والمنداري**. كانت تينك القبيلتان الأخريان أكثر بدائية، وتفتقران إلى غرائز **الشلك** القتالية، لذا لم يَسُر **شلك تانوس** الجدد شيءٌ أكثر من إرسالهم جنوبًا مع ضباطهم المصريين مدعومين بالعربات ليحاربوا خصومهم القدماء، فجمعوا ألوف **الدينكا والمنداري**، واستغللناهم في الأعمال الثقيلة التي لا تحتاج إلى مهارة. لم يأتِ أحد منهم طواعية، مثلما فعل بعض **الشلك**.

***

انفتحت أرض **كوش** بكاملها أمامنا حالما مرّرنا الأسطول عبر الجندل الخامس، فبعد أن صار معنا **الشلك** يرشدوننا إلى الطريق، أخذ أسطولنا يبحر صاعدًا النهر، بينما طافت فرق عرباتنا إلى نطاق أوسع على الضفتين لترجع بالمزيد من العاج والعبيد الجدد.

سرعان ما وصلنا إلى مسار عريض للنهر ينضم إلى مِجرى النيل الرئيس القادم من الشرق. كان تدفق هذا النهر مقصورًا على تقطُّر بطيء في بِركاته المنكمشة، بيد أن **الشلك** أكدوا لنا أن هذا النهر، الذي سميناه **عطبرة**، يصير في موسمه سَيلًا جارفًا، ويزيد على فيضان النيل السنوي. أرسلت الملكة **لوستريس** حملة من منقبي الذهب، رفقة مرشدين من **الشلك**، ليتبعوا **عطبرة** إلى آخر حد ممكن. وتابع الأسطول إبحاره جنوبًا، بينما يصيد ويشن غارات الاستعباد في طريقه.

---

(1) الشلك: قبيلة جنوب سودانية نيلية تنحدر من قبيلة اللوو. (المترجم).

أقلقتني رؤية عربة الأمير **مِمنون** المتكررة على رأس أحد تلك الطوابير، وحاولتُ منع ذلك. كان بطبيعة الحال مدعومًا بخيرة الرجال، تمكنتُ من تدبُر ذلك على الأقل، لكن المجازفة والخطورة قائمة دائمًا في أدغال إفريقيا، ولا يزال محض صبي.

شعرتُ أنه ينبغي له قضاء وقتٍ أكثر برفقتي ولفائفي ليدرس على متن ***أنفاس حورس***، بدلًا من اللهو مع أمثال **كراتاس ورِمرِم**، فذينك المشاغبين لا يهتمان بسلامة الأمير إلا بقدر اهتمامهما بسلامتهما الشخصية، ويحرضانه دائمًا بالرهانات والتحديات والإطراء المُغالي على مآثره الجريئة، فسرعان ما صار متهورًا مثلهما، ويستمتع كلما رجع من إحدى هذه الغارات بترويعي بحكايات رعونته.

عندما احتججتُ عند **تانوس**، اكتفى بالضحك وقال: «إن كان سيعتمر التاج المزدوج يومًا ما، فعليه تعلم ازدراء الخطر وقيادة الرجال»، ووافقت مولاتي **تانوس** بخصوص تدريب **مِمنون**، فاضطررتُ إلى إرضاء نفسي بتحقيق أعلى استفادة ممكنة من أي وقت يتاح لي أن أقضيه مع أميري وحدنا.

لكن عندي على الأقل أميرتيّ الصغيرتين، وما أروعهما من عزاء. كانت **تحوت وباكاثا** تزدادان سحرًا كل يوم، ولم أكُن عبدهما وحسب، فنظرًا لظروفنا الفريدة، كنتُ أقرب إليهما من أبيهما الحقيقي، وكانت «**تاتا**» أول كلمة نطقتها **باكاثا**، بينما كانت **تحوت** تأبى النوم حتى أحكي لها حكاية، وتنتحلُ إذا ما اضطررتُ إلى مغادرة الأسطول لقضاء عمل ما. أظن أنها كانت أسعد فترة في حياتي، إذ شعرتُ أنني في قلب عائلتي، وراسخ في عواطفهم جميعًا.

وكان طالع أمتنا مشرقًا بقدر طالعي تقريبًا، فقد عاد أحد منقّبي الذهب بعد وقت قصير من البعثة في نهر **عطبرة**، وركع أمام الملكة **لوستريس** واضعًا كيسًا جلديًا صغيرًا عند قدميها، ثم، وبأمر منها، حلّ ربطته وصب منه جدولًا من الحصى المتلألئة، بعضها صغير بحجم حبات الرمل، وبعضها كبير كرأس إبهامي، وكلها تشعّ بذلك الوهج المميز الذي لا يمكن إخطاؤه.

استُدعي صاغة الذهب وأعملوا أفرانهم وبوادقهم الخزفية، وأعلنوا أخيرًا أن كتل المعدن هذه ذهب حقيقي ذو نقاوة استثنائية، فركبتُ **وتانوس** إلى الموقع الذي اكتُشف فيه هذا الذهب في **عطبرة**، وساعدته في تخطيط الوسائل المستخدمة لاستخلاصه من أحواض الحصى في مجرى النهر.

استخدمنا آلافًا من عبيد **الدينكا والمنداري** لغرف سطول الحصى وحملها إلى الأحواض التي حفرها البناؤون من منحدرات الجرانيت في التلال فوق النهر.

رسمتُ لمولاتي صورًا لأرتال العبيد السود العراة الطويلة، بجلودهم النديَّة الملتمعة تحت ضوء الشمس بينما يكدحون في صعود التلة، وكل منهم يحمل سطلًا ثقيلًا متوازنًا على رأسه. وعندما تركنا المنقّبين يكدون في عملهم ورجعنا إلى الأسطول، أخذنا معنا خمسمئة دبن من الخواتم الذهبية المصبوبة حديثًا.

***

صادفنا جندلًا آخر في رحلتنا إلى الجنوب. كانت هذه سادس مجموعات المنحدرات وآخرها، لكن تبيَّن أن عبورها أسهل من سابقاتها، وتمكنت عرباتنا وشاحناتنا من الالتفاف حولها، لذا وصلنا أخيرًا إلى الملتقى الغامض للنهرين العظيمين اللذين شكلا فيما بينهما النيل الذي نعرفه حق المعرفة ونحبه أيما حب.

قالت الملكة **لوستريس**: «هذا هو المكان الذي تجلى **لتايتا** في رؤيا متاهات **آمون رع**. هنا تطلق **حابي** المياه لتفيض وتمتزج، وهنا موقع الإلهة المقدس. لقد أتممنا رحلتنا. هذا هو المكان الذي ستقوّينا الإلهة فيه لنرجع إلى مصر، ومن الآن أسمّيه **قيبي**[1]، مسكن الرياح الشمالية، لأنها الرياح التي دفعتنا إلى هنا».

وافقها كبار سادة المجلس: «إنه مكان ملائم، وقد أظهرت الإلهة بركتها بالفعل بتزويدنا بالعبيد والذهب. يجب ألا نتابع السفر».

ثم قضت الملكة: «لم يبقَ أمامنا إلا إيجاد موقع لقبر زوجي، الفرعون **ماموس**. حالما يُبنى القبر ويُغلق على الفرعون، أكون قد بررتُ بوعدي ويؤون الأوان لنرجع ظافرين إلى مصرنا. لا يمكننا مواجهة طاغية **الهكسوس** وطرده من أرضنا الأم إلا بعد إتمام ذلك».

أظن أنني كنتُ واحدًا من القلة القليلة في جماعتنا التي لم يسعدها هذا القرار، فقد استبدّ الحنين للوطن بالبقية وأنهكتهم سنوات السفر الطويلة، أما أنا فأصابني داء أخبث هو شهوة السفر. أردتُ أن أرى ما يلي حنية النهر التالية، وما فوق القمة التالية. أردتُ أن أمضي وأستمر في المضي إلى نهاية

(1) قيبي: أو قيبوي، إله الرياح الشمالية في مصر القديمة. (المترجم).

العالم. لذا سرني أن اختارتني مولاتي مسؤولًا عن إيجاد مكان للقبر الملكي، وأمرتْ الأمير **مِمنون** بمرافقتي في هذه الحملة بسرب عرباته، فهكذا لا أشبع شهيتي الجديدة للسفر وحسب، بل أتمتع مرة أخرى بصحبة الأمير من دون تعكير.

سُلم الأمير **مِمنون**، بعمر الرابعة عشرة، قيادة الحملة، ولم يكن ذلك نادرًا، فقد حدث في تاريخنا أن قاد فراعنة لا يتجاوزونه سنًّا جيوشًا عظيمة في ساح المعركة. أخذ الأمير مسؤولية قيادته المستقلة الأولى ببالغ الجدية، فجُهزت العربات، وفحص كل حصان وعربة بنفسه، وأخذنا معنا فريقين احتياطيين من الخيول لكل عربة، حتى تُبدّل الفرق وتستريح بانتظام.

ثم تشاورنا باستفاضة دقيقة وتفاصيل أدق بخصوص الاتجاه الذي علينا سلوكه في بحثنا عن موقع مثالي لقبر الملك، إذ يجب لهذا الموقع أن يكون في منطقة وعرة وغير مسكونة ولا يمكن للصوص القبور بلوغها بسهولة. ولا بدَّ من وجود جرف يُحفر فيه القبر وجميع الممرات الفرعية.

لم نصادف أي منطقة تلبي هذه المتطلبات منذ دخلنا أرض **كوش**، فاستذكرنا ما نعرفه عن الأراضي التي صارت خلفنا وحاولنا التكهُّن بما يمتد أمامنا. وكانت **قيبي** التي نستقر فيها الآن، حيث يلتقي النهران، أجمل مكان زرناه في رحلتنا الطويلة.

بدا أن طيور السماء كلها اجتمعت هنا، من الرفرافيات المزيّنة إلى الكركيات الزرقاء المهيبة، من أسراب البط الصافرة التي عتّمت السماء بجموعها إلى الزقزاقاوات والطيطاوات التي تحلق بسرعة على حافة المياه من دون أن تتوقف إلا لتسأل سؤالها الحزين: «بيويت؟ بيويت؟».

وفي بساتين السنط الفضية وصولًا إلى الأراضي المعشوشبة، كانت قطعان الظباء ترعى بملايينها التي لا تُحصى، كما لو أن مقام الإلهة هذا مقدس لدى جميع مراتب الحياة. هاجت المياه تحت ملتقى النهرين بأسراب السمك، بينما دارت في الأعالي عقبان السمك بيضاء الرأس في دوائر بطيئة قبالة اللون الأزرق الصارخ للسماء الإفريقية مطلقة صداحها الصيَّاح الغريب.

أظهر كل من النهرين التوءمين شخصية ومزاجًا مختلفين، مثلما يمكن لرضيعين خرجا من الرحم نفسه أن يختلفا بكل تفصيل جسدي وعقلي، فكان الفرع الأيمن بطيئًا وأصفر، وأكثر اتساعًا من الآخر، لكنه ليس على القدر نفسه من الحزم، بينما الفرع الشرقي أزرق رمادي ملتاث، فيضان غاضب

متعجرف يدفع أخاه جانبًا عندما يلتقيان، رافضًا الاندماج بمياهه، حاشرًا إياه بالضفة، ومحافظًا على شخصيته المضطربة لأميال عديدة على امتداد مجرى النهر قبل أن يسمح بجهامة لنفسه بأن يمتصه التدفق الأصفر الأرقّ.

سألني **مِمنون**: «أي نهر علينا أن نتبع يا **تاتا**؟»، فاستدعيتُ مرشدي **الشلك**.

قالوا لنا: «الأصفر يخرج من مستنقع فسيح مُهلك لا نهاية له، ولا يمكن لإنسان دخوله. إنه موطن للتماسيح وأفراس النهر والحشرات اللاسعة، موطن للحُمَّى حيث يمكن للمرء أن يضيع طريقه ويهيم إلى الأبد».

سألنا: «ماذا عن النهر الآخر؟».

- النهر الداكن يخرج من السماء، من جروف صخرية ترتفع حتى السحاب، ولا يمكن لرجل تسلق تلك الخوانق المُريعة.

فقرر الأمير: «سنتبع الفرع الأيسر الداكن، وسنجد في تلك الأماكن الصخرية مرقدًا لأبي».

وهكذا سافرنا إلى الشرق حتى رأينا الجبال ترتفع في الأفق، وتشكّل سورًا شاهقًا هائلًا يفوق أي شيء رأيناه أو اعتقدنا بإمكانية وجوده على الإطلاق، فكانت التلال التي عرفناها في وادي النيل بالمقارنة مع هذه الجبال العظيمة أشبه بخربشات طيور ضئيلة على الضفاف الرملية للنهر. وفي كل يوم تقطعه رحلتنا باتجاهها، كانت تزداد علوًا في السماوات مُقزّمة العالم كله تحتها.

قال **مِمنون** متعجبًا: «لا رجل قادر على الصعود إلى هناك. لا بدَّ أنه مسكن الآلهة».

راقبنا البرق يتراقص على الجبال، وامضًا وخفَّاقًا داخل ضفاف السحاب المتقلّبة التي تحجب القمم عن بصرنا. وأنصتنا للرعد يهدر كأسد صيَّاد بين الخوانق والوديان المتحدّرة، ودبّ الرعب في قلوبنا.

لم نجرؤ على تجاوز سفوح هذا الميدان المخيف، ثم قطعت الجروف والخوانق طريقنا وردَّت عرباتنا على أعقابها. وجدنا في هذه السفوح واديًا مخفيًا له جوانب صخرية عمودية، فاستكشفتُ والأمير هذا المكان البريّ لعشرين يومًا، حتى وقفنا أخيرًا أمام سطح جرف أسود، وقال **مِمنون** بهدوء: «هنا سيرقد جثمان أبي الدنيوي إلى الأبد (ثم حدق إلى الصخرة المتحدّرة بتعابير حالمة وغامضة)، كأنني أسمع صوته في رأسي. سيكون سعيدًا هنا».

لذا مسحتُ المكان وعلّمت الجرف، ثم أقحمتُ أسافين برونزية في شقوق الصخور لأحدد اتجاه ممر المدخل وزاويته للبنائين الذين سيأتون ليبدؤوا العمل. وعندما تم ذلك، انتشلنا أنفسنا من متاهة الوديان والخوانق المتشابكة هذه، وعدنا مع النيل إلى ملتقى النهرين حيث يرسو أسطولنا.

***

كنا مُعسكرين على السهول الفسيحة البعيدة مسافة يومين فقط عن **قيبي** وقتما أيقظتني في الليل صيحات النُعار المخيفة وأصوات جموع الحيوانات المتحركة التي بدت قادمة من الظلمة المحيطة بنا كلها.

أمر **مِمنون** النافخَ في البوق أن ينادي إلى السلاح، فنادى واستعددنا داخل حلقة من العربات، ثم رمينا حطبًا في نيران الحراسة ووقفنا نحدق إلى الليل البهيم. رأينا في وميض ألسنة اللهب فيضًا داكنًا، يشبه سيل النيل، يتدفق عابرًا إيانا. كانت الصيحات الغريبة وأصوات النُعار تصم الآذان تقريبًا، وكان اكتظاظ الحيوانات في ذلك الحشد شديدًا حتى إنها اصطدمت بالحلقة الخارجية للعربات وقلبت بعضها على جانبه، فاستحال علينا أن نرتاح في هذا الهدير، ووقفنا باستعداد بقية الليلة. ولم يتضاءل سيل الكائنات الحية طيلة ذلك الوقت.

عندما أضاء الفجر المشهد، حَبانا بمنظر استثنائي أشد ما يكون، إذ رأينا السهول، على مدّ النظر، مغطاة ببساط من الحيوانات المسافرة جميعها بالاتجاه نفسه، تتثاقل قُدمًا بعزم قَدَريّ عجيب، مدليًّة رؤوسها ومحاطة بغبار مرورها، بينما تطلق صيحاتها المحزونة الغريبة تلك. وبين الحين والآخر، يرتعب قسم من هذا القطيع اللانهائي دون سبب وينطلق راكضًا، فيتوثّب أفراده وينخرون مطاردين بعضهم في دوائر عشوائية، ثم يرجعون إلى مشيتهم المتثاقلة ويتبعون أسرابهم إلى المدى المُبهم.

وقفنا نحدق ذاهلين. كانت جميع الحيوانات في هذا الجمهور من النوع نفسه، وكل فرد منها مطابق تمامًا لتاليه؛ كلها ذات لون داكن مائل إلى الأرجواني، ولها لُغد ذو عرف أشعث وقرون هلالية. وكانت رؤوسها مشوهة، بأنوف منتفخة بشعة، وأجساد تنحدر من أكتاف مرتفعة إلى مؤخرات ضعيفة.

عندما طقّمنا العربات أخيرًا واستأنفنا رحلتنا، عبرنا هذا البحر الحيّ من الحيوانات كأسطول من القوادس، وفتحت لنا طريقًا لنمر، متدفقة قريبة من

كلا جانبينا إلى درجة مكنتنا من لمسها. كانت مطمئنة تمامًا، وتحدق إلينا بأعين بليدة لا مبالية.

عندما صار موعد وجبة منتصف النهار، شد **مِمنون** قوسه وقتل خمسة من هذه الظباء بخمسة سهام، ثم سلخناها وقصبنا جثثها بينما يتدفق رفاقها على بُعد ذراع منا، وبمعزل عن مظهرها الغريب، كان لحمها بعد شيّه على جمر النار طيّبًا بقدر أي طريدة ذقتها من قبل.

قال **مِمنون**: «وهذه هبة أخرى من الآلهة. حالما نرجع إلى الجيش الرئيس، سنرسل حملة تتعقب هذه القطعان، وسنتمكن من تدخين لحم يكفي لإطعام جيوشنا وعبيدنا حتى ترجع هذه البهائم العام القادم».

فقد علمنا من مرشدي **الشلك** أن هذه الهجرة المدهشة حدث سنوي يحدث كلما انتقلت القطعان بين مراعٍ تبعد عن بعضها عدة مئات من الأميال، وكان **الشلك** يسمون هذه الحيوانات **بالغنو**، محاكاة لصياحها الغريب. قلت للأمير: «إنها مؤونة لا تنتهي، مؤونة تُعوَّض كل عام».

لم يكن أيٌّ منا قادرًا آنذاك على توقع الأحداث الكارثية التي ستتفجر من زيارة هذه **الغنو** البشعة. كان ينبغي لي أن أستشعر الخطر من طريقة رفعها رؤوسها ونخرها من دون سبب، أو من المفرزات المخاطية التي تسيل من أنوفها، والتي لاحظتها عندما تدفقت عابرة إيانا، إلا أنني لم أفكر كثيرًا بهذه السلوك، وحكمت عليها أنها كائنات وديعة حميدة لا يمكن أن تجلب علينا إلا الفائدة.

حالما بلغنا النهرين التوءمين، أبلغنا الملكة **لوستريس** بهجرة **الغنو**، ووافقت على اقتراح الأمير **مِمنون**، فعينته قائدًا على طابور من مئتي عربة، بمساعدة **كراتاس ورِمرِم**، مدعومًا بشاحنات تحمل عدة آلاف من **الشلك**، وأمرته أن يذبح أكبر عدد يمكنه تقطيعه وتدخينه لمؤونة الجيش.

لم أرافق الحملة، ذلك أنني لا أستهوي وظيفة مساعد الجزار، لكننا سرعان ما رأينا دخان النيران التي يُعالج اللحم عليها يعتم الأفق، وبعد أيام ليست كثيرة، بدأت الشاحنات بالعودة، وكل منها محملة عن آخرها بصفائح اللحم المعالج المسودّ.

بعد عشرين يومًا بالضبط من لقائنا بقطعان **الغنو**، كنت جالسًا تحت شجرة ظليلة على ضفة النيل، ألعب **الباو** مع صديقي العزيز **أتون**. ومن باب تدليل نفسي بعض الشيء، واحترامًا **لأتون**، كنتُ قد فتحت جرة نبيذ ثمينة

بجودة ثلاث نخلات من بقية المخزون الذي جلبته من مصر، فرحتُ **وأتون** نلعب ونتماحك كما يفعل الأصدقاء القدماء، ونرتشف النبيذ بعميق التقدير.

ما كان لنا من سبيل لمعرفة الكارثة المندفعة علينا لتكتسحنا كلنا، بل العكس، كانت عندي كل الأسباب لأُسَرّ من نفسي. ففي اليوم السابق أتممتُ رسومات ومخططات بناء قبر الفرعون، وأدرجتُ فيها عدة مزايا لصدّ لصوص القبور وإحباطهم، ووافقت الملكة **لوستريس** على هذه المخططات وعينت أحد كبار البنائين مشرفًا. قالت لي إن بمقدوري طلب كل ما أحتاج إليه من عبيد وعتاد، فقد كانت مولاتي عازمة على أن لا تبخل بشيء في بر وعدها لزوجها المتوفى، وأرادت أن تبني له أفخم قبر يمكن لعبقريتي تصميمه.

كنتُ قد ربحتُ لتوي ثالث لعبة **باو** متتالية على **أتون** وبدأت أسكبُ جولة أخرى من النبيذ الممتاز بحق وقتما سمعتُ خفق الحوافر ورفعتُ رأسي لأرى خيَّالًا قادمًا بالسرعة القصوى من جهة صفوف العربات. عرفتُ من مسافة بعيدة أنه **هُوي**، فقلة قليلة غيره تمتطي ظهور الخيول، وبالتأكيد لا يجيدون امتطاءها بهذا التهوّر. وبينما يسرع إلى حيث أجلس، رأيتُ تعابير وجهه، وأفزعتني حتى إنني نهضتُ على عجل مريقًا النبيذ وقالبًا لوح **الباو**.

صاح بي من مسافة مئة ياردة: «**تايتا**! الخيول! فلترحمنا **إيزيس** العذبة! الخيول!».

ثم لجم حصانه فركبتُ خلفه قابضًا على خصره وصحتُ في أذنه: «لا تهدر الوقت بالكلام، انطلق يا رفيقي، انطلق!».

كان نصف القطيع على الأرض، لكنني ذهبت إلى **صابرة** أولًا، فهي حبي الأول، وكانت آنذاك عجوزًا تزين خطمها شعرات شهباء. وجدتُها راقدة على جنبها وصدرها يعلو ويهبط. لم أضعها في السيور منذ قتل الفيل **نصل**، ورغم أنها لم تعُد تجرّ عربة، ظلت أفضل فرس ولود في كل قطعاننا، وورث عنها أمهارها جميعها قلبها الطيب وذكاءها الحاد، وكان بجوارها مهر صغير جميل فطمتُه مؤخرًا يراقبها بقلق.

ركعتُ بجوارها وسألتها بصوت خفيض: «ما بك يا بطلتي الحبيبة؟»، فتعرفت صوتي وفتحت عينيها.

كان جفنيها ملتصقان بفعل المخاط، وروّعني حالها، إذ رأيتُ عنقها وحلقها منتفخين إلى ضعف حجمهما الطبيعي تقريبًا، وجدولًا من صديد

أصفر كريه الرائحة يتدفق من فمها ومنخريها. وعندما لمستها، وجدت الحمَّى مشتعلة فيها حتى إن الحرارة تشع منها كأنها نار معسكر.

حاولتْ النهوض عندما دلكتُ عنقها، لكنها كانت أضعف من ذلك، فعادت إلى رقادها، وأخذت أنفاسها تغرغر وتئزّ في حلقها. ثم بقبق الصديد الغليظ قشديّ اللون من منخريها، وعرفتُ أنها تغرق فيه، وأن حلقها ينغلق. باتت تكافح في سبيل كل نفَس تتنفسه.

رقدتْ تراقبني بنظرة ثقة واستغاثة تكاد تكون بشرية، واستبدّ بي شعور العجز أمام هذه المصيبة التي تفوق خبراتي السابقة كلها، فنزعتُ الشال الكتّاني ناصع البياض عن كتفي ومسحتُ به الصديد المتدفق من منخريها، وكانت محاولة هزيلة ومثيرة للشفقة، ذلك أنني حالما مسحته، تدفقت مكانه قطرات جديدة من هذه المادة النتنة..

ناداني **هُوي**: «**تايتا**! لقد أصاب هذا الوباء حيواناتنا كلها»، فتركتُ **صابرة**، ممتنًا لهذا الإلهاء، ومضيتُ أفحص بقية القطيع. كان نصفه على الأرض بالفعل، والواقف منه إما يترنح أو يبدأ بترييل هذا الصديد الأصفر من فمه.

استحلفني **هُوي** والسائقون كلهم: «ماذا يجب أن نفعل؟» وأثقلت ثقتهم بي، فقد كانوا يتوقعون أنني وحدي القادر على دفع هذه الكارثة الفظيعة، لكنني أدركتُ أنها تفوق قدراتي، إذ لم أعرف أي دواء، ولم أستطع التفكير بأي علاج حتى القاسية والمستبعدة منها.

رجعتُ أتخبّط في مشيي إلى حيث ترقد **صابرة**، ومسحتُ آخر فيض من الإفرازات النتنة عن خطمها. عرفتُ أنها تتدهور بسرعة، وأدركتُ أن كل نفسٍ تجره صار نِضالًا رهيبًا، فأضعفني حزني، وعرفتُ أنني سرعان ما سأذوب في عجزي وأنهمر دموعًا، ولن أكون ذا فائدة لأي منهم، لا رجالًا ولا خيولًا.

ركع أحد ما بجواري، ورفعتُ رأسي لأرى أنه أحد خدم خيول **الشلك**، شاب محب وحريص كنتُ قد صادقته، وصار يعدّني سيده. قال لي بلغته البسيطة: «إنه داء **الغنو**. سيموت الكثير».

حدقتُ إليه، كأن عقلي المشوش قد بدأ يفهم ما يقول، وتذكرتُ قطعان الحيوانات الرمادية الناخرة المريّلة التي غطت السهول بأعدادها، وكيف ظنناها هبة من آلهتنا المنّانة.

- يقتل هذا الداء مواشينا عندما تأتي **الغنو**، وما ينجو منها فهو آمن. لا يمرض ثانية أبدًا.

سألته بإلحاح: «ما الذي يمكننا فعله لإنقاذها يا **هباني**؟»، لكنه هز رأسه.

- لا شيء.

كنتُ حاضنًا رأس **صابرة** بين ذراعي عندما ماتت. اختنق النفَس في حلقها، ثم ارتعشت وتخشّبت سيقانها، واسترختْ أخيرًا. أطلقتُ أنّة حزن خفيضة، وكنتُ على حافة هاوية اليأس عندما رفعتُ رأسي ورأيتُ مهر **صابرة** يسقط أرضًا والمخاط اللزج الأصفر يخرج مبقبقًا من حلقه.

تبدّل يأسي في تلك اللحظة فصار غضبًا ملتهبًا، وصرخت: «لا! لن أتركك تموت مثلها!».

ركضتُ إلى جوار المهر وصحتُ **بهباني** أن يجلب دلاء ماء جلدية، ثم غسلتُ حلق المهر بقماشة كتانية محاولًا تخفيف التورم، لكن بلا جدوى. ظل الصديد يتدفق من منخريه، وبينما تمدد جلد عنقه انتفخ اللحم من تحته كنفّاخة هواء.

هز **هباني** رأسه: «إنه يحتضر. سيموت الكثير».

أقسمتُ بشراسة: «لن أسمح بحدوث ذلك»، وأرسلتُ **هُوي** إلى القادس ليجلب صندوقي الطبي.

عندما عاد كان الأوان قد فات تقريبًا، إذ بلغ المهر أعتاب الموت، وبدأت أنفاسه تختنق وقوّته تخبو تحت يدي المحمومتين، فتحسستُ عنقه باحثًا عن حلقات قصبته الهوائية المُجعّدة عند ملتقى حلقه وصدره، وبشقّ سطحي واحد لجلده، كشفتُ القصبة البيضاء الوتريّة، ثم أقحمتُ رأس مشرطي فيها وثقبت غطاءها القاسي. وعلى الفور، خرج الهواء مهسهسًا من الفتحة، ورأيتُ صدر المهر ينتفخ مع انتفاخ رئتيه، فعاد يتنفس بإيقاع ثابت ومعتدل، لكنني رأيتُ على الفور تقريبًا أن جرح الفتحة ينغلق من جديد بالدماء والمخاط.

وفي عجلة مسعورة، قطعتُ قطعة من الخيزران من إطار أقرب العربات، وقصصتُ أنبوبًا أجوف من نهايتها أولجتُه في الجرح، فأبقى أنبوب الخيزران الجرحَ مفتوحًا، وبينما يشهق المهر الهواء ويزفره من خلاله دون عوائق استراح من معاناته.

ثم ناديتُ: «**هُوي**! سأعلمك كيف تنقذها».

وقبل هبوط الليل، كنتُ قد دربتُ مئة سائق وخادم خيل آخر على إجراء هذه الجراحة القاسية الفعالة، وعملنا طيلة الليل على ضوء سرج الزيت المرتعش المتقلّب.

كانت القطعان الملكية آنذاك تضم أكثر من ثلاثة عشر ألف حصان. لم نتمكن من إنقاذها كلها رغم محاولاتنا، لكننا تابعنا عملنا ودماء الحلوق المشقوقة تتخثر على أيدينا حتى المرافق، وكلما غلبنا الإرهاق، استلقينا على كومة من القش فنمنا ساعة ثم عدنا مترنحين إلى العمل.

لم يكن تأثير هذا الداء، الذي سمّيته **الخانق الأصفر**، بالشدة نفسها على كل الخيول، إذ بدا أنها تتمتع بمقاومة خَلقية له، فكانت إفرازات خطومها لا تزيد غزارة على ما رأيته في قطعان **الغنو**، وظل الكثير منها واقفًا وتخلص من المرض في غضون أيام.

مات الكثير قبل أن نتمكن من فتح القصبة، وحتى بعض التي أجرينا عليها العملية بنجاح ماتت لاحقًا بسبب الغنغرينا ومضاعفات الجرح الذي فتحناه. وبالطبع، كان العديد من خيولنا في حملات خارج نطاق مساعدتي، فخسر الأمير **مِمنون** اثنين من كل ثلاثة جياد واضطر إلى هجر عرباته والعودة إلى نهري **قيبي** على الأقدام.

خسرنا في النهاية نصف خيولنا، سبعة آلاف حصان، وكانت الناجية ضعيفة ومحبطة حتى إن شهورًا عديدة مرَّت قبل أن تسترد قوتها ولياقتها بما يكفي لتجر عربة. عاش مهر **صابرة** وحل محل أمه العجوز في قلبي، فجعلته في الجزء الأيمن من سيور عربتي، وكان قويًا وجديرًا بالاعتماد إلى درجة أنني سمّيته **صخر**.

سألتني مولاتي: «ما تأثير هذا المرضفي في آمالنا بالعودة السريعة إلى مصر؟».

قلت لها: «لقد أخرنا سنوات عديدة (ورأيتُ الألم في عينيها)، فقد خسرنا معظم خيولنا القديمة المدربة أفضل تدريب، أمثال **صابرة**، لذا سنضطر إلى إعادة توليد القطعان الملكية من البداية، وتدريب الخيول الصغيرة على اتخاذ أماكنها في سيور العربات».

انتظرتُ مرعوبًا الهجرة السنوية **للغنو** في العام التالي، لكن عندما جاءت جموعها من جديد وسوّدت السهول، ثبت أن كلام **هباني** صحيح، إذ لم تظهر

أعراض الخانق الأصفر إلا على قلة من خيولنا، وما كان معتدل البنية منها لم يمرض إلا أسابيع قليلة قبل أن يسترد قوة كافية للعمل.

ومما رأيته غريبًا أن الأمهار التي وُلدت في الفترة التالية للإصابة الأولى **بالخانق الأصفر**، تلك التي لم تتعرض للمرض الفعلي، كانت لديها مناعة ضده كأماتها التي أصابها المرض بشدته الكاملة، كأنما انتقلت المناعة إليها من الحليب الذي رضعته من ضروعها. وتيقنتُ من أننا لن نتعرض للمرض بكامل قوته ثانية.

***

كانت مهمتي الكبرى التي كلفتني بها مولاتي في ذلك الوقت بناء قبر الفرعون في الجبال، لذا أُلزمت بقضاء معظم وقتي في ذلك المكان البري الموحش، وصرتُ مسحورًا بالجبال وجميع حالاتها المزاجية.

مثل امرأة جميلة، كانت الجبال متقلبة المزاج، تنعزل أحيانًا وتختفي بين حُجُبٍ من سحاب كثيف يضيئه البرق ويصدّعه الرعد، وأحيانًا تكون بهيَّة وفاتنة، تدعوني، وتتحداني أن أكتشف كل أسرارها وأجرب كل ملذاتها الخطرة.

سارت أعمال القبر ببطء رغم وجود ثمانية آلاف عبد تحت أمري لتنفيذ المهمة، ومساعدة خيرة حرفيينا وفنانينا. كنت أعرف أننا سنستغرق سنوات عديدة لإتمام الضريح المُعقد الذي أصرَّتْ مولاتي أن نبنيه ونزينه بطريقة تليق بسيد المملكتين، وفي الحقيقة، لا جدوى من التعجل بالعمل، ذلك أننا سنستغرق الوقت نفسه لإعادة توليد قطعان الخيول الملكية وتدريب أفواج مشاة **الشلك** حتى تضاهي أسراب **الهكسوس** التي ستواجهها يومًا ما.

وإذا لم أكن في الجبال أعمل على القبر، كنت أقضي وقتي في **قيبي**، حيث تنتظرني وفرة من المهام والملذات المختلفة التي تتراوح من تعليم أميرتي الصغيرتين إلى ابتكار تكتيكات عسكرية جديدة مع السيد **تانوس** والأمير.

صار واضحًا بحلول هذا الوقت أن **مِمنون** سيقود فرق العربات كلها، لكن **تانوس** لم يتجاوز ريبته الأولى من الحصان، فهو بحَّار ورجل مشاة حتى النخاع، وكلما تقدم في السن، ازداد محافظة وتقليديةً في استخدامه لأفواج **الشلك** الجديدة.

كان الأمير يكبر ليصير سائق عربة جسورًا ومبدعًا، وفي كل يوم يأتيني حاملًا دزينة أفكار جديدة، بعضها بعيد المنال، لكن بقيتها نابغ بحق.

وجربناها كلها، حتى التي عرفتُ أنها مستحيلة. كان بعمر السادسة عشرة عندما رقّته الملكة **لوستريس** إلى رتبة **الأفضل في عشرة آلاف**.

والآن وقد صار نادرًا ما يركب **تانوس** معي، تولّيت تدريجيًا وظيفة سائق **مِمنون**، وطورنا انسجامًا كاد يصبح غريزيًا، والذي امتدّ إلى فريق خيولنا المفضل، **صخر وسلسلة**. ظل **مِمنون** يحب القيادة عندما نخرج في زحف، وكنتُ أقف على صفيحة القدم من خلفه، إلا أننا حالما ننخرط في عمل عسكري، يرمي لي اللجُم ويقبض على قوسه أو رماحه القصيرة عن الحاملة، فأقود العربة إلى الاشتباك وأوجهها في المناورات التي حلمنا بها معًا.

مع بلوغ **مِمنون** وازدياد قوته، بدأنا نكسب بعض جوائز ألعاب الجيش ومسابقاته التي كانت طابعًا من طوابع حياتنا في **قيبي**، ففزنا أولًا في سباقات الأرض المستوية حيث يمكن لفريقنا **صخر وسلسلة** استعراض سرعة عدوه القصوى، ثم بدأنا نكسب مباريات القوس ورمي الرماح. وسرعان ما صرنا مشهورين بأننا العربة التي يجب أن يهزمها المرء قبل أن يستحق شريطة البطل من الملكة **لوستريس**.

أذكر صيحات التهليل كلما طارت عربتنا عابرة البوابة الأخيرة للمسار بينما أمسك بالسيور **ومِمنون** من خلفي يقذف رماحه يمنةً ويسرةً إلى الدُمَى المحشوة بالقش التي نعبرها، ثم الاندفاعة المسعورة إلى خط النهاية بينما يصيح الأمير كعفريت والريح تنفخ ضفائر شعره الطويل فتطير وراء رأسه كذيل أسد هاجم على فريسته.

سرعان ما بدأ الأمير يتميّز في مجابهات أخرى، ومن دون أي مساعدة مني، فكان كلما مرّ أمام فتيات صغيرات، **بذهب البسالة** الملتمع على عنقه وشريطة البطل المعقودة في ضفائره، قهقهن واحمرَّت وجوههن ومالت أعينهنّ باتجاهه. مرة دخلت خيمته حاملًا بعض الأنباء المهمة له، ليوقفني في مكاني مرأى أميري راكبًا أيّما ركوب وغافلًا عن كل شيء إلا الجسد الغض الشاب والوجه الجميل تحته، فانسحبتُ بهدوء، حزينًا بعض الشيء على انقضاء سنوات براءته.

ومن كل ملذاتي، لا شيء يمكن مقارنته بتلك الساعات الثمينة التي ما زلت أنالها بصحبة مولاتي. في سنها الثالثة والثلاثين هذه، كانت في ذروة صيف جمالها، وقد عززت خبرتها ورزانتها جاذبيتها، فصارت أميرةً حقيقية، وامرأة لا نظير لها.

أحبها شعبها كله، لكن لم يحبّها أحد مثلي، حتى **تانوس** كان عاجزًا عن التفوق عليَّ في إخلاصي لها، وكان من دواعي فخري أنها ما زالت تحتاج إليَّ كثيرًا، وتعتمد عليَّ وعلى حكمي ونصيحتي بثقة عمياء. وبصرف النظر عن النعم الأخرى التي بهرجت وجودي، ستظل حبي الأعظم على الإطلاق وإلى الأبد.

***

كان ينبغي لي أن أرضى وأشبع، لكنّ في طبيعتي قلقٌ فاقمته شهوة السفر الجديدة هذه التي اجتاحت إليَّ، وكلما استرحتُ قليلًا من أعمالي في قبر الفرعون ونظرتُ إلى تلك الجبال، دعَتني إليها، وبدأتُ أذهب في نزهات وجيزة إلى خوانقها الموحشة، وحيدًا في أغلب الأوقات، وأحيانًا رفقة **هُوي** أو غيره.

كان **هُوي** معي عندما رأيتُ قطعان الوعول البرية فوقنا على صخور الجبل الشاهقة الوعرة أول مرة. كانت من نوع لم أره من قبل، بضعف طول الماعز البري الذي عرفناه في وادي النيل، ويحمل بعض تيوسها العجائز كتلة قرون ملتفّة جعلتها تبدو رهيبة كوحش أسطوري ما.

حمل **هُوي** أنباء هذه الوعول الضخمة إلى النهرين التوءمين حيث يرسو أسطولنا في **قيبي**، وفي الشهر نفسه، وصل السيد **تانوس** إلى وادي قبر الملك حاملًا قوسه على كتفه والأمير **مِمنون** إلى جواره. كان الأمير يستحيل بسرعة صيادًا شديدًا كأبيه، ولا يقلّ عنه تشوقًا للمطاردة. وعن نفسي، رحبتُ بفرصة استكشاف هذه المرتفعات المذهلة مع صحبة كهذه.

عزمنا على المخاطرة حتى أول صف من القمم فقط، لكن عندما تسلقنا ذُراها، منحتنا مشهدًا يخطف الأنفاس، إذ رأينا جبالًا أخرى قبالة السماء لها شكل سنادين مسطحة القمم ولون الأسُود السمر قزّمت القمم التي نقف عليها وأغرتنا لنتقدم.

تسلّق النيل معنا عبر الوديان المتحدّرة والخوانق القاتمة التي خضخضت مياهه حتى صارت بيضاء لامعة. ولم نستطع ملاحقة مساره على الدوام، بل اضطررنا في بعض الأماكن إلى التسلق من فوقه والسير على ممرات الماعز الأرعن عبر وجه الجبل العابس.

وبعد أن استدرجنا الجبل إلى حوصلته، صبَّ جامَّ غضبه علينا.

كانت جماعتنا من مئة رجل، رفقة عشرة خيول تحمل مؤونتنا. خيّمنا في أعماق أحد هذه الخوانق اللجيَّة، والجوائز الطازجة من صيد **تانوس ومِمنون** الأخير ممددة على الأرض الصخرية لنستبدعها ونثمنها. كانت هذه الجوائز أكبر رأسي ماعز رأيناها في سفرنا كله، وبلغت من الثقل بقرونها أن احتاج حمل واحدها إلى عبدين. وفجأة، بدأت السماء تمطر.

ربما كانت السماء تمطر مرة كل عشرين عام في وادينا المصري، لذا لم يتصوّر أيّ منا قط شيئًا يقترب من المطر الذي انهمر علينا آنذاك.

في البداية، ظللت سحب سوداء شريط السماء الضيق الظاهر من بين الجروف التي حوّطتنا، فانغمسنا من ظهيرة مشمسة إلى غسق دامس، ثم تسارعت ريح باردة إلى الوادي ورجّفت أبداننا وأرواحنا، واحتشدنا مذعورين.

ثم قُذف من بطن الغيوم الجهمة برق كسّر الصخور من حولنا فملأ الهواء برائحة الكبريت وشرارة الصوان، وتفجّر الرعد علينا، متضخمًا بينما يتشقلب من جرف إلى جرف، وأخذت الأرض تتقافز وترتعد تحت أقدامنا.

انهمر المطر بعدئذ، ولم يهطل علينا بهيئة قطرات، بل كأننا نقف تحت أحد جنادل الليل والنهر في ذروة فيضانه، فلم يعد ثمة هواء نتنفسه، إذ ملأ الماء أفواهنا ومناخرنا حتى شعرنا أننا نغرق، وبلغ من الغزارة أننا لم نعُد نرى إلا شكلًا أغبش للرجل الواقف على بعد ذراع أمامنا. ضَرَبنا حتى سقطنا أرضًا وانكمشنا خوفًا تحت أقرب صخرة نحتمي بها، ومع ذلك، ظل يهاجم كل حواسنا ويلسع جلدنا المكشوف كسرب من الدبابير الغاضبة.

بردنا بردًا لم أعرف مثله قط، وما كان يسترنا شيء إلا شالات كتانية رقيقة. امتصّ البردة القوة من أطرافنا، وارتعشنا حتى اصطكت أسناننا في أفواهنا اصطكاكًا لم نستطع تسكينه رغم أننا عضضنا عليها بكلّ ما في فِكاكنا من قوة.

ثم سمعتُ فوق صوت المطر المنهمر صوتًا جديدًا، كان صوت مياه استحالت وحشًا ضاريًا، إذ اجتاح أسفل الوادي الضيق الذي نجلس فيه جدار من مياه رمادية امتدّ من الجرف إلى الجرف، جارفًا كل شيء في طريقه.

باغتني ورحتُ أتقلبُ فيه مرة بعد مرة، وبينما شعرتُ أن الحياة تغادرني تقاذفتني الصخور وملأت المياه المتجمدة حلقي، ثم غمرتني الظلمة وظننتُ أنني مُتّ.

أذكر صورة ضبابية لأيدٍ تجرني من الطوفان، ثم دُفعتُ إلى شاطئ معتم وبعيد. ناداني بعد ذلك صوتُ أميري، وقبل أن أتمكن من فتح عيني، شممتُ رائحة دخان الحطب، وشعرتُ بدفء النيران على أحد جنبيّ.

قال: «استيقظ يا **تاتا**! كلمني! (كان الصوت لحوحًا، وفتحت عينيَّ لأرى وجه **مِمنون** أمامي، فابتسم لي ونادى من فوق كتفه)، لقد استيقظ يا سيد **تانوس**».

رأيتُ أننا كنا في كهف صخري، وأن الليل قد أرخى سدوله في الخارج، ثم جاء **تانوس** من الطرف الآخر لنار الحطب النديّ المدخنة وجلس القرفصاء بجانب الأمير.

- كيف حالك يا صديقي القديم؟ لا أحسب أنك كسرتَ أي عظم.

جاهدتُ حتى أجلستُ نفسي، وفحصتُ بحذر شديد أجزاء جسدي كلها قبل أن أجيب: «رأسي متصدع، وجميع أطرافي تؤلمني، وبمعزل عن ذلك، أشعر بالبرد والجوع».

فقهقه **تانوس** قائلًا: «إذن ستعيش، رغم أنني منذ بعض الوقت شككتُ في أن أيًا منا سيعيش. يجب أن نخرج من هذه الجبال الملعونة قبل أن يحدث شيء أخبث. كان جنونًا منا أن نتجرأ إلى مكان تخرج فيه الأنهار من السماء».

سألته: «ماذا عن البقية؟».

هزّ رأسه: «كلهم غرقوا. أنت الوحيد الذي تمكنا من جره من الفيضان».

- والخيول؟
- ماتت. كلها ماتت.
- والطعام؟
- لا شيء. حتى قوسي أخذه النهر. لا أملك إلا السيف على خصري والثياب على جسدي.

***

غادرنا ملجأنا الصخري عند الفجر وانطلقنا عائدين عبر الوادي الغدار، ووجدنا أسفل الخانق جثث بعض رجالنا وخيولنا المبعثرة على الصخر حيث علقوا بعد أن انحسر الطوفان.

نقبنا بين الصخور والحصاة، وتدبرنا استعادة بعض مؤننا ومعداتنا، وما سرّني شديد السرور أنني وجدتُ صندوقي الطبي سليمًا تمامًا، رغم أن

الفيضان قد غمره، فنشرتُ مكنوناته على صخرة، وبينما تجفّ، صنعتُ حبل رفع من لجام جلدي لأحمل الصندوق على ظهري.

في إبان ذلك، قطع **مِمنون** شرائح لحم من جثة أحد الخيول وشواها على نار أخرى من الخشب المنجرف. وعندما شبعنا، ادخرنا بقية اللحم وانطلقنا عائدين.

بينما نتدرّج الجروف الصخرية المنحدرة ونهبط إلى الخوانق وراءها انحدرت الرحلة تدريجيًا حتى صارت كابوسًا. بدَت هذه البرية الرهيبة بلا نهاية، واحتجَّت أقدامنا المتكدّمة في صنادلنا المفتوحة مع كل خطوة نخطوها، وفي الليل، رقدنا مرتعشين ارتعاشًا بائسًا حول نار الخشب المنجرف الصغيرة المدخِّنة.

بحلول اليوم التالي، عرفنا جميعًا أننا قد ضللنا الطريق، وأننا نهيم بغير هدى. كنتُ متأكدًا أننا محكومون بالهلاك في هذه الجبال الرهيبة، ثم سمعنا صوت النهر، وعندما علونا السنام التالي بين القمم، رأينا النيل الرضيع يتعرج عبر أعماق الخانق تحتنا، ولم يكن ذلك كل شيء، إذ رأينا على ضفاف النهر خيمًا ملونة تتحرك بينها أشكال بشرية.

قلت فورًا: «بشر متحضرون، هذه الخيم من قماش منسوج بلا شك».

وافقني **مِمنون** بتشوّق: «وهذه خيول»، مشيرًا إلى الحيوانات المربوطة بحبال خلف المعسكر.

ثم أشار **تانوس**: «انظرا هناك! ومضة شمس منعكسة عن نصل سيف أو سن رمح. إنهم يجيدون طرق المعادن».

قلت: «علينا أن نعرف هوية هؤلاء الناس». كنت ذاهلًا وراغبًا بمعرفة أي قبيلة تعيش في هذه الأرض الماحلة.

دمدم **تانوس**: «سنعرض أنفسنا للذبح. ما أدراك أن سكان الجبال أولاء ليسوا متوحشين كالأرض التي يعيشون عليها؟»، ولم نعرفهم باسم **الأحباش**[1] إلا لاحقًا.

هَمس **مِمنون**: «إن هذه لخيول بديعة! خيولنا ليست بطولها ولا بقوّتها. يجب أن نهبط ونتفحّصها». كان الأمير فارسًا قبل كل شيء.

(1) الأحباش: سكّان بلاد الحبشة، وهو الاسم القديم لإثيوبيا. (المترجم).

قلت: «السيد **تانوس** محِقّ (أثار تحذيره طبيعتي المتعقّلة المعهودة)، قد يكونون متوحشين خطرين لا يملكون من البشر المتحضرين إلا بهارجهم».

جلسنا على كتف الجبل وتناقشنا لبعض الوقت، لكن الفضول في النهاية تغلب على ثلاثتنا وزحفنا نزولًا عبر أحد الشعاب لنتجسس على هؤلاء الغرباء.

عندما اقتربنا منهم، رأينا أنهم أناس طوال القامة مِتان البنية، ربما أمتن بنية منا نحن المصريين، وأنهم أصحاب شعور سوداء كثيفة وملفوفة لفًا مُسرفًا. بينما نحنُ حليقي اللحية، كان رجالهم ملتحين، هم يرتدون أثوابًا طويلة زاهية الألوان منسوجة من الصوف في الغالب، ونحن نظل عراة الصدور بتنانير عادة ما تكون بيضاء نقية. وكانوا ينتعلون أحذية جلدية ناعمة على عكس صنادلنا، ويلفون قماشة ساطعة حول رؤوسهم.

رأينا بين الخيم نساءً بشوشات وسافرات، بينما يعملن بلغة لم أسمعها من قبل يغنين وتنادي إحداهن رفيقتها، لكن أصواتهنّ كانت مُطرِبة وهنّ يستجررن الماء، أو يقرفصن بجوار نيران الطهي، أو يطحنّ الذرة على الرحى.

رأيتُ أيضًا من حيث أختبئ مجموعة من الرجال يلعبون لعبة لوحية بدَت شبيهة جدًّا **بالباو**، وكانوا يتراهنون ويتجادلون على حركات الأحجار، إلى أن وثب اثنان منهم واستلا خناجر معقوفةً من حزاميهما، ثم واجها بعضهما بعضًا ينخران ويهسّان كزوج من الهررة.

وآنذاك، نهض رجل ثالث كان يجلس وحده وتمطى كنمر كسلان، ثم مشى الهوينى حتى وصل إليهما وضرب الخناجر بسيفه، فأذعن البطلان فورًا وانسلّا مبتعدين.

ظهر واضحًا أن صانع السلام هذا رئيس الجماعة. كان رجلًا طويلًا له قوام وتريّ كماعز الجبال، ويشبه الماعز من نواحٍ أخرى، فلحيته طويلة وكثة كلحية وعلِ كبش، وملامحه قاسية وماعزية بأنفٍ كبير معقوف وفم عريض مائل. وظننتُ أن رائحته على الأرجح نتنة كرائحة أحد الكباش العجائز التي قتلها **تانوس** على واجهة الجرف.

فجأة شعرتُ **بتانوس** يقبض على ذراعي، ثم همس في أذني: «انظر إلى ذلك!».

كانَ شيخ القبيلة يرتدي أفخم الأزياء بينهم، إذ كان ثوبه مزينًا بأشرطة قرمزية وزرقاء، وفي أذنيه أقراط من أحجار تشع كالبدر التمام. لكنني لم أرَ ما أثار حماسة **تانوس**.

ثم هسّ: «سيفه، انظر إلى سيفه».

فتفحصّته لأول مرة. كان أطول من أسلحتنا، وبدا واضحًا أن مقبضه من ذهب صافٍ مصوغ صياغة مخرمة برهافة لم أرَ مثلها من قبل، وحامية يده مرصعة بأحجار ثمينة. كان تحفةً شغلت حرفيًا كبيرًا طيلة حياته بلا شك.

لكن هذا ليس ما أسر انتباه **تانوس**، بل النصل، إذ كان بطول ذراع الزعيم، ومصنوعًا من معدن ليس برونزًا أصفر ولا نحاسًا أحمر، إنما بلون أزرق فضي لمَّاع غريب، كحراشفِ حيةٍ لسمك فرخ نيليّ طازج من النهر، ومُطعّمًا بالذهب كأنما لتأكيد قيمته الفريدة.

قال **تانوس** بصوت خفيض: «ما هذا؟ أي معدن؟».

- لا أعرف.

عاد الزعيم إلى مجلسه أمام خيمته، لكنه وضع سيفه في حِجره، وأمسك حجرًا بركانيًا قضيبي الشكل، ثم بدأ يدلك حافة النصل، وأخذ المعدن يطلق صوتًا مرتجفًا رنّانًا كلما لامسه الحجر. لا يمكن لأي برونز أن يرنّ بهذه الطريقة، كان الصوت أشبه بخرخرة أسدٍ مستريح.

همس **تانوس**: «أريده. لن أرتاح حتى أمتلك هذا السيف».

نظرتُ إليه نظرة مبهوتة، ذلك أنني لم أسمع نبرة كهذه في صوته من قبل، وأدركت أنه يعني ما يقول، وأنه رجل أصابه شغف مفاجئ لا يمكن مقاومته.

قلت له بهدوء: «لا يمكننا البقاء هنا وقتًا أطول، سيكتشفون أمرنا»، وأخذت بذراعه، لكنه قاومني وظل يحدق إلى السلاح.

ألححتُ عليه: «فلنذهب لنرى الخيول»، وسمح لي أخيرًا بجرّه، فأخذتُ **مِمنون** باليد الأخرى، ودرنا حول المعسكر على مسافة آمنة، ثم زحفنا ناحية صفوف الخيول.

عندما رأيت الخيول من كثب، أصابني شغف بضراوة شغف **تانوس** للسيف الأزرق، فقد كانت من نسل مختلف عن خيولنا **الهكسوسيَّة**، لها قامات أطول وأجساد أبدع تناسبًا، ورؤوس نبيلة بمناخر أوسع عرفتُ أنها علامة طاقة وسرعة، وأعين متموضعة في موقع متقدم أكثر من جمجمتها وأبرز من حيواناتنا. كانت أعينًا لطيفة رائعةً تشعّ ذكاءً.

همس **مِمنون** بجواري: «إنها جميلة. انظر كيف ترفع رؤوسها وتقوّس أعناقها».

تعطّش **تانوس** إلى السيف، وتُقنا إلى الخيول بشغف يضاهي شغفه.

ناشدتُ أي إله يسمع: «فحلٌ واحد فقط مثل هذه أضعه بين أفراسنا. إنني مستعد للتخلي عن أملي بالحياة الأبدية مقابل واحد فقط».

ألقى أحد خدم الخيل الأجنبيين نظرة باتجاهنا، ثم قال شيئًا لرفيقه وبدأ المشي إلينا. وهذه المرة لم أحتج إلى أن ألحّ عليهما، إذ اختبأ ثلاثتنا وراء جلمود يسترنا ثم زحفنا مبتعدين. وجدنا مخبأً آمنًا على مسافة أسفل النهر، بين تلة من الجلاميد الساقطة، ثم بدأنا من فورنا نقاشًا حيث نتكلم معًا ولا ينصت أحد.

قال **تانوس**: «سأذهب وأعرض عليه ألف دبن من الذهب. لا بدَّ لي من نيل السيف».

- سيقتلك قبل ذلك. ألم تره يدلكه كأنه ابنه البكر؟

قال **مِمنون** متعجبًا: «يا لتلك الخيول! لم أحلم قط بجمال كهذا. لا بدَّ أن **لحورس** وحوشًا مثلها تجر عربته».

حذرته: «ألم تر ذينك الاثنين يهاجمان بعضهما بعضًا؟ إنهم قوم متوحشون، ومتعطشون للدماء. سيمزّقون أحشاءك قبل أن تفتح فمك وتنطق بكلمة. وأيضًا، ماذا لديك لتعرضه بالمقابل؟ سيروننا متسولين بائسين».

اقترح **مِمنون**: «يمكننا سرقة ثلاثة من فحولهم الليلة وركوبها إلى السهل»، ورغم أن الفكرة مغرية، قلت له بحزم: «أنت وليّ عهد مصر، لا لصًّا رخيصًا».

فابتسم لي: «من أجل أحد هذه الخيول، إنني مستعد لقطع الأعناق كأسوأ قاطع طرق في **طيبة**».

وبينما نتناقش، أدركنا فجأة أصواتًا تقترب على ضفة النهر من جهة المعسكر الأجنبي، فبحثنا عن مخبأ أفضل واختبأنا.

اقتربت الأصوات أكثر، ثم ظهرت مجموعة من النساء توقفتْ عند حافة الماء تحتنا. كنّ ثلاث نساء كبيرات وفتاة، ترتدين أثوابًا بلون أسمر فاتح وشعورهن ملفوفة بقماش أسود. ظننتُ أنهن إماء أو مربيات، لم يخطر لي آنذاك أنهن سجّانات، فقد عاملن الفتاة باحترام استثنائي.

كانت الفتاة طويلة ونحيلة، لذا عندما مشت، تحركت كجذوع البرديّ في نسيم النيل. كانت تلبس ثوبًا قصيرًا من صوف أنيق مخطط بالأصفر والأزرق

السماوي ترك ركبتيها مكشوفتين، ورغم أنها تنتعل حذاء قصيرًا من جلد ناعم مُخاط، رأيتُ أن ساقيها رشيقتان وملساوان.

توقفت النساء تحت مخبئنا، ثم بدأت إحدى الكبيرات بنزع ثوب الفتاة، بينما ملأت الأخرتين جرارًا خزفية حملتاها على رأسيهما من النيل. كان النهر لا يزال منتفخًا بمياه الفيضان، ولا يمكن لأحد أن يدخل ذلك السيل الجليدي بأمان، فبدا واضحًا أنهن ينوين تحميم الفتاة بماء الجرار.

رفعت إحدى النساء ثوب الفتاة من فوق رأسها فوقفت عارية على حافة الماء، وآنذاك سمعتُ **مِمنون** يشهق، ثم نظرت إليه وعرفتُ أنه نسي أمر سرقة الخيول تمامًا.

وبينما تصب المرأتان الماء من الجرار على الفتاة، أخذت الثالثة تمسحها بقماشة مطوية، فبينما ترفع الفتاة يديها فوق رأسها وتدور ببطء لتسمح لهن بتبليل كل جزء من جسدها ضحكت وزعقت بردًا، ورأيتُ قشعريرة خفيفة تظهر حول حلمتيها اللتين كانتا باللون الياقوتي العميق للعقيق المصقول، وكل منهما منتصبة كجوهرة على قمة نهد ناعم متكوّر.

كان شعرها دغلًا داكنًا من لفائف متراصة، وبشرتها بلون قلب خشب السنط بعد أن يُصقل ويُزيّت، فيصير بُنيًّا داكنًا متورّدًا يتوهج تحت شمس الجبال العالية.

وكانت ملامحها دقيقة، أنفها صغير ومنحوت، وشفاهها طرية ممتلئة، لكن من دون غلاظة، وعيناها واسعتان وداكنتان تمتدان مائلتان فوق عظمي خديها المرتفعين، برموش كثيفة حتى إنها يتشابك بعضها ببعض. كانت جميلة، ولم أعرف إلا امرأة واحدة أجمل منها.

وفجأة، قالت شيئًا للنساء اللاتي معها، فتنحين جانبًا، وتركتهن ثم بدأت تتسلق ناحيتنا على تينك الساقين الطويلتين العاريتين، إلا أنها قبل أن تصل إلى مخبئنا، توارَت خلف صخرة حجبتها عن رفيقاتها، لكنها تركتها على مرأى مكشوف تمامًا منا، ثم نظرت حولها بسرعة ولم ترَنا. لا بدَّ أن البرد قد أثّر فيها، ذلك أنها قرفصت بسرعة، وأخذت مياهها تترقرق على الصخرة تحتها.

أطلق **مِمنون** آهة خفيضة. كانت غريزية، لا متعمدة، صوت اشتهاء بلغ من الشدة أنه استحال عذابًا، فوثبت الفتاة واقفةً وحدقت إليه مباشرة، إذ كان

بعيدًا بعض الشيء عني وعن **تانوس**، وفي حين أننا محتجبان، كان قبالة بصرها تمامًا.

ثم حدق أحدهما بالآخر. كانت الفتاة ترتعش، وعيناها الداكنتين متوسعتين. توقعتُ أن تهرب أو تصرخ، لكنها بدلًا من ذلك، نظرت من فوق كتفها بإيماءة تآمرية، كأنها تتأكد من أن النساء لم يتبعنها، ثم التفتت إلى **مِمنون**، وسألت سؤالًا بصوت ناعم عذب، بينما تمد في الوقت نفسها يدها له تدعوه.

همس **مِمنون**: «لست أفهم»، ونشر يديه مشيرًا إلى أنه لم يفهم.

فخطَت الفتاة خطوة باتجاهه ورددت سؤالها بصبر يكاد ينفد، وعندما هز **مِمنون** رأسه، قبضت على يده وصافحتها، وبينما يرتفع صوتها في هياج طلبت شيئًا ما منه.

سمعتها إحدى مرافقاتها وصاحت: «**ماسارا! ماسارا!**». كان واضحًا أنه اسم الفتاة، ذلك أنها أشارت **لِممنون** إشارة تعني الصمت والحذر واستدارت لترجع.

إلا أن النساء الثلاثة كنّ قد انطلقن يصعدن المنحدر وراء **ماسارا** في حين يثرثرن هلعًا وانزعاجًا، والتففن خلف الصخرة معًا ثم توقفن عندما رأين **مِمنون**.

للحظة، لم يتحرك أحد، ثم صرخت النسوة الثلاث معًا. بدت الفتاة العارية متجهزة للركض باتجاه **مِمنون**، لكن عندما انطلقت، قبضت عليها اثنتان من النساء، وبينما تكافح الفتاة لتحرر نفسها صارت الأربع تصرخن.

فشد **تانوس** ذراعي قائلًا: «حان وقت العودة إلى الديار»، وتبعته قافزًا.

سمعنا من اتجاه المعسكر صرخات رجال كثيرين أثارهم صياح النساء، وعندما توقفتُ لأنظر خلفي، رأيتهم يصعدون الحافة جماعةً. رأيتُ أيضًا أن **مِمنون** لم يتبعنا، بل وثب قُدُمًا ليساعد الفتاة.

بينما كانت النسوة كلهن ضخمات وثبّتن الفتاة بإحكام ضاعفن صراخهن، ورغم محاولات **ماسارا** المستميتة للتحرر، لم يستطع **مِمنون** أخذها من بين أيديهن.

صحتُ: «**تانوس! مِمنون في ورطة**».

عدنا وأمسكناه فيما بيننا فجررناه، وجاء معنا على كرهٍ، ثم بينما نركض ممسكين به صاح من فوق كتفه: «سأرجع من أجلك، كوني شجاعة، سأرجع من أجلك».

عندما يقول لي أحدهم في هذه الأيام إنه لا وجود لما يسمى بالحب من النظرة الأولى، أبتسم بيني وبين نفسي، وأفكر بذلك اليوم الذي رأى فيه **مِمنون ماسارا** أول مرة.

كنا قد أهدرنا وقتًا في نزاعنا لجرّ **مِمنون**، وصار مطاردونا في أعقابنا في حين نسلك أحد ممرات الماعز ونركض إلى قمة المنحدر، ثم رفرف سهم فوق كتف **مِمنون** وقعقع على الصخور بجوار الطريق دافعًا إيانا إلى السرعة القصوى.

أخذنا نعبر الممر الضيق في رتل أحادي يقوده **مِمنون**، ويليه **تانوس**، وكنت الأخير مثقلًا بصندوق أدويتي الجسيم على ظهري، فبدأت أتخلف عنهما. مرّ سهم آخر من فوق رؤوسنا، ثم أصاب الثالث الصندوق بقوة جعلتني أتعثر، لكن الصندوق أوقف السهم الذي كان ليثقب جسدي لولاه.

فصاح بي **تانوس**: «بربك يا **تايتا**! ارمِ صندوقك اللعين هذا وإلا أمسكوا بك».

كان **ومِمنون** على بُعد خمسين خطوة مني ويبتعدان أكثر، لكنني لم أتمكن من ترك صندوقي الثمين، وفي تلك اللحظة أصاب السهم التالي هدفه، غير أنني لم أكُن محظوظًا هذه المرة، إذ أصابني في ساقي، في لحم فخذي، فتشقلبتُ وسقطتُ سقطة قوية.

تدحرجتُ إلى وضعية الجلوس ونظرتُ برعب إلى جذع السهم القصبي البارز من ساقي، ثم نظرتُ إلى مطارديّ. كان شيخ القبيلة الملتحي بثوبه المخطط يقودهم، وقد سبق رجاله بمئة خطوة وأخذ يصعد الطريق بسلسلة من القفزات العظيمة المرنة قاطعًا الطريق بسرعة كبش الوعل الذي يشبهه في أوجه كثيرة.

ناداني **تانوس**: «**تايتا**! هل أنت بخير؟»، وقد توقف على جبهة المنحدر ونظر خلفه بقلق، أما **مِمنون** فعبرها وغاب عن الأنظار.

رددتُ عليه: «أُصبتُ بسهم. اتركني واذهب لا يمكنني اللحاق بكما».

ومن دون تردد، استدار **تانوس** وجاء قافزًا إلى حيث أرقد، فرآه شيخ القبيلة الحبشي وجأر متحديًا إياه، ثم بينما يتقدم استل سيفه الأزرق اللماع ولوّح به.

وصل **تانوس** إليَّ وحاول إنهاضي، فقلت له: «لا فائدة. إصابتي بليغة. أنقذ نفسك»، لكن الحبشي كان قد بلغنا تقريبًا، فترك **تانوس** ذراعي واستل سيفه.

تلاقى الاثنان وأخذ يهاجم بعضهما بعضًا باندفاع دموي، ولم أشك البتة بنتيجة هذه المبارزة، **فتانوس** أقوى وأمهر سيَّاف في مصر كلها، لكننا سنهلك جميعًا إذا ما قتل الحبشي، ذلك أن أتباعه لن يرحمونا.

ضرب الحبشي أولًا ضربة قوية برفع الذراع هدفها رأس **تانوس**، وكان من التهوّر أن يصوّب على سياف بحجم خصمه. عرفتُ أن استجابة **تانوس** ستكون تفاديًا على مستوى الرأس وطعنة مضادة خاطفة بكل عزم كتفه، والتي ستقحم سن سيفه من خلال لحية الشيخ إلى حلقه، إذ إنها إحدى ضرباته المفضلة.

ثم تلاقى النصلان، لكن لم يُسمَع صليل رنان، إذ قص النصل الأزرق برونز **تانوس** الأصفر كأنه عصًا من صفصاف غض، ولم يبقَ بحوزته إلا المقبض في يده وبقيةٌ طولها إصبع مما كان ذات يوم نصلًا برونزيًا طويلًا قاتلًا.

ذهل **تانوس** إزاء سهولة تجريد الحبشي إياه من سلاحه، وتباطأ في حماية نفسه من الضربة التالية التي تبعتها كالصاعقة، فوثب خلفًا في اللحظة الأخيرة، لكن السنّ الأزرق فتح شقًا سطحيًا طويلًا في عضلات صدره العاري المنتفخة، وسالت منه الدماء.

صرخت: «اهرب يا **تانوس**! اهرب أو سيقتل كلينا!».

ثم هجم عليه الحبشي من جديد، لكنني كنتُ جالسًا في منتصف الممر الضيق، لذا اضطر إلى القفز من فوقي ليبلغه، فأمسكتُ به من ركبتيه بكلتا ذراعيَّ وأسقطته فوقي متكوّمًا يتخبط وينخر.

بينما حاول الحبشي إقحام سن سيفه الأزرق في بطني أرقد تحته، فالتويتُ جانبًا بشدة أرسلتْنا نتدحرج عن الطريق وننزلق على جرف الحصاة السائبة المنحدر. وبينما نتدحرج ويزداد تدحرجنا سرعة، لمحتُ **تانوس** لمحة أخيرة ينظر إلينا من حافة الطريق، وصرختُ في عويل يائس: «اهرب! اعتني **بمِمنون**!».

كانت الحصاة الطينية السائبة غدّارة بقدر الرمال المتحركة المستنقعية، ولم تمنحنا ما نرتكز عليه أو نتمسك به، فتباعدتُ والحبشي عن بعضنا بعضًا، لكن حُمل كلانا إلى حافة السيل. وصلتُ مُكسّرًا مسحوقًا وأكاد أفقد الوعي، ورقدتُ مكاني أئنّ حتى أنهضتني الأيدي الجلفة ثم انهالت على رأسي الضربات والشتائم القاسية.

منعهم الشيخ من قتلي وإلقاء جثتي في النهر. كان مُغطى بالغبار مثلي، وثوبه ممزق وقذر إثر السقطة، لكن سيفه الأزرق ظل في قبضته اليمنى. ثم زمجر برجاله فأخذوا يجرونني ناحية المخيم، لكنني نظرتُ حولي بيأس ورأيتُ صندوقي الطبي بين الصخور وقد انقطع حزامه وسقط عن ظهري.

أمرتُ آسريّ بأكبر قدر تدبرتُ حشده من القوة والكرامة: «اجلبوا ذاك»، وأشرتُ إلى الصندوق، فضحكوا على وقاحتي، لكن شيخ القبيلة أرسل أحدهم ليجلبه.

اضطُر رجلان إلى مساعدتي، فقد بدأ السهم في فخذي يؤلمني ألمًا مُقعِدًا، وصارت كل خطوة أخطوها إلى المعسكر عذابًا، وعندما وصلنا، رموني بخشونة على الأرض في المساحة المفتوحة وسط حلقة الخيم.

ثم تجادلوا جدالًا طويلًا وعنيفًا. بدا واضحًا لي أنهم محتارون في أصولي ودوافعي، ويحاولون تقرير ما يفعلونه بي. وبين الحين والآخر، كان أحدهم يقف فوقي ويركلني في أضلاعي في حين يصيح بالأسئلة، فرقدتُ مكاني هادئًا بقدر ما يمكنني حتى لا أثير أي عنف إضافي.

تشتتوا عندما رجعت الجماعة التي طاردت **تانوس ومِمنون** صفر اليدين، وبينما يتبادلون الاتهامات والإهانات المريرة ازداد الصراخ والتلويح بالأيدي، فأبهجتني فكرة أنهما قد نجيا بنفسيهما.

تذكرني آسريّ بعد قليل وعادوا إليّ لينفسوا عن إحباطهم بالمزيد من الركلات والضربات، لكن شيخ القبيلة نهاهم في آخر الأمر وأمرهم بأن يكفوا عن تعذيبي. فقد معظمهم اهتمامه بي بعد ذلك وذهب، وبقيت راقدًا على الأرض الجرداء مغطى بالتراب والكدمات، والسهم لا يزال في لحمي.

عاد شيخ القبيلة الحبشي إلى مجلسه أمام أكبر الخيم، والتي من الواضح أنها خيمته، وبينما يشحذ سيفه، أخذ يتأملني بنظرة ثابتة لكنها غامضة. تبادل بين الحين والآخر بضع كلمات خفيضة مع أحد رجاله، لكن بدا أن الخطر المباشر عليّ قد انقضى.

اخترتُ التوقيت بحذر، ثم خاطبته مباشرة، فأشرتُ إلى صندوقي الطبي، الذي رُمي أمام إحدى الخيم، وجعلتُ صوتي وديعًا واسترضائيًا: «أحتاج إلى صندوقي. يجب أن أطبب جراحي».

ورغم أنه لم يفهم كلماتي، فهم إشاراتي، وأمر أحد رجاله بأن يجلب له الصندوق. جعلهم يضعونه أمامه ويفتحونه، ثم أخذ يخرج مكنوناته بانتظام، فاحصًا كل غرض فيه على حدة، وكلما جذب انتباهه شيء ما كان يرفعه ويسأل سؤالًا، وكنتُ أحاول الإجابة بلغة الإشارة.

بدا راضيًا أن صندوقي لا يحوي أسلحة خطرة باستثناء مشارطي، ولستُ واثقًا من أنه كان مدركًا في ذلك الوقت أنها معدات طبية. لكنني أريته بالإشارة ما أحتاج إلى فعله، إذ أشرتُ إلى ساقي وأومأتُ بسحب السهم، فوقف فوقي وسيفه في يده، وأوضح لي أنه سيقطع رأسي عند أول أمارة خيانة، لكنه سمح لي باستخدام معداتي.

كان السهم قد دخل بزاوية وموضع جعلا بلوغه أمرًا شاقًا عليَّ، وفوق ذلك، بينما أوصلني الألم الذي سببته لنفسي أستخدم ملاعق **تايتا** لأغلّف شوكاته المدفونة في لحمي إلى حافة الإغماء أكثر من مرة.

كنتُ ألهث منقوعًا بعرقي عندما صرتُ مستعدًا أخيرًا لسحب رأس السهم، وبحلول هذا الوقت، كان نصف رجال المعسكر يتفرجون علي، إذ عادوا واحتشدوا حولي يراقبون جراحتي باهتمامٍ ثرثار.

أحكمتُ قبضتي على مقبضي الملعقتين، ووضعتُ إسفينًا خشبيًا بين أسناني عضضتُ عليه بشدة، ثم سحبتُ رأس السهم المُثبَّت بإحكام من الجرح. ثارت بين الجمهور صيحات تعجب وذهول، وبدا واضحًا أن أحدًا منهم لم يرَ سهمًا يُسحب بهذه السهولة والضرر الخفيف على الضحية، ثم بينما يراقبون المهارة والإتقان الذي لففتُ به الضمادات الكتانية ذهلوا أكثر.

في أي أمة وأي حضارة، حتى أكثرها بدائية، للمعالج والطبيب مكانة شرفية وتقدير خاصين. وبعد أن عرضتُ مؤهلاتي بأكثر الطرق إقناعًا، تغيرت مكانتي في المخيم الحبشي تغيرًا جذريًا.

تنفيذًا لأوامر الرئيس، حُملتُ إلى إحدى الخيم وسُجيت على فراش من قش، ووُضع صندوقي الطبي على رأس سريري، ثم جلبت لي إحدى النساء وجبة من خبز الذرة وحساء الدجاج ولبنًا رائبًا كثيفًا.

عندما لموا الخيام في الصباح وتجهزوا للرحيل، وُضعتُ في محفَّة وراء أحد الخيول في القافلة الطويلة، وجُررتُ عبر الممرات الوعرة المنحدرة. أفزعني أن عرفتُ من زاوية الشمس أننا نتجه إلى الجبال الحصينة، وخفتُ أن أكون قد تهت عن قومي، ربما للأبد. لعل فكرة أنني طبيب قد أنقذت حياتي، لكنها منحتني كذلك قيمة كبيرة حتى إنهم لن يطلقوا سراحي أبدًا، وعرفتُ أنني صرتُ عبدًا حقيقيًا، لا بالاسم فقط.

***

وبرغم هزهزة المحفَّة، بدأت ساقي تشفى جيدًا، وأثار ذلك إعجاب آسريّ أكثر، فسرعان ما صاروا يجلبون لي أي فردٍ مريض أو مصاب في جماعتهم.

شفيتُ مريضًا بالثعلبة، وبضعتُ داحسًا من تحت ظفر إبهام، وخيّطتُ رجلًا فاز برهانات أكثر من اللازم مع أصدقائه سريعي الغضب، إذ كان أولئك الأحباش ولوعين بحل نزاعاتهم بالخناجر. وعندما رمى أحد الخيول فارسه إلى مجرى ماء، صححتُ ذراعه المكسورة وثبتتها باستقامة، وعزز ذلك سمعتي. صار شيخ القبيلة الحبشي ينظر إليَّ باحترام جديد، وصار يقدم لي صحن الطعام، بعد أن يختار الفاخر منه، قبل أن يسمح لبقية الرجال بالأكل.

عندما شُفيت ساقي بما يكفي لأمشي ثانيةً، مُنحت حرية الحركة في المخيم، لكن لم يُسمح لي أن أغيب عن أنظارهم، ورافقني رجل مسلح ظل فوق رأسي حتى عندما أقضي أكثر أعمالي خصوصية بين الصخور.

أُبقيتُ بعيدًا عن **ماسارا** فلم أرها إلا من بعيد عند بداية كل رحلة، ومرة أخرى عندما نخيّم. كانوا يبعدوننا عن بعضنا بعضًا في رحلة النهار الطويلة عبر الجبال، فبينما أركب قرب رأس القافلة، تظل عند المؤخرة رفقة سجاناتها الإناث على الدوام، وعادة ما يحيط بهن حرس مسلحون.

وكلما لمح بعضنا بعضًا، كانت ترمقني بأكثر النظرات يأسًا واستغاثة، كأنما بمقدوري مساعدتها بطريقة ما. بدا واضحًا أنها سجينة ذات منزلة وأهمية، وكانت شابة فاتنة إلى درجة أنني غالبًا ما وجدتُ نفسي أفكر بها في أثناء النهار وأحاول فهم أسباب أسرها. قررتُ أخيرًا أنها إما عروس غير راغبة تؤخذ للقاء عريسها المستقبلي، وإما بيدق في مؤامرة سياسية ما.

من دون معرفة اللغة، ما كان عندي أمل أن أفهم ما يجري، أو أتعلم أي شيء عن هؤلاء الأحباش، لذا قررت تعلم اللغة **الجعزية**[1].

كنت صاحب أذن موسيقية، ومارستُ ألاعيبي عليهم، فأنصتُّ بانتباه شديد إلى كل الثرثرة من حولي، وفهمتُ نغمة كلامهم وإيقاعه. استنتجتُ في وقتٍ مبكر أن اسم شيخ القبيلة هو **أركون**، وفي أحد الصباحات قبل أن تنطلق القافلة، كان **أركون** يعطي أوامر الزحف لذلك اليوم لجماعته المجتمعة، فانتظرتُ حتى أنهى خطبته الطويلة الحامية، ورددتُها بدقة بالنبرة والنغمة نفسيهما.

أنصتوا إليَّ بصمت ذاهلٍ، ثم تفجروا ضحكًا وأخذ يصفع أحدهما الآخر على ظهره، ودموع الضحك تنهمر على خدودهم، ذلك أنهم قوم ذوو حس دعابة مباشر وبسيط. ولم يكن عندي أدنى فكرة عما قلتُه، لكن بدا واضحًا أنني نطقته نطقًا صحيحًا تمامًا.

راحوا بعد ذلك يصيحون مقتطفات من خطابي بين بعضهم بعضًا ويهزون رؤوسهم مقلدين أسلوب كلام **أركون** المُنمّق. تطلبت استعادة النظام وقتًا طويلًا، لكن **أركون** نهض وتهادى إليَّ أخيرًا ثم صاح سؤالًا اتهاميًّا لم أفهم أي كلمة منه، لكنني صحتُ السؤال نفسه مرة أخرى، كلمة بكلمة.

وهذه المرة قام هرجٌ ومرجٌ بينهم. كانت الدعابة أقوى من أن يحتملوها، فتسنّد الرجال البالغون على بعضهم بعضًا لئلا يقعوا في حين يصرخون ويمسحون أعينهم الدامعة، وسقط واحد منهم في النار فحرق لحيته.

ضحك **أركون** معهم وربَّت على ظهري رغم أنه موضوع الدعابة، ومنذ تلك اللحظة، صار كل رجل وامرأة في المخيم معلمًا لي، فما كان عليَّ إلا أن أشير إلى أي غرض ليصيحوا اسمه باللغة **الجعزية**. وعندما بدأت أصف هذه الكلمات في جُمل، صاروا يصححون كلامي بتشوق، وفخروا بتقدمي فخرًا مفرطًا.

احتجتُ إلى بعض الوقت لأفهم قواعد اللغة، فتصريف الأفعال لا علاقة له بالمصرية، وأجناس الأسماء وجموعها غريبة. إلا أنني، وفي غضون عشر أيام، صرتُ أتكلم **جعزية** مفهومة، حتى إنني شكلتُ مجموعة لا بأس بها من صفوة الشتائم والإهانات.

---

(1) اللغة الجعزية: لغة سامية جنوبية تعرف أحيانًا بالإثيوبية، ظهرت في ما يُعرف اليوم بإثيوبيا وجنوب أريتريا، والقرن الإفريقي. (المترجم).

وبينما أتعلم اللغة وأعالج أمراضهم، درستُ عاداتهم وأخلاقهم، فتعلمتُ أنهم مراهنون عنيدون، وأنهم شغوفون بتلك اللعبة اللوحية التي يلعبونها بلا انتهاء. كانوا يسمونها **دوم**، لكنها شكل مبسط وبدائي من **الباو**، إذ يختلف عدد الطاسات وكمية الأحجار التي يلعبون بها عن **الباو**، لكن الأهداف والمبادئ متشابهة.

كان **أركون** نفسه بطل **الدوم** في الجماعة، لكن بينما أدرس أسلوب لعبه، رأيتُ أنه لا فكرة لديه عن قاعدة الحجرات السبع الكلاسيكية، ولا يفهم نظام الثيران الأربعة. ومن دون معرفتها معرفة دقيقة، لا يمكن للاعب **باو** أن يطمح حتى للدرجة الثالثة المنخفضة من الأسلتذة، فجادلتُ نفسي بخصوص المخاطرة التي سأخوضها في إذلال طاغية مختال متجبّر **كأركون**، لكنني قررت في النهاية أنها الطريقة الوحيدة لأفوقه سطوة.

وعندما جلس في المرة التالية أمام خيمته وجهز اللوح، وأخذ يتبسّم بتكلّف ويبرم شاربيه منتظرًا أن يتقدم متحدٍ، دفعتُ بمرفقي أول طامح وتربعتُ قبالته.

قلت له **بجعزيتي** التي لا تزال بدائية: «لا أملك فضة لأراهن. ألعب حبًّا بالأحجار».

أومأ برأسه بجدية، إذ فهم شعوري لكونه مدمنًا على اللوح، وذاعت أنباء تحديّ **أركون** في المخيم، فجاء الجميع يضحكون ويتدافعون ليتفرجوا.

عندما سمحتُ له بوضع ثلاثة أحجار في القلعة الشرقية، وكز بعضهم بعضًا وقهقهوا إحباطًا لأن اللعبة ستنتهي بخسارة سريعة، ذلك أنه سينتصر إن وضع حجرًا آخر في الشرق. لم يفهموا أهمية الثيران الأربعة التي كدّستها في الجنوب، وعندما أطلقتُ ثيراني، أخذت تذرع اللوح من دون رادع، قاسمةً أحجاره غير المدعومة وعازلةً القلعة الشرقية، فصار عاجزًا عن منعي. فصلتني عن الفوز أربع حركات، ولم أضطر إلى استعراض قاعدة الأحجار السبعة حتى.

جلسوا جميعًا في صمت ذاهل بضع لحظات، ولا أظن أن **أركون** أدرك مدى هزيمته فورًا، ثم، عندما أدركه، وقف واستل سيفه الأزرق. ظننتُ أنني أخطأت الحساب، وأنه موشك على قطع رأسي، أو على الأقل ذراعي.

لكنه رفع السيف عاليًا وأنزله مطلقًا صيحة سخط، فقطّع اللوح بدزينة من الضربات حتى صار ضِرامًا، وبعثر الحجارة في أرجاء المعسكر. ثم بينما

وسّع خطاه إلى الصخور نتّف لحيته وصاح بتهديدات الموت للجروف السامقة وقذفها قُدمًا إلى الوديان في سلسلة من الأصداء التي تتلاشى تدريجيًا.

مرّت أيام ثلاثة قبل أن يفتح **أركون** اللوح مرة ثانية ويشير إليّ بالجلوس قبالته. لم تكُن لدى المسكين أدنى فكرة عما أخبئه له.

***

أخذت إجادتي اللغة **الجعزية** تتحسن مع انقضاء كل يوم، ما عزز سمعتي ومكنني أخيرًا من تسقّط بعض فهم آسريّ وسبب هذه الرحلة الطويلة عبر الأخاديد والخوانق.

وقد قللتُ من شأن **أركون**، إذ لم يكن شيخ قبيلة، بل ملكًا، واسمه الكامل النجاشي[1] **أركون غَنّوشي مريم**، ملك الملوك وحاكم ولاية **أسكوم** الحبشية. لم أعرف إلا بعد مرور وقت أنه في هذه البلاد، من المرجح لأي قاطع طريق جبلي معه مئة حصان وخمسين زوجة أن ينصب نفسه ملكًا، وأنه في أي وقت مفترض، يُحتمل وجود ما يصل إلى عشرين ملك ملوك هائج يبحث عن الأرض والنهب.

كان أقرب جيران **أركون** اسمه **الكاهن يوحنا**، ويدّعي أيضًا أنه ملك الملوك وحاكم ولاية **أسكوم** الحبشية. بدا أن ثمة قدر معين من العداوة والتنافس بين هذين الملكين، وقد خاضا بالفعل عددًا من المعارك غير الحاسمة.

كانت **ماسارا** بنت **الكاهن يوحنا** المفضلة، اختطفها أحد شيوخ القبائل اللصوص الآخرين، أحد الذين لم يتوّجوا أنفسهم بعد، ولا اتخذوا لقب ملك الملوك الضروري. وفي ترتيبات تجارية مباشرة، بيعت **ماسارا لأركون** مقابل حمل حصان من سبائك الفضة. كان **أركون** ينوي استخدامها ليعزز علاقته السياسية بأبيها الولوع، وبدا لي أن اتخاذ الرهائن والفدية جزء كبير من فن الحُكم الحبشي.

ولأن **أركون** لم يأتمن أيًا من رجاله على سلعة ثمينة كهذه، ذهب بنفسه ليشتري الأميرة **ماسارا**، فكانت قافلتنا تجلبها عودًا إلى معقله. جمعتُ هذه المعلومة وغيرها من الإماء الثرثارات اللاتي جلبن لي وجباتي، أو في محادثات عرضية على لوح **الدوم**. وريثما بلغنا **أمبا كامارا**، حصن الملك

(1) أصل الكلمة باللغة الجعزية: (*Negusa Naghast*)، وتعني ملك الملوك. عربها العرب إلى النجاشي. (المترجم).

أركون غنوشي مريم الجبلي، صرت خبيرًا بالسياسات المعقدة والمتبدلة لمختلف ولايات **أسكوم** الحبشية، وعدد المطالبين بعرش الإمبراطورية.

أدركتُ حماسة متزايدة بين صفوف قافلتنا عندما اقتربنا من نهاية الرحلة، وأخيرًا، تسلقنا ممرًا ضيقًا متعرجًا، لا يزيد على كونه ممر ماعز آخر، إلى قمة **أمبا** أخرى. كانت هذه **الأمباتُ** الكتلَ الصخرية الشاخصة التي تشكل سلاسل جبال وسط الحبشة، وكل منها جبل مسطح القمة له جوانب منحدرة تنغرس كسور في الوادي الذي يفصلها عن الجبل التالي.

عندما وقفتُ على قمة الجرف، رأيتُ بوضوح كيف تتجزأ البلاد إلى الكثير من الممالك والإمارات الصغيرة، فكل **أمبا** حصن طبيعي ومنيع، ويمكن للرجل القاطن في قمتها أن يسمي نفسه ملكًا بلا خوف من التحديات.

ركب **أركون** بجواري وأشار إلى الجبال في الأفق الجنوبي: «هذا مخبأ لص الخيول والنذل **الكاهن يوحنا**. إنه رجل غدار غدرًا لا نظير له»، ثم تنخم في حلقه وبصق من فوق حافة الجرف باتجاه خصمه.

صرت أعرف عن **أركون** أنه رجل لا ينقصه الكثير من القسوة والغدر، لذا إن كان يعترف **بالكاهن يوحنا** على أنه سيده في هذه الميادين، فلا بدَّ أن والد **ماسارا** رجل مرعب بالفعل.

عبرنا أرض **أمبا كامارا** المسطحة، مرورًا ببضع قرى أكواخها حجرية، وحقول من الذرة البيضاء والسورغم[1]. كان جميع الفلاحين في هذه الحقول برابرة طوالًا شعث الشعر، مسلحين بسيوف وتروس نحاسية مدورة، ويبدون عنيفين ومحاربين بقدر أي رجل في قافلتنا.

في الطرف البعيد من **الأمبا**، قادنا الطريق إلى أكثر معقل طبيعي استثنائيةً رأيته في حياتي، حيث حُتَّ من منتصف سطح الجبل كتف صخري حتى انتصب وحده، قمَّة صخرية خالصة لها جوانب شديدة الانحدار، تفصلها عن السطح هاوية عظيمة.

وهذه الهوَّة موصولة بالسطح بقنطرة صخرية طبيعية تشكل معبرًا ضيقًا حتى إنه لا يمكن لحصان تجاوز حصان آخر عليه، ضيقًا إلى درجة أنه حالما يبدؤه حصان، لا يمكنه الاستدارة والعودة حتى يصل إلى الطرف الآخر.

---

(1) السورغم: أو حنطة السودان، أو حشيشة السودان. جنس نباتي من الفصيلة النجيلية. (المترجم).

وعمق الهاوية تحت المعبر ألف قدم، تصل مباشرة إلى خانق النهر في الأسفل، فكان العبور يوتِّر الخيول إلى حد يُجبر الفرسان على الترجُّل وعصب أعينها ثم قيادتها. عندما بلغتُ منتصف الطريق، وجدتُ نفسي أتهدّج دوارًا، ولم أجرؤ على النظر من فوق حافة المعبر إلى الفراغ. احتجتُ إلى كل رباطة جأشي لأستمر بالمشي ولا أتمدد على بطني وأتشبث بالصخر تحت قدمي.

وعلى ذروة هذه القمة الصخرية، تربعت قلعة بشعة غير متناسبة من كتل صخرية وأسقف قشية. كانت نوافذها مغطاة بستائر من الجلد الخام، ومياه الصرف والفضلات المقرفة تجري من الحصن وتبقع الجرف تحته وتلوثه.

كُللت الأسوار والمتاريس بجثث رجال ونساء أشبه برايات وزينة تحتفل بمهرجان موتيّ ما. كان بعضهم قد عُلق منذ زمن بعيد حد أن أسراب الغربان التي تحوّم فوق الهاوية أو تجثم ناعقة على الأسطح نظفت عظامه من اللحم حتى ابيضّت، وبعضهم لا يزال حيًا، وشاهدتُ آخر حركاتهم الواهية المذعورة بينما يتدلّون من أعقابهم. لكن معظمهم كان ميتًا بالفعل وفي مراحل مختلفة من الانحلال، وفاحت رائحة الجثث البشرية المتعفنة ثقيلة ثقلًا عجزت الرياح المنتحبة بلا انتهاء حول الجروف عن تبديده.

كان الملك **أركون** يسمي الغربان بدجاجاته، فيطعمها أحيانًا على الأسوار، وأحيانًا يرمي لها الطعام من المعبر إلى الخانق، وكان العويل المتلاشي للضحايا التعساء الساقطين إلى الأعماق سمة من سمات حياتنا على قمة **أدبر سجد**، بيت أغنية الريح.

كانت هذه الإعدامات والجَلد اليومي وقطع الأيدي والأقدام، أو انتزاع الألسنة بكُلّابات حُمّيت حتى احمرّت- تسليات الملك **أركون** الرئيسة عندما لا يلعب **الدوم** أو يخطط لغزو أحد ملوك الملوك المجاورين. في أغلب الأوقات، كان يلوّح بالفأس أو يُعمل الكُلّابات شخصيًا، ويعلو هديره وضحكه صاخبًا كصرخات ضحاياه.

حالما عبرت قافلتنا الممر وتوقفت في وسط فناء **أدبر سجد**، أسرعت السجانات **بماسارا** إلى متاهة الممرات الصخرية، وأُخذتُ إلى مسكني المتاخم لمسكن **أركون**.

خُصصت لي حُجرة حجرية واحدة، معتمة ومهويّة، سوَّد الموقد جدرانها بالسُّخام ولم يدفّئ إلا قليلًا، ورغم أنني ارتديتُ ثوبي الصوفي الذي أعطوني إياه، لم أشعر بالدفء قط في **أدبر سجد**. كم تحرّقتُ شوقًا لشمس النيل

وواحات مصري الوضّاحة! وجلستُ على تلك المتاريس التي تكتسحها الريح أحنّ إلى عائلتي، إلى **ممنون وتانوس**، وأميرتيَّ الصغيرتين، وإلى مولاتي أكثر من الجميع. كنتُ أستيقظ أحيانًا في الليل ودموعي ترجّف وجهي بردًا، فأضطر إلى تغطية رأسي ببطانيتي المصنوعة من جلد الخراف، حتى لا يسمع **أركون** نشيجي عبر الجدران الصخرية السميكة.

وكم توسلت إليه أن يطلق سراحي.

- لكن لِمَ تريد أن تتركني يا **تايتا**؟

- أريدُ العودة إلى عائلتي.

فيضحك ويقول: «أنا عائلتك الآن. أنا والدك».

راهنته على أنني إن غلبته في مئة لعبة **دوم** متتالية، فسيطلق سراحي ويرسل معي مرافقة إلى السهول الفسيحة على النيل. وعندما فزتُ في اللعبة المئة، قهقه وهز رأسه إزاء سذاجتي.

قال: «أقلتُ مئة؟ لا أظن ذلك. أنا واثق أنني قلت ألفًا (ثم التفت إلى أنصاره)، ألم تكُن الصفقة ألفًا؟».

فصاحوا: «بلى كانت ألفًا!».

رأوها جميعًا نكتة عظيمة. وعندما رفضتُ في استيائي أن ألعب لعبة أخرى معه، علقني عاريًا على سور القلعة من كعبيَّ حتى صرختُ له أن يجهز اللوح.

عندما رآني **أركون** عاريًا، ضحك ونكزني قائلًا: «لعلك تجيد لوح **الدوم**، لكن يبدو أنك فقدت حجريك الخاصين أيها المصري». كانت تلك أول مرة ينكشف فيها تشوهي الجسدي منذ أُسرت، وعاد الرجال ينادونني «بالخصيّ»، إهانة وإذلالًا.

إلا أن تبعات ذلك في النهاية كانت مُجدية، فلو كنتُ رجلًا كاملًا، لما سمحوا لي بزيارة **ماسارا** أبدًا.

***

جاؤوني ليلًا وقادوني مرتجفًا عبر الممرات إلى حجرة **ماسارا**. كانت الغرفة مضاءة بسراج زيت خافت وتفوح منها رائحة القيء، والفتاة منكمشة على نفسها على فراش من قش في وسط الأرض، وقيؤها في بركة على الأرضية الحجرية بجوارها، إذ كانت مصابة بألم فظيع أرسلها تئن وتنتحب وتقبض على بطنها.

بدأت العمل من فوري، وعاينتها مليًّا. خفتُ أن أجد معدتها قاسية كالحجر، وهو عرض انتفاخ الأحشاء وانفجارها الذي ينقع باطنها بمكنونات أمعائها، والذي لا علاج له. حتى أنا، بمهاراتي كلها، عاجز عن علاجها إن كانت هذه بليّتها.

أراحني شديد الراحة أن وجدتُ معدتها دافئة وطرية، ولم ألحظ حُمَّى في دمها، فتابعتُ فحصي، ورغم أنها ظلَّت تئن وتصرخ ألمًا كلما لمستها، لم أجِد سببًا لحالتها. حرتُ وتراجعتُ لأفكر بالأمر، ثم انتبهتُ إلى أنها ورغم تغضُّن وجهها ألمًا، كانت تراقبني بنظرة قاسية.

فالتفتُ إلى المرافقتين وتكلمتُ **بالجعزية**: «هذا أسوأ مما خشيت، وإن كان لي أن أنقذها، فسأحتاج إلى صندوقي. اجلباه بسرعة».

وعندما أسرعتا إلى الباب، أخفضتُ رأسي إلى رأسها وهمست: «إنك لفتاة ذكية وممثلة بارعة. هل نغزتِ حلقك بريشة؟».

ابتسمت لي وهمسَت: «لم تخطر ببالي وسيلة أخرى لألتقيك. عندما أخبرتني النسوة أنك تعلمت **الجعزية**، عرفتُ أن بإمكاننا مساعدة بعضنا بعضًا».

- آمل أن يكون ذلك ممكنًا.

قالت: «كنتُ أشعر بوحدة شديدة، حتى إن مجرد التحدث مع صديق سيبهجني (كانت ثقتها بي عفوية إلى درجة حركت مشاعري)، ربما نجد وسيلة للهرب من هذا المكان المُروِّع إذا ما تعاوننا».

وفي تلك اللحظة سمعتُ النساء يرجعن، وأصداء أصواتهن تتردد على امتداد الممر الخارجي، فقبضت **ماسارا** على يدي.

- أنت صديقي أليس كذلك؟ سترجع من أجلي؟
- أجل صديقك، وسأرجع.
- أخبرني بسرعة قبل أن تذهب. ما كان اسمه؟
- من؟
- الذي كان معك ذلك اليوم بجوار النهر. ذاك الذي يشبه إلهًا شابًّا.
- اسمه **مِمنون**.

نطقته: «**مِمنون**! (رددتْ الاسم بإجلال مُستغرب)، إنه اسم جميل. يلائمه».

اقتحمت المرأتان الغرفة، فقبضت **ماسارا** على بطنها الصغير السليم وأنَّت كأنها على حافة الموت. وبينما أهزُّ رأسي وأطقطق بلساني قلقًا لتصدُّقا، مزجتُ شرابًا مقويًا عشبيًّا يفيدها، وقلت لهن إنني سأرجع في الصباح.

وفي الصباح، كانت حالة **ماسارا** قد تحسنت، وتمكنتُ من قضاء وقت أطول معها. ظلت معنا امرأة واحدة فقط، وسرعان ما ضجرتْ وتمشّتْ إلى الجانب القصي من الغرفة، فتبادلت **وماسارا** بضع كلمات خفيضة.

- قال لي **مِمنون** شيئًا ما لم أفهمه. ماذا قال؟

- قال: «سأرجع من أجلك. كوني شجاعة. سأرجع من أجلك».

فهزَّت رأسها وملأت الدموع عينيها: «لا يمكن أن يعني ذلك، فهو لا يعرفني. لم يلتقني إلا لقاءً خاطفًا. أتظن أنه يعني ذلك يا **تايتا**؟» حمل صوتها توسّلًا مثيرًا للشجن حرك مشاعري، ولم يسعني أن أتركها تعاني أكثر مما عانت بالفعل.

- إنه وليُّ عهد مصر، ورجل شريف، وما كان ليقول ذلك لو لم يعنِه.

كان ذلك كل ما استطعنا قوله حينها، لكنني رجعتُ في اليوم التالي، وكان أول ما قالته لي: «أخبرني مرة ثانية بما قاله **مِمنون** لي»، فأعدتُ عليها وعده.

أخبرتُ **أركون** أن صحة **ماسارا** تتحسن، لكن يجب أن يُسمح لها بالخروج للمشي على المتاريس كل يوم «وإلا لستُ مسؤولًا عن صحتها».

فكّر في ذلك ليوم، لكن **ماسارا** مادة ثمينة دفع ثمنها حمل حصان من سبائك الفضة، لذا منح الإذن أخيرًا.

ازدادت فترات تمريننا اليومي بالتدريج، واعتاد الحرس رؤيتنا معًا. وفي النهاية صار بمقدوري **وماسارا** قضاء معظم الصباحات معًا، نتمشى حول أسوار **أدبر سجد** ونتكلم بلا انتهاء.

أرادت معرفة كل ما يمكنني إخبارها به عن **مِمنون**، ونبشتُ ذاكرتي بحثًا عن نوادر أسلِّيها بها. صارت عندها قصص مفضلة أجبرتني على تكرارها حتى حفظتها عن ظهر قلب، وكلما أخطأتُ في إعادة سردها صححت لي. كانت تستمتع بخاصة بحكاية إنقاذه إياي **وتانوس** من الفيل الجريح، وتَلَقّيه **ذهب البسالة** جزاء فعلته.

طلبت مني: «أخبرني عن أمه الملكة»، ثم أردفت: «أخبرني عن مصر. أخبرني عن آلهتكم، وعن طفولة **مِمنون**». دائمًا ما رجعت أسئلتها إليه،

وسرّني إشباع رغباتها، ذلك أني مشتاق لعائلتي، وأشعرني الحديث عنهم أنهم أقرب.

ثم جاءتني مضطربة ذات صباح: «حلمتُ البارحة حلمًا مرعبًا. حلمتُ أن **مِمنون** عاد من أجلي، لكنني لم أفهم ما قاله لي. عليك أن تعلمني اللغة المصرية يا **تايتا**. سنبدأ اليوم، من هذه اللحظة!».

كانت مستقتلة للتعلم، وكانت شابة ذكية، فسار الأمر بسرعة شديدة. وسُرعان ما صرنا نتكلم المصرية فيما بيننا، وأفادنا أن نتمكن من الحديث سرًّا أمام الحراس.

وعندما يغيب **مِمنون** عن حديثنا، كنا نناقش خطط هروبنا، ورغم أنني، بطبيعة الحال، لم أتوقف عن التفكير في ذلك منذ وصولنا إلى **أدبر سجد**، أفادني أن تفكر في الأمر نفسه فأجمع أفكارها على أفكاري.

ثم حذرتني: «حتى لو هربتَ من هذا الحصن، لن تعبر الجبال من دون مساعدة أبدًا، فالجبال أشبه بكُبة صوف لا يمكنك فكُّها، وكل عشيرة في حرب مع تاليتها، ولا يثقون بالغرباء. سينحرونك بوصفك جاسوسًا».

سألتها: «فماذا نفعل إذن؟».

قالت: «إذا ما تمكنتَ من الهرب، فعليك الذهاب إلى أبي، وهو يحميك ويرشدك إلى قومك، وعندها تخبر **مِمنون** بمكاني، ويأتي لإنقاذي». قالت ذلك بثقة مُتهللة منعتني من النظر في عينيها.

أدركتُ آنذاك أن **ماسارا** قد رسمَت في خيالها صورة غير واقعية **لمِمنون**، إذ كانت واقعة في حب إله، لا مُراهقًا شابًّا ومعدوم الخبرة مثلها، وأنا المسؤول عن ذلك، أنا وقصصي الحاذقة عن الأمير. ولم أستطع جرحها وإجهاض أملها بإخبارها بمدى بُعد هذه التصورات عن الحقيقة.

فحاولتُ التملص من المسؤولية التي حملتني إياها: «إذا ما ذهبتُ لأبيك، **الكاهن يوحنا**، فسيظنني واحدًا من جواسيس **أركون** ويقطع رأسي».

- سألقنك ما تقوله له. أشياء لا يعرفها أحد سواي وإياه، وذلك يثبت أنك مُرسل من طرفي.

قطعت عليَّ الطريق، فحاولتُ مهربًا آخر: «وكيف أصل إلى حصن أبيك؟ لقد أخبرتني للتو أن الطريق كُبة صوف متشابكة».

- سأشرح لك، ولأنك ذكي جدًّا ستتذكر كل ما أقوله لك.

بحلول هذا الوقت، وبطبيعة الحال، أحببتها تقريبًا بقدر ما أحببت أميرتيَّ الصغيرتين، وكنتُ مستعدًّا لخوض أي مجازفة حتى لا أجرحها. ذكرتني جدًّا بمولاتي عندما كانت في سنّها نفسها، وعجزتُ عن رفض أي من طلباتها.

قلت: «حسن جدًّا. أخبريني»، وهكذا بدأنا خطة الهرب. عددتُ الأمر لعبة ألعبها لأحافظ على حياة آمالها وارتفاع معنوياتها، ولم أتوقع جديًّا أن أجد مهربًا من القمة الصخرية هذه.

ناقشنا طرق تدبير حبل نُنْزِل أنفسنا به إلى الجرف، رغم أنني كلما نظرت من فوق شرفة غرفتها، ارتعشتُ أمام ذلك الفراغ الفاغر. ثم بدأت تجمع قصاصات صوف وقماش خبأتها تحت فراشها. كانت تخطط أن تجدل منها حبلًا، ولم يسعني إخبارها بأن حبلًا طويلًا ومتينًا بما يكفي ليحمل وزننا إلى قاع الوادي سيتطلب قماشًا وصوفًا يملآن غرفتها حتى السقف.

قبعنا عامين طويلين على مرتفع **أدبر سجد**، ولم نتمكن من ابتكار خطة هرب، لكن **ماسارا** لم تفقد الأمل قط، وظلت تسألني كل يوم: «ما الذي قاله **مِمنون** لي؟ أخبرني ثانية بِمَ ودَّعني».

- قال: «سأرجع من أجلك. كوني شجاعة».
- وأنا شجاعة، أليس كذلك يا **تايتا**؟
- أنت أشجع فتاة أعرفها.
- أخبرني بما ستقوله لأبي عندما تلتقيه.

رددتُ تعليماتها، ثم كشفت لي آخر خطة هروب لديها.

- سأمسك أحد العصافير الصغيرة التي أطعمها على الشرفة، وتكتبُ أنت رسالة لأبي تخبره بمكاني، ثم نربطها بساق العصفور ونطلقه يطير إليه.
- من الأرجح أن يطير إلى **أركون**، الذي سيجلد كلينا ويمنعنا من اللقاء ثانية.

هربتُ في آخر الأمر من **أدبر سجد** على ظهر أحد الخيول القوية. كان **أركون** خارجًا في غارة أخرى على الملك **الكاهن يوحنا**، وأمرني أن أرافقه بصفتي طبيبه الخاص وخصمه في **الدوم**.

وبينما أمشِّي حصاني معصوب العينين على الممر، نظرتُ خلفي ورأيتُ **ماسارا** واقفة على شرفتها تنظر إليَّ. كانت قوامًا جميلًا وحيدًا، ونادتني

بكلمات مصرية بالكاد تبيَّنتها تحت أنين الريح. «أخبره أنني أنتظره. أخبره أنني كنتُ شجاعة»، ثم انخفض صوتها، لذا لستُ واثقًا بأنني سمعتُ الكلمات صحيحًا، «أخبره أنني أحبه».

وبينما أركب حصاني عابرًا **أمبا كامارا** جلَّدت الريح الدموع على خدي.

***

في الليلة السابقة للمعركة، أبقاني **أركون** ساهرًا في خيمته، وبينما أخذ يشحذ سيفه الأزرق أعطى قادته آخر أوامره. وبين الحين والآخر، كان يحلق بضع شعرات عن معصمه بنصله الصلب المتلألئ ليختبر حدته، ويهز رأسه رضًا.

وأخيرًا، مسح نصله بدهن ضأن مُصفًّى، إذ كان ينبغي لهذا المعدن الأزرق الفضي أن يبقى مدهونًا، وإلا يتشكل عليه مسحوق أحمر، تقريبًا كأنه ينزف.

صار السيف الأزرق يستميلني بقدر ما استمال **تانوس**، وأحيانًا، كان **أركون** يسمح لي بحمله عندما يكون في مزاجٍ مُحسِن. كان وزن المعدن مفاجئًا، وحدَّة نصله لا تُصدق، ورحتُ أتصور الدمار الذي يمكن أن يحدثه في يد فارس مبارز **كتانوس**. عرفتُ أنني إذا ما التقيتُ **تانوس** ثانية، فسيرغب بمعرفة كل تفصيل عنه، لذا أخذت أسأل **أركون** الذي لم يتعب من التفاخر به.

أخبرني أن السيف ضُرب في قلب بركان على يد أحد آلهة الحبشة الوثنية، وأن والد جده ربحه من الإله في لعبة **دوم** استمرت عشرين يومًا وعشرين ليلة. وجدتُ كل تلك الأسطورة مقبولة، إلا ربحه في لعبة **دوم**، فإن كان والد جد **أركون** يلعب **الدوم** بمعايير **أركون نفسها**، فلا بدَّ أن الإله الذي خسر السيف أمامه إله غبي جدًا.

طلب **أركون** رأيي بخطة معركته في اليوم التالي. كان قد عرف أنني دارس للتكتيكات العسكرية، وأخبرته أن خطته لامعة، ففهم هؤلاء الأحباش للتكتيكات العسكرية مشابه لفهمهم لعب أحجار **الدوم**. وصحيح أن البيئة لا تسمح بتحقيق أعلى استفادة من الخيول، ولا يملكون عربات، لكنهم رغم ذلك يخوضون معاركهم بطريقة اعتباطية طائشة.

كانت استراتيجية **أركون** الكبرى للغد أن يقسم قواته إلى أربع مجموعات غازية تختبئ بين الصخور، ثم تهجم وتقبض على بضعة رهائن، وتذبح بضع رقاب، وتهرب.

قلت له: «أنت أحد أعظم جنرالات التاريخ، وأود أن أكتب لفيفة أمجّد فيها عبقريتك»، فأحب الفكرة، ووعد بتزويدي بأي مواد أحتاج إليها للمشروع حالما نرجع إلى **أدبر سجد**.

بدا أن الملك **الكاهن يوحنا** قائد بمهارة ورؤية مكافئتين، إذ واجهنا قواته في اليوم التالي في وادٍ واسع له جوانب شديدة الانحدار، وكان قد اتخذ موقعه في رأس الوادي قبل وصولنا، ثم تقدم يصيح بالشتائم والتحديات **لأركون** من مسافة آمنة.

كان **الكاهن يوحنا** رجلًا أشبه بالعصا نحولًا، وله لحية بيضاء طويلة وجدائل فضية تبلغ خصره. لم أتمكن من تبيُن ملامحه من هذه المسافة، لكن قالت لي النساء إنه كان في شبابه أوسم عاشقٍ في الحبشة، وله مئتا زوجة، وبعض النساء قتلن أنفسهن في سبيل حبه، لكن بدا لي أن مواهبه كانت مُثمرة في الحريم أكثر منه في ساحة المعركة.

حالما أنهى **الكاهن يوحنا** كلامه، تقدم **أركون** وردّ ردًّا مطولًا. أرسل شتائم مُنمّقة وشاعرية أخذت تتدحرج على الجروف ويتردد صداها في الخانق، وحفظتُ بعض تعليقاته البليغة عن ظهر قلب، ذلك أنها جديرة بالحفظ.

وعندما تراجع **أركون** أخيرًا، توقعتُ أن تحتدم المعركة، لكنني كنتُ مخطئًا، إذ أراد عدة محاربين آخرين من كلا الجانبين الكلام، فغططتُ في النوم على طرف صخرة تحت الشمس الدافئة، مبتسمًا في سري على حين أتصور اللهو الذي سيتمتع به **تانوس** وجماعة الزرق ضد أبطال البلاغة الأحباش أولاء.

أفقتُ في الظهيرة على صليل الأسلحة إذ أرسل **أركون** هجومه الأول، وانطلق فصيل من فصائله إلى مواقع **الكاهن يوحنا** يضربون سيوفهم بتروسهم النحاسية. وفي خلال وقت قصير قصرًا ملحوظًا، عادوا إلى نقطة البداية بنشاط مبتهج عظيم، من دون أن يُنزلوا خسائر أو يتعرضوا لها.

تبادلوا بعد ذلك المزيد من الشتائم، ثم حان دور **الكاهن يوحنا** في الهجوم، فهجم وتراجع بحيويَّة مكافئة ونتائج مشابهة. وهكذا مر النهار، شتائم بشتائم، وهجوم بهجوم. وعندما هبط الليل، تراجع الجيشان، وخيمنا أسفل الوادي، ثم أرسل **أركون** في طلبي.

استقبلني بلهجة المنتصر عندما دخلتُ خيمته: «يا لها من معركة! لن يجرؤ **الكاهن يوحنا** على مواجهتي مرة ثانية قبل شهور طويلة».

فسألته: «ألن تتحاربا في الغد؟».

قال لي: «غدًا نرجع إلى **أدبر سجد**، وتكتب حكاية انتصاري كلها على لفائفك. أتوقع من **الكاهن يوحنا** أن يطلب السلام قريبًا بعد هذه الهزيمة الهنيئة».

أُصيب سبعة من رجالنا في هذا النزال الضاري، وكلهم بسهام أُطلقت من مدى بعيد جدًا، فسحبتُ سنانها ونظفت الجراح وضمدتُها، وفي اليوم التالي رأيتُ الجرحى محمولين على محفات تمشي بجوارنا في طريق عودتنا.

كان أحد الرجال مصابًا في معدته ويتألم ألمًا شديدًا، وعرفتُ أنه سيموت من جراء الغنغرينا في غضون الأسبوع، لكنني فعلتُ كل ما في وسعي لأسكّن معاناته وأهدئ قفز المحفة على الأجزاء الأوعر من الطريق.

وصلنا في وقت لاحق من تلك الظهيرة إلى مقطع في النهر، مقطع عبرناه في طريقنا إلى محاربة **الكاهن يوحنا**، وتعرفتُ هذا المقطع من وصف **ماسارا** للريف والطريق إلى معقل أبيها. كان النهر أحد روافد النيل العديدة التي تنحدر من الجبال، وكان المقطع مرتفعًا بسبب الأمطار الهاطلة في الأيام السابقة.

بدأت العبور، ورحتُ أخوض بجوار محفّة مريضي ذي جرح المعدة. كان يهذي بالفعل، وفي منتصف المقطع أدركتُ أننا استهنّا بارتفاع المياه وقوّتها، إذ دفع الفيضان جانب المحفة وقلبها، وأخذ الحصان معه، جارًا الحيوان التعِس إلى المياه الأعمق حيث لا تصل حوافره إلى الأرض الحصوية.

كنتُ في لحظة متمسكًا بالسيور، وفي اللحظة التالية صرتُ والحصان نسبح. جرفنا تيار المياه الخضراء المثلجة، وانقلب الجريح من محفّته، وعندما حاولتُ بلوغه، أفلتتْ سيور حصاني وتباعدنا.

اختفى رأس الرجل الجريح تحت سطح الماء، لكنني بحلول ذلك الوقت كنتُ أسبح لأنجو بحياتي، فانقلبتُ على ظهري ووجهتُ قدمي إلى أسفل التيار حتى أصدّ الصخور بها بينما يقذفني التيار عليها. ركض بعض رجال **أركون** على الضفة بجواري لبعض الوقت، لكن سرعان ما جرفني النهر وراء حَنية فيه وعجزوا عن إيجاد طريق يقودهم حول قاعدة الجرف، فبقيتُ والحصان وحدنا.

تباطأت سرعة التيار خلف الحنية، وتمكنتُ من السباحة إلى الحصان ولفّ ذراعي من حول عنقه. صرتُ في أمان آنيّ، وفكرتُ بالفرار لأول مرة، إذ أدركتُ أن الآلهة منحتني فرصة، فتمتمتُ صلاة شكر واستخدمت حفنة من عرف الحصان لأوجهه إلى منتصف النهر.

قطعنا عدة أميال في النهر وحل الظلام قبل أن أتمكن من توجيه حصاني إلى الضفة، ثم تسلقنا إلى الشاطئ بصعوبة على شريط رملي، وارتأيتُ أنني في مأمن من المطاردة والأسر من جديد حتى الصباح، فلا أحد من رجال **أركون** سيجرؤ على خوض الخانق في الظلام، لكنني كنتُ بردانًا إلى درجة أن جسدي كله يرتعش في نوبات تشنج خارجة عن سيطرتي.

قدتُ حصاني إلى مكان محمي من الريح، ثم حشرتُ جسدي بخاصرته. أخذ جلده الرطب يبخُر تحت ضوء القمر، وبالتدريج، تخللني دفؤه وسكّن ارتعاشي. وحالما صرت نصف دافئ، تمكنتُ من جمع بعض الخشب المنجرف من الضفة الرملية، ثم تمكنتُ باستخدام طريقة **الشلك**، وببالغ المشقة، من إشعال نار. نشرتُ بعدئذٍ ثوبي ليجفّ، وجثمتُ بجوار النار لبقية الليلة.

وما إن بزغ ضوء يكفيني لأرى الطريق أمامي، لبستُ ثيابي وامتطيتُ الحصان مبتعدًا عن النهر، لمعرفتي أن رجال **أركون** سيركزون بحثهم على امتداد الضفتين.

بعد يومين من تتبع توجيهات **ماسارا**، وصلتُ إلى قُرى قمم التلال المحصنة في حيّز **الكاهن يوحنا**. أعرب زعيم القرية عن نيته ذبحي مباشرة وأخذ حصاني، واستخدمتُ جميع مواهبي في الإقناع ليوافق أخيرًا على الاحتفاظ بالحصان وأخذي إلى حصن **الكاهن يوحنا**.

***

تكلم المرشدون الذين قادوني إلى الملك **الكاهن يوحنا** عنه بألفاظ عاطفية محبّة. كانت القرى التي نعبرها في طريقنا أنظف وأوسر من قرى **أركون**، وقطعان الماشية أسمن، والمحاصيل أفضل، وغذاء الناس أحسن، وكانت الخيول التي رأيتها بهيّة بهاءً ملأ عيني بالدموع.

وعندما صارت القلعة المرتفعة على **أمبا** أخرى في مرمى بصرنا أخيرًا، رأيتُ أنها في حالة أفضل من قلعة **أركون**، ولا جوائز بشعة تزين جدرانها.

من قُرب، كان الملك **الكاهن يوحنا** رجلًا مفرط الوسامة بالفعل، إذ منحه شعره ولحيته الفضيين مسحة وقار فريدة، وأشرق وجهه ببشرة صافية وعينين داكنتين ذكيّتين. شكك في البداية شديد التشكيك بقصتي، لكن بينما أتلو عليه المعلومات الحميمة التي سلحتني **ماسارا** بها تغير سلوكه ناحيتي تدريجيًّا.

تأثر تأثرًا عميقًا برسائل الحب والاحترام التي حملتها له من ابنته، وسألني بتشوّق عن صحتها وعافيتها، ثم أخذني خدمه إلى مسكن فاخر وفق المعايير الحبشية، ومنحتُ أثوابًا صوفية جديدة بدل المزق التي ألبسها.

وبعد أن أكلتُ وارتحت، أخذني الخدم من جديد إلى الغرفة الرطبة المدخّنة التي كانت قاعة اجتماع **الكاهن يوحنا**.

أشرت إليه فورًا: «يا صاحب الجلالة، إن **ماسارا** سجينة **أركون** منذ سنتين، وهي فتاة شابة ورقيقة، يذوب جسمها في زنازينه النتنة». زخرفتُ الحقائق بعض الشيء لأقنعه بخطورة وإلحاح محنتها.

فبرر **الكاهن يوحنا** لنفسه: «لقد حاولت جمع الفدية التي يطلبها **أركون** مقابل ابنتي، لكنني سأضطر إلى صهر كل صحن وزبدية في **أكسوم** لأجمع كنزًا فضيًّا يرضي جشعه، إضافة إلى أنه يطلب أجزاء عظيمة من أرضي والعشرات من قراي الرئيسة. وإن تنازلت له عنها، تضعف مملكتي ويرزح عشرات الآلاف من رعاياي تحت طغيانه».

- يمكنني قيادة جيشك إلى معقله في **أدبر سجد**، وآنذاك تضرب حصارًا على قلعته وتجبره أن يسلمك **ماسارا**.

بدا فزعًا إزاء هذا الاقتراح. لا أظن أن إجراء عسكريًّا كهذا قد خطر بباله قط، فهذه ليست طريقة الحرب الحبشية.

وأجابني بتزمّت: «أعرف **أدبر سجد** حق المعرفة، لكنها منيعة، وثمة جيش عرمرم وراء **أركون**. لقد خضنا الكثير من المعارك الضارية معه، ورجالي أسود، لكننا لم نتمكن من هزيمته قط». وقد رأيتُ أسود **الكاهن يوحنا** في المعركة، ورأيت أن تقديره للوضع صحيح، فالجيش الذي يقوده لا أمل له في اقتحام **أدبر سجد** وتحرير **ماسارا** بقوة السلاح.

عدتُ في اليوم التالي باقتراح آخر: «يا إمبراطور **أكسوم** العظيم وملك ملوكها، كما تعلم، أنا من الأمة المصرية، والملكة **لوستريس** الوصية على مصر تهجع مع جيوشها عند ملتقى النهرين، حيث يلتقي النيل توءميه».

أومأ برأسه: «أعرف ذلك. لقد دخل أولئك المصريون منطقتي من دون إذني، وأخذوا يحفرون المناجم في ودياني. قريبًا أنقض عليهم وأبيدهم».

صار دوري أن أفزع، **فالكاهن يوحنا** مدرك الأعمال الجارية على قبر الفرعون، وشعبنا هناك في خطر الهجوم، لذا عدلتُ اقتراحي وفقًا لذلك.

وشرحتُ له: «إن شعبي ماهر بفن الحرب والحصار، ولي حظوة عند الملكة **لوستريس**، وإذا ما أرجعتني آمنًا إلى جوارها، فسأقنعها بمد يد الصداقة لك، وإرسال جنودها ليقتحموا حصن **أدبر سجد** ويحرروا ابنتك».

ورغم أنه حاول تمويه الحقيقة، رأيتُ أن اقتراحي جذبه، وسألني بحذر: «وماذا ستطلب ملكتك مقابل صداقتي؟».

تساومنا لخمسة أيام، لكن الصفقة عُقدت في النهاية، وقلت له: «ستسمح للملكة **لوستريس** بمواصلة حفر المناجم في واديك، وتعلن أن هذه الوديان منطقة محظورة، فيُمنع شعبك من دخولها تحت طائلة الموت». وهذا من أجل مولاتي، إذ إنه سيؤمن قبر الفرعون من التدنيس.

قال **الكاهن يوحنا**: «موافق».

قلت: «وسترسل إلى الملكة **لوستريس** ألفي حصان أختارها من قطعانك»، وهذا من أجلي.

قال الملك: «ألفًا».

رددتُ بصرامة: «ألفين».

فقال: «موافق».

قلت: «وعندما تتحرر الأميرة **ماسارا**، ستسمح لها بالزواج من أي رجل تشاء، ولن تمنعها»، وهذا من أجل **مِمنون** والفتاة.

فتنهّد قائلًا: «هذا ضد أعرافنا، لكنني موافق».

قلت: «وعندما نأسرهم، نسلمك **أركون** وحصن **أدبر سجد**»، بدا أكثر بهجة وأومأ بشدة.

واصلت: «وأخيرًا، نحتفظ نحن المصريين بجميع غنائم الحرب التي نأخذها من **أركون**، بما في ذلك السيف الأزرق الأسطوري»، وهذا من أجل **تانوس**.

قال: «موافق»، ورأيتُ أنه، في رأيه، قد عقد صفقة رابحة.

ثم أمر خمسين رجلًا بمرافقتي، وانطلقت في اليوم التالي إلى **قيبي** على ظهر حصان رائع كان هدية فراقنا من الملك.

***

كنا لا نزال على مسافة خمسة أيام من **قيبي** عندما رأيتُ سُحب الغبار أمامنا تسرع باتجاهنا عبر السهل، ثم رأيت العربات تتراقص في سراب الحر. وبينما تقترب، انتشرت الأرتال في تشكيلة الهجوم بسرعتها القصوى. كان مشهدًا جميلًا؛ ترتيبها مثالي، والمسافة بين العربات دقيقة حتى إنها بدت أشبه بعِقد من الخرز، وتساءلت من يقودها.

ظللتُ عيني عندما اقتربوا، وقفز قلبي من صدري عندما تعرفتُ حصانيْ العربة القائدة. كانا **صخرًا وسلسلة**، عزيزيّ الحبيبين، إلا أنني لم أتعرف السائق من خلفهما فورًا، إذ مرَّت أعوام ثلاثة تقريبًا منذ رأيتُ **مِمنون** آخر مرة، وفرق السن بين السابعة عشرة والعشرين هو الفرق بين صبي ورجل.

كنتُ قد اعتدتُ ركوب الخيل باستخدام السرج ورِكابه، على الطريقة الحبشية، لذا وقفتُ منتصبًا في الركاب ولوّحت بيدي، ورأيتُ العربة تنحرف عندما تعرّفني **مِمنون** وجلد الحصانين لينطلقا بأقصى سرعتهما.

صرختُ: «**مِم! مِم!**»، وجاءتني صيحة إجابته محمولة على أجنحة الريح.

- **تاتا!** بحق حليب **إيزيس** العذب! هذا أنت!

أوقف الحصانين ووثب عن صفيحة القدم وجرني عن حصاني. عانقني أولًا، ثم أبقاني على امتداد ذراعيه وأخذنا يتأمل بعضنا بعضًا باشتياق لا يشبع.

هتف: «إنك شاحب ونحيل يا **تاتا**، وعظامك بارزة. أهذه شعرات شهباء التي أراها هنا؟»، وشدّ شعر صدغيّ.

كان قد تجاوزني طولًا، وصار نحيل الخصر عريض الكتفين، ببشرة مُسمرَّة دُهنت بالزيت حتى تلوّنت بلون الكهرمان المصقول، وأوتار عضلية تبرز من حلقه عندما يضحك. وكان يرتدي حاميات معاصم ذهبية **وذهب البسالة** يتدلى على صدره، ورغم استحالة ذلك، بدا أوسم من آخر مرة رأيته فيها. ذكرني شكله بالنمر، رشيق وأنيق.

ثم رفعني بأكملي فوضعني على صفيحة قدم العربة وأمرني: «أمسك السيور، أريدُ أن أرى ما إن كنتَ قد فقدت أيًّا من مهارتك القديمة».

سألته: «إلى أين؟».

- غربًا، إلى **قيبي** بالطبع، فستغضب أمي إن لم آخذك إليها مباشرة.

جلسنا في تلك الليلة حول النار بعيدًا عن بقية الضباط حتى نتكلم على انفراد. بقينا صامتين لبعض الوقت، ننظر إلى تألُّق النجوم الفضي، ثم قال **ممنون**: «عندما ظننتُ أنني خسرتك، شعرتُ أنني خسرتُ جزءًا من نفسي. أنت منسوج في أولى ذكريات حياتي».

وأنا، تاجر الكلمات، لم أجد كلمات أرد بها عليه، فساد الصمتُ ثانية، ثم وضع ذراعًا على كتفي في آخر الأمر.

وسألني: «هل رأيتَ تلك الفتاة ثانية؟»، ورغم أنه تكلم بلهجة عادية، لم تكن قبضته على كتفي عادية.

سألته مُعابثًا: «أي فتاة؟».

- الفتاة عند النهر، يوم تفارقنا.

عبستُ كأنني أحاول التذكر: «أكان ثمة فتاة هناك؟ كيف كان شكلها؟».

- وجهها زنبقة سمراء، وبشرتها بلون العسل البري. نادتها النساء **ماسارا**، وما زالت ذكراها تقض مضجعي.

قلت له: «اسمها **ماسارا بنت يوحنا**، وقد قضيتُ سنتين سجينًا معها في حصن **أدبر سجد**. وهناك تعلمتُ أن أحبها، ذلك أن خُلقها أحلى من خلقتها».

فقبض عليَّ بكلتا ذراعيه وهزَّني بلا رحمة: «احكِ لي عنها يا **تاتا**! احكِ لي كل شيء ولا تهمل شيئًا!».

وهكذا قضينا بقية الليلة جالسين بجوار النار نتكلم عن الفتاة. حكيت له كيف تعلمت تحدُّث المصرية من أجله، وكيف ثبَّتها وعده لها في الأيام المعتمة الموحشة، وفي النهاية أبلغته بالرسالة التي أرسلتها إليه، الرسالة التي صاحتها من فوق متاريس **أدبر سجد** في حين أركب حصاني مبتعدًا تاركًا إياها هناك.

- قل له إنني كنتُ شجاعة. قل له إنني أحبه.

ظل صامتًا وقتًا طويلًا، يحدق إلى ألسنة اللهب، ثم قال بصوت خفيض: «كيف يمكنها أن تحبني؟ إنها لا تعرفني».

فسألته: «أتعرفها خيرًا مما تعرفك؟» وهزّ رأسه.

- أتحبها؟

- انظري إلى منخريه يا صاحبة الجلالة، وانتبهي إلى عمق صدره، وتناسب عضلاته وعظامه. لا يملك **الهكسوس** شيئًا يضاهي الخيول الحبشية.

ثم ذكرتها بوعدها للفرعون المتوفى، وقلت لها: «سيتنازل **الكاهن يوحنا** عن وادي القبر لك، وسيحرسه محاربوه من لصوص القبور ويعلنه منطقة محرّمة، وهؤلاء الأحباش شعب مؤمن بالخرافات سيحترم هذا التحريم وقتًا طويلًا بعد عودتنا إلى **طيبة**».

حذرتُ **مِمنون** أن لا يذكر اهتمامه الغرامي بالحملة على **أركون** أمام الملكة، ذلك أنه لن يفيد قضيتنا، فكل أم عاشقة، وقلما تتمتع برؤية ابنها يُختطف على يد امرأة أخرى أصغر سنًا.

لا يمكن لامرأة، ولو كانت ملكة، أن تقاوم سحرنا ومكرنا نحن الثلاثة، **تانوس** و**مِمنون** وأنا، وهكذا، منحت الملكة **لوستريس** موافقتها لحملتنا بالزحف على **أدبر سجد**.

***

تركنا الشاحنات والعربات في وادي قبر الملك وانطلقنا إلى الجبال، وكان **الكاهن يوحنا** قد أرسل سريَّة مرشدين قوامها مئة من خيرة رجاله وأجدرهم لتستقبلنا.

اختار **تانوس** فرقة كاملة من أكثر **شُلكه** جموحًا وتعطشًا للدماء، ووعدهم بمنحهم كل الماشية التي يغنمونها، ولأننا تذكرنا الرياح الباردة في المعابر الجبلية، حمل كل من أولئك الوثنيين السود عباءة من جلد الثعلب السميك ملفوفة على ظهره.

دعمنا أنفسنا بثلاث سرايا من النبَّالة المصريين بقيادة السيد **كراتاس**، فقد انضم ذلك البلطجي العجوز إلى سرية النبلاء في خلال مكوثي **بأدبر سجد**، وبات متشوقًا لخوض قتال حقيقي. كان ورجاله كلهم مسلحين بالقوس الجديدة المعقوفة القادرة على تخطي أقواس الأحباش الطويلة بمئتي خطوة.

اختار **مِمنون** مجموعة من أفضل سيافينا وأخشن مقاتلينا، وكان **رِمرِم** منهم، وبالطبع السيد **أقر وأستيس** كذلك. وأنا أيضًا كنت فردًا في هذه الفصيلة، لا لمهاراتي الحربية، بل لمجرد أنني الوحيد الذي دخل حصن **أدبر سجد** من قبل.

أراد **هُوي** القدوم ومعي وعرض عليَّ كل رشوة في متناول يده، وفي النهاية رضخت له، والسبب الرئيس لذلك هو حاجتي إلى خبير يساعدني بانتقاء الخيول التي وعدني بها **الكاهن يوحنا**.

فهِمتُ **تانوس** والأمير جوهرية التحرك بسرعة، لا لعامل المفاجأة وحده، بل أيضًا لأن الأمطار ستنهمر قريبًا على الجبال، فقد درستُ أنماط الطقس والفصول في إقامتي **بأدبر سجد**، وإذا ما حاصرنا المطر في الوديان، فسيكون عدوًّا أخطر من الجيش الحبشي.

زحفنا إلى **أمبا كامارا** في أقل من شهر برتل يتعرّج بين الممرات كصلّ قاتل طويل، وسنان رماح **الشُلك** تلتمع تحت الشمس المرتفعة كحراشف ثعبان. لم نواجه أي مقاومة، فقد كانت القرى التي نعبرها مهجورة فرّ سكانها وأخذوا قطعانهم ونساءهم معهم، ورغم احتشاد السحب الداكنة الكالحة على قمم الجبال، وهدير الرعد بنا في كل ليلة، امتنعت الأمطار وظلت مقاطع النهر منخفضة.

وبعد خمسة وعشرين يومًا على انطلاقنا، وقفنا في الوادي تحت كتلة **أمبا كامارا** الصخرية، ونظرنا عبر الطريق المتعرج إلى المرتفعات الشاخصة فوقنا.

في رحلاتي السابقة صعودًا وهبوطًا، درستُ الدفاعات التي أقامها **أركون** على طول الممر، وكانت انهيارات صخرية ومتاريس حجرية، فدللتُ **تانوس** عليها، وتمكنا من رؤية رؤوس المدافعين كثة الشعر معدومة الخوذ الظاهرة من فوق جدران المتاريس.

قال **تانوس** بتفكُر: «نقطة ضعف الانهيارات الصخرية هي أنها لا تُطلق إلا مرة واحدة، **ولشُلكي** أقدام سريعة سرعة تمكنهم من تفادي اندفاعة جاموس».

ثم أرسلهم إلى الممر في جماعات صغيرة، وعندما ضرب المدافعون الأسافين من تحت الانهيارات الصخرية وأرسلوها تتدحرج إلى الممر، ركض أولئك الرمَّاحون السود طوال السيقان إلى الجانب برشاقة ماعز جبلي. انتظروا دويّ الجلاميد عابرةً إياهم، وبعد أن مرَّت، استداروا وأخذوا يصعدون جانب الجبل العمودي تقريبًا، متوثبين من صخرة إلى صخرة في حين يوَعوعون بصوت مُروِّع قشعر شعر قفاي، وردّوا المدافعين إلى ما وراء رأس الجبل.

لم يوقفهم شيء إلا نبَّالة **أركون** المختبئون وراء جدران المتاريس الحجرية، وعندما حدث ذلك، قاد **كراتاس** نبالته إلى الجبل، وتمكن المصريون بأقواسهم المتفوقة من الوقوف على مسافة بعيدة وإرسال وابل من السهام الغزيرة يكاد ينطلق مستقيمًا إلى السماء.

سحرتني مشاهدة حشد السهام يرتفع في الجو كسرب من الطيور السوداء ثم ينهال على المتاريس بانحراف حاد أبطل أي حماية توفرها الجدران الحجرية للرجال المحتمين بها. سمعنا صرخاتهم، ثم رأيناهم يفرّون صاعدين المنحدر، وانطلق **الشلك** في أعقابهم على الفور يعوون كزمرة من كلاب الصيد، وحتى من أسفل الوادي سمعتُ صيحتهم الحربية: «**كادجان! كادجان**! اقتلوا! اقتلوا!».

ورغم أن ساقيّ متينتان وأنفاسي قوية بفعل الزحف الطويل، واجهتُ مشقة في مجاراة **مِمنون** وبقية مجموعتنا الصغيرة. لقد بدأت السنون تفرض ضريبتها.

كنا جميعًا نرتدي أثوابًا حبشية طويلة، وقد حصلنا على تروس أعدائنا التقليدية المدورة، إلا أننا لم نعتمر بعد باروكاتنا المصنوعة من شعر الحصان، ذلك أنه من شديد الطيش أن نشابه الأحباش **وشلكُنا** إلى هذه الدرجة في مزاجهم هذا.

عندما وصلتُ أخيرًا إلى سطح **الأمبا**، رأيتُ من فوري **تانوس** يحشد مشاته وينظم صفوفهم. كان عيب **الشلك** الوحيد في القتال أنهم ما إن تبتل رماحهم بالدم، يصيبهم السعار، وتكاد تستحيل السيطرة عليهم، فراح **تانوس** يهدر كذكر الفيل ويضرب في جميع الاتجاهات بسوط رتبته الذهبي، وحالما سيطر عليهم، شكلوا صفوفهم من جديد وتقدموا إلى القرية الأولى حيث ينتظر الأحباش وراء جدران حجرية. عندما تقدمت موجة الأبدان الطويلة السوداء المزينة بأغطية رأس من ريش النعام الأبيض ناحيتهم، أطلقوا زخّة سهام من أقواسهم الطويلة، لكن **الشُلك** كانوا رافعين تروسهم من فوق رؤوسهم.

هجم بعضهم قُدمًا ملوِّحًا بسيفه عندما اقتحمهم **الشُلك**، إذ لم يكونوا جبناء، لكن هذا النمط من الحرب جديد عليهم، ولم يُضطروا من قبل إلى التصدي لهجوم يستمر حتى الموت.

انتظرت وقتًا كافيًا حتى رأيت الاشتباك يحتدم، ثم ناديت **مِمنون** وجماعته: «الباروكات!»، فغطى كل منهم فروة رأسه بباروكة من شعر الحصان الأسود

صنعتُها بيديَّ وصفَّفتها على الطراز الجمالي الحبشي: كثيفة ومخصَّلة. وبعد أن صرنا متسربلين بالأثواب الطويلة المخططة وعلى رؤوسنا باروكاتنا، صار بمقدورنا المرور على أننا عصابة من رجال عشيرة **أركون**.

صحت: «من هنا! اتبعوني!»، وأطلقت صيحة حرب حبشية مولولة، فبينما نلتفّ حول القرية حيث لا يزال القتال محتدمًا رددوا صيحتي ووعوعوا خلفي، ونركض في جماعة غير منتظمة عبر حقول الذرة.

كان علينا أن نبلغ الحصن ونقف إلى جانب **ماسارا** لنحميها عندما يدرك **أركون** أخيرًا أنه خسر المعركة، ذلك أنه لن يتردد في قتلها حالما تفقد قيمتها لديه، وربما يطعن حلقها بالسيف الأزرق ويرميها من الممر إلى الخانق منفذًا طريقته المفضلة في التخلص من ضحاياه.

عندما عبرنا **الأمبا**، وجدنا سطحها كله في هرج ومرج؛ عصابات من مقاتلين كثي اللحى يتطاحنون في معمعة، ونساء يجررن أطفالهن من أذرعهم وممتلكاتهن مكوّمة على رؤوسهن في حين ينتحبن هلعًا ويهربن كدجاج مذعور شم رائحة الثعلب. كان الصبية الرعاة قد فروا تاركين قطعان الماعز تثغو والأبقار تخور وتثير الغبار، فبينما نجري في الحقول بعيدًا عن القرى لم ينتبه لنا أحد البتة.

تبعنا الحركة العامة باتجاه **أدبر سجد** على الجانب القصي من السطح، وعندما اقتربنا من المعبر، تكاثفت الحشود وغلظت حتى صرنا مضطرين إلى شق طريقنا بالقوة بينهم. وقف على رأس المعبر حراس يردون اللاجئين بسيوف مسلولة وهراوات، بينما يعلو صياح النساء وتوسلهن ليحتمين بالحصن ويرفعن أطفالهن طلبًا للرحمة، فسقط بعضهن في الزحام، وداستهن أقدام القادمين من الخلف.

أعطى **مِمنون** الأمر بصوت خفيض: «اتخذوا تشكيلة السلحفاة»، فتلاصقت جماعتنا الصغيرة وشابكت حواف تروسها الحبشية، وعبرنا الحشد كما يعبر قرش فوج أسماك سردين. دُفع بعض الضعفاء في المقدمة وسقطوا عن حافة الجرف فزاد صراخهم الذعر ذعرًا، وعندما وصلنا إلى رأس المعبر، حاول الحراس إيقافنا، لكن الازدحام ضيَّق عليهم حتى عجزوا عن سحب سيوفهم، وصاروا في خطر الاجتياح والسقوط عن الجرف.

صحت بهم **بالجعزية**: «إننا نتبع أوامر الملك **أركون** المباشرة، تنحوا جانبًا!».

بينما ردَّ عليَّ نقيب الحرس وهو يكافح ليظل واقفًا: «ما كلمة السر؟»، وأخذ الحشد المذعور يموج جيئة وذهابًا، ثم نكزني بسيفه: «لا بدَّ أن تنطق بكلمة السر»، لكن **مِمنون** ضرب سيفه منحيًّا إياه.

في خلال فترة سجني، سمعتُ كلمة السر تُردد ألف مرة من زنزانتي فوق البوابة الرئيسة، ولعلها تغيرت مذ ذاك الحين، لكنني كنتُ مستعدًّا لقتل النقيب عندما صحتُ به: «الجبل شاهق!».

فتنحى جانبًا قائلًا: «مُروا!» صارعنا لنخرج من الحشد، وأخذنا نركل وندفع أولئك الذين حاولوا اللحاق بنا، ثم ركضنا عبر الجسر بإلحاح عظيم لبلوغ **ماسارا** أنساني السقطة على كلا جانبيَّ، وقدتهم من دون توجس عبر الخواء الفاغر.

صرختُ بالحراس الذين يسدون البوابة الرئيسة: «أين الملك **أركون**؟»، وعندما ترددوا قلت لهم: «الجبل شاهق! معي إرسالية عاجلة للملك. تنحوا جانبًا ودعونا نمر!». اقتحمنا البوابة المفتوحة قبل أن يتخذوا قرارهم، وأسرعتُ رفقة اثني عشر رجلًا قويًّا عبر الدرج الخارجي إلى الشرفة العليا.

وقف على باب حجرة **ماسارا** رجلان مسلحان، وأفرحتني رؤيتهما، إذ كنتُ قلقًا أن تكون الفتاة قد نُقلت إلى قسم آخر من الحصن، لكن وجود الحراس طمأنني أنها لا تزال هنا.

صاح أحدهما: «من أنتم؟ (واستل سيفه)، من فوَّضكم...؟!». لكنه لم يُنهِ احتجاجه، إذ تنحيتُ جانبًا تاركًا **مِمنون ورِمرِم** يكتسحانه، فقتلا الحارسين ومرا قبل أن يتمكنا من الدفاع عن نفسيهما.

وجدنا باب حجرة **ماسارا** مُزلجًا من الداخل، وعندما ألقينا وزننا مجتمعًا عليه، سمعنا جوقة صياح نسائي وعويل من الجانب الآخر. استسلم الباب عند المحاولة الثالثة فدُفعتُ عبر المدخل إلى الغرفة وراءه، وكان الظلام دامسًا حتى إنني بالكاد تبينتُ جمهرة النساء في الركن البعيد.

ناديتُها: «**ماسارا**!»، ونزعتُ الباروكة عن رأسي تاركًا شعري يسقط على كتفيّ، وتعرّفتني منه.

صاحت: «**تايتا**!» وعضَّت رسغ إحدى النساء اللاتي حاولن تثبيتها وركضت إليَّ ملقيةً كلتا ذراعيها حول عنقي، ثم نظرت من وراء كتفي، فارتخت قبضتها عليَّ، واتسعت عيناها الداكنتين، وتورّد خداها.

كان **مِمنون** قد نزع باروكته، ومن دونها، بدا على نحو واضح ومدهش أميرًا، فتنحيتُ جانبًا وتركتُ **ماسارا** تقف وحدها. حدق واحدهما إلى الآخر، ولم يتحركا أو ينطقا لمدة بدَت أبدية، لكنها كانت لحظة فقط، ثم قالت **ماسارا** بالمصرية بصوت منخفض خجول: «لقد جئت. بررت بوعدك. كنتُ أعرف أنك ستأتي».

أظنها كانت أول مرة أرى **مِمنون** وقد أعيته الحيلة. لم يسعه إلا هزّ رأسه، ثم شهدتُ ظاهرة مذهلة، إذ تدفق الدم صعودًا إلى عنقه وملأ وجهه فتوهّج حتى في ظلام الغرفة. وليّ عهد مصر، ابن الفرعون وقائد فرقة العربات الأولى، **الأفضل في عشرة آلاف**، حامل **ذهب البسالة**، وقف مكانه محمرًّا معقود اللسان كفلاح أبله.

نعقت إحدى النساء من خلفي كدجاجة مذعورة، وقبل أن أتمكن من مد يدي للإمساك بها، بينما غطست من تحت ذراعي وانطلقت تعدو إلى الدرج الداخلي ردد بيت الدرج صراخها: «أيها الحراس! لقد اقتحم العدو الجناح الشرقي! تعالوا بسرعة!»، وعلى الفور تقريبًا، سمعنا جلبة أحذية تصعد الدرج.

تحوّل **مِمنون** في لحظة من عاشق شاب متورّد الخد إلى رجل قاسٍ من رجال الحرس، ثم قال لي بتجهم: «اعتنِ بها يا **تاتا**، واحمها من أي أذى»، وتجاوزني إلى رأس الدرج.

قتل أول رجل قابله بتلك الطعنة الكلاسيكية التي علمه إياها **تانوس**، ثم وضع قدمه في صدره ليحرر النصل من عنقه ودفعه إلى بيت الدرج، فتشقلبت الجثة الساقطة على بقية الرجال الصاعدين واكتسحتهم منظفةً الدرج.

ثم نظر إليّ: «أتظن أن بمقدورنا بلوغ البوابة قبل أن يغلقوها؟».

أجبته: «علينا ذلك. أفضل طريق أمامنا هو العودة عبر الدرج الخارجي».

فقال بحزم: «تولى القيادة يا **رِمرِم**، **تاتا** والأميرة في المنتصف، وأنا سأحمي المؤخرة»، وطعن الرجل التالي على الدرج في عينه.

ألقى الحبشي سلاحه وقبض على وجهه بكلتا يديه، فطعنه **مِمنون** مرة أخرى في صدره ودفعه إلى الدرج، مُخليًا إياه مرة أخرى. وصاح بنا: «اتبعا **رِمرِم** لا تقفا مكانكما. اتبعاه بأقصى سرعتكما».

قبضتُ على ذراع **ماسارا**، لكنني لم أحتج إلى جرها معي، إذ مشت بسرعة ورشاقة حتى إنها سبقتني.

باغتَتنا شعاع الشمس عندما وصلنا إلى الشرفة، وبهَر عينيَّ بعد خروجنا من الغرفة المظلمة، فرمشتُ حتى أصفِّي بصري، ثم نظرتُ عبر المعبر إلى حافة المسطّح على الجانب القصي من الهاوية ورأيتُ **شُلك تانوس** هناك تتراقص ريشاتهم وراء تروسهم المرفوعة.

كانوا يصدحون: «**كادجان**! اقتلوا! اقتلوا!»، وقد كمَّد الدم الطازج سنان رماحهم، وتبعثر الفلاحون المذعورون أمامهم حتى وصلوا إلى رأس المعبر.

كان في الساحة مئتان أو ثلاثمئة من جنود **أركون**، والهاوية من خلفهم، فحوّلت الضرورة جميعهم إلى أبطال، وصاروا أسودًا حقيقيين. ورغم أن العشرات منهم دُفعوا عن الحافة وسقطوا إلى هلاكهم، صدّ الناجون هجمة **الشُلك** الأولى.

رأيتُ **تانوس** آنذاك حيث توقعته بالضبط، ممسكًا الوسط، وخوذته تشع كالمنارة في بحر محاربي **الشلك** الأسود. ثم رأيته يلقي رأسه خلفًا ويبدأ بالغناء.

حملت الريح كلمات **الشلك** الوحشية من فوق الهاوية إلى حيث أقف على شرفة الحصن، إذ تلقف الرجال من حوله اللازمة واندفعوا قُدمًا وهم يغنون. وهذه المرة، لم يقف شيء في وجههم، فأخذوا يطعنون ويقطّعون المدافعين في طريقهم، وكان **تانوس** أول رجل يصل إلى المعبر. أخذ يركض بخفة بالنسبة إلى رجل في حجمه، ولا يزال يغني، **والشلك** من خلفه على القنطرة الحجرية، لكنها بلغت من الضيق أنهم اضطروا إلى السير في رتل أحادي.

وكان قد بلغ منتصف الطريق عندما خبَت الأغنية على شفتيه وتوقف مكانه.

فمن بوابة **أدبر سجد**، تحت موقفي تمامًا، خرج رجل آخر إلى المعبر ليواجه **تانوس**. كنتُ أنظر من علٍ، لذا لم أرَ وجهه، لكن السلاح الذي يحمله في يمناه لا يمكن إخطاؤه، فقد التقط السيف الأزرق شعاع الشمس وومضَ كبرق الصيف.

جأر **تانوس**: «**أركون**! كنتُ أبحث عنك».

لم يفهم **أركون** الكلمات، لكن معناها واضح، فضحك في وجه الريح ورفرفت لحيته السوداء كالدخان من حول وجهه الماعزيّ.

قال: «أنا أعرفك! (ولوَّح بنصله الأزرق الفضي من حول رأسه فهسهس وأنّ في الجو)، وهذه المرة سأقتلك»، وانطلق يركض على القنطرة الحجرية الضيقة بقفزات طويلة رشيقة إلى **تانوس**.

عدّل **تانوس** قبضته على ترسه البرونزي، وثنى رأسه من ورائه، فقد بات يعرف قوة ذلك النصل المتألّق، ورأيتُ أنه لا ينوي مواجهته بسيفه البرونزي الأرقّ. تعلم **أركون** أيضًا الاحتياط من لقائهما الوجيز الأخير، وخمنتُ من طريقة حمله السيف الأزرق أنه لن يحاول ضربة أخرى برفع الذراع.

عندما تلاقيا، ضبط **أركون** نفسه، ثم رأيتُه يشدُّ كتفيه ويدفع وزنه إلى الأمام. استخدم زخم هجمته ليرسل طعنة مستقيمة إلى **تانوس**، فرفع **تانوس** الترس وعلق النصل الأزرق في مركز الدريئة البرونزية الثقيلة. كان الترس ليكسر سيفًا مصنوعًا من معدن أردأ، لكن السيف الأزرق شقّه كأنه جلد ماعز، وانغرس حتى منتصفه في البرونز الأصفر.

ثم أدركتُ نية **تانوس**، إذ برم الترس بزاوية جعلت النصل عالقًا، وأخذ **أركون** يكافح ليسحب سلاحه. صارع وهاج وألقى وزنه كله خلفًا، لكن **تانوس** ظل مثبتًا السيف الأزرق بملزمة برونزية.

فاستجمع **أركون** كل قوته وشدَّ مرة أخرى، وهذه المرة لم يقاومه **تانوس**، بل وثب باتجاهه وقد أفقدته هذه الحركة غير المتوقعة توازنه.

ترنّح **أركون** خلفًا، فتعثر وراح يتأرجح على حافة الهوَّة، وليحافظ على توازنه، اضطر إلى إفلات قبضته على السيف الأزرق وتركه مغروسًا في الترس.

ثم أخذ يلوّح بذراعيه بينما يميل مبتعدًا عن الحافة، فغيَّر **تانوس** خطته، ووضع كتفه وراء الترس واندفع إلى الأمام صادمًا صدر **أركون** به، فأصابه مقبض السيف الأزرق في رأس معدته بكل وزن **تانوس** وقوّته.

قُذف **أركون** خلفًا إلى الفضاء، فتشقلب شقلبةً بطيئةً في الجو ثم سقط إلى الأسفل، وراح ثوبه ينتفخ حوله، ولحيته ترفرف كراية عربيةٍ في رياحِ سقطته.

راقبته من حيث أقف يخوض الرحلة الأخيرة نفسها التي أرسل أرواحًا تعِسة كثيرة بها. ظل يصرخ من المعبر حتى ارتطم بالصخور البعيدة ألف قدم بصوت عالٍ ضعفَ تدريجيًا إلى أن انقطع فجأة في النهاية.

ثم وقف **تانوس** وحده في منتصف المعبر، ولا يزال رافعًا الترس والسيف مغروس في معدنه.

تلاشى الاهتياج والقتال ببطء بعد أن رأى الأحباش ملكهم يُهزم ويُرمى إلى الأسفل، وفقدوا شجاعتهم، فألقوا أسلحتهم وأخذوا يَحْبون طلبًا للرحمة. تمكن الضباط المصريون من إنقاذ بعضهم من **الشُلك** المسعورين للدماء، وأُخذوا إلى حيث ينتظرهم سادة العبيد ليوثقونهم.

لم أرَ شيئًا من ذلك كله، إذ كنت أراقب **تانوس** فوق الجسر، وقد بدأ يسير ناحية بوابة الحصن والرجال يهللون له ويرفعون أسلحتهم تحيةً.

ضحك **مِمنون** إعجابًا وقال: «ما زال ذلك الثور العجوز مقاتلًا بارعًا»، لكنني لم أضحك معه، بل شعرت برعشة التوجُّس التي تسبق مأساة فظيعة ما، كأنما الهواء يخفق بخفق أجنحة نسور تستقر على وليمتها الشنيعة.

همستُ: «**تانوس**». كان يمشي مشيةً بطيئة ثقيلة، وعندما أخفض ترسه في حين يعبر الجسر الحجري، رأيتُ أول مرة البقعة الآخذة بالانتشار على صدارته.

دفعتُ **ماسارا** إلى ذراعي **مِمنون** وركضتُ عبر الدرج الخارجي. حاول الحرس الأحباش على البوابة تسليم أسلحتهم لي، لكنني دفعتهم جانبًا وركضت على المعبر.

رآني **تانوس** أركض ناحيته، وابتسم لي، لكن ابتسامته كانت مائلة. ثم توقف عن المشي، وانهارت قدماه تحته تدريجيًا فقعد في منتصف الجسر. نزلتُ على ركبتيَّ بجواره، ورأيتُ الشق النازف في صدارتهِ المصنوعة من جلد التمساح، فعرفتُ أن السيف قد غاص أكثر مما ظننته ممكنًا، وأن **أركون** قد غرس سنّه عبر الترس البرونزي، وعبر الصدارة الجلدية القاسية، إلى صدره.

فككتُ أربطة درعه بحرص ورفعتُ الصدارة، ثم نظرتُ وإياه إلى الجرح. كان جُرحًا نافذًا بعرض النصل تمامًا، كفمٍ صغير بشفتين حمراوين رطبتين، ثم صارت أنفاس **تانوس** ترغي على حافة الفتحة الرهيبة في طفح من فقاقيع وردية. ورغم إدراكي عمق الجرح، عجزتُ عن حمل نفسي على قولها: لا رجل يمكنه النجاة من طعنة سيف في إحدى رئتيه.

قلت: «لقد جُرحتَ»، كانت ملاحظة بلهاء، وعجزتُ عن النظر في وجهه بينما أقولها.

فأجابني بصوت خفيض: «لا يا صديقي القديم، لقد قُتلتُ».

***

شكّل **شُلك تانوس** محفّة برماحهم غطّوها ببساط من جلد الخراف، ثم حملوه بلطف وبطء إلى حصن **أدبر سجد**.

طلبتُ من الجميع الخروج بعد أن سجّيناه على سرير الملك **أركون**، وعندما خرجوا وضعتُ السيف الأزرق على السرير بجواره، فابتسم ووضع يده على المقبض الذهبي المرصع وتمتم: «لقد دفعتُ ثمن هذا الكنز غاليًا، ولكم أحب لو أحمله مرة واحدة في ساحة المعركة».

لم يكن بمقدوري منحه أي أمل أو عزاء، فهو محارب قديم رأى الكثير من جراح الرئة، لذا لا يمكنني خداعه بشأن النتيجة النهائية. ربطتُ الجرح بلبادة من الصوف وضماد كتاني، وبينما أعمل، رتلتُ رُقية إيقاف النزيف: «انسحب مني يا مخلوق **سِت**...».

لكنه كان يتوه مني. صار التقاط كل نفس من أنفاسه يحتاج جهدًا عظيمًا، وسمعتُ الدم يتحرّك في رئتيه كمخلوق مختبئ في مستنقع عميق.

فمزجتُ له جرعة من الزهرة المنوِّمة، لكنه أبى شربها، وقال لي: «سأعيش كل دقيقة من حياتي، حتى آخرها».

- أثمة شيء آخر أفعله من أجلك؟
- لقد فعلت ما فيه الكفاية بالفعل، لكن لا نهاية للمطالب التي نثقل جميعنا بها عليك.

هززتُ رأسي: «ولا نهاية لما أنا مستعد لعطائه».

- إذن فهذا آخر ما أطلبه منك، أولًا: لن تخبر **مِمنون** أبدًا أنني والده. يجب أن يؤمن دائمًا أن دماء الفرعون تجري في عروقه، فسيحتاج إلى كل ذرة قوة ليواجه المصير الذي ينتظره.
- سيفخر بأن يكون ابن دمك كما يفخر بدم أي ملك.
- أقسم لي أنك لن تخبره.

نطقت: «أقسم على ذلك»، ورقد لحظة يستجمع قوته.

- أريد منك عطيّة أخرى.
- أوافق عليها من قبل أن تسمّيها.
- اعتنِ بامرأتي التي لم تكن زوجتي قطُّ. احمها وأعنها مثلما فعلت طيلة السنوات الماضية.
- تعرف أنني سأفعل ذلك.

- أجل، أعرف، فطالما أحبَبتَها مثلما أحببتُها. اعتنِ **بلوستريس** وبأبنائنا. أضعُهم جميعًا في عهدتك.

ثم أغمض عينيه، وظننتُ أن النهاية قد اقتربت، لكن قوَّته فاقت قوة أي رجل آخر، وبعد برهةٍ فتحهما من جديد.

وقال: «أرغب في رؤية الأمير».

أجبته: «إنه ينتظر على الشرفة»، وذهبتُ إلى الباب المغلق بستارة.

وجدتُ **مِمنون** واقفًا على الطرف البعيد من الشرفة، **وماسارا** معه، قريبين من بعضهما بعضًا لكنهما غير متلامسين. كانت تعابيراتهما عابسة وصوتيهما مكتومين، ورفعا رأسيهما عندما ناديت.

جاء **مِمنون** من فوره، تاركًا البنت وحدها، ثم دخل إلى سرير **تانوس** مباشرة ووقف ينظر إليه، فابتسم **تانوس** له ابتسامة متزعزعة، وعرفتُ أي جهد كلفته.

- يا صاحب السموّ، لقد علمتك كل ما أعرفه عن الحرب، لكن لا يمكنني تعليمك شيئًا عن الحياة. يجب على كل رجل أن يتعلم ذلك بنفسه. ليس عندي شيء آخر أقوله لك قبل أن أبدأ رحلتي الجديدة هذه، إلا أنه شكرًا على نعمة معرفتك وخدمتك.

أجاب **مِمنون** بهدوء: «كنتَ لي أكثر من معلم بكثير. كنتَ الأب الذي لم أعرفه قط».

فأغمض **تانوس** عينيه، وتلوَّت تعابيره.

انحنى **مِمنون** وأخذ ذراعه بقبضة حازمة: «ليس الألم إلا عدوًا آخر نلاقيه ونغلبه، أنت من علمني ذلك يا سيد **تانوس**». ظن الأمير أن الجرح هو ما أثر فيه، لكنني عرفتُ أنه ألم كلمة «أب».

فتح **تانوس** عينيه: «شكرًا لك يا صاحب السمو. يطيب لي وجودك ومساعدتك إياي على عذابي الأخير هذا».

فنزل **مِمنون** على ركبة واحدة بجوار سريره: «نادني صديقي بدلًا من صاحب السمو»، ولم يفلت قبضته على ذراعه.

قال **تانوس**: «عندي هدية لك يا صديقي»، شوَّش الدم المتخثر في رئتي **تانوس** صوته، وراح يتلمَّس بحثًا عن مقبض السيف الأزرق الراقد على الفراش بجواره، لكن قوَّته لم تكفه ليرفعه.

فأخذ يد **مِمنون** عن ذراعه ووضعها على المقبض المرصّع هامسًا: «إنه لك الآن».

أخذ **مِمنون** السلاح: «سأذكرك كلما استللته من غمده، وسأنادي باسمك كلما لوحتُ به في ساحة معركة».

- تشرفني بذلك أيما تشريف.

نهض **مِمنون** حاملًا السلاح بيمناه، واتخذ الوقفة الاستهلالية التقليدية في منتصف الغرفة، ثم رفع النصل إلى شفتيه تحيةً للرجل الراقد على السرير.

- هكذا علمتني تنفيذها.

وبدأ تمارين السلاح التي درّبه **تانوس** عليها عندما كان طفلًا. أدى المراوغات الاثنتي عشرة، ثم الضربات والطعنات بإتقان متأنٍّ. كان النصل الفضي يدور وينقض مثل عُقاب متألّق، يصفر ويئن في الجو منيرًا عتمة الغرفة بأشعة من ضوء.

أنهاها **مِمنون** بطعنة مستقيمة، موجهةً إلى حلق عدو تخيُّلي، ثم وضع السن بين قدميه وأرخى كلتا يديه على المقبض.

أومأ **تانوس**: «لقد أحسنتَ التعلُّم، ولا شيء آخر يمكنني تعليمك إياه. رحيلي ليس مبكرًا أكثر مما يجب».

قال **مِمنون**: «سأنتظر معك».

أشار **تانوس** إشارة مُجهَدة: «لا. مصيرك ينتظرك وراء جدران هذه الغرفة المُعتمة. عليك التقدم لملاقاته من دون النظر خلفًا. سيبقى **تايتا** معي. خذ الفتاة واذهب إلى الملكة **لوستريس** وهيئها لأنباء موتي».

قال **مِمنون**: «فلترحل بسلام يا سيد **تانوس**». ما كان **مِمنون** ليهين هذه اللحظة الجليلة بجدال عقيم، بل تقدم إلى السرير وقبل شفتي أبيه، ثم استدار وخرج من الغرفة والسيف الأزرق في يده من دون أن يلقي نظرةً خلفه.

همس **تانوس**: «فلتمضِ إلى المجد يا بني»، واستدار ليواجه الحائط الحجري، فجلستُ أسفل سريره أحدق إلى الأرض الحجرية القذرة. لم أُرد رؤية رجل مثل **تانوس** يبكي.

***

أفقتُ في الليل على صوت طبول **الشلك** الخشبية الجلفة تضرب في الظلمة، وبينما أسرى وقع أصواتهم الكئيب أنشدوا مرثاتهم الوحشية - قشعريرةَ الفزع فيّ.

كان ضوء السراج قد خبا وبدأ يذوب بجوار السرير، فألقى ظلالًا بشعة على السقف أشبه بخفق أجنحة النسور ورفرفتها. مشيتُ ببطء وعلى كرهٍ إلى حيث يرقد **تانوس**، وكنتُ أعرف أن **الشلك** ليسوا مخطئين، فهم قادرون على استشعار هذه الأمور.

وجدته راقدًا كما رأيته آخر مرة، مديرًا وجهه إلى الجدار، لكن عندما لمستُ كتفه شعرت بالبرد في جلده. لقد مضت تلك الروح التي لا تُقهر في سبيلها.

فجلستُ بجواره بقية الليلة أرثيه وأنتحب مثلما يفعل **الشلك**.

وفي الفجر أرسلتُ في طلب المحنِّطين.

ما كنتُ لأسمح لأولئك الجزارين القساة بنزعِ أحشاء صديقي، لذا فتحت الشق في خاصرته اليسرى بيدي، ولم يكن شقًا طويلًا بشعًا كالذي اعتاد الحانوتيون فتحه، بل عملًا أجري بدقّة جرَّاح.

ثم سحبتُ أحشاءه منه، وارتعشتُ عندما أمسكتُ قلب **تانوس** العظيم في يديّ، كأنني لا أزال قادرًا على الشعور بكل قوّته وبطشه في تابوت اللحم هذا. أعدتُه بعد ذلك بإجلال وحُب إلى قفص أضلاعه، وأغلقت الشق في جانبه والجرح الذي أحدثه السيف الأزرق في صدره بكل ما أحوز من مهارة.

ثم أمسكتُ بالملعقة البرونزية، وأقحمتها في منخره حتى شعرتُ بها تلمس الجدار العظمي الرقيق في آخر الممر. ثقبتُ بعدئذ هذا الحاجز الواهي بوكزة قوية واحدة، وغرفتُ المادة الرخوة من تجويف جمجمته. وآنذاك، رضيتُ بتسليمه للمحنطين.

ورغم أنني لم يعُد أمامي ما أفعله، فقد انتظرتُ رفقة **تانوس** أيام التحنيط الأربعين كلها في قلعة **أدبر سجد** الباردة الكئيبة. وعندما أستذكر الأمر الآن، أدرك أنه كان ضعفًا مني، إذ لم أستطع حمل عبء حزن مولاتي عندما سمعتْ أنباء وفاة **تانوس**، وسمحتُ

لمِمنون بتولي الواجب الذي كان واجبي الشرعي. اختبأتُ مع الميت، وقتما كان ينبغي أن أكون مع الحي الذي يحتاج إليَّ أكثر. لطالما كنتُ جبانًا.

لم يكن معنا نعش نضع جثمان **تانوس** المُحنط فيه، وكنتُ سأصنع له واحدًا عندما نصل إلى الأسطول في **قيبي**، لذا جعلتُ النساء الحبشيات ينسجن

سلة طويلة له، وكان نسجها متقنًا حتى إنها ضاهت الكتان، وبإمكانها حفظ الماء كما يحفظه قدر فخار مشويّ.

***

حمله **شُلكه** في نزول الجبل. كان وزن جثمانه الجاف خفيفًا عليهم، وتقاتلوا على شرف حمله. راحوا أحيانًا يغنون أغاني حدادهم العاصفة في طريقنا المتعرجة عبر الخوانق والممرات التي تكتسحها الريح، وأحيانًا ينشدون أغاني القتال التي علمهم إياها **تانوس**.

مشيتُ بجوار نعشه طول الطريق المُنهكة. انهمرت الأمطار على القمم وأغرقتنا، وفاضت المقاطع النهرية حتى اضطررنا إلى عبورها سباحةً بالحبال. وفي الليل، كان تابوت **تانوس** القصبي يرقد بجوار سريري في خيمتي، فأكلمه بصوتٍ عالٍ في الظلمة، كأنما بمقدوره سماعي وإجابتي كالأيام الخوالي.

عندما هبطنا أخيرًا عبر الممر الأخير وصارت السهول الفسيحة أمامنا، وبينما نقترب من **قيبي**، جاءت مولاتي للقاء قافلتنا الحزينة. كانت راكبة على صفيحة القدم في العربة وراء الأمير **مِمنون**.

تقدموا باتجاهنا على الأرض العشبية، فأمرتُ حمَّالة **الشُّلك** بتسجية نعش **تانوس** القصبي تحت أغصان شجرة سنط عملاقة. ترجلت مولاتي من العربة ومضت إلى النعش، ثم وضعت يدًا عليه وحنَت رأسها في صمت.

صُدمتُ عندما رأيتُ ما جلب عليها الأسى من ويلات، إذ كان شعرها مخططًا بالشيب، وعيناها خاملتين وقد غاب البريق والسحر منهما. أدركتُ أن أيام شبابها وجمالها الرائع قد ولَّت إلى الأبد، ووقفتْ، قوامًا وحيدًا مفجوعًا، وثُكلها واضح إلى درجة لا تترك للناظر مجالًا للشك في أنها أرملة.

مشيتُ إلى جوارها لأنبهها: «مولاتي، يجب أن لا تتركي لوعتك واضحة للعيان. لا ينبغي لهم أن يعرفوا أبدًا أنه كان أكثر من مجرد صديق لك وقائد لجيوشك. من أجل ذكراه وشرفه الذي اعتزَّ به أيما اعتزاز، اكبحي دموعك».

أجابتني بهدوء: «لم تعُد عندي دموع، لقد بكيتُ حزني كله. لن يعرف الحقيقة أحد سواي وإياك».

وضعنا نعش **تانوس** القصبي المتواضع في عنبر ***أنفاس حورس***، بجوار نعش الفرعون الذهبي الفاخر، وبقيتُ بجواري مولاتي، مثلما وعدتُه،

حتى انحسرت أشد أوجاع حدادها إلى ألم أبدي خاملٍ لن يغادرها أبدًا. ثم، وبموجب أوامرها، عدتُ إلى وادي القبر لأشرف على إتمام ضريح الفرعون.

طائعًا لأمر مولاتي، اخترتُ موقعًا أبعدَ في الوادي من أجل قبر **تانوس**، ورغم أنني بذلت أفضل جهودي بما يتوفر لي من مواد وحرفيين، سيظل قبر **تانوس** كوخ فلاح بالمقارنة مع قصر الفرعون **ماموس** الجنائزي.

فقد كدح جيش من الحرفيين طيلة هذه السنوات لإتمام الجداريات البديعة التي تزين ممرات قبر الملك وحجراته، واكتظَّت مخازنه بالكنز العظيم الذي حملناه معنا من **طيبة**.

أما قبر **تانوس** فبُني على عجل، ولم يكدَّس كنوزًا في حياته التي بذلها في خدمة الدولة والتاج. رسمتُ مشاهد على الجدران تصوِّر أحداثًا من وجوده الدنيوي؛ صيده الوحوش الهائلة ومعاركه مع المدّعي الأحمر **والهكسوس**، والهجوم الأخير على حصن **أدبر سجد**. بيد أنني لم أجرؤ على عرض إنجازه الأنبل: حبه لمولاتي وصداقته المخلصة لي، فحبُ الملكة خيانة، وصداقة العبد مهانة.

عندما تمّ أخيرًا، وقفتُ وحدي في قبر **تانوس** المتواضع، حيث سيقضي الأبدية، وغمرني الغضب فجأة لأن هذا كل ما أمكنني فعله من أجله. كان في عينيَّ أكثر رجولَة من أي فرعون اعتمر التاج المزدوج على الإطلاق، التاج الذي كان بمقدوره نيله، وكان ينبغي له نيله، لكنه رفسه. كان ملكًا في نظري أكثر من أي فرعون في تاريخنا.

وآنذاك خطر لي الخاطر أول مرة. كان فاحشًا حتى إنني نفضتُه عني، فحتى التفكُر فيه بجدية خيانة فظيعة، وجرم في أعين البشر والآلهة.

لكن على مرّ الأسابيع التالية، ظل الخاطر يزحف إلى دماغي. كنتُ أدينُ **لتانوس** بالكثير الكثير، وللفرعون بالقليل القليل، وحتى لو كان الجحيم عقابي، سيكون ثمنًا منصفًا أدفعه، فقد أعطاني **تانوس** أكثر منه في حياتي.

كنتُ عاجزًا عن إنجاز الأمر وحدي، ومحتاجًا إلى المساعدة، لكن ممن يمكنني طلبها؟ لا يمكنني توريط الملكة **لوستريس** ولا الأمير، فمولاتي موثقة بالقسم الذي أقسمته للفرعون، **ومِمنون** لا يعرف أيًا من الرجلين والده الحقيقي، ولا يمكنني إخباره من دون الحنث بقسمي **لتانوس**.

في آخر الأمر لم أرَ إلا شخصًا واحدًا أحبّ **تانوس** بقدر ما أحببته تقريبًا، شخصًا لا يخاف بشرًا ولا إلهًا، ويتمتع بالقوة البدنية البهيميَّة التي تنقصني.

هدر السيد **كراتاس** ضاحكًا عندما كشفتُ له عن خطتي: «بحق مؤخرة **سِت الوَسِخَة**! لا يمكن لمخلوق غيرك أن يحلم بدسيسة كهذه. إنك لأكبر محتال على قيد الحياة يا **تايتا**، لكنني أحبك لمنحي هذه الفرصة الأخيرة لتكريم **تانوس**».

خططتُ وإياه بدقة وحذر، ووصل بي الأمر إلى أنني أرسلت إبريق خمر مخلوط بمسحوق الزهرة المنوّمة إلى الحراس على مدخل عنبر ***أنفاس حورس***.

عندما دخلتُ **وكراتاس** أخيرًا عنبر السفينة حيث يرقد النعشان، تذبذبت عزيمتي. شعرتُ أن ***كا*** الفرعون **ماموس** تراقبني من الظلال وأن روحه الحاقدة ستتبعني طيلة حياتي ساعيةً إلى الثأر لهذا التدنيس.

أما **كراتاس** الضخم الجريء فلم تساوره هواجس مشابهة، وبينما شرع بالعمل بهمَّة حملتني على تنبيهه عدة مرات في خلال الليل إلى الضجيج الذي يحدثه فتحنا الأغطية الذهبية للنعش الملكي وأخرجنا مومياء الملك.

كان **تانوس** أضخم من الفرعون، لكن لحسن حظنا، ترك لنا صنّاع النعش بعض المساحة، وتقلص جثمان **تانوس** بفعل التحنيط. ورغم ذلك، أُلزمنا بفكّ عدة طبقات من أغطيته حتى اتسع له النعش الذهبي العظيم اتساعًا مريحًا.

تمتمتُ اعتذارًا للفرعون **ماموس** في حين نضعه في النعش الخشبي المتواضع الذي رُسمت على خارجه صورة **أسد مصر العظيم**، وظلَّت فيه مساحة زائدة، فملأناها بالرباطات الكتانية التي فككناها عن **تانوس**.

***

بعد أن انقضت الأمطار وعاد الفصل البارد، أمرت مولاتي الطابور الجنائزي بترك **قيبي** والانطلاق إلى وادي القبر.

قادتنا فرقة العربات الأولى برئاسة الأمير **مِمنون**، وتبعها خمسون عربة نقل محملة بكنز الفرعون **ماموس** الجنائزي. ركبت الأرملة الملكية، الملكة **لوستريس**، في الشاحنة حاملة النعش الذهبي، وفرحتُ لرؤيتها تخوض هذه الرحلة الأخيرة رفقة الرجل الذي أحبّته، وإن كانت تحسبه رجلًا آخر. رأيتها تنظر خلفًا أكثر من مرة إلى نهاية القافلة الطويلة التي تزحف بشديد الكآبة عبر السهول، تفصل بين رأسها وذيلها خمسة أميال.

سار فوج من **الشلك** في أعقاب الشاحنة حاملة النعش الخشبي الأخف وزنًا، ووصلت أصواتهم الرائعة بوضوح إلينا في مقدمة الطابور بينما يغنون الوداع الأخير. وعرفتُ أن **تانوس** سيسمعهم ويعرف لمن كانوا يغنون.

***

عندما وصلنا إلى وادي القبر أخيرًا، وُضع النعش الذهبي تحت خيمة أمام مدخل المرقد الملكي سقفها مُضاء بنصوص ورسوم من سفر الموتى.

أُقيمت جنازتان منفصلتان، كانت أولاهما الأقل شأنًا، جنازة **أسد مصر العظيم**، أما الثانية فستكون الجنازة الملكية الأعظم والأكثر استفاضة.

لذا بعد ثلاثة أيام من وصولنا إلى الوادي، وُضع النعش الخشبي في القبر الذي أعددتُه **لتانوس**، ثم قدَّس كهنة **حورس**، راعي **تانوس**، القبر وأغلقوه.

في خلال هذه الطقوس، تمكنت مولاتي من كبح حزنها، ولم تظهر إلا الأسى المُوقّر الذي تكنّه ملكة لخادم مخلص، رغم معرفتي أن في داخلها شيئًا يموت ولن يولد من جديد.

ظل الوادي طيلة تلك الليلة يرجّع أصوات فوج **الشلك** في رثائهم الرجل الذي صار أحد آلهتهم، وما زالوا حتى اليوم يصيحون باسمه في المعارك.

بعد عشرة أيام من الجنازة الأولى، وُضع النعش الذهبي على مزلجته الخشبية وجُر إلى القبر الملكي الواسع. تطلب تمرير النعش في الممرات الضيقة جهود ثلاثمئة عبد، فقد صممتُ القبر بدقة حتى إنني لم أترُك إلا عرض يدٍ بين جانبي النعش وغطائه والجدران والسقف.

لإحباط لصوص القبور وأي شخص تسول له نفسه تدنيس القبر الملكي، صممتُ متاهة من الأنفاق تحت الجبل، فمن مدخل واجهة الجرف، يقود طريق واسع إلى قبوٍ دفني مذهل مُزيّن بجداريات بديعة، وفي وسط هذه الغرفة، ينتصب ناووس جرانيتي فارغ أُزيل غطاؤه وأُلقي جانبًا بطريقة مسرحية، حتى يظن أول لص يدخل الغرفة أن شخصًا ما نهب القبر قبله.

وفي الحقيقة، ثمة نفق آخر يقود بزاوية قائمة من مدخل الممر، مُوِّه مدخله ليبدو غرفة تخزين للكنز الجنائزي، وكان علينا إمالة النعش وإدخاله على مهل إلى هذا الممر الثانوي، ومن هناك، يدخل متاهة من ممرات كاذبة وأقبية دفنية مُزوَّرة، كل منها أكثر تعرجًا ومُراوغة من سابقه.

كانت أربع غرف دفنية بالمحصلة، لكن ثلاثًا منها ظلت فارغة إلى لأبد، وثلاثة أبواب سرية، وقناتين عموديتين رفعنا النعش عبر إحداهما وأنزلناه عبر الأخرى.

استغرقنا خمسة عشر يومًا حتى مرّرنا النعش ببطء عبر هذه المتاهة ونصبناه في مرقده الأخير، وكنتُ قد رسمتُ على جدران القبر وسقفه بكل ما منحتني الآلهة من مهارة وعبقرية حتى لم يبق من مساحتها قيد إصبع لا يتأجج ألوانًا وحركة.

أحاطت بالحجرة خمس غرف تخزين اكتظّت بالكنز الذي جمعه الفرعون **ماموس** طيلة حياته، والذي اقترب من إفقار مصرنا. جادلتُ مولاتي في أن هذا الكنز، بدلًا من دفنه في الأرض، يجب استغلاله لتمويل الجيش والكفاح الذي ينتظرنا في جهودنا لطرد الطاغية **الهكسوس** وتحرير شعبنا وأرضنا.

وأجابتني: «الكنز ملك للفرعون، وقد جمعنا كنزًا آخر يكفينا من الذهب والعبيد والعاج هنا في **كوش**. دع **ماموس** الإلهيّ يحظى بما هو ملكه، لقد أقسمتُ له على ذلك».

وهكذا، في اليوم الخامس عشر، وُضع النعش الذهبي في الناووس الحجري الذي اقتُطع من صخرية محلية، بعد أن استخدمنا جُملةً من حبال ورافعات حتى رفعنا غطاءه الثقيل وأنزلناه مرة أخرى في مكانه.

ثم دخلت العائلة الملكية والكهنة والنبلاء القبر ليؤدوا الطقوس الأخيرة.

وقفت مولاتي والأمير عند رأس الناووس بينما أخذ الكهنة يثرثرون رُقياتهم وتلاواتهم من ***سفر الموتى***، وأفسد دخان السُّرُج المُسخَّم وأنفاس الجمع في المساحة الضيّقة الهواء حتى شقَّ تنفُّسه.

رأيتُ وجه مولاتي يشحب في الضوء الأصفر الخافت، وقطيرات العرق تتجمع على جبهتها، فبينما تترنح وتتهاوى لأمسك بها قبل أن يصطدم رأسها بحافة الناووس الجرانيتية شققتُ طريقي بين الصفوف المتراصة ووصلتُ إلى جوارها.

حملناها على محفَّة إلى خارج المقبرة، واستردت عافيتها بسرعة في هواء الجبل العليل، لكنني ألزمتها بسريرها في الخيمة لبقية اليوم رغم ذلك.

بينما أعدّ لها شربةً مقوية من الأعشاب استلقتْ في تلك الليلة بهدوء تفكُر، وبعد أن شربَت المزيج همست لي: «لقد انتابني إحساس عجيب أشد

ما يكون. حين وقفتُ في مقبرة الفرعون، شعرتُ فجأة أن **تانوس** قريب جدًا مني. شعرتُ بيده تلمس وجهي، وصوته يغمغم في أذني، وآنذاك أغمي علي».

قلت لها: «سيظل قريبًا منك دائمًا».

قالت ببساطة: «أومن بذلك».

أدرك الآن، رغم أنني لم أدرك قبلًا، أن تدهورها بدأ يوم سجينا **تانوس** في قبره، وفقدت بهجة الحياة والرغبة في الاستمرار.

***

عدتُ إلى المقبرة الملكية في اليوم التالي رفقة البنَّائين وجماعة العمال العبيد لإغلاق البوابات والقنوات وإعداد المكايد التي ستحرس حجرة المدفن.

وبينما نتراجع عبر متاهة الممرات، سددنا البوابات السرية بأحجار وجص صففناها ببراعة ومكر، ورسمت جداريات عليها، ثم أغلقنا أفواه الأقنية العمودية حتى بدَت أراضي وأسقفًا مستوية.

أعددتُ انزلاقات صخرية تُطلقها دعسة على بلاطة رصف سائبة، وملأت القنوات العمودية بعارضات من خشب. وعندما تحلل هذه العارضات مع مرور القرون وتلتهمها الفطور، تبعث أبخرة سامة تخنق أي متطفل ينجح في إيجاد هذه البوابات السرية.

لكن قبل أن نفعل ذلك كله، ذهبتُ إلى حجرة المدفن الفعلية لأودّع **تانوس**. أخذتُ معي صرةً طويلة ملفوفة بملاءة كتانية، وعندما وقفتُ بجوار الناووس الملكي آخر مرة، أبعدتُ العمال جميعهم لأكون آخر شخص يغادر المقبرة، ويُغلق المدخل من خلفي.

عندما صرتُ وحدي، فتحتُ الصرة التي أحملها، وأخرجتُ منها قوسه الطويلة **لاناتا**. كان **تانوس** قد سمَّاها تيمنًا بمولاتي، وأنا من صنعتها له، لذا كان هدية أخيرة من كلينا، ووضعتها على غطاء نعشه الحجري المغلق.

حملتْ صرتي غرضًا آخر، تمثال **أوشبتي** خشبي كنتُ قد نحتتُه، ووضعتُه أسفل الناووس. حينما كنتُ أعمل على نحته، أحطتُ نفسي بثلاث مرايا نحاسية حتى أدرس ملامحي من كل الزوايا وأُعيد إنتاجها بأمانة، إذ كانت الدمية **تايتا** مصغرًا.

نقشتُ على قاعدته: «اسمي **تايتا**. أنا طبيب وشاعر. أنا معماري وفيلسوف. أنا صديقك. وسأتحمل عاقبة أعمالك».

وبينما أغادر المقبرة، توقفتُ قليلًا عند المدخل وألقيتُ نظرة أخيرة.

- الوداع يا صديقي القديم. لقد زادتني معرفتك ثراءً. انتظرنا على الجانب الآخر.

***

استغرقني إتمام الأعمال في المقبرة الملكية شهورًا طويلة، وبينما نتراجع عبر المتاهة، تفحصتُ شخصيًّا كل باب مُغلق وكل أداة سرية تركناها خلفنا.

كنتُ وحدي، فقد صعدت مولاتي والأمير إلى حصن **الكاهن يوحنا** في الجبال. ذهبوا رفقة حاشية البلاط كلها للتجهيز لزفاف **مِمنون وماسارا**، ورافقهم **هُوي** لاختيار الخيول الحبشية التي اتفقنا عليها جزءًا من ثمن اقتحامنا **أدبر سجد** واستعادة **ماسارا**.

عندما تمَّ عملي أخيرًا في المقبرة وأغلق عمالي المدخل الخارجي في واجهة الجرف، اتجهتُ إلى الجبال كذلك، عبر تلك الممرات الباردة التي تعصف بها الرياح. كنتُ قلقًا أن تفوتني وليمة الزفاف، إذ إنني غادرتُ متأخرًا، فقد استغرق إتمام المقبرة وقتًا أطول مما خططتُ، لذا انطلقتُ مسافرًا بأقصى استطاعة الخيول.

وصلتُ إلى قصر **الكاهن يوحنا** قبل الزفاف بخمسة أيام، وذهبتُ من فوري إلى حيث تسكن مولاتي وحاشيتها في الحصن.

حيّتني قائلة: «لم أبتسم منذ رأيتك آخر مرة يا **تايتا**. غنِّ لي. احكِ لي قصصك. أضحِكني».

ولم تكُن مهمة سهلة تلك التي أعدَّتها لي، فقد تغلغلت الكآبة في عمق روحها، والحقيقة أنني نفسي لم أكُن مبتهجًا ولا خليّ القلب. شعرتُ أن ثمة ما هو أكثر من الأسى وحده يثقل قلبها، وسرعان ما هجرنا محاولات المرح وانهمكنا في مناقشة شؤون الدولة.

لعله كان وئام حب، ولقاء روحين توءمتين باركته الآلهة من حيث العاشقين، أما لبقيتنا، فكان زواج **مِمنون وماسارا** زفافًا ملكيًّا وعقدًا بين أمتين، فثمة اتفاقيات ومعاهدات يجب التفاوض عليها، ومُهُور يجب الاتفاق عليها، واتفاقيات تجارية يجب توقيعها بين ملك الملوك وحاكم **أكسوم**، والوصية على مصر معتمرة تاج المملكتين المزدوج.

ومثلما توقعت، لم تكُن مولاتي مولعة بفكرة زواج ابنها الوحيد من بنتِ عِرقٍ مختلف.

- إنهم مختلفون في كل شيء يا **تايتا**؛ الآلهة التي يعبدون، واللغة التي ينطقون، ولون بشرتهم... أوه كم أتمنى لو أنه اختار بنتًا من شعبنا!

فطمأنتها: «سيفعل. سيتزوج خمسين، وربما مئة مصرية. سيتزوج كذلك **ليبيات وحوريات وهكسوسيات**. ستمنحه كل الأعراق والأمم التي يقهرها في السنوات القادمة زوجات، **كوشيات وحيثيات وآشوريات**...».

دقت الأرض بقدمها بشيء من انفعالها القديم: «كفّ عن معابثتك يا **تايتا**. أنت تعرف حق المعرفة ما أعنيه. ستكون تلك الزيجات سياسية، أما هذه، الأولى، فزيجة قلبين».

وكان كلامها صحيحًا، فعهد الحب الذي قطعه **مِمنون وماسارا** في تلك اللحظات العابرة بجوار النهر يزهر الآن.

تلقيتُ امتيازًا خاصًا بأن أكون معهما في هذه الأيام المُبهجة. كان كلاهما معترفًا بدوري في جمع شملهما وممتنًا له، وكنتُ لكليهما صديقًا قديم العهد، شخصًا يثقان به ثقة لا ريب فيها.

لم أشارك مولاتي هواجسها، فرغم أنهما مختلفان في كل منحى ذكرتْه، كان قلباهما مقدودين من الطينة نفسها. كلاهما يتمتع بحسّ الإخلاص، وضراوة الروح، ومسحة من القسوة والوحشية التي لا بدَّ للحاكم منها. كانا زوجًا متوائمًا، هو الصقر وهي أنثاه، وعرفتُ أنها لن تشتته عن قدره، بل ستشجعه وتحثه على مسعاه الأعظم، ورضيت عن جهودي التي بذلتها في تحقيق هذا الوفاق.

وذات يوم جبلي مشمس، تحت أنظار عشرين ألف رجل وامرأة من الحبشة ومصر ملؤوا الجروف والتلال، وقف **مِمنون وماسارا** معًا على ضفة النهر وكسرا جرة الماء التي غرفها كاهن **أوزيريس** الأعلى من النيل الرضيع.

ثم قادت العروس والعريس قافلتنا من الجبال، محمَّلة بمهر الأميرة ومعاهدات واتفاقيات التناسب التي خُتمت بين الأمَّتين.

وقاد **هُوي** وساسته قطيعًا من خمسة آلاف حصان من ورائنا، بعضه أجر لخدماتنا، والبقية تتمة صداق **ماسارا**. غير أننا، وقبل أن نبلغ ملتقى النهرين في **قيبي**، رأينا بقعة داكنة على السهل أمامنا كأن غيمة قد ألقت بظلالها فوق العشب، لكن الشمس كانت ساطعة في سماء لا غيم فيها.

عادت قطعان **الغنو** في هجرتها السنوية.

وفي غضون أسابيع من لقائنا هذا **بالغنو**، انقض **الخانق الأصفر** على قطيع خيولنا الحبشية واكتسحه كما يكتسح فيضان خاطف وديان الجبال الشاهقة.

بطبيعة الحال، كنتُ **وهُوي** نتوقع أن يضرب الوباء ضربته عند عودة **الغنو**، وأعددنا عدتنا، فدربنا كل سائس وسائق على إجراء عملية شق الرغامى، ومعالجة الجرح بالقار الساخن لمنع الغنغرينا ريثما يتعافى الحيوان من الخانق.

لم يتمتع أيُنا بكثير النوم لأسابيع عديدة، لكن في آخر الأمر، نفق أقل من ألفين من خيولنا الجديدة بفعل الوباء، وقبل فيضان النيل التالي، كان الناجون أقوياء بما يكفي لبدء التدريبات في سيور العربات.

***

عندما حل الفيضان، قدم الكهنة أضحياتهم على ضفتي النهر، كلٌ لإلهه، واستشاروا نذائر الكهانة بخصوص العام القادم. بعضهم استشار أمعاء خروف أضحية، وآخرون راقبوا طيران الطيور البرية، وغيرهم حدق إلى أوانٍ مُلئت من مياه النيل، وأخذوا يتكهنون كلٌ بطريقته الخاصة.

قدمت الملكة **لوستريس** أضحيتها **لحابي**، ورغم أنني حضرتُ العمل وشاركت الحشد في الشعيرة والإجابات، كان قلبي في مكان آخر. فأنا من رجال **حورس**، وكذا السيد **كراتاس** والأمير **مِمنون**، لذا قدمنا أضحيات من الذهب والعاج لإلهنا ودعوناه أن يرشدنا.

ليس من عادة الآلهة أن يتفقوا إلا مثلما يتفق البشر، بيد أن هذا العام كان مختلفًا عن أي عام عرفته، فباستثناء الإلهين **أنوبيس وتحوت** والإلهة **نوت**، نطقت الأكثرية السماوية بصوت واحد. كان هؤلاء الثلاثة، **أنوبيس وتحوت ونوت**، من الآلهة أقل شأنًا، ويمكن إهمال مشورتهم بلا خوف، أما الآلهة العظام جميعهم، **آمون رع وأوزيريس وحورس وحابي وإيزيس** ومئتين غيرهم، من آلهة عظيمة وبسيطة، فأجمعت على المشورة نفسها: «آن أوان العودة إلى الأرض السوداء المقدسة **كيميت**».

ألمح السيد **كراتاس**، الذي كان وثنيًا في قلبه وانتقاديًا بطبيعته، إلى أن الكهانة كلها تآمرت لتلقن آلهتها الراعية هذه الكلمات، ورغم أنني أظهرتُ استياء مصدومًا إزاء هذا التجديف، كنتُ في سري ميالًا إلى الاتفاق مع رأيه.

الكهنة رجال هشّون مترفون، وقد عشنا لما يقارب عقدين من الزمن عيشة الجوالين والمحاربين الصعبة في براري **كوش**. لذا أظن أنهم كانوا يتوقون إلى **طيبة** البهيَّة أكثر من مولاتي حتى، ولعل البشر هم من أعطوا مشورتهم بالعودة شمالًا، لا الآلهة.

عقدت مولاتي مجلس الدولة الأعلى، وحينما أعلنت القرار الذي يؤيد تعليمات الآلهة، وقف النبلاء والكهنة وهللوا لها دون استثناء. هللتُ بصوتٍ عالٍ مثلهم، وفي تلك الليلة، امتلأت أحلامي برؤى عن **طيبة**، وصور لتلك الأيام السحيقة وقتما كنت **وتانوس ولوستريس** صغارًا وسعداء.

***

لم يتسلّم أحد القيادة العليا للجيوش بعد وفاة **تانوس**، واجتمع المجلس الحربي اجتماعًا سريًّا استُبعدتُ منه بالطبع، لكن مولاتي أعادت عليَّ كل كلمة نُطقت.

عُرض المنصب بعد نقاش وجدال طويل على **كراتاس**، فوقف أمامهم، أشهب تملؤه الندوب كأسد عجوز، وضحك ضحكته المجلجلة المميزة ثم قال: «أنا جنديّ، أتبعُ، لا أقود. سلموني قيادة **الشُلك**، وسأتبع رجلًا واحدًا إلى حدود الموت وما بعدها (ثم استل سيفه وأشار به إلى الأمير)، هذا هو الرجل الذي سأتبعه. حيُّوا **مِمنون**! فليعِش أبدًا».

صاحوا: «فليعِش أبدًا!»، وابتسمت مولاتي، فقد رتبتُ وإياها هذه النتيجة بالضبط.

رُقي الأمير **مِمنون** بعُمر الثانية والعشرين إلى رتبة **أسد مصر العظيم** وقائد جيوشها، وبدأ من فوره التخطيط لرحلة العودة.

ورغم أن رتبتي ليست إلا سيد الخيول الملكية، كنتُ ضمن طاقم الأمير، وغالبًا ما كان يسألني عن حل المشكلات اللوجستية التي تواجهنا. وفي النهار، بينما يتفقد الأفواج ويقودها في التدريبات الحربية أقود عربته ورايتها الزرقاء ترفرف فوق رأسينا.

سهرت **وكراتاس** والأمير ليلات كثيرة حتى وقت متأخر على إبريق خمر نتناقش في العودة، وفي تلك الليال، كانت الأميرة **ماسارا** تقوم على خدمتنا، فتملأ كؤوسنا بيدها السمراء الرشيقة، ثم تجلس على وسادة من جلد الخروف عند قدمي **مِمنون** تنصت لكل كلمة، وتبتسم لي كلما تلاقت أعيننا.

كان همنا الأكبر أن نتفادى العبور الخطر والمُنهك للجنادل في طريق هبوطنا النهر، وهذه الجنادل لا يمكن الملاحة عبرها إلا في موسم الفيضان، ما يحد الفترات التي يمكننا السفر فيها.

اقترحتُ أن نبني أسطولًا آخر من العبَّارات أسفل الجندل الخامس ننقل عليها جيشنا إلى نقطة الانطلاق في المعبر الصحراوي للمنعطف العظيم، وعندما نعود إلى النهر فوق الجندل الأول، نبني سربًا آخر من القوادس المقاتلة السريعة والعبَّارات لتحملنا إلى **إلفنتين**.

كنتُ متأكدًا أننا إذا ما وقّتنا حركتنا توقيتًا سليمًا، وتمكننا من عبور المنحدرات ومفاجأة أسطول **الهكسوس** الراسي في مرسى **إلفنتين**، فسنكبّد العدو ضربة أليمة ونستولي على القوادس التي نحتاج إليها لتعزيز قوتنا من السفن المقاتلة. وحالما نؤمّن موطئ قدم، يمكننا جلب مشاتنا وعرباتنا عبر خانق الجندل الأول والاشتباك مع **الهكسوس** على سهول مصر الفيضية.

بدأنا المرحلة الأولى من العودة في موسم الفيضان التالي، فلم نترك في **قيبي**، التي كانت مقرنا الأساسي لسنوات طويلة، إلا قوة حامية، ذلك أن **قيبي** ستصير مجرد نقطة تجارة خارجية للإمبراطورية، وستتدفق ثروات **كوش** والحبشة جنوبًا إلى **طيبة** عبر مرفأ التخزين هذا.

عندما أبحر الأسطول الرئيس إلى الجنوب، بقيتُ **وهُوي** وخمسمئة سائس وسرب من العربات في الخلف ننتظر هجرة **الغنو**. وجاءت فجأة كعادتها، بقعة سوداء شاسعة تمتد على الأراضي العشبية الذهبية، فمضينا لنلاقيها بالعربات.

كان أسر هذه البهائم الخرقاء مسألة بسيطة، إذ كنا نطاردها بالعربات حتى تتعب، ثم نرمي أنشوطة حول رؤوسها البشعة بينما نركض بجوارها. وكانت تفتقر إلى سرعة الخيول وروحها، فتصارع الحبال قليلًا ثم تسلم نفسها للأسر، لذا حبسنا في غضون عشرة أيام أكثر من ستة آلاف منها في الزرائب التي بنيناها على ضفة النيل لهذا الغرض.

وفي هذه الزرائب ظهر افتقارها للطاقة والقوة أوضح ظهور، إذ أخذت تموت بالمئات من دون سبب أو مبرر، فقد عاملناها بلطف ورفق، وأطعمناها وسقيناها كما نطعم ونسقي خيولنا، لكن كأنما أرواحها البرية الجوالة تأبى التقييد، وذابت أجسادها شيئًا فشيئًا.

خسرنا في النهاية أكثر من نصف ما أسرناه، ومات الكثير غيرها في رحلتنا الطويلة إلى الشمال.

***

بعد عامين كاملين من أمر الملكة **لوستريس** بالعودة، اجتمع شعبنا على الضفة الشرقية للنيل فوق الجندل الرابع، وامتدت أمامنا الطريق الصحراوية عبر منعطف النهر العظيم.

طيلة العام الماضي، كانت قوافل الشاحنات تنطلق من هنا، كل منها محملة بجرار فخارية ملأى حتى حافتها بمياه النيل ومختومة بسدادات خشبية وقار ساخن. أعددنا محطة سقاية كل عشرة أميال على الطريق الترابية، وفي كل منها طمرنا ثلاثين ألف جرة لئلا تتصدع وتتكسر تحت أشعة الشمس الضارية.

كنا خمسين ألف نَفْسٍ تقريبًا ومثلها من الحيوانات، بما في ذلك قطيعي الذاوي من **الغنو** الأسيرة، وكانت شاحنات الماء تنطلق من النهر كل عشية بمهمة لا تنتهي.

انتظرنا على ضفة النهر بزوغ الهلال ليضيء طريقنا في البرية. ورغم أننا خططنا لرحلتنا في أبرد مواسم العام، تظل الحرارة والشمس قاتلة للإنسان والحيوان، لذا لا يمكننا الارتحال إلا ليلًا.

قبل يومين من ميعاد بدء العبور، قالت مولاتي: «متى كانت آخر مرة قضينا فيها أنا وأنت يومًا نصيد في النهر يا **تايتا**؟ جهّز رماح صيدك وأعدّ لنا زورقًا».

وعرفتُ أن لديها شيئًا بالغ الأهمية ترغب بمناقشته معي. انجرفنا على المياه الخضراء حتى تمكنتُ من ربط الزورق بشجرة صفصاف على الضفة البعيدة، حيث لا تسمعنا آذان الفضوليين.

تكلمنا أولًا عن خطر الترحال المُحدق على الطريق الصحراوية، واحتمالات العودة إلى **طيبة**.

ثم تنهدت مولاتي قائلة: «متى سأرى أسوارها اللامعة ثانية يا **تايتا**؟» ولم يسعني إلا أن أقول لها إنني لا أعرف.

- إذا ما تلطفت الآلهة بنا، فقد نكون في **إلفنتين** بحلول هذا الوقت من الموسم القادم حينما يحمل فيضان النيل سفننا عبر الجندل الأول. وبعد ذلك، تنحسر حظوظنا وتفيض مثل النهر بأخطار الحرب وأقدارها.

لكن هذا ليس ما جاءت بي إلى النهر لمناقشته، إذ امتلأت عيناها بالدموع وهي تسألني: «كم مضى على غياب **تانوس** عنا يا **تايتا**؟».

غصّ صوتي وأنا أجيبها: «لقد بدأ رحلته إلى حقول الفردوس منذ أكثر من ثلاث سنوات يا مولاتي».

فقالت متفكِّرة: «إذن فقد كانت آخر مرة نمت فيها بين ذراعيه قبل ذلك بمدة طويلة»، وأومأتُ. لم أكُن واثقًا بالاتجاه الذي ستقودنا أسئلتها إليه.

- لقد حلمتُ به كل ليلة تقريبًا مذ ذاك يا **تايتا**، أمن الممكن أنه عاد ليترك بذرته في رحمي وأنا نائمة؟

أجبتها بحذر: «كل شيء ممكن في السماء. لقد أخبرنا الناس أنك حبلتِ **بتحوت وبيكاثا** بهذه الطريقة، بيد أنني، بكل صدق وجدية، لم أسمع بحدوث ذلك من قبل».

صمت كلانا لبرهة، وأخذتْ تمرر يدها في الماء وترفعها لتراقب القطرات تقطر من رؤوس أصابعها. ثم نطقت ثانية من دون أن تنظر إليَّ هامسةً: «أظن أنني سأنجب طفلًا آخر. لقد تلاشى قمري الأحمر وذوى».

أجبتها بهدوء يصحبه التأدب: «مولاتي، إنك تقتربين من السنِّ التي تبدأ فيها أنهار رحمك بالجفاف». فنساؤنا المصريات كأزهار الصحراء التي تُزهر مُبكرًا لكنها تذبل بالسرعة نفسها.

هزَّت رأسها: «لا يا **تايتا**. ليس ذلك. أشعرُ بالجنين ينمو داخلي».

حدقتُ إليها في صمت، ومرة أخرى، شعرتُ بأجنحة المأساة تعبرني بخفَّة، مثيرة الهواء ومقشعرة شعر ساعديَّ.

قالت: «لست مضطرًا إلى سؤالي عمًا إن كنتُ قد عرفتُ رجلًا آخر (وهذه المرة نظرت في عينيَّ مباشرة وهي تتكلم)، فأنت تعرفُ أنني لم أفعل».

- أعرف ذلك حق المعرفة، وبالرغم من معرفتي هذه، لا يمكنني تصديق أن شبحًا أحبلكِ، مهما كان ذلك الشبح محبوبًا ومُرحبًا به. لعل رغبتك بطفل آخر قد أنسلَتْ مخيّلتك.

فأمرتني: «تحسس رحمي يا **تايتا**، ثمة شيء ينمو فيه، ويكبر كل يوم».

- سأفعل ذلك الليلة، على انفراد في مقصورتك، لا هنا على النهر حيث قد تكتشفنا الأعين الفضولية.

***

استلقت مولاتي عارية على الملاءة الكتانية، وعاينتُ وجهها أولًا ثم جسدها. عندما نظرتُ إليها بعيني رجل، رأيتها جميلة لم تزل، لكن عيني الطبيب رأتا بوضوح كيف عملت السنون ومشقات الحياة في البرية عملها القاسي، فصار فضيُّ شعرها أكثر من أسوده، ونحت الثُّكل وأعباء الوصاية رسالتها الجهماء على جبهتها. بدأت علامات التقدم في السن تظهر عليها.

كان جسدها الوعاء الذي منح الحياة لثلاثة أنفُس أخرى، لكن نهديها فارغان الآن، لا يملؤهما حليب حمل جديد، وكانت نحيلة نحولًا غير طبيعي وجب عليَّ ملاحظته قبلًا، نحولًا يكاد يكون ضُمورًا، لكن بطنها ناتئة رغم ذلك ككرة عاجية شاحبة غير متناسبة مع تلك الذراعين والساقين الهزيلة.

وضعتُ يدي على بطنها، على الخطوط الفضية حيث تمدد الجلد ذات يوم ليتسع لحمل مُبهج، ثم تحسستُ الشيء بداخلها وعرفتُ من فوري أن ما تحت أصابعي ليس حياةً، بل هو الموت.

لم أجد كلمات أقولها. أشحتُ بوجهي عنها وخرجتُ إلى متن السفينة أنظر إلى نجوم الليل. كانت باردة وبعيدة جدًا، وكالآلهة، ليست تهتم، فلا فائدة تُرجى من التوسل إليها، لا الآلهة ولا النجوم.

عرفتُ ما ينمو داخل مولاتي. كنتُ قد شعرتُ به في أجساد نساء أخريات، وعندما توفين، فتحت أرحامهن الميتة ورأيت هذا الشيء الذي قتلهنَّ. كان فظيعًا ودميمًا، لا يشبه أي شيء بشري أو حتى حيواني؛ كتلة بشعة من لحم أحمر ساخط، مخلوق من مخلوقات سِت.

مرَّ وقت طويل قبل أن أتمكن من استجماع شجاعتي لأرجع إلى المقصورة.

كانت مولاتي قد سترت نفسها بثوب، وجلست في منتصف السرير تنظر إليَّ بتَيْنِك العينين الكبيرتين الخضراوين الداكنتين اللتين لم تكبرا قط، فبدَت كالبنت الصغيرة التي عرفتها ذات يوم.

سألتها برفق: «مولاتي، لمَ لم تخبريني بألمك؟».

أجابتني هامسة: «ما أدراك بالألم؟ لقد حاولتُ إخفاءه عنك».

***

انطلقت قافلتنا إلى الصحراء، مسافرةً على ضوء القمر الساطع فوق الرمال الفضية. أحيانًا كانت مولاتي تمشي بجواري، والأميرتان تتقافزان راقصتين من حولنا في حين تضحكان وقد ملأتهما المغامرة حماسة، وأحيانًا أخرى، حينما يشتد الألم، كانت تركب في العربة التي جهّزتها لها بوسائل الراحة، وأجلس بجوارها ممسكًا يدها حتى يُعمل مسحوق الزهرة المنوّمة سحره ويمنحها السكينة.

كنا نسافر كل ليلة إلى محطة السقاية التالية فقط على الطريق التي مهّدتها آلاف المركبات التي سبقتنا، وفي النهارات الطويلة، نرقد تحت ظُلات الشاحنات ويأخذنا النعاس في الحرّ القائظ.

وكنا قد سافرنا ثلاثين يومًا وليلة على الطريق عندما رأينا عند الفجر مشهدًا عجيبًا: شراع منفصل فوق الصحراء يتحرك برفق على الرمال باتجاه الجنوب. قطعنا أميالًا عديدة مزيدة حتى أدركنا كيف خُدعنا، فقد حجبت ضفة النيل بدن القادس عنا، وأسفل الكثبان، كان النهر مستمرًا في سيره الأزلي. لقد عبرنا الدائرة.

استقبلَنا الأمير **مِمنون** وطاقمه كله هناك. كان تجهيز سرب القوادس الجديد قد تم تقريبًا، وما لمحناه عند اقترابنا من النهر هو شراع أحدها، فقد قُص كل لوح وصارية ونُشرت على سهول **كوش** العظيمة، ثم نُقلت عبر دائرة النهر، ورُكّبت العربات جميعها. وكان **هُوي** قد قاد الخيول كلها عبر الصحراء، وحملت الشاحنات علفها، وحتى **الغنو** كانت تنتظرني في زرائبها على ضفة النهر.

ورغم أن قوافل الشاحنات التي تحمل النساء والأطفال لم تصل بعد، فقد عبر الحشد الرئيس من شعبنا بالفعل. كان إجراءً يكاد يتحدى التصديق، عملًا شبيهًا بأعمال الآلهة. ولا يمكن إلا لرجال من صنف **كراتاس ورِمرِم ومِمنون** إنجازه في وقت قصير كهذا.

والآن، لم يعد يفصل بيننا وبين أرض مصرنا المقدسة إلا الجندل الأول.

مضينا شمالًا مرة أخرى. أبحرت مولاتي في الصندل الجديد الذي صممته لها وللأميرتين، وكنتُ قد وضعت فيه مقصورة ضخمة ومهوّاة جهزتها بكل وسائل الرفاهية المتاحة لنا، فكانت الستائر من صوف حبشي موشًى، والأثاث من خشب سنط داكن مُطعّم بعاج كوش وذهبها، والجدران الفاصلة مزينة برسومات أزهار وطيور وأشياء جميلة أخرى.

عدتُ أنام أسفل سرير مولاتي كما جرت العادة، وبعد ثلاث ليال من إبحارنا، أفقتُ في الليل ووجدتها تنتحب بصمت. أيقظني ارتعاش كتفيها رغم أنها خنقت نشيجها بمخدتها، فذهبتُ إليها من فوري.

وسألتها: «أهاجمك الألم من جديد؟».

- لم أقصد إيقاظك، لكنه كالسيف في بطني.

مزجتُ لها شربة من الزهرة المنومة، أقوى من أي شيء أعطيتها إياه قبلًا، ذلك أن الألم قد بدأ يتغلب على الزهرة.

فشربتها ورقدت بهدوء لبعض الوقت، ثم قالت: «ألا يمكنك استئصال هذا الشيء من جسدي يا **تايتا**؟».

- لا يا مولاتي، لا يمكنني.

- إذن ضُمَّني يا **تايتا**، ضُمَّني مثلما كنت تفعل وأنا صغيرة.

ذهبتُ إلى سريرها وأخذتها بين ذراعي. احتضنتها، وكانت نحيلة وخفيفة كطفلة، ثم هززتها بعطف حتى غطت في النوم بعد قليل.

***

وصل الأسطول إلى رأس الجندل الأول فوق **إلفنتين**، ورسونا على الضفة عند تيار النهر الهادئ، قبل أن يشعر النيل بالشلالات المستعجلة ويندفع إلى الخانق.

انتظرنا أن تنقل العبَّارات بقية الجيش إلينا؛ الخيول والعربات وأفواج **شُلك** السيد **كراتاس** الوثنيين، وانتظرنا كذلك أن يرتفع النيل ويفتح الجندل لنعبره إلى مصر.

وبينما ننتظر، أرسلنا عبر الخانق جواسيس يرتدون ثياب فلاحين وكهنة وتجار معهم بضائعهم. ثم ذهبتُ مع **كراتاس** إلى الخانق لأرسم خريطة الممر وأحدده، إذ إن الأخطار كلها مكشوفة في طور انخفاض الماء الحالي، ورسمنا علامات مرور على الصخور المرتفعة فوق مستوى الماء، حتى نعرف أين تكمن هذه العوائق حتى عندما يغطيها الفيضان.

قضينا أسابيع عديدة في هذا العمل، وعندما عدنا إلى حيث يرسو الأسطول، وجدنا الجيش محتشدًا، فأرسلنا مجموعات استطلاعية لتجد طريقًا للعربات والخيول عبر الصحراء الصخرية إلى مصر، إذ لا يمكننا المجازفة بحمولة ثمينة كهذه في مياه الجندل.

بدأ جواسيسنا بالعودة من **إلفنتين**، خفيةً وفُرادى، عادةً في الليل، وحملوا لنا أول أنباء نسمعها عن أرضنا الأم طيلة سنوات المنفى.

ما يزال الملك **ساليتيس** في سدة الحكم، لكنه بات عجوزًا، واستحالت لحيته بيضاء فضية. كان ابناه جبارَي فيالق **الهكسوس**؛ الأمير **بيون** يقود المشاة والأمير **أباخان** يقود العربات.

تجاوز جبروت **الهكسوس** كل تقديراتنا، فقد أبلغنا جواسيسنا أن اثني عشر ألف عربة تحت إمرة **أباخان**، ونحن لم نجلب إلا أربعة آلاف من **كوش**، **وبيون** يقود أربعين ألف نبال وجندي مشاة، ونحن، مع **شُلك كراتاس**، لم نستطع حشد أكثر من خمسة عشر ألفًا. كانوا يفوقوننا عددًا بما لا يقاس.

سمعنا أنباء مبهجة أيضًا، إذ كان القسم الأكبر من قوات **الهكسوس** متمركزًا في **الدلتا**، وقد جعل **ساليتيس** من مدينة **منف** عاصمته، أي أنه سيستغرق شهورًا حتى ينقل قواته جنوبًا إلى **إلفنتين وطيبة**، ولن يتمكن من جلب عرباته إلى أعلى النهر حتى ينحسر الفيضان وتجف الأرض. لم يحرس مدينة **إلفنتين** إلا سرب واحد من العربات، مئة عربة فقط لتتصدى لدخولنا، وكانت من ذوات العجلات المصمتة القديمة. يبدو أن **الهكسوس** لم يتقنوا العجلات ذات القضبان بعد.

أعدَّ لنا الأمير **مِمنون** خطة الهجوم: نعبر الجندل على الفيضان ونستولي على **إلفنتين**، ثم، وبينما يتحرك **ساليتس** جنوبًا لمواجهتنا، نزحف إلى **طيبة** ونثير التمرد بين الناس في أثناء زحفنا.

توقعنا أن يحارب **ساليتيس** بكل جيشه على السهول الفيْضية أمام **طيبة** ما إن تنحسر مياه النيل، وبحلول ذلك الوقت، نأمل أن يكون تفاوت الأعداد بين الجيشين قد استُدرك جزئيًا بالجنود المصريين اللذين سيلتفون تحت لوائنا.

عرفنا من جواسيسنا أن **الهكسوس** لم يشكّوا بوجود جيش تحريرنا على هذا القرب من حدودهم، وأن بمقدورنا توقع كسب عامل المفاجأة بهجمتنا الأولى. عرفنا أيضًا أن **ساليتيس** قد اعتنق أسلوب حياتنا المصري، فصار يعيش في قصورنا ويعبد آلهتنا. حتى إلهه القديم **سوتيخ** بدل اسمه إلى **سِت**، وظل، على نحو ملائم تمامًا، إلهه الرئيس.

ورغم أن كبار ضباط **ساليتيس** كانوا من **الهكسوس**، فقد جُند الكثير من نقبائه ورقبائه من المصريين، وكان نصف الجند العاديين من أمتنا.

كان معظم هؤلاء إما رضيعين أو لم يُولدوا في زمان خروجنا، وتساءلنا أين سيستقر ولاؤهم عندما يقود الأمير **مِمنون** جيشنا إلى مصر.

بات كل شيء على أُهبة الاستعداد، إذ رسم المستطلعون طريقًا عبر صحراء الضفة الغربية، وجهّزتْ شاحناتُ الماء مخازن من العلف والجِرار على امتداده تكفي لتصل عرباتنا إلى سهول مصرنا الخصبة. ثم أُعِدَّت قوادسنا وزُودت بالجند من أجل المعركة، وصرنا مستعدين للإبحار عندما يفيض النيل، لكن في الوقت الراهن ثمة طقس أخير علينا إتمامه.

تسلقنا الجرف فوق النهر إلى حيث لا تزال المسلَّة التي رفعتها مولاتي قبل أكثر من عقدين منتصبة، إصبع طويل وأنيق من الحجر يشير إلى أزرق السماء الإفريقية الرائق.

كانت مولاتي أضعف من أن تتسلق الممر الوعر إلى القمة، فحملها عشر عبيد في محفَّة ووضعوها تحت الصرح الطويل، ثم مشت ببطء مؤلم إلى أسفل العمود مستندة إلى ذراع الأمير **مِمنون**، وحدقت إلى الكلام المنقوش على الجرانيت. كانت أمتنا كلها تراقبها، كل هذي الأرواح التي تمكنت من العودة إلى النقطة التي انطلقنا منها قبل وقت طويل.

ثم قرأت مولاتي النقش جهارًا، وكان صوتها منخفضًا، لكنه لا يزال رنانًا حتى إنه وصل بوضوح إلى حيث أقف وراء كبار السادة والجنرالات.

«أنا، الملكة **لوستريس**، الوصية على مصر وأرملة الفرعون **ماموس** الثامن، أم وليّ العهد **مِمنون**، الذي سيحكم المملكتين بعدي، أمرتُ بنصب هذا الصرح...».

عندما أتمَّت قراءتها، استدارت لتواجه الشعب وفتحت ذراعيها.

ثم قالت وقد استعاد صوتها شيئًا من قوته القديمة: «لقد أنجزتُ ما كان مطلوبًا مني، قُدتُكم عودًا إلى حدود بلادكم، وبهذا أتمّ مهمتي، وأتنازل الآن عن الوصاية»، توقفت قليلًا، وللحظة، تلاقت أعيننا من فوق رؤوس النبلاء، وأومأتُ إيماءة طفيفة لأشجعها، فتابعت.

- يا مواطني مصر، من الخليق أن يقودكم فرعون حقيقي في الخطوات الأخيرة إلى وطنكم، لذا أقدم لكم الفرعون الإلهي **تاموس**، الذي كان ذات يوم ولي العهد الأمير **مِمنون**. فليعِش أبدًا!

وهدرت الأمة في صوت واحد: «فليعِش أبدًا! فليعِش أبدًا!».

تقدم الفرعون **تاموس** ليواجه شعبه، فصاحوا مرة ثالثة: «فليعِش أبدًا!»، واستلّ فرعوننا الجديد سيفه الأزرق من غمده المرصّع وحياهم به.

وفي الصمت الذي أعقب ذلك، دوًى صوته ورجّعت صخور التلال الحمراء الضاوية صداه.

- أتولًى هذه الأمانة المقدسة، وأقسم بأملي في الحياة الأبدية أن أخدم شعبي وأرضي طوال حياتي، وألا أُحجم عن هذا الواجب، وأنادي الآلهة جميعها أن تشهد قسمي.

***

جاء الفيضان، وارتفعت المياه فوق الصخور التي تحرس مدخل الخانق، فتغير لونها من الأخضر إلى الرمادي، ثم بدأ الجندل يزمجر كالوحش في عرينه، وعلَت سحابة الرذاذ إلى السماء عُلو التلال الملاصقة للنيل.

صعدتُ متن القادس القائد مع السيد **كراتاس** والفرعون، ثم انطلقنا إلى التيار. كان المجدفون على دكاتهم عراةً إلا من وزراتهم، ووجوههم تراقب **كراتاس** الواقف منتصبًا في الكوثل قابضًا على مجداف التوجيه بقبضتيه الدببيتين.

وقف في الجؤجؤ فريقان من البحارة بإمرة الملك يحملون العصيّ الثقيلة لدفع القادس عن الصخور، ووقفتُ بجوار **كراتاس**، باسطًا خريطة المنحدرات على السطح أمامي، مستعدًّا أن أبلغه بالتفافات القناة ومنعطفاتها عندما نبلغها، ولم أكُن في حاجة إلى الخريطة، ذلك أنني حفظتُ كل خط رسمته عليها، وإضافة إلى ذلك، كنتُ قد وضعتُ رجالًا أكْفاء على جوانب الخانق وعلى الجزُر في التيار الرئيس أمامنا ليدلونا على الطريق باستخدام رايات الإشارة.

عندما أسرع التيار تحت قادسنا، ألقيت نظرة أخيرة خلفي ورأيتُ بقية السرب تصطف رتلًا أحاديًّا وراءنا، مستعدة لتتبعنا عبر الجندل، ثم عدتُ بنظري إلى الأمام، وشعرتُ بقبضة الخوف تشتد على أمعائي حتى اضطُررت إلى شدِّ إليتيَّ. كان الخانق أمامنا يدخُن كفم الفرن.

تزايدت سرعتنا باستراق خَدَّاع، وصار المجدفون يلمسون سطح الماء بنصال مجاديفهم لمسًا خفيفًا من شأنه أن يحافظ على اتجاه قادسنا وحسب، فأخذنا نطفو بخفة وسلاسة حتى بدونا ننجرف، ولم أدرك مدى سرعتنا إلا عندما نظرتُ إلى الضفتين ورأيت جريهما بجوارنا. ثم طار مدخل الخانق

الصخري إلى لقائنا، ورغم ذلك، لم أعِ خطر ما كنا نحاوله حتى انتبهتُ إلى التكشيرة على وجه **كراتاس** المُخدَّد. ما كان **كراتاس** يكشّر هذه التكشيرة إلا عندما يرى الموت يناديه بإصبعه الأعجف.

وصاح بطاقمه: «هيا أيها الأوغاد! اليوم إما أجعل أمهاتكم يفخرن بكم، أو أؤمن عملًا للمحنطين».

ثم انقسم النهر أمامنا بين ثلاث جُزُر، وضاقت القناة.

هتفتُ: «إلى الميسرة، اتجهوا إلى الصليب الأزرق»، حاولتُ أن يخرج صوتي طبيعيًا، لكنني في تلك اللحظة شعرتُ بسطح السفينة ينقلب تحت قدمي، وقبضتُ على السياج.

اندفعنا عبر شلال من المياه الرمادية، وتأرجح جؤجؤنا تأرجُحًا طائشًا، فظننتُ أننا فقدنا السيطرة، وانتظرتُ أن تطحننا الصخور وينشق سطح السفينة تحت قدمي، ثم رأيتُ الجؤجؤ ثابتًا، والصليب الأزرق المرسوم على جدار الصخور أمامنا مباشرة.

«اتجهوا إلى أقصى الميمنة عندما نبلغ الراية!».

خرج صوتي زاعقًا، لكنني ميزتُ الرجل في منتصف الجزيرة يوجهنا بالراية إلى المنعطف، ورفع **كراتاس** مجداف التوجيه ثم صاح بالمقاعد: «فلتتوقف الميمنة كلها، ولتشدَّ الميسرة معًا!» وبينما نلتفُّ إلى المنعطف مال سطح السفينة ميلًا حادًّا.

مرَّ الجدار الصخري مرورًا خاطفًا بجوارنا إذ كنا منطلقين بسرعة خيل يعدو، وبقي أمامنا منعطف واحد قبل أن نبلغ المنحدرات، ثم برزت في طريقنا صخرة سوداء تتراكم المياه عليها. أخذت المياه شكل الصخرة تحتها، فانتفخت وارتفعت في موجات ثابتة عالية تنفتح بعدها إلى مجارٍ خضراء سلسة، والتفَّت على نفسها لتتفجَّر أسدالًا بيضاء تزمجر بنا الصخرة من خلالها بأنياب سوداء. انقبضت معدتي عندما وثبنا من فوق الحافة وسقطنا في المنحدر، ثم أخذنا نتخبط ونبرم في قاعه كعشبة يابسة في زوبعة.

جأر **كراتاس**: «شُدُّوا إلى الميسرة! شُدُّوا حتى تتقافز خصاكم!».

استقررنا بعد ذلك وتوجهنا إلى الفجوة التالية بين الصخور، ورُشت المياه البيضاء فوق سطح السفينة فدخلت في عينيّ، ثم أخذت تهسّ بينما تتدفق بجوارنا، وارتفعت الموجات حتى جاوزت مؤخرة سطح القادس.

ضحك **كراتاس** قائلًا: «بحق قلفة **سِت** المهترئة المتقيّحة! لم أمارس هذا القدر من الرياضة منذ جامعتُ نعجتي الأولى!»، ووثبت الصخرة في وجهنا كذكر فيل مندفع.

تلامسنا لمسة واحدة، وقشطت الصخرة بطن قادسنا، فارتجف السطح تحت قدميّ ومنعتني شدة خوفي من الصراخ. ثم حمانا فريق **مِمنون** منها وتابعنا طريقنا هبوطًا.

سمعتُ من خلفنا صوت تحطم أحد قوادسنا الأخرى التي اصطدمت اصطدامًا شديدًا، وبينما أقدّر انعطافتنا التالية لم أجرؤ على النظر ورائي، لكن سرعان ما صار الحطام ورؤوس الرجال الغارقين تتذبذب وتدوّم في السيل على جانبينا. بينما يُحملون بعيدًا ويُقذفون على المهاميز الصخرية راحوا يصيحون لنا، لكننا لم نتمكن من إغاثتهم، إذ ألحّ الموت في مطاردتنا، وهربنا ورائحته النتنة تملأ مناخرنا.

عشتُ في تلك الساعة مئة حياة، ومُتُ فيها كلها. لكننا قُذفنا أخيرًا من أسفل الجندل إلى مجرى النهر الرئيس، ومن القوادس الثلاثة وعشرين التي دخلت الخانق، خرج بعدنا ثمانية عشر، أما البقية فتهشّمت إلى طفاوة، وراحت جثث الغرقى تنجرف بجوارنا في فيض النهر الرمادي.

لم يكُن لدينا وقت لنحتفل بخلاصنا، فأمامنا مباشرةً تتربع جزيرة **إلفنتين**، وعلى كلتا الضفتين، تنتصب أسوار المدينة ومبانيها التي نتذكرها جيدًا.

نادى الملك **تاموس** من الجؤجؤ: «أيُّها النبَّالة، أوتروا أقواسكم! ارفعوا اللواء الأزرق! يا قارع الطبل عجِّل بإيقاع الهجوم!».

حلَّق سربنا الضئيل إلى جُموع السفن التي تسدُّ شوارع **إلفنتين**، ووجدنا معظمها عبَّارات وناقلات تجارية، فعبرناها ومضينا باتجاه قوادس **الهكسوس**. كان **الهكسوس** قد زوّدوا سفنهم المقاتلة ببحَّارة مصريين، فلا أحد يعرف النهر خيرًا منهم، إلا أنهم تركوها في عهدة ضباط من قومهم، ومعظم هؤلاء على الشاطئ يُعربد في بيوت المتعة على الأرصفة.

كان جواسيسنا قد أعلمونا براية أميرال الجنوب، وهي فراشة خطافية قرمزية وذهبية لها ذيل طويل حتى إنه ينغمس في الماء، فتوجهنا إلى السفينة التي تحملها، وقفز **مِمنون** إليها يتبعه عشرون رجلًا.

وهَدَر: «الحرية من طاغية **الهكسوس**! انهضوا من أجل مصرنا!».

نظر أفراد الطاقم إليه بأفواه فاغرة وذهول تام، وكان معظمهم أعزل، فأسلحتهم في العنابر المقفلة تحت سطح السفينة، ذلك أن الضباط **الهكسوس** لا يثقون بهم البتة.

اختار كل قادس من بقية سربنا إحدى سفن العدو المقاتلة وصعد رجالنا إليه بسرعة، وعلى كلٍ منها، كانت ردة فعل الطاقم نفسها، إذ صاحوا بعد أن زال أثر الصدمة الأولية: «من أنتم؟».

وكانت الإجابة: «مصريون! جيش الفرعون الحقيقي **تاموس**. انضموا إلينا أيها الريفيون! اطردوا الطاغية!».

فانقلبوا على ضباطهم **الهكسوس** ونحروهم قبل أن نتمكن من بلوغهم، ثم عانقوا رجالنا وهم يهدرون بعبارات الترحيب.

وأخذوا يهللون: «من أجل مصر! من أجل **تاموس**! من أجل مصر و**تاموس**!».

قفز التهليل من سفينة إلى سفينة، وراح الرجال يرقصون على المتون ويتسلقون الصواري ليمزقوا رايات **الهكسوس**، ثم كسّروا مستودعات الأسلحة ومرروا لبعضهم الأقواس والسيوف.

تدفقوا بعد ذلك إلى الشاطئ، وجروا **الهكسوس** من الحانات وقطعوهم إربًا إربًا، حتى صرّفت البالوعات فيضًا قرمزيًّا إلى مياه الميناء. ثم ركضوا عبر الشوارع إلى ثكنات الحامية وانقضوا على الحرس.

وهم ينشدون: «من أجل مصر و**تاموس**!».

حشد بعض الضباط **الهكسوس** رجالهم، وصمدوا لبعض الوقت في دوائر تحاصرها الغوغاء، ثم نزل **كراتاس** و**مِمنون** إلى الشاطئ، وفي غضون ساعتين، صارت المدينة لنا.

هُجرت معظم عربات **الهكسوس** في صفوفها، لكن فر نصف سرب من البوابة الشرقية ثم انطلق على الطريق الممهدة التي تعبر الحقول المغمورة بالماء إلى الأراضي الجافة وراءها.

كنتُ قد غادرت السفينة وأسرعت عبر الأزقة الخلفية التي أعرفها حق المعرفة إلى البرج الشمالي على أسوار المدينة، إذ عرفتُ أنني سأحظى من هناك بأفضل رؤية للمدينة والريف المحيط. راقبتُ بمرارة سريّة العربات الفارة، فكل فارٍّ الآن علينا مقاتلته لاحقًا، وكنتُ أريد تلك الخيول، وعندما

أوشكتُ على الاستدارة لمراقبة ما يجري في المدينة تحتي، رأيتُ إصبعًا صغيرة من الغبار يرتفع من أسفل التلال الجنوبية الجلفة.

ظللتُ عينيَّ وحدقتُ إليه، وشعرتُ بتسارع الحماسة، فقد كان الغبار يتقدم ناحيتنا بعجالة، وتمكنتُ من تبيُّن الأشكال الظليلة تحته.

ثم همستُ بابتهاج: «بحق **حورس**! إنه **رِمرِم**!» لقد جلب المحارب العجوز فرقة العربات الأولى عبر التلال الوعرة بأسرع مما حسبته ممكنًا، إذ لم يمضِ إلا يومان على فراقنا.

راقبتُ بفخر مهنيّ فرقة العربات الأولى تنتشر من أرتال رباعية إلى صف واحد. كنت قد دربتهم **وهُوي** خير تدريب، فجرى الانتشار جريًا جميلًا، وبينما لا يزال نصف عرباتهم على الطريق الممهدة انقض **رِمرِم** على جانب **الهكسوس**. بدا قائد العدو غير مدرك حتى للأسراب الهاجمة على خاصرته المفتوحة، ربما لانشغاله بالنظر خلفًا من فوق كتفه، وعندما حاول في اللحظة الأخيرة أن ينشر قواته صفًا حتى يصد هجوم **رمِرِم**، كان الأوان قد فات، وكان خيرًا له لو أدار عقبه وفرّ.

انهالت عرباتنا عليه في موجة جرفته جانبًا كالأنقاض في تيار النيل، وظللت أراقب حتى تأكدتُ أن **رِمرِم** قد أسر معظم خيول **الهكسوس**، وآنذاك تنهّدتُ ارتياحًا واستدرتُ لأنظر إلى المدينة.

كان الشعب قد جُنَّ جنونه بفرحة التحرير، وراحوا يرقصون في الشوارع ملوِّحين بأي مزقة ملابس تجدها أيديهم. ولأن الأزرق لون الفرعون **تاموس**، ربطت النساء شرائط زرقاء في شعورهن، ولفّ الرجال أحزمة زرقاء على خصورهم وعصابات زرقاء على سواعدهم.

جرى بعض القتال الجانبي، لكن بالتدريج، نُحر **الهكسوس** الناجون وجُروا من المباني التي كانوا يحاولون الدفاع عنها، وأُضرمت النيران في ثكنة لا يزال فيها عدة مئات من الرجال. سمعتُ صراخهم وهم يشتعلون، وسرعان ما وصلتني رائحة اللحم المحروق، كرائحة خنزير يُشوى.

حدث نهبٌ بالتأكيد، واقتحم بعض مواطنينا الشرفاء الحانات ومتاجر النبيذ وأخرجوا الجرار إلى الشوارع، وعندما انكسرت إحدى الجرار، خروا على أربعتهم وكرعوا النبيذ من المجاري كالخنازير البرية.

رأيت ثلاثة رجال يطاردون فتاة في الزقاق تحتي، وعندما أمسكوا بها، رموها أرضًا ومزقوا تنُورتها، ثم ثبت اثنان منهم أطرافها ونشروها بينما اعتلاها الثالث. ولم أشاهد البقية.

حالما بطش **مِمنون وكراتاس** بآخر جماعات **الهكسوس** المقاوِمة، شرعوا باستعادة النظام في المدينة، فأسرعت زُمر من قوات مدرّبة عبر الشوارع واستخدموا كعوب رماحهم الحربية هراواتٍ يعيدوا بها العقل إلى الرعاع السكارى الهاذين.

أمر **مِمنون** بشنق حفنة من أولئك الذين قُبض عليهم ينهبون ويغتصبون بالجرم المشهود على الفور، وتدلّت جثثهم من أعقابها على بوابات المدينة. وبحلول الليل، صارت المدينة هادئة، وصار بمقدور الرجال والنساء الشرفاء التجوال بأمان في شوارعها من جديد.

أقام **مِمنون** مقرَّه في قصر الفرعون **ماموس**، الذي كان ذات يوم بيتنا في جزيرة **إلفنتين**. وفي اللحظة التي وطئت فيها قدمي الشاطئ، هرعتُ إلى غرفنا القديمة في الحريم.

كانت لا تزال مؤثثة بأثاث فاخر وناجية من أيدي السارقين، وأيًّا كان من سكنها، فقد عامل جدارياتي بالاحترام الذي تستحقه. أما الحدائق المائية فكانت في وفرة من نباتات جميلة، وبركها ملأى بالأسماك واللوتس. أخبرني البستاني المصري أن قائد حامية **الهكسوس** الذي عاش هنا كان مُعجبًا بأساليبنا المصرية وحاول تقليدها، فامتننتُ لذلك.

في غضون أيام، كنتُ قد أعدتُ الغرف والحديقة إلى حالة لائقة باستقبال مولاتي من جديد، ثم مضيتُ إلى **مِمنون** أطلب إذنه بجلب الملكة إلى الديار.

كان الفرعون مشتتًا بعبء فرض قبضة حازمة على مملكته، إذ ثمة عشرة آلاف مسألة تطلب اهتمامه، لكنه نحاها كلها جانبًا حاليًا وعانقني.

- كل شيء يسير على ما يرام يا **تاتا**.

- عودة هانئة يا صاحب الجلالة، لكن لا يزال ثمة الكثير لنفعله.

فابتسم لي: «آمرك أمرًا ملكيًّا أن تستمر بمناداتي **مِم** عندما نكون بمفردنا. لكنك محق، لا يزال أمامنا الكثير لنفعله، والقليل من الوقت قبل أن يزحف **ساليتيس** وحشده من **الدلتا** ليتصدى لنا. لقد ربحنا المناوشة الصغيرة الأولى، وتنتظرنا المعركة العظمى».

- ثمة مهمة واحدة من شأنها أن تمنحني عظيم السرور يا **مِم**. لقد أعددتُ مسكنًا للملكة الأم، فهل لي أن أصعد النهر وأجلبها إلى منزلها **بإلفنتين**؟ لقد انتظرتُ وقتًا أطول مما يجب لتخطو على التراب المصري.
- غادر من فورك يا **تاتا**، واجلب الملكة **ماسارا** معك.

كان النهر مرتفعًا جدًّا والطريق الصحراوية وعرة جدًّا، وحمل مئة عبد محفَّتي الملكتين على طول ضفتي النيل وعبر الخانق حتى بلغنا وادينا الأخضر.

ولم يكُن بالصدفة المحضة أن أول بناء صادفناه بعد عبورنا الحدود معبدٌ صغير، فقد خططتُ الطريق ليوصلنا إلى هنا.

نحَّت مولاتي ستارة محفَّتها وسألتني: «أي ضريح هذا يا **تايتا**؟».

- إنه معبد الإله **آخ- حورس** يا مولاتي. أترغبين بالصلاة هنا؟

همسَتْ: «شكرًا لك» إذ فهمت ماذا فعلتُ. ساعدتها لتنزل من المحفَّة، وبينما ندخل عتمة البناء الحجري الباردة اتكأت عليَّ شديد الاتكاء.

صلينا معًا، وشعرتُ شعورًا واثقًا بأن **تانوس** ينصت لصوتي أكثر شخصين أحباه في العالم كله. وقبل أن نمضي، أمرتني مولاتي بتسليم كل الذهب الذي نحمله للكهنة، ووعدتْ بإرسال المزيد من أجل صيانة المعبد وتجميله.

كان الإنهاك قد نال منها عندما وصلنا إلى قصر **إلفنتين**، فالشيء الكامن في رحمها يكبر كل يوم في حين يتغذى على جسدها الذائب. مدّدتُها على أريكة تحت الظُّلة في الحديقة المائية، فأغمضت عينيها واستراحت لبعض الوقت. ثم فتحتهما من جديد وابتسمَت لي ابتسامة ناعمة: «كنا سعداء هنا ذات يوم، لكن هل سأرى **طيبة** ثانيةً قبل أن أموت؟» لم أستطع إجابتها، فلا جدوى من وعدها وعودًا ليس في قدرتي برّها.

- إذا مِتُّ قبل ذلك، أتعدني بأن تُعيدني إليها وتبني لي مقبرة في التلال من حيث يمكنني أن أرى مدينتي الجميلة؟
- بهذا أعدك من كل قلبي.

***

في الأيام التالية، أعدتُ **وأتون** إحياء شبكتنا العنكبوتية القديمة من جواسيس ومخبرين في المملكة العليا. كثيرٌ من الذين عملوا لمصلحتنا ذات يوم ماتوا منذ زمن بعيد، لكن لا يزال الكثير منهم أحياء كذلك، وبإغواء الذهب والوطنية، جندوا جواسيس آخرين أصغر سنًا في كل قرية ومدينة.

سرعان ما صار لنا جواسيس في قصر مرزبان **الهكسوس بطيبة**، وآخرون ينتشرون شمالًا وصولًا **لدلتا** المملكة السفلى. عرفنا من خلالهم أي فوج **هكسوس** مقيم في أي بلدة، وأيّهم في الزحف. عرفنا نقاط قوتهم، وأسماء قادتهم وعيوبهم، وصرنا نعرف العدد الدقيق لسفنهم وعرباتهم، وعندما انحسرت مياه فيضان النيل، تمكننا من تتبع حركة الكتلة الضخمة من الرجال والآليات المقاتلة المتجهة جنوبًا بينما يزحف الملك **ساليتيس** على **طيبة**.

هرّبتُ رسائل سرية باسم الفرعون **تاموس** للمصريين في أفواج العدو أحثهم على الثورة، فبدؤوا يدلفون إلى صفوفنا جالبين معهم معلومات أقيم، وسرعان ما صار دلف الفارين من جيوش **الهكسوس** فيضًا، ثم جاء فوجان مُزيّنان من النبَّالة الزاحفين تحت السلاح، والراية الزرقاء تلوح فوقهم بينما ينشدون: «مصر **وتاموس**!».

تمرّدت طواقم مئة قادس مقاتل وذبحت ضباطها **الهكسوس**، وعندما أبحرت لتنضم إلينا، قادت أمامها عبَّارات أَسَرَتْها في مرفأ **طيبة**، وكانت محمّلة بالحبوب والزيت والملح والكتان والأخشاب، جميع مستلزمات الحرب.

بحلول هذا الوقت، كانت قواتنا كلها قد عبرت الجندل وانتشرت حول المدينة، باستثناء قطيع **الغنو** الصغير الذي تركته حتى النهاية، ومن مرصدي في البرج الشمالي، رأيتُ صفوف الخيول تمتد لأميال على كلتا الضفتين، ودخان نيران الطهي المتصاعد من معسكرات الأفواج يصبغ الهواء أزرق.

أخذنا نزداد قوة كل يوم، وعمَّ مصر كلها اهتياج الحماسة والترقّب. عطَّر أريج الحريَّة المُسكِر كل نفَس نتنفَّسه. كانت **كيميت** أمة في طور الانبعاث، وصار الناس ينشدون الأناشيد الوطنية في الشوارع والحانات، وسمنت المومسات وتجار النبيذ.

رأيتُ **وأتون**، بينما ننكبّ على خرائطنا وإرسالياتنا السرية، صورة مختلفة تظهر. رأينا عملاق **الهكسوس** ينفض غبار النوم عن عينيه، ويمدّ قبضة مُدرّعة باتجاهنا، فقد انطلقت أفواج الملك **ساليتيس** إلى الزحف من

منف وكل مدينة وبلدة في **الدلتا**، وعجّت الطرقات كلها بعرباته، والنهر بسفنه، وكل ذلك يتحرك شمالًا إلى **طيبة**.

انتظرت حتى عرفت أن السيد **أباخان**، قائد عربات **الهكسوس**، قد بلغ **طيبة** وعسكر أمام بوابات المدينة بكل مركباته وخيوله، ثم ذهبت إلى مجلس الفرعون **تاموس** الحربي.

- يا صاحب الجلالة، حضرتُ اليوم أبلغكم أن العدو محتشد بمئة وعشرين ألف حصان واثني عشر ألف عربة في **طيبة**، وفي غضون شهرين، ينحسر النيل إلى مستوى يمكّن **أباخان** من بدء تقدمه النهائي.

حتى **كراتاس** بدا عابسًا، وهمّ يقول: «لقد شهدنا فرصًا أسوأ...»، لكن الملك قاطعه.

- أرى من وجه سيد الخيول الملكية أن لديه المزيد ليخبرنا به، ألَنا محق يا **تايتا**؟

- الفرعون محق دائمًا. أطلب إذنكم بجلب **الغنو** من فوق الجندل.

فضحك **كراتاس**: «بحق رأس **سِت** الأقرع يا **تايتا**، أتنوي مواجهة **الهكسوس** على إحدى بهائمك الخرقاء تلك؟». ضحكتُ معه بتهذيب، إذ كان حس دعابته لا يزيد حذاقة على حس **الشُلك** الهمجيين الذين يقودهم.

في الصباح التالي، انطلقتُ **وُهوي** إلى أعلى النهر لنجلب **الغنو**. وبحلول هذا الوقت، لم يبقَ حيًّا إلا ثلاثمئة من هذه الحيوانات البائسة من أصل ستة آلاف، لكنها صارت أليفة تمامًا وبالإمكان إطعامها باليد، فسقناها بخطو متمهِّل حتى لا نتعبها أكثر.

كانت الخيول التي أسرها **رِمرِم** في معركته الوجيزة الأولى مع عربات **الهكسوس** الفارة قد عُزلت بناء على أوامري عن خيولنا التي جلبناها من **كوش**، فسُقتُ **وهُوي الغنو** إلى مرعاها نفسه، وبعد الاضطراب الأول بين النوعين، صار الجميع يأكلون معًا بسلام. حبسنا في تلك الليلة **الغنو** وخيول **الهكسوس** في الزريبة نفسها، ثم تركت **هُوي** يراقبها وعدت إلى القصر على جزيرة **إلفنتين**.

والآن أعترف أنني واجهتُ في الأيام التالية قدرًا كبيرًا من الريبة والقلق، فقد استثمرت الكثير من الإيمان بنجاح هذه الخدعة، والتي تعتمد في النهاية على حدث طبيعي لستُ أفهمه حق الفهم. وإذا ما فشلَتْ، فسنواجه جام غضب عدو يفوقنا عددًا بأربعة أضعاف على الأقل.

كنتُ قد عملتُ حتى وقت متأخر مع **أتون** وغطتُ في النوم فوق لفائفي في مكتبة القصر عندما أيقظتني يدين فظتين وصاح **هُوي** في أذني: «هيا أيها النذل العجوز الكسلان! استيقظ! جلبتُ لك شيئًا».

كان قد جعل خيولًا تنتظرنا عند رصيف المرفأ، فأسرعنا إليها حالما أنزلتنا العبَّارة إلى الشاطئ، ثم امتطيناها على امتداد ضفة النهر تحت ضوء القمر إلى صفوف خيولنا، ووجدنا الساسة يحملون سُرُجًا ويعملون في الزريبة على ضوئها الأصفر الواهي.

وجدنا سبعة من خيول **الهكسوس** على الأرض بالفعل والصديد الأصفر يتدفق من أفواهها ومناخرها، والساسة يثقبون قصباتها ويضعون القصب الأجوف فيها لإنقاذها من الاختناق.

صاح **هُوي**: «لقد نجحَت! (وعانقني عناقًا شديدًا ثم أخذ يراقصني في حلقة)، **الخانق الأصفر**! لقد نجحت! لقد نجحت!».

قلت له بكل الوقار الذي سمحَت لي مَجَانَتُه به: «أنا من فكر بها أليس كذلك؟ بالطبع ستنجح».

كانت العبَّارات راسية إلى الضفة طيلة الأسابيع المنصرمة في انتظار هذا اليوم، فحمّلنا عليها فورًا الخيول التي لا تزال قادرة على الوقوف، وتركنا **الغنو** في الزريبة، فسيشق علينا تفسير وجودها حيث سنذهب.

بينما يجر كل عبَّارة من عباراتنا أحد قوادس **الهكسوس** الأسيرة إلى التيار جدّفنا، ثم اتجهنا شمالًا، وبخمسين مجداف على كل جانب، والريح والتيار من خلفنا، بلغنا سرعة جيدة وعجَّلنا إلى **طيبة** لنوصل هديتنا للسيد **أباخان**.

***

حالما عبرنا **كوم أومبو**، أنزلنا الراية الزرقاء ورفعنا أعلام قوادس **الهكسوس** الأسيرة. كان معظم طواقم القوادس التي تجرُّ العبَّارات قد وُلد في عهد **الهكسوس**، وبعضهم من نسل مختلط ويتكلمون اللغة الأجنبية بطلاقة عاميَّة.

بعد يومين إلى الشمال من **أوم كومبو**، رحب بنا قادس من قوادس **الهكسوس**، فاصطف بجانبنا وأرسلوا فرقة تفتيش تفحص حمولتنا.

قال لهم قبطاننا: «خيول لعربات السيد **أباخان**»، وهو من أب **هكسوسي**، وأم مصرية نبيلة، فكان سلوكه طبيعيًا ومؤهلاته مقنعة، وتركونا نمرُّ بعد تفتيش خاطف. أوقفونا وفتشونا مرتين أخريين قبل أن نبلغ **طيبة**، لكن قبطاننا تمكن من خداع ضباط **الهكسوس** في المرتين.

كان هاجسي الأكبر في ذلك الوقت حالة الخيول، إذ بدأت تموت برغم قصارى جهودنا، وصار نصف الحي منها في حالة يرثى لها، فرمينا الجثث عن السفينة، وهرعنا شمالًا بأقصى سرعتنا.

كانت خطتي الأصلية أن أبيع هذه الخيول لضباط الإمداد **الهكسوس** في ميناء **طيبة**، لكن أي خبير خيول لن ينظر حتى لهذا القطيع البائس، فقررت **وهُوي** سلوك مسار آخر.

وقَتنا المحطة الأخيرة من رحلتنا أن تبلغ **طيبة** عند غروب الشمس، وبينما أتعرَّف المعالم المألوفة آلمني قلبي، إذ أشعَّت جدران القلعة بلون ورديٍّ تحت أشعة الشمس الأخيرة، وكانت تلك الأبراج الأنيقة الثلاثة التي صممتها للسيد **إنتف**، والتي سُميت تسمية موفقة بأصابع **حورس**، لا تزال بارزة في السماء.

أعاد **الهكسوس** بناء قصر **مِمنون** الذي تركته قبل إتمامه على الضفة الغربية، وحتى أنا وجدتُ نفسي مضطرًا إلى الاعتراف بأن التأثير الآسيوي جذاب، فقد وُهبَت الذرى وأبراج المراقبة في هذا الضوء طابعًا غامضًا ودخيلًا، وتمنيتُ لو أن مولاتي حاضرة لتشاركني لحظة العودة إلى الديار هذه، فكلانا قضى أكثر من نصف حياته يحنّ إليها.

ظللنا في الضوء الآخذ في الخبو قادرين على تبيُّن الحشد الواسع من الرجال والخيول والعربات والشاحنات أمام أسوار المدينة، ورغم أنني تلقيتُ تقارير دقيقة، لم يكن تصوُّر جحافل كهذه ممكنًا، فذوَت معنوياتي عندما نظرت إليها، وتذكرتُ الجيش الصغير الشجاع الذي تركتُه في **إلفنتين**.

سنحتاج إلى نعماء الآلهة كلها، والكثير من حسن الحظ لننتصر على جيش كهذا.

اشتعلت نيران **الهكسوس** عندما استسلمت آخر خيوط الضوء أمام الليل، وتلألأت فوق السهل كحقل من نجوم لا نهاية لها، نجوم تمتد على اتساع البصر. وعندما اقتربنا أكثر في إبحارنا، شممنا رائحتهم، إذ ثمة رائحة غريبة تنبعث من الجيش المستعد، مزيج من روائح عديدة: نيران الروث المستخدمة لطهي الطعام، والرائحة العذبة للتبن المقصوص حديثًا، ورائحة الخيول

النشادرية، وصنَّة الفضلات البشرية في الحفر المفتوحة، والجلد والقار وعرق الخيول والنِّجارة والجعة اللاذعة، وأبرزها رائحة الرجال، عشرات آلاف الرجال اللذين يعيشون متلاصقين في خيم وأكواخ وتخشيبات.

تابعنا إبحارنا، وعامت الأصوات فوق المياه التي تنيرها النجوم حتى وصلت إلى سفينتنا الصامتة، أصوات نخير الخيول وحمحمتها، ومطارق النحَّاسين تضرب على السنادين سنان رماح ونصالًا، وتحديات الحراس، وأصوات رجال يغنون ويتجادلون ويضحكون.

وقفتُ على المتن بجوار قبطان القادس القائد أرشده ناحية الضفة الشرقية، إذ تذكرت رصيف تجار الأخشاب خارج أسوار المدينة، وإذا كان لا يزال موجودًا، فهو أفضل نقطة ننزل فيها قطيعنا.

ثم حددتُ المدخل إلى الميناء، ودخلناه بدفع المجاديف. كان الرصيف كما أتذكره بالضبط، وعندما رسونا، صعد رئيس الميناء منفعلًا إلى السفينة يطالب بأوراقنا ورخصتنا التجارية.

توددتُ إليه فانحنيتُ وابتسمتُ بتزلُف وقلت: «يا صاحب السعادة، لقد حدث حادث فظيع، إذ طيَّرت الريح رخصي من يدي، حيلة من حيل سِت بلا شك».

فنفخ نفسه كضفدع غاضب، ثم تضاءل من جديد عندما حشرتُ في كفّه البدين خاتمًا ذهبيًّا، وذهب في حال سبيله بعد أن اختبر المعدن بين أسنانه.

أرسلتُ بعد ذلك أحد الساسة إلى الشاطئ ليطفئ المشاعل التي تنير الرصيف، إذ لم أرغب أن ترى العيون الفضولية حالة الخيول التي ننزلها، فبعض حيواناتنا أضعف من أن ينهض، والبقية تترنح وتئز وتريّل المخاط النتن من أفواهها ومناخرها. اضطُررنا إلى وضع خطامات على رؤوسها وخداعها لتخرج من العبَّارة إلى الرصيف. وفي النهاية لم يكُن بينها إلا مئة حصان قوي بما يكفي ليسير.

سقناها عبر ممر الشاحنات إلى الأرض المرتفعة حيث نُظمت صفوف الخيول الأساسية بحسب جواسيسنا، وكانوا قد زودونا أيضًا بكلمة سر فرقة العربات **الهكسوسية** الأولى، فأجاب خبراء اللغة بيننا على احتجاجات الحرس.

مشّينا خيولنا طول المسافة إلى معسكر العدو، وبينما نمشي، بدأنا نطلق سراح حيواناتنا المريضة ليجول بضعة منها بين صفوف كلٍّ من فرق عربات

الهكسوس العشرين. كنا نتحرك حركة عادية وطبيعية لم تُثِر أي قلق، حتى أننا دردشنا ومازحنا ساسة العدو وخدم خيوله في طريقنا.

عندما بزغت خيوط الفجر الأولى في السماء الشرقية، تثاقلنا المشي عودًا إلى رصيف الأخشاب الذي نزلنا إليه. لم ينتظرنا إلا قادس واحد ليرجعنا، أما بقية الأسيطيل فأبحرت عائدة إلى الجنوب حالما أنزلت حمولتها من الخيول السقيمة.

صعدنا ظهر السفينة الباقية، ورغم أن **هُوي** وبقية الساسة استلقوا على المتن منهكين، وقفتُ عند سور الكوثل أراقب أسوار **طيبتي** الجميلة، يغسلها ضوء الفجر النقي، وتغيب عن الأنظار وراءنا.

بعد عشرة أيام، أبحرنا إلى ميناء **إلفنتين**، وبعد أن أبلغت الفرعون **تاموس**، أسرعتُ إلى الحدائق المائية في الحريم. وجدتُ مولاتي مستلقية في ظل المظلة، وكانت شاحبة ونحيلة حتى إنني لم أستطع منع يدي من الارتعاش بينما أنحني لها احترامًا، وبكَت عندما رأتني.

- اشتقتُ إليك يا **تايتا**. ليس أمامنا إلا وقتٌ قليل جدًّا نقضيه معًا.

***

بدأ النيل ينكمش عائدًا إلى سريره، وبزغت الحقول من تحت الفيضان تلتمع بلون أسود تحت معطفها السميك الجديد من الطين الغنيّ. بدأت الشوارع تجف فاتحة الطريق إلى الشمال، وقريبًا يحين أوان الحراثة، وأوان الحرب. انتظرتُ **وأتون** على قلق، نستقصي كل تقريرٍ من جواسيسنا في الشمال. وأخيرًا وصلنا الخبر الذي انتظرناه وصلينا من أجله، إذ حمل الأنباء زورق سريع طار إلينا على جناح الريح الشمالية، ورسا في الهزيع الثالث من الليل، لكن الرسول وجدني **وأتون** لا نزال نعمل على ضوء السراج في حجرته.

أسرعتُ حاملًا جذاذة البردي القذرة إلى الشقق الملكية. كانت أوامر الحرس أن يدخلوني في أي ساعة كانت، لكن الملكة **ماسارا** قابلتني عند باب مخدع الملك المغطى بستارة.

- لن أسمح لك بإيقاظه الآن يا **تايتا**، فالملك مُنهك. هذه أول ليلة ينام فيها نومًا غير منقطع منذ شهر.

- لا بدَّ لي من رؤيته يا صاحبة الجلالة، وهذا بموجب أوامره المباشرة...

وبينما نتجادل، نادى صوت عميق من خلف الستارة: «أهذا أنت يا **تاتا**؟»، ونُحيت الستارة جانبًا فوقف الملك أمامنا بكل بهائه العاري. كان رجلًا ليس مثله إلا قلائل عرفتهم في حياتي، ضامرًا وصلبًا كنصل السيف الأزرق، وجليلًا في كل أعضائه الرجولية، حتى إن وعيي بعاهتي يزداد كلما نظرت إليه.

- ما الأمر يا **تاتا**؟

- رسائل من الشمال، من معسكر **الهكسوس**. وباء رهيب يجتاح صفوفهم. أصاب نصف خيولهم، ويسقط الآلاف ضحية للمرض كل يوم.

صاح: «إنك لساحر يا **تاتا**. كيف أمكننا أن نسخر منك ومن **الغنو** الخاصة بك! (وقبض على كتفيَّ ثم حدق إلى عيني)، أجاهزٌ أنت لتركب إلى المجد معي؟».

- جاهز أيها الفرعون.

- إذن ضع **صخر وسلسلة** في السيور، وارفع اللواء الأزرق فوق عربتي. إننا ذاهبون إلى ديارنا **طيبة**.

***

وهكذا وقفنا أخيرًا أمام مدينة البوابات المئة بأربع فرق من العربات وثلاثين ألف قدم. وامتدّ حشد الملك **ساليتيس** أمامنا، لكن وراء جحافله، انتصبت أصابع **حورس** تدعونا، وأشرقت أسوار **طيبة** بوهج لؤلؤي في ضوء الفجر.

انتشر جيش **الهكسوس** انتشارًا ثقيلًا أمامنا، كأصلة هائلة تبسط جسدها الملتفّ، رتلًا وراء رتل، وصفًا خلف صف. التمعت أسنَّة رماحهم، وتوهَّجت خوذ ضباطهم الذهبية تحت أشعة شمس الصباح المبكر.

سأل الملك: «أين **أباخان** وعرباته؟»، حدقتُ إلى إصبع **حورس** الأقرب إلى النهر، واضطررتُ إلى إجهاد بصري لأتبيّن القُصاصات الملوّنة الضئيلة التي ترفرف على قمة البرج.

- **لأباخان** خمس فرق في الوسط، وست في القوات الاحتياطية، وهي مخبأة وراء أسوار المدينة.

قرأتُ إشارات الأعلام من الجاسوس الذي وضعته في أطول الأبراج الثلاثة، إذ عرفتُ أنه سيحظى برؤية الصقر لساحة المعركة من هناك.

ثارت ثائرة الملك وقال: «هذه إحدى عشرة فرقة فقط يا **تاتا**، ونحن نعرف أنه قائد عشرين، فأين البقية؟».

أجبته: «**الخانق الأصفر**. لقد حشد كل حصان لا يزال بمقدوره الوقوف».

فلمس كتفي: «بحق **حورس**! آمل أن تكون محقًا. آمل أن **أباخان** لا يخبئ لنا مفاجأة صغيرة جميلة».

- لقد لعبنا نردنا يا **تاتا**، وفات الأوان على التراجع. علينا تنفيذ هذه الضربة بما تمنحنا إياه الآلهة. قُد العربة لنتفقّد الجيش.

أخذتُ اللجم ودحرجت العربة أمام جيشنا. كان الملك يظهر نفسه أمام قوّاته، فحضوره يثبِّت قلوبهم، ويقوّي عزيمتهم. مشّيتُ العربة على طول صفوفنا في خبب خفيف، وكان **صخر وسلسلة** قد مُشِّطا حتى أشرق جلدهما كالنحاس المصقول تحت ضوء الشمس، والعربة الملكية مكسوة بصفائح ذهبية رقيقة هي التنازل الوحيد الذي أجريته في سعيي إلى الخفَّة.

كان الذهب قد طُرق حتى صار أرقَّ من ورقة البردي، وأضاف أقل من مئة دبن لوزن المركبة الكلي، غير أنه قدَّم منظرًا بديعًا رغم ذلك، وسواء أنظر إليها عدو أم صديق، لا يساوره شك في أنها عربة الفرعون، وإما تدبُّ فيه الجراءة وإما تسري فيه المهابة في لجة المعركة. تمايل اللواء الأزرق ورفرف على قضيب الخيزران الطويل المرِن في النسيم فوق رؤوسنا، وبينما نقود العربة بين صفوفهم هلل الرجال.

في يوم غادرنا **قيبي** لنبدأ رحلة العودة، نذرتُ نذرًا أن لا أقص شعري حتى أقدم أضحية في معبد **حورس** بمنتصف **طيبة**، فصار شعري الآن يبلغ خصري، ولأخفي خيوط الشيب منه، صبغته بحنّاء مستوردة من بلاد ما وراء نهر **السند**، وأخذتْ لِبدتي الذهبية المحمرَّة جمالي إلى حدود الكمال. وكنتُ لابسًا تنورة مُنشّاة من أبيض الكتّان، **وذهب الثناء** يتدلى على صدري العاري، ولأنني لم أُرد بأي طريقة أن أنتقص من بهاء الفرعون الشاب، لم أضع مكياجًا ولم ألبس حلى أخرى.

مررنا من أمام أفواج رمّاحي **الشُلك** في المنتصف، وكان أولئك الوثنيون الرائعون المتعطشون للدماء هم الصخرة التي تستند إليها صفوفنا. هللوا عندما عبرناهم: «**كادجان! تانوس! كادجان! تاموس!**» ورَغَت ريشات نعامهم بلون أبيض كزبد النهر في الجنادل عندما رفعوا رماحهم تحية. رأيت السيد **كراتاس** في وسطهم، وصاح لي، فضاعت كلماته في هدير عشر آلاف

صوت، لكنني قرأتُ شفاهه: «سأثمل وإياك حتى التقيؤ الليلة في **طيبة** أيها المشاغب العجوز».

كان **الشلك** محتشدين في العمق، رتلًا وراء رتل وفوجًا وراء فوج، فقد دربتهم **وكراتاس** بلا توقف على التكتيكات التي ساعدتُه في تطويرها للتعامل مع العربات، وحمل كل منهم إلى جانب رماحهم الطويلة حزمة من الرماح الخفيفة، ومقلاعًا من خشب وجلد لإطلاقها بقوة إضافية، وغرسوا العصي الخشبية المسنونة في الأرض لتشكل سياجًا أمام صفهم، فتضطر عربات **الهكسوس** إلى اختراق ذلك الحاجز الشائك لبلوغهم.

وتسطّر النبّالة المصريون وراءهم، مستعدين للتقدم والتراجع من خلال صفوفهم بحسب ما تطلبه أهواء الحرب من تكتيكات مختلفة، ثم رفعوا أقواسهم المعقوفة عاليًا وهللوا للفرعون: «**تاموس**! مصر **وتاموس**!».

كان الفرعون معتمرًا التاج الحربي الأزرق، والصلّ الفرعوني الذهبي يزيّن جبهته برأسي النسر والصل المتجادلين اللذين يمثلان المملكتين وعيونهما المرصعة الملتمعة، وردّ تحيتهم برفع النصل المجرد للسيف الأزرق عاليًا.

دُرنا حول خاصرتنا، وقبل أن نرجع، أوقفني **مِمنون** بوضع ذراعه على كتفي، فنظرنا لوهلة قصيرة إلى الميدان، ورأينا **الهكسوس** يتحركون قدمًا بالفعل، وصفهم الأول بضعف طول صفنا.

ثم اقتبسني قائلًا: «من أطروحتك يا **تاتا**: «دفاع حذر حتى يتحرك العدو، ثم هجوم خاطف مغوار»».

- إنك متذكرٌ الدروس جيدًا يا سيدي.
- من الأكيد أننا سنُطوَّق، وعلى الأرجح أن **أباخان** سيدفع بفرقه الخمس الأولى عند البداية.
- أوافقك يا **مِم**.

قال: «لكننا نعرف ما علينا فعله، أليس كذلك يا **تاتا**؟»، ثم نقر على كتفي وعدنا إلى حيث تقف عرباتنا في المؤخرة.

ترأس **رِمرِم** الفرقة الأولى، **وأستيس** الثانية، والسيد **أقر** الثالثة. وقاد النقيب **هُوي**، الذي رُقي مؤخرًا لرتبة **الأفضل في عشرة آلاف**، الفرقة الرابعة، بينما حرس فوجان من **الشلك** أمتعتنا وخيولنا الاحتياطية.

أومأ **مِمنون** ناحية **رِمرِم** قائلًا: «انظر إلى كلب الصيد العجوز ذاك، إنه ثائر ليُطلَق عنانه. وحق **حورس** لأعلمنه بعض الصبر قبل انقضاء هذا اليوم».

ثم سمعنا صوت الأبواق في المنتصف.

فأشار **مِمنون** إلى المقدمة: «إنهم يبدؤون (ورأينا عربات **الهكسوس** تلوح بين سحب الغبار)، أجل، لقد أطلق **أباخان** عرباته».

ثم نظر خلفًا إلى فرقنا، فرفع **رِمرِم** سيفه عاليًا ونادى بتشوُّق: «الفرقة الأولى مستعدة يا صاحب الجلالة»، لكن **مِمنون** تجاهله وأشار للسيد **أقر**، فتقدمت الفرقة الثالثة في أرتال رباعية وراءنا، وقادها الفرعون قدمًا.

تحرّكت عربات **الهكسوس** إلى الأمام بثقل ومهابة مستهدفة منتصف صفّنا، فقطع **مِمنون** طريقها مُوسِّطًا رتلنا النحيل بين حشودهم ومشاتنا. ثم، وبإشارة منه، انتشرنا إلى صف وطِرنا إليهم مباشرةً. بدا الأمر انتحاريًّا، وعقيمًا عقم إرسال أحد قوادسنا الخشبية الواهية إلى صخور الجندل.

لكن عندما تلاقينا، أطلق نبَّالتنا على **الهكسوس** مباشرةً مستهدفين الخيول، فانفتحت ثغرات في صفهم بعد أن أسقطت السهام الحيوانات، ثم وفي آخر لحظة ممكنة تبدّد صفنا كدخان في مهب الريح. إذ استغل سائقونا تفوقهم في السرعة والقدرة على المناورة، وبدلًا من أن نصطدم بصف **الهكسوس** ونُطحن تحت قوتهم الماحقة، مِلنا إلى الثغرات التي فتحناها وأسرعنا عبرها. لم تمرّ عرباتنا كلها، إذ انكسر بعضها وانقلب، لكن نجح السيد **أقر** بإدخال أربع من كل خمس.

خرجنا عند مؤخرة قوة **الهكسوس** المهاجمة والتففنا حولها التفافة قفل محكم، ثم أعدنا تشكيل الصف بالسرعة القصوى مستغلين من جديد سرعتنا لندرك **الهكسوس** وبينما نقترب منهم نطلق سهامنا من مسافة تقصر بالتدريج.

كانت عربات **الهكسوس** مصممة لتحمي طواقمها من المقدمة، ونبَّالتها متموضعين على صفيحة القدم لإطلاق سهامهم قُدمًا، فعمّ الارتباك بين صفوفهم عندما حاولوا التصدي لهجومنا من الخلف، وتحت الضغط، حاول بعض سائقيهم الاستدارة لمواجهتنا، فاصطدموا بالعربات المجاورة، وقطّعت تلك العجلات ذات المناجل سيقان الخيول القريبة مسقطة إياها في عقدٍ صارخةٍ صاهلة.

ثم عمَّ الارتباك بينهم حينما ارتفع أول وابل من سهام النبالة المصريين فوق صفوف **الشلك** المحتشدة وانهال على **الهكسوس**. وحالما حدث ذلك، أعطى **مِمنون** الأمر، فابتعدنا وتركناهم يتجهون إلى سياج العصي المسنونة.

شوّه نصف خيولهم أو قُتل على تلك السنان المفترسة، والذي مر منهم لاقى **الشلك** وسحابة رماحهم القصيرة، فهلعت خيولهم أمام العصي والسهام والرماح، وأخذت تركل وتشبّ في سيورها.

أما العربات التي ظلت تحت السيطرة فألقت بنفسها إلى كتيبة **الشلك**، ولم تجد مقاومة، إذ انفتحت الصفوف السوداء أمامها سامحةً للخيول بالمرور، لكنها بعد ذلك انغلقت خلفها.

كان كل من أولئك الشياطين السود الطوال الرشيقين رياضيًا وبهلوانًا، فقفزوا إلى صفائح أقدام العربات المسرعة من خلفٍ وطعنوا طواقمها ونحروهم بالخناجر والرماح. ابتلعوا هجمة العربات الأولى كما يبتلع قنديل البحر سردينة فضية سريعة بين أذرعه التي لا تحصى وجسده معدوم الملامح.

كان رمّاحو **الهكسوس** يتقدمون ليتبعوا هجوم العربات ويستغلونه، غير أنهم صاروا مكشوفين، وعادت الخيول السائبة والعربات الناجية فأربكت صفوفهم وأجبرتهم على فتح طريق لتمرّ. وللحظة دبّت فيهم الفوضى في منتصف الميدان، فاستغل **مِمنون** الفرصة بمهارة.

ثم أُرهقت خيول السيد **أقر**، فعاد بها **مِمنون** إلى القوات الاحتياطية وبدّلها، ولم يحتج الساسة إلى أكثر من لحظات لفك المسمار الذي يربط **صخرًا وسلسلة** وجلب زوجًا جديدًا من الخيول الاحتياطية. كان معنا ستة آلاف حصان قويّ مستعد في المؤخرة، وتساءلتُ كم من خيول **الهكسوس** نجت من الخانق، وكم زوجًا قويًا يستبقون.

عندما عُدنا إلى الصف، نادانا **رِمرِم** بيأس: «يا صاحب الجلالة! الأولى! أطلق الفرقة الأولى!».

تجاهله الفرعون ثانية وأشار **لأستيس**، فتقدمت الفرقة الثانية وتشكّلت من خلفنا في خبب خفيف.

كان مشاة **الهكسوس** لا يزالون متشابكين في وسط الميدان، وامتدوا ليتخطوا صفنا الأقصر، لكنهم فقدوا ترتيبهم، وغدا صفهم منهارًا متلويًا، فاختار **مِمنون** بعين جنرال خبير النقطة الأضعف، وكانت نتوءًا في ميسرتهم، وصاح: «لتتقدم الفرقة الثانية. زحفًا متمهلًا! إلى الأمام في جماعات ثمانيّة، اهجموا!».

انطلقنا إلى النتوء في صفهم بثمانية عربات جنبًا إلى جنب، واصطدمنا بهم، جماعة وراء جماعة، ففتحنا صفهم وانهارت ميسرتهم بينما ظلت الميمنة تتقدم. صاروا خطًّا مائلًا عبر الميدان، ومنتصفهم يتشعّب، فأعاد **مِمنون** تشكيل الفرقة الثالثة بالسرعة القصوى ثم أطلقها لتفتح طريقًا في وسط العدو.

في اللحظة السابقة لانهماكنا في الهجمة، ألقيت نظرة إلى المدينة، وكان الغبار قد حجب المدى تقريبًا، لكنني لمحتُ الرايتين البيضاوين على قمة إصبع **حورس**، إشارة التحذير من راصدي الذي وضعته هناك، فدُرت ونظرت خلفي إلى الحصن الشرقي للمدينة.

ثم ناديتُ وأشرتُ إلى الخلف: «سيدي!»، فنظر الملك إلى حيث أشير، ورأى سرب عربات **الهكسوس** الأول يخرج من مخبئه وراء حنية السور، والبقية تتبعه كرتل من النمل الأسود المحارب.

وصاح من فوق اصطخاب المعركة: «**أباخان** يطرح قواته الاحتياطية لينقذ مشاته، وكان ليطوقنا لو تأخرنا لحظة أخرى. أحسنت صنعًا يا **تاتا**».

بينما نلتفُّ مشكّلين صفنا لنواجه عربات **أباخان** اضطررنا إلى ترك المشاة يفرون، ثم هجم بعضنا على بعض في ميدان تبعثرت فوقه العربات المنقلبة والمحطة، والسهام والرماح القصيرة السائبة، والخيول النافقة والجريحة، والرجال المحتضرون. وعندما تلاقينا، وقفتُ على صفيحة القدم ونظرتُ أمامي، إذ رأيت شيئًا غير عادي في مسيرة عربات العدو، ومن ثم اتضح لي.

فناديت: «سيدي! انظر إلى الخيول! إنهم يسيِّرون حيوانات مريضة». كانت صدور الأزواج القائدة تلتمع بمعاطف من مخاط أصفر يتدفق من أفواهها الفاغرة، وبينما أراقب، ترنح أحد الخيول المتقدمة ناحيتنا وسقط رأسيًّا مُسقطًا رفيقه معه.

أجابني **مِمنون**: «يا **لإيزيس** العذبة! إنك محق. خيولهم منتهية من قبل أن تبدأ». ورأى من فوره ما عليه فعله. كان مقياس سيطرته الرائعة أنه قادر على تحويل مسار عرباته بعد أن تنطلق بالكامل، وانصرف عن الاشتباك الرأسي في اللحظة الأخيرة.

فانفتحت صفوفنا أمام هجومهم كزهرة تتسع على كلا جانبيهم، ثم استدرنا وعُدنا إلى تشكيلتنا، جارِّين إياهم خلفنا، ومُجهدين خيولهم المريضة اللاهثة حتى الرمق الأخير.

عَدَونا أمامهم في تشكيلة متراصة مُحكمة، وبدأ صفُّهم يتهدَّج ويتفرَّق بينما تنهار الخيول الأضعف. سقط بعضها كأنما أصابه سهم في الرأس، بينما تباطأت البقية وتوقفت فقط، مدلِّية رؤوسها، والمخاط ينسكب من أفواهها في خيوط ذهبية لامعة.

كانت خيول السيد **أقر** قد أُنهكت تقريبًا، فقد هجمت هجمتين ضاريتين من دون استراحة، لذا قادها **مِمنون**، ولا تزال بقايا فرقة **أباخان** تلاحقها، إلى حيث تستعد فرقة **هُوي** الرابعة بجوار **رِمرِم** وفرقته الأولى.

صرخ **رِمرِم** مُحبطًا: «أيها الفرعون! الفرقة الأولى جاهزة. أطلقني! بحق الآلهة جميعها أطلقني!».

وبالكاد نظر **مِمنون** في اتجاهه. ركنتُ عربتي بجوار عربة **هُوي**، وأزال زوج من الساسة حصانينا المنقوعين بعرقهما من السيور وجاءا بزوج جديد. وبينما تتدفق فرقة السيد **أقر** المنهكة عابرة إيانا، واجهنا **الهكسوس** المقتربين.

ناداه **مِمنون**: «أجاهز أنت أيها النقيب **هُوي**؟»، ورفع **هُوي** قوسه تحيةً.

وصاح: «لمصر **وتاموس**!».

فضحك **مِمنون**: «إذن فإلى الأمام اهجموا!»، وقفزت خيولنا في سيورها ثم انطلقنا.

تناثرت في الميدان أمامنا ست فرق كاملة من عربات **أباخان**، نصفها متكسر بخيول ساقطة أو مرتخية في سيورها، يخنقها الخانق الأصفر حتى الموت، ومعظم بقيتها يمشي مشيًا، بخيول تترنح وتئزُّ، بيد أن بقية العربات تقدمت بانتظام جيد.

خرجنا نقابلهم وجهًا لوجه، ورأينا في منتصف هجمتهم عربة طويلة، هيكلها مكسو بالبرونز اللامع، وعلى صفيحة قدمها يقف رجل طويل حتى إنه يشمخ فوق سائقه. كان يرتدي الخوذة الطويلة الذهبية الخاصة بالطبقة الملكية **الهكسوسية**، ولحيته السوداء مضفورة بشرائط ملونة ترفرف في الريح كفراشات تحوِّم فوق شجيرة مزهرة.

تحداه **مِمنون**: «**أباخان**! أنت في عِداد الموتى».

سمعه **أباخان** وميَّز عربتنا الذهبية، فالتفّ ليلاقينا، ونقر **مِمنون** كتفي.

- خذني إلى جوار الخنزير الملتحي. لقد آن أوان السيف أخيرًا.

بينما نقترب أطلق **أباخان** سهمين علينا، فصدّ **مِمنون** أحدهما بترسه وتفاديتُ الآخر، لكنني لم أفقد تركيزي البتة، بل كنتُ أراقب تلك المناجل الدوارة الرهيبة على محاور عجلات **أباخان**، القادرة على بتر سيقان حصانيّ من تحتهما.

ثم سمعتُ من خلفي الكشط الأجشّ عندما استلَّ **مِمنون** سيفه الأزرق من غمده على اللوح الجانبي، وبينما يتخذ وضع الحماية لمحتُ بطرف عيني الوميض الفولاذي للنصل.

ملتُ برأسَيْ حصانيّ في التفافة مخادعة لأربك سائق **الهكسوس**، لكن في اللحظة التي بدأنا نبتعد فيها، بدلتُ الاتجاه من جديد، فتفاديتُ بذلك مناجله وعبرته من قرب ثم استدرتُ استدارة حادة خلفه. انتزعتُ بيدي الحرة الخطّاف بعد ذلك ورميته من فوق لوح العربة الأخرى الجانبي، فصرنا مربوطين معًا، لكنني حققتُ الأفضلية، ذلك أننا في منتصف مؤخرتها.

استدار **أباخان** ووجه إليَّ ضربة بالسيف، لكنني خررتُ على ركبتيَّ من تحتها وصدها **مِمنون** بترسه، ثم ضرب بسيفه الأزرق، فانثنت كِسرة برونز من طرف سيف **أباخان** وقد شقّه الفولاذ، وصرخ في غضب وعدم تصديق بينما يرفع ترسه النحاسي أمام الضربة التالية.

كان **أباخان** سيَّافًا رائعًا، لكنه ليس ندًّا لملكي وسيفه الأزرق. مزّق **مِمنون** ترسه إلى شرائط، ثم ضرب نصله البرونزي بشدة عندما حاول حماية رأسه، فقطع السيف الأزرق البرونز بسهولة، ولم يبقَ في قبضته إلا مقبضه.

فتح فمه آنذاك على اتساعه وجأر بنا. كانت الأضراس في مؤخر فكه سوداء متعفنة، واندفع بُصاقه غمامةً في وجهي، ثم استخدم **مِمنون** تلك الطعنة الكلاسيكية المباشرة لينهي الأمر، فأقحم سن سيفه الأزرق في فم **أباخان** المفتوح حتى مؤخر حلقه، وغرق جؤاره الغاضب بسيل الدم القاني الذي تفجر من شفتيه المشعرتين.

قطعتُ حبل الخطاف وتركتُ عربة **الهكسوس** تنطلق بحرية، فخرجت خيولها عن السيطرة، ومالت مبتعدة إلى صف العربات المتشابكة المتحاربة. قبض **أباخان** على الحاجبة، محافظًا على استقامته رغم أنه يحتضر، وانبجس الدم من فمه متدفقًا إلى صدارته.

كان مشهدًا دبَّ بالذُعر في قلوب سائقيه، فحاولوا تحرير خيولهم المريضة المترنحة، لكننا لاصقناهم وأخذنا نرسل رماحنا القصيرة إليهم، وتبعناهم حتى صرنا في مدى نبَّالتهم وانهمرت علينا أسراب من السهام أجبرتنا على التراجع.

بينما نرجع بخيولنا المتعبة حذرتُ **مِمنون**: «لم ينته الأمر بعد. لقد دمَّرتَ عربات **أباخان**، لكن لا يزال عليك تدبُّر أمر مشاة **بيون**».

فأمرني الفرعون: «خذني إلى **كراتاس**».

أوقفتُ عربتنا أمام أفواج **الشلك** المحتشدة، ونادى الملك **كراتاس** من فوقهم: «كيف حال القلوب يا سيدي؟».

- أخشى يا سيدي أن رفاقي سيغطون في النوم إن لم تجد لهم بعض العمل.

- إذن بينما تسير بهم بحثًا عن عمل أسمعنا أنغامهم.

بدأ **الشلك** تقدمهم. أخذوا يتحركون بمشية ملخبطة غريبة، وكل خطوة ثالثة، يخبطون الأرض معًا بقوة تهزُّها تحت أقدامهم الحافية الصلبة. وراحوا يغنون بتلك الأصوات الإفريقية الرخيمة، كأصوات جماعة نحل أسود غاضب، ويضربون تروسهم المصنوعة من الجلد الخام برماحهم.

كان **الهكسوس** منضبطين وشجعانًا، وما كانوا ليحتلوا نصف العالم لو لم يكونوا كذلك، فقد حطمنا عرباتهم، لكنهم وقفوا صامدين في مواجهة تقدم **كراتاس** وراء جدار من التروس البرونزية.

والتقى الجيشان كثوري معبد متحاربين، ثم شابك الثوران الأسود والأبيض قرونهما وتقاتلا صدرًا لصدر ورمحًا لرمح.

وبينما يتطاحن جيشا المشاة، أبقى الفرعون عرباته خلفًا، مستخدمًا إياها بمهارة وجرأة عندما تنفتح ثغرة أو تظهر نقطة ضعف في تشكيلات العدو فقط، فكلما انعزلت جماعة من مشاة **الهكسوس** على الميسرة، أرسل فرقة **أقر** لتبيدها بهجمتين سريعتين، وكلما حاول السيد **بيون** إرسال تعزيزات لتساند الجبهة المحاصرة، أرسل **أستيس** وخمسمئة عربة ليجهض محاولته.

حشد **الهكسوس** عرباتهم الباقية كلها، وكل حصان قادر على الوقوف، ودفعوا بها إلى ميمنتنا، فأرسل **مِمنون هُوي وأستيس** للقائهم وكسر هجومهم، وترك **رِمرِم** يشتم ويتوسل ويتقافز بجوار عربته متجاهلًا التماساته.

طوقتُ والفرعون القتال بالعربة الذهبية، وراقبنا كل تبدل وتغير في الصراع. راح يرسل قواته الاحتياطية إلى حيث نحتاج إليها بالضبط، وبتوقيت وحِسّ لا يمكن تعليمهما أو تعلُّمهما أبدًا، كأنما نبض تلك المعركة وإيقاعها يدقّان في قلبه، ويشعر بهما في دمه.

ظللتُ أبحث عن **كراتاس** في معمعة المعركة. ضيّعته مرات عديدة، وخفتُ أن يكون قد سقط، وكل مرة تظهر خوذته من جديد بريشة نعامها، وبرونزه المطلي بدمائه ودماء الآخرين.

وفي المنتصف حيث يحارب **كراتاس** بدأت صفوف **الهكسوس** تنهار. كأول قطرة تتسرب من سد ردمي، نتأ صفُّهم وامتدَّ حتى نقطة الانكسار، وانهارت الصفوف الخلفية على بعضها تحت الضغط الذي لا يكلّ.

رأى **مِمنون** ذلك قبلي حتى: «بحبّ **حورس** ورحمة الآلهة جميعها يا **تاتا**، إن هذه للحظة النصر».

ثم عدونا إلى حيث لا يزال **رِمرِم** منتظرًا، وهتف له الفرعون: «أمستعدّ أنت يا سيدي **رِمرِم**؟».

- إنني مستعد منذ الفجر يا سيدي، لكنني لستُ سيدًا.
- أستجادل ملكك يا سيدي؟ أنت سيدٌ الآن. وسط العدو ينهار، خذ عرباتك وطاردهم إلى **منف**!

جأر السيد **رِمرِم**: «فلتعش أبدًا أيها الفرعون!»، ووثب إلى صفيحة القدم مخرجًا الفرقة الأولى، وكانت خيولها نشيطة وقوية، وروحها القتالية خام وغاضبة من طول الكبت.

اصطدموا بخاصرة **الهكسوس** اليمنى، وشقوا طريقهم عبرها من دون إعاقة تقريبًا، ثم داروا إلى المؤخرة واتجهوا إلى منتصف قوات العدو. كان تأرجح المعركة لحظةً مثالية، فسقط وسط **الهكسوس**، وفي غضون الوقت اللازم لأخذ نَفَسٍ طويل وحبسه، انهزموا.

أخذوا يتدفقون عائدين إلى بوابات المدينة، لكن حتى **شُلك كراتاس** كانوا أبعد من أن يتبعوهم، إذ وقفوا غارقين حتى ركبهم في أكداس الموتى والمحتضرين، واستندوا إلى رماحهم تاركين **الهكسوس** يرحلون. وهنا ظهرت عبقرية **مِمنون** جليَّة، فقد استبقى الفرقة الأولى لتتولى المطاردة في هذه اللحظة، وبينما يطاردهم رأيت سيف **رِمرِم** يعلو ويهبط في إيقاع رهيب.

وصل أول الأعداء الفارين إلى بوابات المدينة، لكنهم وجدوها موصدة في وجوههم، فقد أنجز جواسيسي وعملائي عملهم خير إنجاز، وأثاروا الثورة بين سكان **طيبة**، فصارت المدينة في أيدينا، وأزلجت البوابات أمام جحافل **الهكسوس** الكسيرة.

طارد **رمِرِم الهكسوس** حتى هبط الليل وأنهِكت خيوله. أبعدهم ثلاثين ميلًا، ولم تخلُ ياردة من طريق الشمال من أسلحتهم المرمية وجثثهم المذبوحة.

***

قدتُ عربة الفرعون الذهبية إلى بوابة المدينة الرئيسة، فانتصب على صفيحة القدم وصاح للحرس على المتراس من فوقنا: «افتحوا البوابة! دعونا نمر!».

فأجابوه: «من ذا الذي يطلب دخول **طيبة**؟».

- أنا **تاموس**، حاكم المملكتين.

- حيوا الفرعون! فليعش أبدًا!

ثم انفتحت البوابات، ولمس الفرعون كتفي قائلًا: «قُد يا **تاتا**».

فاستدرتُ إليه وقلت: «سامحني يا صاحب الجلالة، فقد نذرتُ نذرًا أن لا أدخل المدينة إلا بجوار مولاتي، الملكة **لوستريس**، وعليَّ أن أسلمك السيور».

أمرني بلطف: «ترجّل واذهب! اجلب مولاتك ووَفِّ بنذرك».

ثم أخذ السيور من يدي ونزلتُ إلى الطريق الترابية. راقبته يقود العربة الذهبية عبر البوابة، وبينما يحيِّي أهل **طيبة** ملكهم علا صوت التهليل كهدير الماء في الجندل عند ارتفاع الفيضان.

بينما يتبع جيشنا المسُتنزف المُنهك الفرعون إلى المدينة وقفتُ إلى جانب الطريق، وأدركتُ الثمن الباهظ الذي دفعناه لانتصارنا، إذ لن نتمكن من مطاردة **الهكسوس** حتى نعيد بناء جيشنا، وبحلول ذلك الوقت، يكون الملك **ساليتيس** قد استعاد قوته، وشفيت خيوله من الخانق الأصفر. لقد ربحنا المعركة الأولى، لكنني عرفتُ أن أمامنا كثير غيرها قبل أن نتمكن من طرد الطاغية من مصر.

بحثت عن **كراتاس** عندما عبرتني أفواج **الشلك**، لكنني لم أرَه.

كان **هُوي** قد جهز لي عربة وخيولًا نشيطة، وعرض عليَّ: «سأركب معك يا **تايتا**»، لكنني هززتُ رأسي.

- أسافر أسرع وحدي. ادخل المدينة وتمتع بالنصر، فألف صبيَّة جميلة تنتظر لترحب بك في الديار.

وقبل أن أستهل طريق الجنوب، قُدتُ العربة أولًا إلى ساحة المعركة. كانت الثعالب والضباع قد حضرت الوليمة التي جهزناها لها، وامتزجت زمجرتها وعواؤها بأنَّات المحتضرين، وكان الموتى متكوّمين كالطفاوة على ضفة النهر بعد انحسار مياه الطوفان.

قدتُ العربة إلى حيث رأيت **كراتاس** آخر مرة، لكنها كانت أشنع زاوية من الميدان المُريع، والجثث فيها متكدسة بارتفاع عجلات عربتي. رأيتُ خوذته راقدة في التراب الذي أحاله الدم طينًا سميكًا، فترجلتُ وحملتها، وكانت مبعوجة ومعجونة بفعل الضربات الثقيلة وقنزعتها ضائعة.

رميتُ الخوذة جانبًا وبدأت أبحث عن جثة **كراتاس**. رأيتُ ساقه بارزة كغصن شجرة سنط عملاقة من تحت كومة جثث ضمَّت **شلكًا وهكسوسًا** يهجعون معًا في هدنة الموت، فجررتهم جانبًا ووجدتُ **كراتاس** مستلقيًا على ظهره. كان مضرجًا بدماء سوداء متخثرة، وشعره متلبّد ووجهه قناع أسود متقشر.

ركعتُ بجواره وهمستُ برفق: «أعليهم أن يموتوا جميعًا؟ أعلى كل الذين أحبهم حقًّا أن يموتوا؟»، وانحنيتُ فقبلتُ شفتيه الداميتين.

فاستقام في جلسته وحدَّق إليَّ، ثم ابتسم ابتسامته العريضة الصبيانية وحيَّاني: «بحق سدادة المخاط اليابس في منخر **سِت** الأيسر! لقد كان ذلك قتالًا حقيقيًّا».

حدقتُ إليه والغبطة تملؤني: «**كراتاس**! لتعيشنَّ إلى الأبد بحق».

- لا تشكَّنّ بذلك لحظةً يا غلام، لكنني الآن أحتاج إلى قدح.

ركضتُ إلى العربة وجلبتُ قارورة نبيذ، فحملها على طول ذراعه وترك النبيذ الأحمر يسيل إلى حلقه من دون أن يجرع، وعندما انتهت القارورة رماها جانبًا وتجشأ.

قال: «هذه بداية تفي بالغرض (وغمزني)، والآن دلّني على أقرب حانة أيها الفاسق العجوز».

***

حملتُ الأنباء إلى **إلفنتين** أسرع من أي سفينة يمكنها الإبحار على التيار، إذ كنتُ وحدي في العربة، وعدا الحصانان بخفَّة. بدلتُ زوج الخيول عند كل محطة إمداد على طول الطريق الجنوبي لأتابع العدو من دون توقف، وكان الساسة يناولونني قارورة نبيذ أو كسرة من خبز الذرة والجبن في حين يبدّلون الخيول، ولم أنم ولم أرتح.

في خلال الليل، كشفت النجوم والقمر الطريق أمامي، وأرشد **حورس** يدي المتعبتين على السيور، ذلك أنني ورغم أن أطرافي كلها تؤلمني، ورغم ترنحي على صفيحة القدم، لم أواجه أي حادثة.

ورحت أصيح بالأنباء المفرحة في كل محطة إمداد في كل قرية على طول الطريق: «انتصار! انتصار ماحق! لقد انتصر الفرعون في **طيبة**، وانهزم **الهكسوس**».

وراحوا يهللون لي: «الحمد لجميع الآلهة! مصر **وتاموس**!».

تابعتُ انطلاقي، وما زالت الروايات تُروى عن رحلتي على الطريق الجنوبي حتى يومنا هذا. يحكون عن الراكب المُضنى ذي العينين الداميتين، ثوبه مكسوّ بالتراب ومبقع بالدم الجاف، وشعره الطويل يرفرف في الريح، بَشير الانتصار، الذي جاء **إلفنتين** بأنباء المعركة التي وضعت مصر على طريق الحرية.

قُدتُ من **طيبة** إلى **إلفنتين** في يومين وليلتين، وعندما بلغتُ القصر، بالكاد كنت قويًا بما يكفي لأترنح داخلًا الحديقة المائية حيث ترقد مولاتي، وألقي نفسي أرضًا بجوار مضجعها.

ثم نعبتُ من خلال شفتين متشققتين وحلق جففه التراب: «مولاتي، لقد انتصر الفرعون نصرًا ماحقًا، وجئتُ آخذك إلى الديار».

***

هبطنا النهر إلى **طيبة**، وجاءت الأميرتان معنا لترافقا أمهما وتبهجانها، فجلستا معها على سطح السفينة وغنتا لها، وتبادلن السجع والأحاجي والضحك، لكن بينما تراقبان مولاتي حملت ضحكاتهما نبرة حزن ولمَعَت أعينهما لمعة القلق العميق.

فقد صارت مولاتي واهنة كطير جريح، لا وزن في عظامها، ولحمها شفيف كالصدف. كان بمقدوري حملها بسهولة مثلما كنت أحملها في سن

العاشرة، ولم يعد مسحوق الزهرة المنومة قادرًا على تسكين الألم الذي ينهش بطنها كسرطان رهيب ذي مخالب.

حملتها إلى جؤجؤ القادس عندما لاحت أسوار **طيبة** أخيرًا من وراء حنية النهر الأخيرة، ثم بينما نغتبط معًا بكل هذه المناظر التي لطالما ذكرناها، ونعيش من جديد ألف ذكرى بهيجة من شبابنا أسندتها بذراعٍ لففتها حول كتفها النحيلة.

لكن المجهود أتعبها. وعندما رسونا أسفل قصر **مِمنون**، كان نصف سكان **طيبة** ينتظرنا ليرحب بها، والفرعون **تاموس** واقف على رأس هذا الحشد الغفير.

وقتما أنزلها حملة المحفَّة إلى الشاطئ، هلل الحشد لها، ورغم أن معظمهم لم يلمحها من قبل، ظلت أسطورة الملكة العطوف حية في أثناء منفاها الطويل، فرفعت الأمهات أطفالهن لتباركهنِ، ومددن أيديهن ليلمسن يدها الممدودة من طرف المحفَّة.

وناشدنها: «صلِ **لحابي** من أجلنا، صلِ من أجلنا يا أم مصر».

مشى الفرعون **تاموس** بجوار محفتها كابن امرأة عامِّية، وتبعته **تحوت وبيكاثا** من كثب. كانت الأميرتان تبتسمان بإشراق رغم أن الدموع رصَّعت جفونهما.

كنتُ **وأتون** قد أعددنا مسكنًا للملكة، وعند الباب، أبعدتُ الجميع، حتى الملك، ثم سجيتها على أريكتها على الشرفة تحت الكرم المعترش. ومن هناك، يمكنها الرؤية من النهر وصولًا إلى الجدران المشرقة **لطيبة** الحبيبة.

حملتها إلى مخدعها عندما هبط الليل، وبينما ترقد على الملاءات الكتانية، رفعت نظرها إليَّ وغمغمت: «**تايتا**، ألا تُعمل متاهات **آمون رع** من أجلي مرة أخيرة؟».

قلت: «مولاتي، لا يمكنني أن أرفض لك طلبًا»، ثم حنيتُ رأسي وذهبتُ أجلب صندوقي الطبي.

ثم جلستُ متربعًا على البلاطات الحجرية بجوار سريرها، وراقبتني أعدّ الأعشاب، فهرستها في الهاون والمدقَّة المرمريّين، وسخنت الماء في الإبريق النحاسي.

رفعت الكأس المُدخِّنة بعد ذلك وحييتُها بها.

فهمسَتْ: «شكرًا لك»، وشربتُ الكأس، ثم أغمضتُ عينيَّ وانتظرتُ الانزلاق المألوف والمخيف عن حافة الواقع إلى عالم الأحلام والرؤى.

عندما عدتُ، كانت السُّرج تذوب وتدخّن في حاملاتها، والقصر صامت. لم أسمع صوتًا من النهر أو من المدينة النائمة على الضفة البعيدة، لا شيء إلا زغردة العندليب في الحدائق، وأنفاس مولاتي الخفيضة بينما ترقد على مخدتها الحريرية.

ظننتها نائمة، لكن حالما رفعت يدي المرتعشة لأمسح العرق البارد المُغثي عن وجهي، فتحت عينيها: «يا **تايتا** البائس، أكان بهذا السوء؟».

كان أسوأ من أي وقت مضى، فقد آلمني رأسي وزاغ بصري، وعرفتُ أنني لن أُعمِل المتاهات مرة أخرى. كانت تلك المرة الأخيرة، وقد فعلتها من أجلها فقط.

- رأيتُ النسر والصل يقفان على جانبي النهر تفصل المياه بينهما. رأيت المياه ترتفع وتنحسر لمئة موسم. رأيتُ مئة حزمة من الذرة، ومئة طير تطير فوق النهر. وتحتها، رأيت غبار المعركة ووميض السيوف، ودخان المدن المحترقة يمتزج بالغبار،

وأخيرًا رأيت الصل والنسر يلتقيان. رأيتهما يتزاوجان ويتشابكان على ملاءة من حرير أزرق صرف، ثم رأيت رايات زرقاء على أسوار المدينة ورايات زرقاء ترفرف على أعمدة المعبد.

رأيت رايات زرقاء على عربات تتدحرج في جميع أرجاء العالم، وأضرحة طويلة وعظيمة حتى إنها ستنتصب لعشرة آلاف عام. ورأيتُ شعوبًا من خمسين أمة مختلفة تنحني أمامها.

ثم تنهدتُ وضغطتُ بأصابعي على صدغيّ لأهدئ الخفق في جمجمتي، وقلت: «وكانت هذه رؤياي كلها».

لم يتكلّم أيّنا أو يتحرك لوقت طويل بعد ذلك، ثم قالت مولاتي بهدوء: «سيمر مئة موسم قبل أن تتوحد المملكتان، ومئة عام من الحرب والكفاح قبل أن يُطرد **الهكسوس** أخيرًا عن تراب مصرنا المقدس. سيكون تحمل ذلك شاقًا ومريرًا على شعبي».

فسرت لها بقية رؤياي: «لكنهما ستتحدان تحت الراية الزرقاء، وسيغزو ملوك من نسلك العالم، وستقدم أمم العالم الولاء لهم».

قالت: «وبهذا أرضى»، ثم تنهدت وغطت في النوم.

لم أنم، ذلك أنني أعرف أنها لا تزال في حاجة إليَّ بجوارها.

استيقظتْ مرة ثانية في تلك الساعة السابقة للفجر، حيث تكون الظلمة في أشدها، وصاحت: «يا لألمي! يا لألمي يا **إيزيس** العذبة!».

مزجتُ الزهرة المنوِّمة لها، وبعد قليل قالت: «لقد مرّ الألم، لكنني أشعر بالبرد، ضمّني يا **تايتا**، ودفئني بجسدك».

أخذتها بين ذراعي وضممتها حتى نامت.

أفاقت مرة أخرى بينما تزحف أشعة الفجر الخجلى الأولى من باب الشرفة.

وتمتمتْ: «لم أحبَّ إلا رجلين في حياتي، وقد كنتَ أحدهما. لعل الآلهة تعامل حبنا معاملة ألطف في الحياة الأخرى».

لم أستطع منحها إجابة. ثم أغمضَتْ عينيها إغماضتهما الأخيرة. انسلَّت بهدوءٍ تاركةً إياي، ولم يكُن صوت نفَسها الأخير أعلى من سابقه، لكنني شعرتُ بالرعشة في شفتيها عندما قبلتهما.

وهمستُ: «مع السلامة يا مولاتي، الوداع يا قلبي».

***

كتبتُ هذه اللفائف في أيام التحنيط الملكي السبعين ولياليه، وهي تكريمي الأخير لمولاتي.

وقبل أن يأخذها الحانوتيون مني، شققت شقًّا في خاصرتها اليسرى، كما فعلتُ مع **تانوس**. ثم فتحتُ رحمها وأخرجتُ الحَضون الرهيب الذي قتلها. كان مخلوقًا من لحم ودم، لكنه ليس بشريًّا، وعندما رميتُه في النار، لعنتُه، ولعنتُ الإله **سِت** النجِس الذي وضعه فيها.

ثم جهزتُ عشرة جرار من مرمر لتحوي هذه اللفائف، وسأتركها معها. وأنا الآن أرسم كل جداريات مقبرتها بيدي، وهي أحسن ما أبدعتُه على الإطلاق، فكل ضربة من فرشاتي تعبير عن حبي.

أتمنى لو بمقدوري الرقاد معها في هذه المقبرة، فقد أمرضني الحزن وأضناني، لكن لا يزال عندي أميرتيَّ وملكي لأعتني بهم.

إنهم يحتاجون إليَّ.

ملحوظة الكاتب

في الخامس من يناير 1988م، فتح الدكتور **دريد بن الصمَّة** من وزارة الآثار المصرية قبرًا على الضفة الغربية للنيل في وادي النبلاء ودخله، وكان السبب في أن هذا القبر لم يُكتشف من قبل هو أن مسجدًا إسلاميًا بُني في القرن التاسع الميلادي فوق الموقع، ولم يُسمح بالتنقيب إلا بعد مفاوضات مسهبة وحساسة مع السلطات الدينية.

فور دخول الدكتور **الصمَّة** الممر الذي يؤدي إلى الحجرة الدفنية، استقبله عرض رائع من الجداريات التي تغطي كل الجدران والأسقف، وكانت أكثر ما رآه دقة وحيوية في حياته التي قضاها في دراسة الآثار.

أخبرني أنه عرف من فوره أنه اكتشف اكتشافًا مهمًا، فمن بين النقوش الهيروغليفية على الجدران، برز خرطوش ملكي لملكة مصرية لم تُسجل من قبل.

ازدادت حماسته وترقُّبه عندما اقترب من الحجرة الدفنية، ثم تحطمت وقتما رأى أن الأختام على البوابة مدمرة، وأن المدخل قد فُتح عنوة، إذ سُرق القبر في العصور القديمة، وجُرد من ناووسه وكل كنوزه.

وعلى الرغم من ذلك، تمكن الدكتور **الصمَّة** من تأريخ القبر بدقة معقولة إلى ليلة القتال والكارثة السوداء التي اجتاحت مصر نحو عام 1780 ق.م. عاشت المملكتان في القرن التالي حالة تحوُّل، وليس لدينا إلا معلومات قليلة عن الأحداث في هذه الفترة، لكن بزغت من قلب الفوضى في آخر المطاف سلالة من الأمراء والفراعنة طردت الغزاة **الهكسوس** أخيرًا، ورفعت مصر إلى فترة مجدها الأعظم. ويسرني أيُّما سرور الاعتقاد بأن دماء **لوستريس وتانوس ومِمنون** قد جرت بقوَّة في عروقهم.

كان قد مر عام تقريبًا على فتح القبر، وبينما ينسخ معاونو الدكتور **الصمَّة** زخارف الجدران ويصورونها، وقع جزء من الجص ليكشف كوة مخفية انتصبت فيها عشرة جرار مرمريَّة مختومة.

عندما طلب مني الدكتور **الصمَّة** مساعدته في نسخ اللفائف التي تضمها الجرار، شرّفني ذلك وملأني رهبةً في آن معًا، ذلك أنني، بالطبع، لم أكن مؤهلًا للعمل على اللفائف الأصلية المكتوبة بالنص **الهيراطيقيّ**، فأُنجز هذا العمل على أيدي طاقم من علماء المصريات الدوليين في متحف القاهرة.

ثم طلب مني الدكتور **الصمَّة** إعادة كتابة هذا النص الأصلي بطريقة تجعله أقرب إلى القارئ المعاصر، ولتحقيق هذه الغاية، أدرجت بعض المفارقات التاريخية في النص، فاستخدمت في بعض الأماكن على سبيل المثال مقاييس حديثة نسبيًا للمسافة والوزن كالأميال والأونصات، ودلّلت نفسي باستخدام كلمات مثل «جن» و«حورية» و«مشاغب»، والتي لم يستخدمها **تايتا** قط، لكنني أشعر شعورًا قويًا أنه كان ليستخدمها لو كانت جزءًا من مجموعة مفرداته.

بعد وقت قصير جدًّا من بدء العمل على النص، بدأت كل تحفظاتي بالتبخر إذ انغمستُ تمامًا في زمن وشخصية الكاتب القديم، وبرغم كل حذلقته واعتداده بنفسه، نمَّيت تجاه العبد **تايتا** انجذابًا وعاطفةً يعبران الزمن ويقطعان الألفيات.

تركت عندي هذه المغامرة إدراك ضآلة تغيُّر مشاعر الإنسان وطموحاته في كل هذا الزمان، وحماسة عالقة إزاء فكرة أنه، وحتى يومنا هذا، ما زالت مومياء **تانوس** ترقد في مكان ما من الجبال الحبشية قرب منبع النيل الأزرق في قبر الفرعون **ماموس** غير المنتهك.

ويلبر سميث.

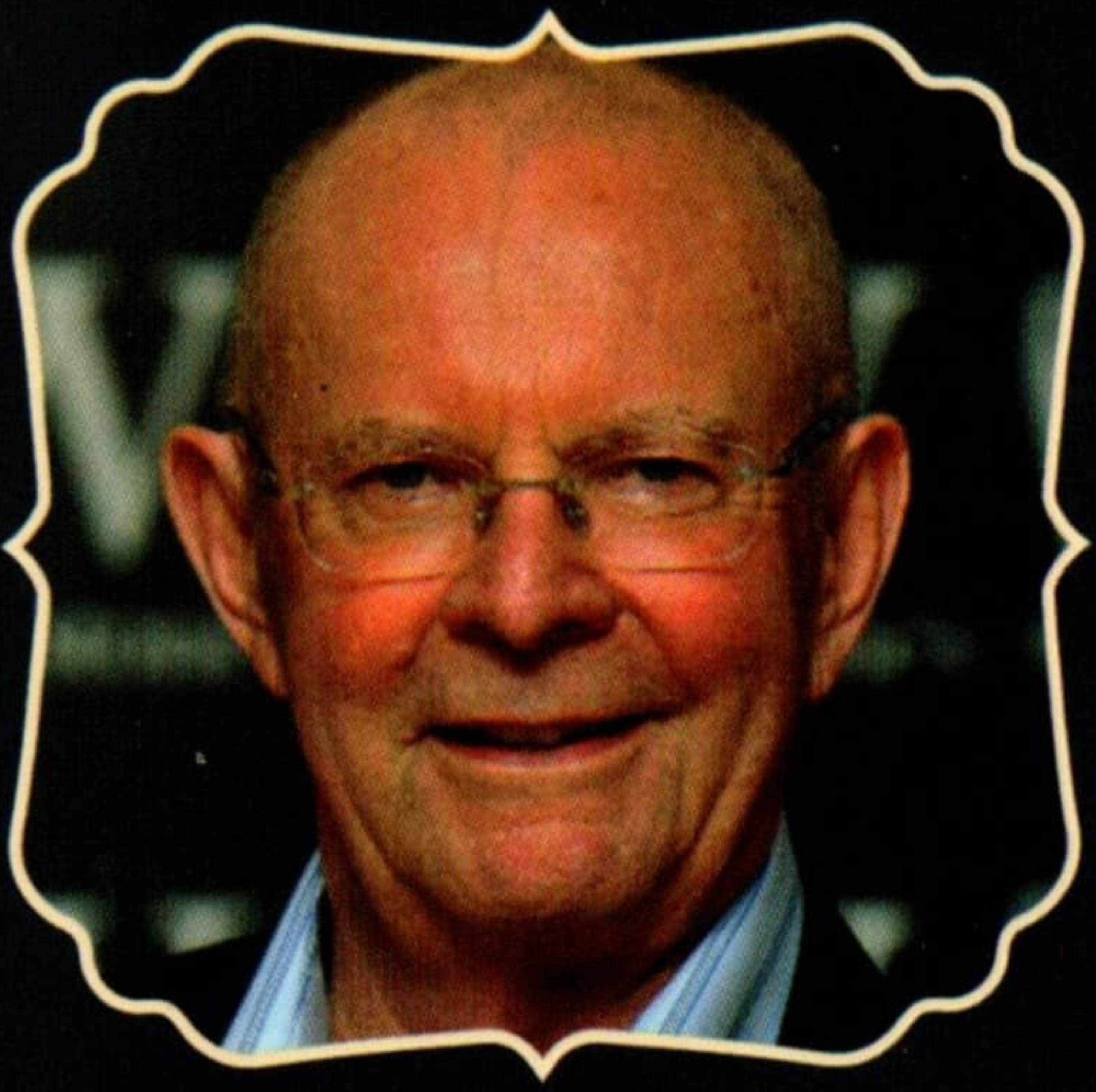

ويلبر سميث

وُلد ويلبر أديسون سميث في 9 يناير 1933 في زامبيا، وتُوفي في 13 نوفمبر 2021، وهو روائي بريطاني من أصل جنوب إفريقي تخصص في كتابة روايات الخيال التاريخي حول التدخل العالمي بإفريقيا الجنوبية على امتداد أربعة قرون.

إله النهر

مصر القديمة، أرض الفراعنة، مملكة قامت على الذهب، وأسطورة حطَّمها الطمع...

بعد أن ورث ضعفاء الرجال التاج المُفدَّى، اندلعت نيران الحرب الأهلية في وادي الملوك فأهلكته، وامتصَّت الحياة من أطرافه.

وقضَت الآلهة أن يقود المحارب الشاب تانوس جيش مصر في محاولة جسورة لإعادة توحيد المملكة. لكن تانوس يجد نفسه مضطرًّا إلى تحدي الآلهة لإحراز مجد أعظم: لوستريس الجميلة ابنة السيد إنتف، التي لم يعرف البتَّة أن الفرعون قد وُعد بالزواج بها بالفعل. وصار متروكًا لأكثر خدم الفرعون إخلاصًا، الحكيم الموهوب تايتا، أن يحل المشكلة.

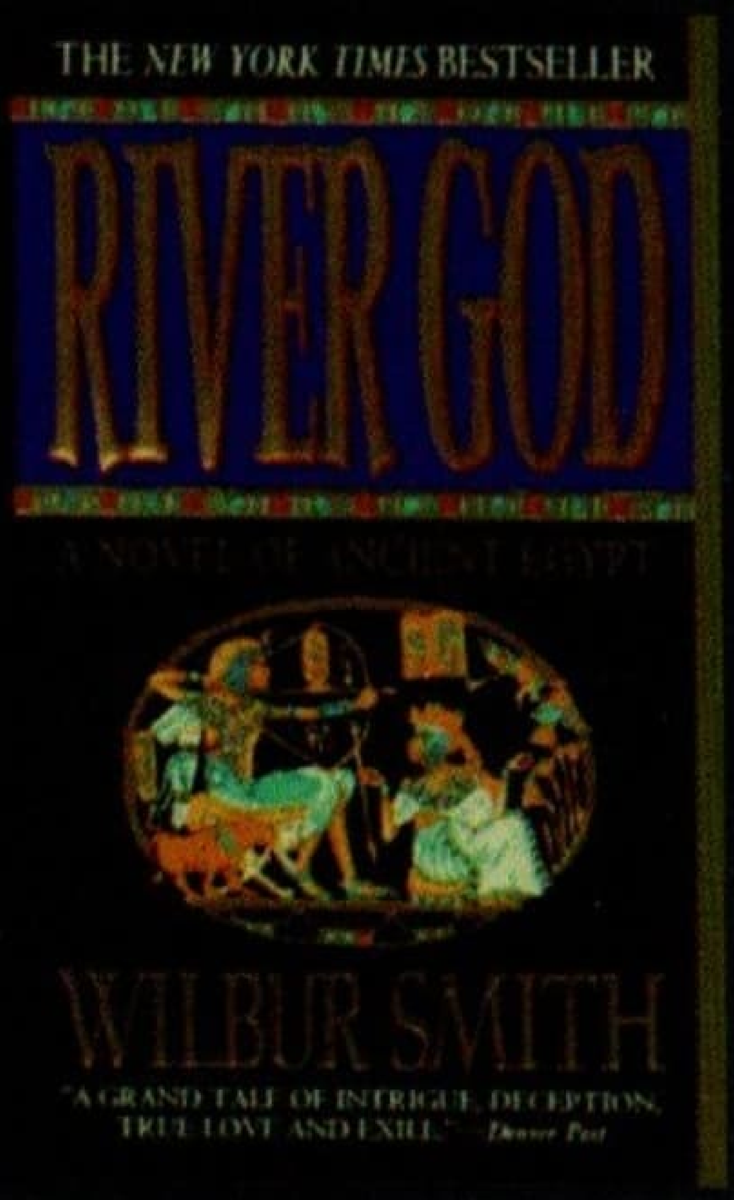

«حكاية عظيمة عن المكر والخداع، والحب الحقيقي والمنفى».

-The Denver Post

تصميم الغلاف كريم آدم karimadam.com

9 789779 923482

عصير الكتب
aseeralkotb.com
contact@aseeralkotb.com
AseerAlkotb
AseerAlkotb
AseerAlkotb

t.me/twinkling4